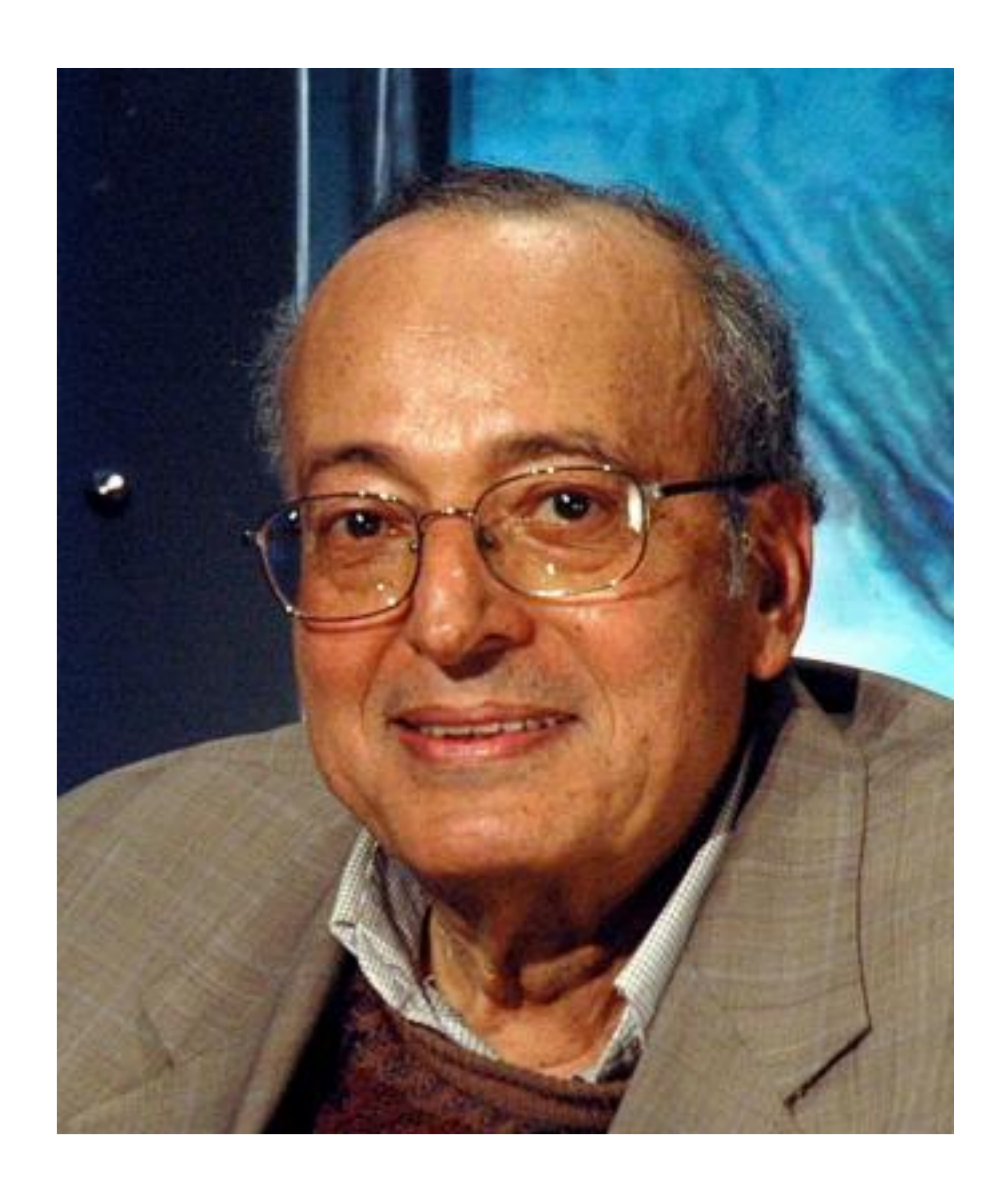
أوراق المـــلاّح القــديم

(مقالات للدكتور/ عبدالوهاب المسيري)



جمعها وأعدها : عبدالحفيظ العمري

مقدمة

هذه مجموعة من المقالات للدكتور عبدالوهاب المسيري ، جمعتها من النت ، ولم أكن أدري أن شبكة الجزيرة قد جمعت مقالاته التي نشرها لديهم منذ ١٣ أكتوبر ٢٠٠٤م وحتى يوم وفاته ٣ يوليو ٢٠٠٨م ، وما بعد ذلك مما كان لديهم ، كل هذا ثم أصدرته في كتاب اسمه (نحو حداثة إنسانية جديدة) وذلك عام ٢٠٠٩م.

لكن على العموم هنا توجد مقالات نشرت في الأهرام المصرية والاتحاد اللإماراتية ضمن تواريخ مختلفة تم نشرها في موقع المسيري الإلكتروني.

الكتاب يقع في ثلاثة أجزاء ؛ الجزء الأول سيرة مفصلة للدكتور المسيري نقلتها من موسوعة ويكيبيديا مع المطابقة مع المذكور في موقعه.

أما الجزء الأكبر فيشمل ٦٠ مقال للدكتور المسيري مجمعة من موقعه والصحف التي ذكرتها سابقا وكذلك موقع الجزيرة نت.

والجزء الأخير يشمل نص المقابلة مع الدكتور المسيري مع قناة الجزيرة ضمن برنامج زيارة خاصة.

أرجو أني قد قدمت شيئا للقارىء المحب لفكر المسيري رحمه الله. .

عبدالحفيظ العمري

مدينة إب- اليمن

بتاريخ ١٥ يناير ٢٠١٣م

***

من هو عبدالوهاب المسيري؟

عبد الوهاب محمد المسيري (أكتوبر ١٩٣٨ ـ ٣ يوليو ٢٠٠٨)، مفكر وعالم اجتماع مصري إسلامي يساري التوجه، وهو مؤلف موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية أحد أكبر الأعمال الموسوعية العربية في القرن العشرين. الذي استطاع من خلالها برأي البعض إعطاء نظرة جديدة موسوعية موضوعية علمية للظاهرة اليهودية بشكل خاص، وتجربة الحداثة الغربية بشكل عام، مستخدماً ما طوره أثناء حياته الأكاديمية من تطوير مفهوم النماذج التفسيرية، أما برأي البعض الآخر فقد كانت رؤيته في موسوعته متحيزة لليهود، ومتعاطفة إلى حد كبير مع مواقفهم تجاه غير اليهود، بل وصفها البعض بأنها تدافع عن اليهود.

ولد عبد الوهاب المسيري في مدينة دمنهور في مصر في تشرين أول عام ١٩٣٨. تلقى تعليمه الأولي (الابتدائي والثانوي) في مقر نشأته. في عام ١٩٥٥ التحق بقسم اللغة الإنجليزية كلية الآداب جامعة الإسكندرية وتخرج عام ١٩٥٩ وعين معيداً فيها عند تخرجه. سافر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٦٣ حيث حصل على الماجستير في الأدب الإنجليزي المقارن من جامعة كولومبيا بمدينة نيويورك عام ١٩٦٤، وعلى الدكتوراه من جامعة رتجرز بنيوجيرزي عام ١٩٦٩.

عند عودته إلى مصر قام بالتدريس في جامعة عين شمس وفي عدة جامعات عربية من أهمها جامعة الملك سعود (١٩٨٣ ـ ١٩٨٨)، كما عمل أستاذا زائرا في أكاديمية ناصر العسكرية، والجامعة الإسلامية العالمية (ماليزيا)، وعضو مجلس الخبراء في مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام (١٩٧٠ ـ ١٩٧٥)، ومستشارا ثقافيا للوفد الدائم لجامعة الدول العربية لدى هيئة الأمم المتحدة في نيويورك (١٩٧٥ ـ ١٩٧٩). وهو عضو مجلس الامناء في جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية ببليسبرغ، بولاية فرجينيا في الولايات المتحدة الاميركية.

صدرت له عشرات الدراسات والمقالات عن إسرائيل والحركة الصهيونية ويعتبر واحدًا من أبرز المؤرخين العالميين المتخصصين في الحركة الصهيونية.

الموقع الشخصي: http://www.elmessiri.com/

السيرة الذاتية

- **ليسانس آداب- أدب إنجليزي- جامعة الإسكندرية (١٩٥٩م).**
- **ماچستير في الأدب الإنجليزي والمقارن - جامعة كولومبيا - الولايات المتحدة الأمريكية (١٩٦٤).**
- **دكتوراه في الأدب الإنجليزي والأمريكي والمقارن - جامعة رتجرز بنيوجيرزي- الولايات المتحدة الأمريكية (١٩٦٩).**
- **رئيس وحدة الفكر الصهيوني وعضو مجلس الخبراء بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام (١٩٧٠ - ١٩٧٥).**
- **المستشار الثقافي للوفد الدائم لجامعة الدول العربية لدى هيئة الأمم المتحدة بنيويورك (١٩٧٥ - ١٩٧٩).**
- **أستاذ الأدب الإنجليزي والمقارن - جامعة عين شمس (١٩٧٩ - ١٩٨٣)، وجامعة الملك سعود (١٩٨٣ - ١٩٨٨)، وجامعة الكويت (١٩٨٨ - ١٩٨٩). وكان يعمل أستاذاً غير متفرغ بجامعة عين شمس (١٩٨٨ - ٢٠٠٨). كما عمل أستاذاً زائراً بالجامعة الإسلامية العالمية (ماليزيا) في كوالا لامبور وبأكاديمية ناصر العسكرية.**
- **المستشار الأكاديمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن (١٩٩٢ - ٢٠٠٨).**
- **عضو مجلس الأمناء لجامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية في ليسبرج في فيرچينيا بالولايات المتحدة الأمريكية (١٩٩٣ - ٢٠٠٨).**
- **عضو مجلس الأمناء لجامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية -واشنطن- الولايات المتحدة الأمريكية (١٩٩٧-٢٠٠٨).**
- **مستشار تحرير عددٍ من الحَوْليات التي تصدر في مصر وماليزيا وإيران وأمريكا وإنجلترا وفرنسا.**

الأعمال المنشورة بالعربية

- **نهاية التاريخ: مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني (مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، القاهرة ١٩٧٢؛ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٩). في عام ١٩٧٢ جاء هذا الكتاب قبل ٢٨ عاما من تأليف المفكر الأميركي فرانسيس فوكوياما لكتاب يحمل نفس العنوان. لكن الفرق بين النظرتين أن رؤية فوكوياما تعتبر أن نهاية التاريخ تعني انتصار الولايات المتحدة على الاتحاد السوفياتي، بينما يرى المسيري أن نهاية التاريخ فاشية اخترعتها الدول الغربية للسيطرة على العالم.**

- **موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية: رؤية نقدية (مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، القاهرة ١٩٧٥).**
- **العنصرية الصهيونية (سلسلة الموسوعة الصغيرة، بغداد ١٩٧٥).**
- **اليهودية والصهيونية وإسرائيل : دراسة في انتشار وانحسار الرؤية الصهيونية للواقع (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٥).**
- **مختارات من الشعر الرومانتيكي الإنجليزي: النصوص الأساسية وبعض الدراسات التاريخية والنقدية (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٩).**
- **الفردوس الأرضي: دراسات وانطباعات عن الحضارة الأمريكية (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٩).**
- **الأيديولوجية الصهيونية: دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة (جزءان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، الكويت ١٩٨١ ـ طبعة ثانية في جزء واحد ١٩٨٨).**
- **الغرب والعالم: تأليف كيفين رايلي (ترجمة بالاشتراك) (جزءان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٥).**
- **الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية: دراسة في الإدراك والكرامة (منظمة التحرير الفلسطينية، تونس ١٩٨٧؛ المطبعة الفنية، القاهرة ١٩٨٨؛ الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠).**
- **افتتاحيات الهادئ: تأليف ستيفن سوندايم وجون ويدمان (ترجمة بالاشتراك) (وزارة الإعلام، سلسلة المسرح العالمي، الكويت ١٩٨٨).**
- **الاستعمار الصهيوني وتطبيع الشخصية اليهودية: دراسات في بعض المفاهيم الصهيونية والممارسات الإسرائيلية (مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٩٠).**
- **هجرة اليهود السوفييت: منهج في الرصد وتحليل المعلومات (دار الهلال، كتاب الهلال، القاهرة ١٩٩٠).**
- **الأميرة والشاعر: قصة للأطفال (الفتى العربي، القاهرة ١٩٩٣).**
- **الجمعيات السرية في العالم: (دار الهلال، كتاب الهلال، القاهرة ١٩٩٣).**
- **إشكالية التحيز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد (تأليف وتحرير) (جزءان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة ١٩٩٣؛ جزءان، واشنطن ١٩٩٦؛ سبعة أجزاء؛ القاهرة ١٩٩٨).**
- **أسرار العقل الصهيوني: (دار الحسام، القاهرة ١٩٩٦).**

- الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ: رؤية حضارية جديدة (دار الشروق، القاهرة ١٩٩٧ - ١٩٩٨ - ٢٠٠١).
- من هو اليهودي؟ (دار الشروق، القاهرة ١٩٩٧ - ٢٠٠١).
- موسوعة تاريخ الصهيونية (ثلاثة أجزاء، دار الحسام، القاهرة ١٩٩٧).
- اليهود في عقل هؤلاء (دار المعارف، سلسلة اقرأ، القاهرة ١٩٩٨).
- اليد الخفية: دراسة في الحركات اليهودية الهدامة والسرية (دار الشروق، القاهرة ١٩٩٨؛ الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠؛ دار الشروق ٢٠٠١).
- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية : نموذج تفسيري جديد (ثمانية مجلدات، دار الشروق، القاهرة ١٩٩٩).
- فكر حركة الاستنارة وتناقضاته (دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٩٩).
- قضية المرأة بين التحرر والتمركز حول الأنثى (دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٩٩).
- نور والذئب الشهير بالمكار، (قصة للأطفال) (دار الشروق، القاهرة ١٩٩٩).
- سندريلا وزينب هانم خاتون، (قصة للأطفال) (دار الشروق، القاهرة ١٩٩٩).
- رحلة إلى جزيرة الدويشة، (قصة للأطفال) (دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٠).
- معركة كبيرة صغيرة، (قصة للأطفال) (دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٠).
- سر اختفاء الذئب الشهير بالمحتار، (قصة للأطفال) (دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٠).
- العلمانية تحت المجهر، بالاشتراك مع الدكتور عزيز العظمة (دار الفكر، دمشق ٢٠٠٠).
- رحلتي الفكرية - في البذور والجذور والثمار: سيرة غير ذاتية غير موضوعية (الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠١).
- الأكاذيب الصهيونية من بداية الاستيطان حتى انتفاضة الأقصى، (دار المعارف، سلسلة اقرأ، القاهرة ٢٠٠١).
- الصهيونية والعنف من بداية الاستيطان إلى انتفاضة الأقصى، (دار الشروق، القاهرة ٢٠٠١).
- فلسطينيةً كانت ولم تَزَلِ: الموضوعات الكامنة المتواترة في شعر المقاومة الفلسطيني (نشر خاص، القاهرة ٢٠٠١).
- قصة خيالية جداً، (قصة للأطفال) (دار الشروق، القاهرة ٢٠٠١).
- العالم من منظور غربي، (دار الهلال، كتاب الهلال، القاهرة ٢٠٠١).
- الجماعات الوظيفية اليهودية: نموذج تفسيري جديد، (دار الشروق، القاهرة ٢٠٠١).

- ما هي النهاية؟ (قصة للأطفال) - بالاشتراك مع الدكتورة جيهان فاروق (دار الشروق، القاهرة ٢٠٠١).
- قصص سريعة جداً (قصة للأطفال) (دار الشروق، القاهرة ٢٠٠١).
- من الانتفاضة إلى حرب التحرير الفلسطينية: أثر الانتفاضة على الكيان الإسرائيلي (عدة طبعات: القاهرة - دمشق - برلين - نيويورك - نشر إلكتروني، ٢٠٠٢م).
- أغنيات إلى الأشياء الجميلة (ديوان شعر للأطفال) (دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٢).
- انهيار إسرائيل من الداخل، (دار المعارف، القاهرة ٢٠٠٢).
- الإنسان والحضارة والنماذج المركبة: دراسات نظرية وتطبيقية (دار الهلال، كتاب الهلال، القاهرة ٢٠٠٢).
- مقدمة لدراسة الصراع العربي - الإسرائيلي: جذوره ومساره ومستقبله (دار الفكر، دمشق ٢٠٠٢).
- الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، (دار الفكر، دمشق ٢٠٠٢).
- اللغة والمجاز: بين التوحيد ووحدة الوجود، (دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٢).
- العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، (جزءان، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٢).
- أغاني الخبرة والحيرة والبراءة: سيرة شعرية، شبه ذاتية شبه موضوعية (دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٣).
- الحداثة وما بعد الحداثة، بالاشتراك مع الدكتور فتحي التريكي، (دار الفكر، دمشق ٢٠٠٣).
- البروتوكولات واليهودية والصهيونية، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٣.
- الموسوعة الموجزة، (مجلدان، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٣).

الأعمال المنشورة باللغة الإنجليزية

- **A Lover from Palestine and Other Poems (Palestine Information Office, Washington D.C., 1972**
- **Israel and South Africa: The Progression of a Relationship (North American, New Brunswick, N.J., 1976؛**

- Second Edition 1977; Third Edition, 1980; Arabic Translation, .(1980
- The Land of Promise: A Critique of Political Zionism (North .)American, New Brunswick, N.J., 1977
- Three Studies in English Literature: (North American, New .)Brunswick, N.J., 1979
- The Palestinian Wedding: A Bilingual Anthology of Contemporary Palestinian Resistance Poetry (Three Continents Press, Washington .(D.C., 1983
- A Land of Stone and Thyme: Palestinian Short Stories (Co-editor) (Quartet, London, 1996)

الأعمال المترجمة

- صهيونيسم: ترجمة لواء رودباري، ترجمة إلى الفارسية لكتاب موسوعة تاريخ الصهيونية (طهران، مؤسسة جاب وانتشارات، جمهورية إيران الإسلامية، ١٩٩٤).
- Israel-Africa Do Sul: A Marcha Deum Relacionamento ترجمة إلى اللغة البرتغالية لكتاب إسرائيل وجنوب أفريقيا: تطور العلاقة بينهما (ريو دي جانيرو، البرازيل، ١٩٧٨).
- Daha kapsamli ve aciklazici bir sekularizm paradigmasina dogru: Modernite, ickinlik ve cozulme iliskisi uzerine bir calisma ترجمة إلى اللغة التركية لدراسة طويلة باللغة الإنجليزية بعنوان «نحو نموذج أكثر شمولية وتركيباً للعلمانية»، نُشرت موجزة في كتاب عن العلمانية في الشرق الأوسط Secularism in the Middle East, ed. John Esposito and Azzam al-Tamimi, (Hurst, London, 2000. (استانبول، تركيا، ١٩٩٧).

وقد تُرجمت العديد من المقالات التي كتبها الدكتور المسيري إلى لغات أخرى مثل الفرنسية والبهاسا. كما قام مؤخرا مركز الدراسات و البحوث الإنسانية و الإجتماعية بوجدة] (المغرب) بترجمة سيرته الفكرية "رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمار " إلى اللغة الفرنسية.

(نقلا عن موسوعة ويكيبيديا)

***

١ـ أسئلة الهوية

موقع الجزيرة نت 01-08-2007

كي نفهم قضية الهوية حق الفهم لابد أن ندرك أننا لا نتلقى الواقع في موضوعية متلقية سلبية تكتفي بالرصد والتسجيل، فالعقل الإنساني، كما أشرت،عقل توليدي يبقى ويضخم ويهمش ويضيف ويحذف، وتتم عملية الإبقاء والاستبعاد والتضخيم والتهميش والإضافة والحذف حسب نموذج إدراكي يشكل هوية الإنسان هو في صميمه رؤية للكون. فهوية شعب ما تتشكل عبر مئات السنين من خلال تفاعله مع الطبيعة وبيئته الجغرافية ومع بني جلدته ومع الشعوب الأخرى. ولأن أعضاء هذا الشعب لا يعكسون الواقع كما هو، وإنما يتفاعلون معه (فعقولهم التوليدية تبقى وتستبعد وتضخم وتهمش)، فإن هويتهم تتشكل من خلال إدراكهم لما حولهم، ومن خلال تطلعاتهم ورؤاهم وذكرياتهم، فهي ليست مجرد انعكاس بسيط لبيئتهم. ومن هنا تكتسب الهوية فرادتها وتركيبيتها التي لا يمكن ردها إلى قانون أو نمط مادي.

ولكن عادة ما ينطلق الكثيرون من الرؤية المادية التي يسمونها "علمية"، فيدرسون الهوية في إطار النموذج المادي كما يفعل كثير من الدارسين في الغرب. واستخدام النموذج المادي يعنى استخدام الحواس الخمس، كما يعني دراسة الظواهر الإنسانية كما تدرس الظواهر الطبيعية. ومثل هذا المنهج يودي بالهوية تماماً، لأنه لا يتعامل مع الواقع إلا من خلال معايير مادية، وهي معايير عاجزة بطبيعتها عن رصد الهوية في كل تركيبيتها وفرادتها. وقد أدى هذا المنهج إلى تعريف الإنسان باعتباره "الإنسان الطبيعي"، بمعنى أنه إنسان يتسم بسمات عامة "أضيفت" إليها الحضارة، أي أنها ليست أصيلة فيه. وبذلك تتحول الهوية إلى مسألة مضافة آليا، مجرد زخرفة، وهكذا يصبح المشروع الإنساني هو العودة إلى الإنسان الطبيعي متجاوزين الزخارف الإضافية. وهذه الفكرة عبرت عن نفسها في فكر حركة الاستنارة الغربية (التي نصفها بأنها عقلانية مادية) كما تعبر عن نفسها فكر العولمة، فالعولمة هى في جوهرها العودة إلى هذا الإنسان الطبيعي، الذي لا يعرف الحدود أو الهوية أو الخصوصية وليس عنده أي إدراك أو اكتراث بالقيم الأخلاقية والمعنوية مثل الكرامة والارتباط بالأرض والوطن والتضحية. ولذا نجد أن خطاب العولمة يتحدث عن حرية انتقال السلع ورأس المال، والشركات عابرة القارات وحدود الدول، ولا يذكر شيئاً عن الثقافات أو الهويات المختلفة. وحيث أن الإنسان الطبيعي هو ذاته الإنسان الاقتصادي، لذا فكل مطالبه وتطلعاته تظل داخل السقف المادي، وتظل الخلافات التي تنشأ بين الدول هي خلافات اقتصادية عامة، يمكن التفاهم بشأنها وحلها داخل

الإطار الاقتصادي المادي. ونتيجة لهذا الفهم المادي المعاصر نجد أن الإدراك الغربي (والإدراك الذي ساد في العالم العربي) للهوية يتأرجح بين نقطتين ماديتين متناقضتين، الأولى نقطة صلبة تقوم على ثنائية قطبية حادة (أنا في مقابل والآخر) كما فعل النازيون والصهاينة في الغرب وبعض السلفيين والقوميين المتعصبين وبعض دعاة القومية العربية، بعض الوقت. أما الثانية فهي نقطة سائلة تذوب فيها الحدود والهويات، كما هو الحال الآن في إطار النظام العالمي الجديد.

وأقترح أن ننظر إلى الهوية باعتبارها صورة مجازية لا جوهرا صلباً ثابتاً، وأطرح فكرة الإنسانية المشتركة بدلا من فكرة الإنسانية الواحدة التي يطرحونها في الغرب. فالإنسانية المشتركة تذهب إلى أن كل البشر داخلهم إمكانيات لا تتحقق إلا داخل الزمان والمكان، وهى في تحققها تكتسب قسمات وهوية محددة! فالإمكانية الإنسانية الكامنة حينما تتحقق في الزمان والمكان الصيني، فإنها تثمر الإنسان الصيني والإنسانية الصينية، وإن تحققت في الزمان والمكان الغربيَين، أثمرت الإنسان الغربي والإنسانية الغربية. وتحقق الإمكانية ليس أمراً حتمياً، فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمكن أن يرقى فوق إنسانيته ويمكن أن يهبط دونها.

وثمة علاقة بين الهوية والإبداع، فالإنسان الذي لا هوية له لا يمكنه أن يبدع، لأن الإنسان لا يبدع إلا إذا نظر للعالم بمنظاره هو وليس بمنظار الآخرين، لأنه لو نظر بمنظار الآخرين، أي لو فقد هويته، وأصبح عقله في أذنيه، فإنه سيكرر ما يقولونه ويصبح تابعا لهم، كل همه أن يقلدهم أو أن يلحق بهم، ويبدع داخل إطارهم، بحيث يتحقق إبداعه من داخل تشكيلهم الحضاري، كما يحدث لكثير من العلماء العرب الذين يهاجرون إلى الغرب. وهذا ما أدركه لورد ماكولي، السياسي والكاتب الإنجليزي. ففي خطاب له للبرلمان الإنجليزي في ٢ فبراير ١٨٣٥ قال: "لقد سافرت في الهند طولا وعرضا، ولم أر شخصا واحدا يتسول أو يسرق. لقد وجدت هذا البلد ثريا لدرجة كبيرة، ويتمتع أهلها بقيم أخلاقية عالية، ودرجة عالية من الرقي، حتى أنني أرى أننا لن نهزم هذه الأمة، إلا بكسر عمودها الفقري، وهو تراثها الروحي والثقافي. ولذا أقترح أن يأتي نظام تعليمي جديد ليحل محل النظام القديم، لأنه لو بدأ الهنود يعتقدون أن كل ما هو أجنبي وإنجليزي جيد وأحسن مما هو محلي، فإنهم سيفقدون احترامهم لأنفسهم وثقافتهم المحلية، وسيصبحون ما نريدهم أن يكونوا، أمة تم الهيمنة عليها تماما".

هذه هي الخطة الشيطانية التي لا يزال الاستعمار الغربي يستخدمها ضدنا، ولذا علينا أن نحتفظ بهويتنا وندافع عنها ونفعلها ونعبر عنها من خلال أعمال إبداعية تخرج من بيئتنا وتعود إليها.

فمثلا هل يمكن أن نطور مدنا لا تسير فيها سيارات خاصة، على أن نطور نظام نقل عام جيد، السيارات فيه تسير بالغاز الطبيعي، ومن ثم نقضي على التلوث بكل سلبياته، الذي يكلفنا الكثير من الناحية الصحية والاقتصادية؟ لماذا لا نطور تكنولوجيا الطاقة الشمسية ومساقط المياه، في منطقة معروف أنها ستواجه شحا في المياه، حتى أنهم يقولون إن حروب هذا القرن ستكون حروب المياه؟ لماذا لا نركز على تكنولوجيا تحلية المياه ونخلصها من مشاكلها؟ لماذا لا نطور مفاهيم جديدة في الإدارة، رجل متقدم في السن يحيط به مجموعة من الشباب الأذكياء، ولا يكون المدير هو الآمر الناهي، وإنما يستمع لمستشاريه، بحيث تصل المجموعة إلى شكل من أشكال الإجماع الذي لا يولد التوترات؟ المدير هنا لا يدير وإنما ينسق، والأطراف قوية مثل المركز. هذا ما فعله اليابانيون وطوروا اقتصادا على مستويين، فهناك الاقتصاد المتقدم والذي يستفيد بكل منجزات العلم والتكنولوجيا، ولكن هناك مستوى آخر وهو ما يمكن تسميته الاقتصاد الشعبي. فشركة مثل سوني على سبيل المثال تستخدم آخر ما توصلت له التكنولوجيا، ولكن هناك أعمال أخرى يمكن إنجازها يدويا، فترسل بها إلى الريف الياباني، فيقوم الفلاحون بإعدادها في منازلهم.

ويدعي البعض أن التمسك بالهوية يؤدي إلى الحروب والمجازر، وهذه مبالغة غير مقبولة. فهل الحربان (العالميتان)، الأولى والثانية، تمتا باسم الهوية أم باسم المصالح الاستعمارية؟ وماذا عن فيتنام وغزو العراق وأفغانستان والحرب الباردة؟ هل التشكيل الاستعماري الغربي الذي أحرق الأخضر واليابس، والذي أباد الملايين ونهب ثروات الشعوب، هل تم تعبيراً عن الهوية الغربية أم تعبيراً عن طمع وجشع الطبقات الحاكمة؟

وتفعيل الهوية شيء أساسي في عملية النهوض الحضاري، فهويتنا قد تشكلت – كما أسلفت- عبر تاريخنا حتى أصبحت منا وأصبحنا منها. فعملية التنمية لا يمكن أن تتم من خلال برنامج اقتصادي وسياسي عام، فالبشر لا يتحركون في إطار العام، وإنما يتحركون في إطار الخاص الذي يعرف احتياجاتهم ويأخذ في الاعتبار توجهاتهم وأشواقهم وأحزانهم. وأعتقد أن ظهور ما يسمى النظام العالمي الجديد والنزعة الاستهلاكية الشرسة يزيد من أهمية قضية الهوية وضرورة التمسك بها. إن ظهور الهوية في القرن العشرين مسألة لها دلالة، فهي حماية للإنسان ضد عمليات التنميط الزاحفة، وضد العولمة التي كانت توجد بشكل جنيني في بداية القرن وأصبحت الآن مسيطرة ومهيمنة. إن الهوية في الواقع شكل أساسي من أشكال المقاومة شرط ألا تتحول إلى "غيتو" يدخل فيه الإنسان ويتخندق.

هذا لا يعني أن تمسكنا بهويتنا العربية الإسلامية سيفصلنا عن الآخرين، ويمنحنا حقوقا مطلقة كما فعلوا في ألمانيا النازية وفي التشكيل الاستعماري الغربي. الهوية العربية الإسلامية هي مجموعة من السمات الإنسانية المختلفة التي قد تسم جماعات إنسانية أخرى، ولكنها توجد بشكل معين وبترتيب محدد يعطي الهوية العربية فرادتها. ففي الدولة الإسلامية مثلاً كان يوجد هويات مختلفة، لكن رغم ذلك كانت غير متنازعة. كان يمكن للإنسان أن يأتي من خراسان إلى مصر فيُرحّب به، وكذلك أهل المغرب الذين وجدوا في مصر وطناً لهم من دون أي مشكلة. ولعل الفن الإسلامي هو أكبر دليل على التنوّع والاختلاف لدرجة أن بعض المؤرخين الغربيين ينفون وجود فن إسلامي بسبب تنوعه، وفي الواقع هناك فن إسلامي هندي، وإسلامي عربي الذي ينقسم بدوره إلى إسلامي مصري (فاطمي وأيوبي ومملوكي) وإسلامي دمشقي وهكذا.

الإسلام قد قبل التنوّع داخل إطار شامل من الوحدة، وحدة ليست عضوية، وإنما فضفاضة، وهو تنوّع قد سمح للجماعات الدينية والإثنية المختلفة بأن تبدع من خلاله مثل إبداع الأكراد وإبداع العرب المسيحيين واليهود. وقد كان هذا النموذج للهوية مرفوضاً من الغرب حتى عهد قريب، لأن التعريف الغربي للهوية كان تعريفاً عضوياً، أي يرى الهوية باعتبارها كيانا متماسكا تماما وكأنها النبات أو الحيوان أو كيان عضوي، لا يمكن أن تفصل أجزءا منه ويكتب له البقاء. أذكر أنني عندما كنت في الولايات المتحدة في الستينيات: كانوا دائماً يسألونني هل أنت عربي أم مصري أم مسلم، ويشيرون إلى هذا باعتباره اختلاطاً في الهوية، ومن ثم نقطة سلبية. فكنت أشير إلى جون ميلتون الشاعر الإنكليزي الذي عاش في عصر النهضة، وكان يكتب بالإنكليزية واللاتينية ويعدّ نفسه إنكليزياً وأوروبياً ومسيحياً في الوقت ذاته، وكان يتحدّث باللاتينية مثلاً مع أصدقائه حين ينتقل في أرجاء أوروبا. وكانت تواريخ الأدب ترى هذا دليلا على عظمة عصر النهضة الغربية، فكنت أقول لهم أنا أيضا دمنهوري عربي مسلم، وفي بداية الأمر ونهايته إنسان، فإنسانيتي العامة المشتركة لا تتناقض مع انتماءاتي المتعددة. إن الرؤية الغربية الحديثة رؤية مادية عضوية مصمتة، تجعل الإنسان صاحب الهوية الذي يعيش على أرضه القومية ومجاله الحيوي، موضع الحلول ومرجعية ذاته، ولذا لا يمكن استئناف أحكامه، ثم فرضوا هذه الرؤية على الواقع بالقوة. فظهرت فكرة الدولة القومية العضوية وكل هذه المفاهيم العنصرية. وقد أدى هذا إلى أن الحدود الديموجرافية والدينية والسكانية لهذه الدولة العضوية تماثلت مع الحدود الجغرافية، وبالتالي تم القضاء على معظم الأقليات. فالثورة الفرنسية قضت على كثير من الأقليات، وعلى مجموعة من اللهجات، مثل لهجة "الأوكستانيان و"البريتون". وهذه صفة في أوربا منذ القدم.

وأذهب إلى أن أهم تفعيل للهوية في التاريخ العربي الحديث هو الانتفاضة الفلسطينية التي استدرجت "الإسرائيليين" إلى أرضية غير حديثة يصعب على الجندي "الإسرائيلي" أن يتعامل معها بكفاءة، ولم يجد الصهاينة حلا لهذه الورطة إلا بالالتفاف حول الانتفاضة لكبح جماحها، ومن هنا كانت اتفاقية أسلو. وهناك محاولات أخرى لتفعيل الهوية مثل قيام الدكتور حامد الموصلي بعدة مشاريع ناجحة نابعة من تفعيل الهوية، مثل صنع الخشب من سعف النخيل. وهناك محاولات الدكتور عبد الحليم إبراهيم وراسم بدران لتطوير معمار إسلامي حديث. كما يمكننا تفعيل مؤسسات وسيطة مثل الأسرة والجيرة، بحيث يمكن إدارة مجتمعنا بطريقة إنسانية.

والله أعلم.

***

٢- الإعلام والإمبريالية النفسية

موقع الجزيرة نت 01-05-2007

الإعلام الأمريكي هو أهم آليات الإمبريالية النفسية وأنجح الوسائل فى تفريغ الإنسان الأمريكي والهيمنة عليه وتصعيد حراراته الجنسية والاستهلاكية. وهو إعلام ذكي إلى أقصى حد فهو لا يكذب قط، وإنما يجتزئ الحقيقة، ويوجد تعبير باللغة الإنجليزية هو " true lies أكاذيب حقيقية" بمعني أنه يمكن تمرير الأكاذيب عن طريقة إخفاء جزء من الحقيقة. والإعلام، خاصة المرئي، له سطوته، وقوته، فهو يصل إلى منازلنا وعقولنا وأحلامنا بشكل مباشر. ويجب أن نتذكر أن الأعلام لم ينتخبه أحد، ولا توجد أي مؤسسات لمساءلته، رغم أن خطورته كاملة وأثره مدمر. والإعلام في بلادنا لم يصل بعد إلى هذا المستوى من "التقدم" مما يخلق مساحة وفضاء خاص للإنسان العربي يمكنه من خلاله أن يراجع ما يسمع. فهو حينما يسمع تصريحات رئيس دولته، فإنه يراجع الإذاعات الأجنبية أو أحدى الفضائيات العربية ليرى مدى صدق هذا الرئيس ويحكم على أقواله بمحك الواقع، ثمة عقلية نقدية لا تزال فعالة في العالم العربي وتم تقويضها في العالم الغربي من خلال سطوة إعلام متميز. ولكننا لا نعرف ماذا سيفعل بنا الإعلام في المستقبل القريب، خاصة بعد ظهور قنوات الفيديو كليبيات والهيمنة التي تمارسها على وجدان شبابنا وكثير من شيوخنا!

أجلس أمام التليفزيون في الولايات المتحدة في حالة تقزز من المضمون، لكن في حالة استمتاع بالشكل والتقنية العالية. فصناع الصور (بالإنجليزية: إميج ميكرز image makers) وصناع الأحلام في مختلف وسائل الإعلام قد تملكوا ناصية لغة الصورة وأتقنوها تماما. ومن أهم القطاعات التي تساهم في صنع الصورة قطاع الأفلام الذي يشيع العنف وصورة الإنسان الذي يعيش في اللحظة الآنية، يساعده قطاع الأزياء الذي يُغير "أذواق" الذكور والإناث والأطفال كل عام مرتين. ومن أهم القطاعات الأخرى، ولعلها أهمها قاطبة، قطاع الإعلانات التجارية التي لا يكف التليفزيون الأمريكي عن بثها.

تقوم الإمبريالية النفسية من خلال الإعلام بترويج صورة الإنسان الاقتصادي الجسماني، وهذا يتضح بجلاء في الإعلانات التليفزيونية. هدف الإعلان التليفزيوني اقتصادي استهلاكي (بيع سلعة ما) ولكنه يوظف الجنس للترويج لهذه السلعة، أي أن الإمبريالية النفسية لا ترى الإنسان إلا من خلال هذين البعدين (الاقتصادي والجنسي). فاحتساء الشاي لا تكتمل متعته إلا من أيد

رقيقة!! والإعلانات عن قشرة الشعر أو البشرة تجعلنا نحس أن الجنس البشري كله قد أصيب فجأة بالأمراض الجلدية! ولكن لو شفي المرء منها فإن جاذبيته الجنسية لا يمكن أن تقاوم! ويرتبط بذلك كله انتشار القيم الاستهلاكية مثل أنه لابد للمرء أن يجدد نفسه كل يوم، من خلال نوع معين من الكريمات أو العطور، وأنه بوسعه رغم تقدمه في السن بوسعه أن يحتفظ بحيويته بل وشبابه وجاذبيته الجنسية بطبيعة الحال أن يستعيد حيويته بل وشبابه إن هو استخدم نوعا معينا من الفيتامينات. إنها إعلانات هدفها أن تدفع الإنسان لمزيد من الاستهلاك، وكأن الاستهلاك هو الهدف الأساسي وربما الوحيد من وجود الإنسان في هذا الكون.

وعادة ما يتم المزاوجة بين الاقتصادي والجنسي، ولكن هناك إعلانات تحاول أن تدخل للمستهلك من مدخل آخر. فهناك إعلانات تحاول استخدام قيم مثل الترابط العائلي ولكنها توظفها في تصعيد الاستهلاك، كأن يدعوك الإعلان للحديث مع والدتك من خلال شركة كذا للتليفونات، أو تذكرك بشراء هدية لها من المحل الفلاني وبالتقسيط المريح. وتعطيك العنوان ورقم التليفون وكل البيانات اللازمة للاستهلاك، وتخبرك بكل مزايا السلعة التي ستشتريها، (ولننظر ماذا يحدث للأعياد العلمانية عندنا مثل عيد الحب وعيد الأمهات). المهم هو توظيف القيمة الإنسانية والأخلاقية من أجل الاستهلاك. ومع هذا يظل استخدام الجنس هو النمط الأكثر شيوعا.

والهدف من هذا الهجوم الإعلامي هو إشاعة النموذج الاستهلاكي لتطويع الجماهير وتدجينهم وتنميطهم، بحيث يجد الإنسان العادي (وغير العادي) نفسه مستبطنا لفكرة أن السعادة لن تتحقق إلا عن طريق الاستهلاك والمزيد من الاستهلاك، فيتوحد تماما بالسلعة ويصبح إنسانا متسلعا ذا بعد واحد غارقا تماما في السلعة والمادة، وفي حالة غيبوبة إنسانية كاملة. وكما يقول الدكتور جلال أمين، إن ضحايا الاستغلال في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة ليسوا العمال والفلاحين، وإنما هم المستهلكون من أي طبقة. ولعل هذا يظهر في الاستغلال البشع للطفولة، إذ تتوجه لهم الإعلانات مباشرة، وبذا تتخطى الآباء والأمهات ومنظوماتهم الأخلاقية بل ودخلهم المالي.

وقد هيمنت الإمبريالية النفسية على الإنسان الأمريكي، وهمّشت القضايا السياسية الكبرى فى وجدانه، واغرقته فى دوامة الاستهلاكية، حتى أصبح شعاره "طالما أن الكيل ملآن فلا يهم أي شيء آخر"، أو كما يقولون بالإنجليزية "طالما أن هناك دجاجة على المائدة" as long as there is a chicken on the table فإن العالم لا يهمه، فيؤثر السلامة ولا يفكر فيما هو

خارج حدود الدجاجة! هذا يعني أن الإنسان الأمريكي يستجيب مباشرة للمثيرات التي تأتيه من العالم الخارجي عالم المادة والحواس الخمسة، مثير تتبعه استجابة فورية. وهذا مع الأسف إحدى صفات الحيوان الأعجم، بينما إحدى خصائص الإنسان أن هناك مسافة بين المثير والاستجابة.

إن ما حدث في الولايات المتحدة أنه بعد تفريغ الإنسان من أي حاسة نقدية ومن أي مضمون إنساني مركب، عبئ بالمنظومة الاقتصادية الجسمانية. وفي هذا الإطار تم تقسيم العمل بحيث تخصصت النخبة الحاكمة والحكومة الفيدرالية في مسائل الدفاع ومسائل الأمن والسياسة الخارجية، وتركت للجماهير كل الأمور الأخرى مثل المطافي والبريد والتعليم والرعاية الصحية ومدى نقاء مياه الشرب وبعض قضايا الأمن الداخلي مثل المرور وظاهرة الاحتباس الحراري، وكل ما يتخذ في هذه المجالات يتم من خلال إجراءات ديموقراطية صارمة. أما القرارات السياسية الكبرى (السياسة الخارجية- ميزانية الدفاع- ميزانية المخابرات) التي تحدد مصير الأمة والتى تلتهم جزءاً كبيراً من الميزانية، فقد تُركت للنخبة الحاكمة (التي تسيطر عليها المصالح الصناعية والعسكرية) تفعل فيها ما تشاء حسب أولوياتها وحسب ما تمليه مصالحها وليس مصالح الشعب الأمريكي.

وتعكس الصحافة الأمريكية هذا التقسيم للعمل، فالأخبار العالمية والتحليلات السياسية تنشر أساسا في جرائد ومجلات النخبة مثل النيويورك تايمز والواشنطن بوست. أما الجرائد الشعبية والمحلية والـ tabloids التي تقرأها الجماهير، فهي تشير إلى "العالم" في نصف عمود، أما بقية الجرائد فهي تنشر الفضائح والأخبار الخاصة بالجماعة المحلية، والجزء الأكبر مخصص للإعلانات والاوكازيونات وكوبونات الخصم. ولذا من النادر أن تقابل أمريكيا يعرف آليات صنع القرار السياسي في بلاده أو الهدف من القرارات التي اتخذت في مجال السياسة الخارجية. وفي غياب أحزاب سياسية لها برامج مختلفة توعي المواطن وتثقفه سياسيا، يقع هذا المواطن الأمريكي العادي فريسة سهلة للإعلام ولتقسيم العمل الذي فُرض عليه وجعله غير قادر على فهم سياسة بلده الخارجية وتدخلها العسكري في كل أرجاء المعمورة، خاصة وأنه يتم تبرير عمليات الغزو العسكري والتدخل السياسي في شئون الدول الأخرى من خلال خطاب عالي النبرة ممتزج بلون قومي أمريكي فاقع له أبعاد أخلاقية وأحياناً دينية، فيتحدثون عن "القيم الأمريكية" مثل الديموقراطية وحقوق الإنسان وحماية الأمن القومي الأمريكي. كما أنهم يلجأون لتخويف المواطن الأمريكي، من عدو ما، كان فى مرحلة من المراحل هو الشيوعية وأصبح الآن الإرهاب الإسلامي! ورسّخوا فى وجدانه أن هذا العدو يكره الديموقراطية ويحقد

على الأمريكيين بسبب أسلوب حياتهم ومعدلات الاستهلاك العالية التى يتمتعون بها، ولذلك عادة ما تبدأ الاحتجاجات على سياسة أمريكا الخارجية في الجامعات بين المثقفين الذين يدركون طبيعة الأكاذيب التى تطلقها النخبة الحاكمة. وتنتقل بعد فترة ليست بالقصيرة إلى الشوارع بين الجماهير العادية. وظاهرة عدم الاهتمام بالسياسة الخارجية وعدم إدراك تضميناتها ظاهرة حديثة وعالمية، ولكنها توجد بشكل أقل في بلد مثل إنجلترا وفرنسا، إلى أن نصل إلى بلد مثل روسيا حيث نجد أن الناس هناك عندهم درجة أعلى من الوعي السياسي. ومع هذا أجري استطلاع للرأي في إنجلترا فظهر أن غالبية من شملهم الاستطلاع يظنون أن الإسرائيليين هم أصحاب الأرض وأن الفلسطينيين يحاولون اغتصابها منهم!

بالطبع هناك فارق ولكنها ليست فروقاً جوهرية، لأني أعتقد أن الذي يسيطر على الولايات المتحدة هي الرؤية "الاستهلاكية المادية" حيث ينظر للإنسان باعتباره مجموعة من الاحتياجات المادية أو الجسدية.هذه الرؤية لم تهيمن على الإنسان الأمريكي دفعة واحدة. كل ما في الأمر أن حلقات المتتالية العلمانية أخذت في التحقق حلقة تلو الأخرى إلى أن وصلنا إلى الوضع الحالي. خذ على سبيل المثال مسألة الشذوذ الجنسي حينما تركت أمريكا عام 1969 كان الشذوذ موجودا، كما هو الحال في كل المجتمعات الإنسانية، لكننا كنا نهمس حين نتحدث عنه. ثم بدأت قضية الشذاذ تتحرك من الهامش إلى أن وصلت إلى المركز. ولكن بعد ذلك مع تصاعد معدلات التوجه نحو اللذة والاستهلاك ومع اتساع رقعة النسبية الأخلاقية، بدلا من المطالبة بالتسامح مع الشذاذ تحولت القضية إلى ضرورة تطبيع الشذوذ أي المساواة الكاملة بين الإنسان العادي والإنسان الشاذ. ثم تطور الأمر وتزايدت المطالبة بأن يكون الزواج المثلي زواج شرعي، وأن يحصل أعضاء الزواج المثلي على نفس الحقوق التي يحصل عليها الأزواج العاديون، بما في ذلك حق تبني الأطفال. ولنتخيل طفلا ينشأ في أسرة مكونة من رجلين أو امرأتين، أليس هذا إجهاضا لحقه في أن تكون حياته عادية مثل حياة معظم البشر عبر التاريخ؟ ثم وصل الأمر إلى أن بعض أساقفة الكنيسة الأنجليكانية وحاخامات اليهود من الشذاذ يصرون على الاحتفاظ بمناصبهم أو مواقعهم الدينية، وعلى زيجاتهم المثلية فى ذات الوقت. ومن الطريف والغريب أن كثيراً من أتباعهم قد أيدوهم فى قراراهم هذا، وهذا هو التطبيع النهائي! ما أود أن أؤكده أن ما يحدث في المجتمع الأمريكي لم يحدث فجأة ولم يأت من القمر، وإنما كان كامناً في منظومة العلمانية الشاملة ومن ثم يجب ألا نتوقع أي تغير حقيقي في الوجدان السياسي للشعب الأمريكي إلا مع حدوث زلزال قوي.

والإمبريالية النفسية والسعار الاستهلاكي قد هاجمانا بكل شراسة، فالإعلانات التليفزيونية والفيديو كليبات والأفلام والاوكازيونات واليانصيب والمسابقات تحاصر الإنسان العربي وتعيد صياغة أحلامه وتصعيد توقعاته. فإن كان ثريا فهو سيحقق كل رغباته فيشتري شاليه في الساحل الشمالي والجنوبي والشرقي والغربي، ويشتري عربة آخر موديل، وفيلا في إحدى المدن الجديدة، ويرتدي هو وزوجته ثياب آخر موضة (ولا يتبرع بنصف مليم لأي مستشفى أو جامعة)، أما محدودي الدخل فهم يحلمون، بعضهم يستمر في الحلم، وبعضهم يصاب بالإحباط فيتحول إلى إرهابي.

انظر إلى أفراح المصريين في الوقت الحاضر، لم تعد مناسبة للتآلف الاجتماعي، وإنما أصبحت مظاهرة استهلاكية استعراضية. ولتذهب لأي فندق خمس أو سبع نجوم، ستجد أنك تدخل عالما لا علاقة له بالتاريخ أو الجغرافيا، عالما ينسيك هويتك، فيصعد رغبتك في الاستهلاك. بل إن النزعة الاستهلاكية زحفت إلى المآتم أيضاً، إذ أن الإعلانات عن وفاة فلان الثري تأخذ مساحة ضخمة فى الجرائد تكلف عشرات الألوف من الجنيهات، كما أن الفيديو دخل فى بعض الجنازات، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ولعل سيتي ستارز في مدينة نصر، والتي يحج لها المصريون والعرب وكأنهم يدخلون إلى إحدى المعابد العلمانية، هي قمة انتصار الإمبريالية النفسية علينا، ولذا لم يعد الغرب فى حاجة لإرسال جيوشه لاستعمارنا، كما كان يفعل في الماضي. والله أعلم.

***

٣- الإمبريالية النفسية

موقع الجزيرة نت 01-04-2007

الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية هي الرؤية المهيمنة على المجتمعات الغربية، وعلى الإنسان الغربي في علاقته مع بقية أعضاء المجتمع أو مع أعضاء أسرته أو حتى مع نفسه. فهو حينما يبني بيتاً، يُخضعه تماماً لعملية الترشيد المادية حيث يبنيه بهدف الاتجار فيه وتحقيق الربح، ثم يتركه بعد بضع سنين وكأن المنزل والسلعة لا فرق بينهما. وهو حين يدخل في علاقة مع أنثى، لا يبحث عادةً عن الطمأنينة وإنما يحاول تعظيم اللذة، وتتحول العلاقة العاطفية إلى علاقة غزو (وهو ما عبرنا عنه بأن الحضارة الغربية حضارة يتراجع فيها الخطاب الجواني للمحبين، خطاب التآلف والتراحم، ليحل محله الخطاب الإمبريالي البراني للمتصارعين والنفعيين الماديين، خطاب الغزو والتناحر). وهو إنسان بسيط ذو بُعد واحد دائم التنقل والترحال لتحقيق الربح وتحسين مستواه المعيشي ومعدلات الاستهلاك الخاصة به، فهو مادة استعمالية جيدة مرنة مطاطة، شيء بين الأشياء، يمكن توظيفه ويقوم هو بتوظيف الآخرين. وحينما يصل هذا الإنسان الغربي المرن إلى سن يصبح فيه غير منتج، فإنه يقبل أن يُنقَل طواعية إلى بيت المسنين غير المنتجين لينتظر (كمادة بشرية مرنة) الموت في بيوت مكيفة الهواء بعيداً عن المجتمع المُنتج وبعيداً عن الحياة. بل إن ما يُسمَّى «حضارة الفوارغ» (ديسبوزابل disposable) هي حضارة إمبريالية توظيفية تستهلك كل شيء وتوظف كل شيء وتبدد كل شيء (الطاقة - المواد الخام - الأغاني - جسد الأنثى - طبقة الأوزون). كما أن الاتجاه التدريجي نحو فرض النموذج الآلي على سائر أشكال الحياة في الغرب، وهو مصدر شكوى كثير من المفكرين الغربيين، إن هو إلا تعبير عن إبستمولوجيا الغزو والتحكم والترشيد العلماني الإمبريالي وتَزايُد رقعتها في مجالات الحياة. ولا تزال حضارة الترشيد العلمانية الإمبريالية هذه تُخضع الإنسان الغربي ذاته لأسوأ أنواع الإمبريالية التي يمكن أن نسميها «الإمبريالية النفسية».

والإمبريالية النفسية مصطلح يرد بشكل ضمني فى كثير من الكتابات الغربية (دون تسميته). وهى لم تقفز إلى الوجود فجأة،فهي كامنة في متتالية الحداثة المنفصلة عن القيمة وفي اقتصاديات السوق الحر، الذي تتحكم فيها قوانين العرض والطلب المنفصلة عن القيمة وعن أي غائية إنسانية (الليبرالية الاقتصادية).

ويمكن القول أن العلمانية الشاملة هي النظرية والإمبريالية هي التطبيق، فهما وجهان لعملة واحدة. وقد أخذت العلمانية الشاملة فى الداخل الغربي شكل الترشيد في الإطار المادي، فتم تنميط الإنسان الغربي وتدجينه وأصبح من السهل تحويله إلى مادة استعمالية أي طاقة إنتاجية وقتالية، وتم تجييش الجيوش وهذه هي الإمبريالية النفسية. ثم أرسلت هذه الجيوش لاستعمار العالم وهذه هي الإمبريالية العسكرية، ورغم أنهما تطبيقان مختلفان لنفس المفهوم، إلا أنهما يختلفان باختلاف مجال التطبيق. وقد وصف هربرت ماركوز هذه الإمبريالية النفسية التى هيمنت على الداخل الغربي وصفا دقيقا حين قال إن المجتمع الأمريكي هو مجتمع التسامح القامع oppressive tolerance، أي أن هذه المجتمعات الغربية هي مجتمعات شمولية بدون قهر خارجي، بدون ضرورة وجود شرطة، بدون قهر مفروض مرئي. أما فيبر فقد قال إن عمليات الترشيد ستؤدي إلى القفص الحديدي، ويتحدث زيميل عن السجن الحديدي، أما هابرماس فكان أكثر وضوحا فقد قال: إن ما يحدث في المجتمع الغربي الحديث هو «استعمار عالم الحياة». فالمواطن الأمريكي يستبطن الرؤية السائدة في المجتمع فتهيمن عليه تماما بكامل رضاه، وهو في الوقت ذاته لا يستطيع الفكاك منها، وتصبح نظرته للحياة هي مجرد زيادة الإنتاج وزيادة الاستهلاك، أي أنه يظن أنه يدخل بكامل إرادته وحريته دائرة الاستهلاك والإنتاج العبثية. وهذا السعار الاستهلاكي ليس مسألة انحطاط خلقي وسلوك فردي واختيار حر، وإنما هو وضع اجتماعي شامل ونموذج ضخم يهيمن على الإنسان من الخارج ويستبطنه المرء دون أن يشعر. وإن نجح المرء في مقاومة هذا الغزو فإن أفراد أسرته قد لا يكونون في مثل صموده. فالمجتمع هو الذي يحدد مقاييس السعادة واللذة، ومهما حاول المرء أن يفلت من الحتميات الاجتماعية فإنه يجد نفسه محاطا بالمعايير الاجتماعية لا يمكنه الفكاك منها إلا من خلال فعل عنيف، كأن يتحول إلى هيبي زاهد في الدنيا، برغم تمتعه بها. والهيبي يجسد أسطورة الفشل، وهي عكس أسطورة النجاح المهيمنة على العقل الأمريكي. أما المواطن العادي، الذي يعيش حياة "عادية" داخل المجتمع، فهو يقع في شراك الاستهلاكية بكل بساطة، خاصة وأنه منذ نعومة أظافره قد استبطن الأيديولوجية الاستهلاكية من خلال الدمى والبرامج التليفزيونية المختلفة (تُعدّ العروس باربي وأصدقاؤها من أهم آليات إشاعة الأيديولوجية الاستهلاكية).

فى داخل هذا الإطار الاستهلاكي العبثي، منفلت العيار، كان من المحتم أن ترتطم الإمبريالية العسكرية بحدود المكان لأسباب كثيرة. فهي في نهاية الأمر تمدد جغرافي، يصل منتهاه بالاستيلاء على كل أسواق العالم كما حدث مع بداية القرن العشرين. وقد أدركت القوى

الإمبريالية الغربية كذلك أن استنزاف المصادر الطبيعية في آسيا وأفريقيا وكل أطراف المعمورة قد تزايد، تماما مثل التزاحم على الأسواق، وأن تكلفة المواجهة العسكرية مع شعوب العالم الثالث (وهي الآلية التي تستخدمها الإمبريالية التقليدية لاستعباد الشعوب واستغلالها وتحويلها إلى مادة استعمالية) أصبحت باهظة. وقد أدركت الإمبريالية العسكرية كذلك أنه مع انتقال المجتمعات الغربية من مرحلة الصلابة إلى مرحلة السيولة تراجعت ما أسميه بالنزعة الجهادية عند الشباب الغربي. ففي مرحلة الصلابة كان المواطن فى الغرب يؤمن بأسبقية المجتمع على الفرد، فظهرت مفاهيم مثل التضحية والإيمان بالوطن وضرورة الدفاع عنه. وفي هذا الإطار أيضا ظهرت مفاهيم مثل تفوق الرجل الأبيض والإمبريالية التقليدية المبنية على المواجهة العسكرية. ثم انتقلت هذه المجتمعات إلى مرحلة السيولة حيث يؤمن المواطن بأسبقية الفرد على المجتمع، ولذا تظهر مفاهيم مثل المصلحة الشخصية والمنفعة والخلاص من خلال السلطة واللذة، وما سمّاه أحد علماء الاجتماع حضارة الأنا، ولم يعد الشباب مكترثاً بمفاهيم مثالية مثل "الكفاح من أجل الوطن" و "التضحية من أجله". فأحكمت الحضارة الاستهلاكية قبضتها عليه. لكل هذا وجدت القوى الإمبريالية بعد ارتطامها بحدود السوق العالمي وبعد اكتشاف عجزها عن المواجهة العسكرية، أن المخرج الوحيد لها هو نشر النزعة الاستهلاكية فى بقية أنحاء العالم.

قررت الإمبريالية الغربية توسيع رقعة السوق لا عن طريق الانتشار الأفقي في الخارج (الذي يتطلب القوة العسكرية) وإنما عن طريق الانتشار الرأسي داخل النفس البشرية (الجوانية) ذاتها، التي تتحول إلى سوق دائم الاتساع، فتحل الذات الجوانية محل الأسواق البرانية. وهكذا يحل البراني محل الجواني، ومن ثم يسهل التحكم فيه. ويمكن القول بأن النظام العالمي الجديد هو عولمة لهذه الإمبريالية النفسية، وتعميم لمفهوم الإنسان الاقتصادي/ الجسماني، وهو إنسان ذو بعد واحد لا يكترث بالوطن أو بالكرامة، ولا يهمه سوى البيع والشراء والمنفعة واللذة. والهدف من الإنتاج من منظور الإمبريالية النفسية هو الاستهلاك، والهدف من تزايد الإنتاج هو تزايد الاستهلاك، وحياة المرء تكتسب معنى إن هو استهلك، ومزيدا من المعنى إن هو صعَّد من استهلاكه (وقد عرفت التنمية والحداثة بأنها ثورة التوقعات المتزايدة!). أحد المفكرين الغربيين صرح بأن المجتمعات الاستهلاكية لا يهمها المعنى ولا تبحث عنه، فالسلعة تصبح هي البداية والنهاية وهي مركز الوجود، بل وهي التي تضفي معنى على حياة الإنسان الاستهلاكي، ومن هنا مصطلح comodification والذي يعني أن السلعة تزيح الإنسان من مركز الكون لتحل محله، وتصبح السلعة أكثر أهمية من الإنسان. ويوجد مصطلحات شبه

مترادفة مع هذا المصطلح مثل التوثن fetishism وهي تعني أن الأشياء (بما في ذلك السلع) تتحول إلى أوثان يتعبد الإنسان في محرابها بعد إزاحته من مركز الكون. ونفس الأمر ينطبق على مصطلح التشيؤ reification. ثمة مصطلح في علم الاجتماع الغربي هو "demystification" أي "نزع الأسرار والأسطورة عن الإنسان"، وهذا ما تفعله الإمبريالية النفسية فهي تحاصر النفس البشرية بثورة التوقعات والتطلعات التي لا تنتهي. وحيث إن الإنسان يقف عاريا ضعيفا وحيدا أمام ما أسميه قطاع اللذة في المجتمعات الحديثة التي تنظر للإنسان باعتباره مجموعة من الدوافع والحاجات الجسدية التي يمكن الوفاء بها، يصبح من السهل ترشيده وتدجينه وتنميطه فيدخل الآلة الاستهلاكية الجهنمية بعد أن يلقى في روعه أن السلع لا تحقق منفعته وحسب، بل سعادته، أي لذته أيضا. وأنه كي تكتمل سعادته، وكي يحقق ذاته لابد من شراء سيارة جديدة كل عام، ولابد له من شراء قميص من النوع الفلاني وأحذية من النوع العلاني، ومن ثم تتحول كثير من الكماليات إلى ضروريات لا تكتمل السعادة في الحياة الدنيا بدونها. بل إن قطاع اللذة يَعِدُ الإنسان بالفردوس الأرضي الذي سيريحه تماماً من عبء التاريخ والالتزام الخلقي والإحساس بالمسئولية تجاه الآخرين، بمعنى أن الإنسان يتم محاصرته تماما من الداخل والخارج، فالرسائل التي تصله من الإعلام والأفلام تحمل رسالة الخلاص من خلال السلعة. بل إن بناء المدن الغربية يُجسِّد هذه الرؤية الإمبريالية من طرقات تهدف إلى تعظيم السرعة، إلى حركة يومية تُبَدد فيها الطاقة الإنسانية والطبيعية ويُلوَث فيها الجو، ويدور فيها كل شيء حول السوق والسلع. والإنسان من منظور الإمبريالية النفسية هو أساسا حيوان اقتصادي جسماني لا يبحث إلا عن منفعته (الاقتصادية) ولذته (الجسدية)، وأن سلوكه لابد أن يصبح نمطيا حتى يمكن أن يستهلك السلع التي تنتجها خطوط التجميع. هذا الإنسان لا يهدف إلا إلى تحقيق المنفعة واللذة لنفسه، ويرى أن خلاصه يكمن في ذلك. فى الماضي كانت "الحاجة هى أم الاختراع"، أما في إطار الإمبريالية النفسية أصبح "الاختراع هى أبو الحاجة"، إذ لابد أن تظهر سلعة جديدة كل يوم. ومن هنا يدخل الإنسان دائرة الإنتاج التي لا هدف لها والآخذة في الاتساع إلى ما لا نهاية.

تحول الإنسان ذاته إلى سوق بلا قرار يمكن أن تلقي فيه بالسلع والمزيد من السلع، وكلما زادت عجلة الإنتاج في الدوران وقف الإنسان، لا في مركز الكون كما هو الحال مع الفلسفات الإنسانية، وإنما مثل الثقوب السوداء في الفضاء التي تمتص كل شيء وينعدم فيها المكان والزمان. ولكن الاستهلاكية أو الإمبريالية النفسية تمتاز عن الإمبريالية العسكرية في أن مجالها هو النفس البشرية إذ إن فلاسفة هذه النزعة اكتشفوا حقيقة أساسية اكتشفها آخرون

من قبل (فقهاء وعلماء اجتماع وشعراء) وهي أن النفس البشرية لا تشبع قط، وأنها في غياب الحدود يمكنها أن تتمدد دون توقف إلى أن تفني نفسها فيما حولها وفيما تشتهي. ولكن بالنسبة للفقهاء والعلماء والشعراء كانت هذه الحقيقة هي مصدر النكبة، أما بالنسبة لفلاسفة الاستهلاكية فهي تمثل نقطة ثبات تصلح أساسا فكريا ونفسيا لفلسفتهم. بدلا من إرسال الجيوش الإمبريالية لآسيا وأفريقيا لفتح الأسواق، تطلق أدوات الترويض المختلفة مثل البرامج التليفزيونية، والأفلام، والموضة (أو جماليات الصيرورة) لفتح الإنسان ولغزوه وقهره. وبدلا من النظرية العنصرية والتفاوت بين الأجناس التي استخدمتها الإمبريالية العسكرية لفتح الأراضي والقارات، تستند الاستهلاكية (أو الإمبريالية النفسية) إلى نظريتها في الطبيعة البشرية فهي تنكر عليها أي ثبات وترى أنها في حالة صيرورة دائمة وتغير دائم، غارقة فى النسبية الشاملة، وأن الإنسان ليس بوسعه أن يفرق بين الأبيض والأسود أو الأصفر، فكلهم مجرد مادة نزعت عنها القداسة تصلح للطاحونة التي تدور والتي لا تبقى ولا تذر، كلهم مادة خام محايدة صالحة: التمدد الدائم والانتشار الذى لا نهاية له، أو الانتشار كنقطة ثبات وحيدة، تماما كما أن النسبية هي المطلق الوحيد.

وتقوم الإمبريالية النفسية بتحديد الهدف من الحياة للمواطن أو المشاهد، فهو ليس السعادة أو التوازن وإنما الاستهلاك ومزيد من الاستهلاك، وكما يقولون في الخطاب الشعبي الأمريكي "Shop till you drop فلتتبضع حتى تسقط ميتا من الإنهاك". وهناك اصطلاح "مدمن التبضع shopaholic" أي الإنسان الذي يذهب للتبضع لا لأنه يريد شراء شيئا ما وإنما لأنه أدمن هذه العملية.

وقد نجحت الإمبريالية النفسية في معظم أنحاء العالم، ولكن أهم ضحاياها، والذي تم افتراسه تماما، هو الإنسان الأمريكي ذاته. فقد قام الإعلام بتفريغه من الداخل، فالإعلام له سطوة في الولايات المتحدة خاصة أنه فنياً ناجح جداً ومسلي، فأتفه الأشياء يجعلونها مسلية وجميلة. إن الإعلام الأمريكي نجح كما أسلفت في ترسيخ الرؤية الاستهلاكية، كما نجح أيضا بالفعل في عزل الإنسان الأمريكي عما يدور حوله في العالم برغم أن جيوش الولايات المتحدة ومخابراتها تتحرك في كل أنحائه بشكل علني أحياناً، وسري أحياناً أخرى. وقد أدى هذا إلى تبسيط الوجدان السياسي للإنسان الأمريكي بحيث يمكن للسلطة الحاكمة أن تملي عليه ما تريد من أفكار يعتنقها بتلقائية مدهشة وبكامل حريته! فهو من أحادية البعد بحيث لا يمكنه أن يعمل ملكته النقدية وأن يتجاوز الحدود التي فرضت على وجدانه والتي رسمتها له النخبة الحاكمة وعزلته عما يدور في أنحاء العالم.

والله أعلم.

***

٤- الأمركة والكوكلة والعلمنة

موقع الجزيرة نت 01-06-2007

الأمركة، (بالانجليزية أميريكانيزيشن Americanization) مصلح خلافي داخل المعجم السياسي العربي والغربي، دون أن يتم تعريفه رغم شيوعه. وسأحاول أن أبذل محاولة مبدئية فى تعريفه وتوضيح بعض تضميناته الفلسفية.

والأمركة فى تصوري هى محاولة صبغ أي مجتمع أو فرد بالصبغة الأمريكية وإشاعة نمط الحياة الأمريكية. ويوجد مصطلح طريف قريب منه للغاية هو مصطلح "الكوكلة" أو "الكوكاكوليزيشن" Cocacolization. والكوكاكولا هى رمز نمط الحياة الأمريكية وانتشارها وتدويلها. وقال أحدهم أن الأمر ليس كوكلة وحسب وغنما هى كوكاكولونيالية، بدلا من "كولونيالية" أي أن الكوكلة هى الاستعمار فى عصر الاستهلاكية العالمية، وهى استعمار لا يلجأ للقسر وإنما للإغواء. كما كتب أحد علماء الاجتماع كتاباً بعنوان " The Macdonaldization of the World" أي "مكدلة العالم" (نسبة إلى ماكدونالد) الذى يصبح هنا رمز الأمركة بدلاً من الكوكاكولا. والمجال الدلالي لكلمة "أمركة" (أو "كوكلة" أو "مكدلة") يتداخل مع كلمة "تغريب" و"علمنة" باعتبار أن العلمنة (الشاملة) ليست مجرد فصل الدين عن الدولة وبعض مجالات الحياة العامة وإنما هى عملية فصل كل القيم والثوابت والمطلقات (باعتبارها شكلاً من أشكال الميتافيزيقا) عن العالم والطبيعة وحياة الإنسان العامة ثم الخاصة، إذ يتحول العالم بأسره على مادة استعمالية لا قداسة لها ولا خصوصية ولا مرجعية لها سوى المرجعية الكامنة فى المادة، أي ما يسمى بقوانين الحركة، (آليات السوق- المنفعة المادية- شهوة السلطة- الجنس- علاقات الانتاج). ومن ثم يمكن توظيف هذه المادة فى أي غرض وبأي طريقة دون أي تحفظات أو حرج.

وحتى نفهم الأمركة حق الفهم لابد وأن نضعها في سياقها التاريخي والحضاري. ويمكن القول إنه مع منتصف القرن التاسع عشر تبلورت المنظومة الحضارية الغربية برؤيتها للعالم وللآخر وللذات. وتنطلق هذه الرؤية من أن العالم في جوهره مادة، وأن ما يحكمها هو قانون الحركة المادية، وأن ما هو غير مادي ليس بجوهري ولا يمكن أن يؤخذ في الاعتبار حينما ندير شئون دنيانا ومجتمعنا، وأنه لا يوجد شيء ثابت في الكون، بما في ذلك الطبيعة البشرية، فكل شيء يتغير بشكل دائم. في هذا الإطار أصبح العالم منفصلا عن القيمة، أو كما يقولون بالإنجليزية Value - Free، بمعنى أنه لا يوجد معايير إنسانية أو أخلاقية أو دينية. وحتى لو وجدت مثل

هذه المعايير فهي ستتغير لا محالة، كما أنها غير مادية، وبالتالي لا يمكن أن تؤخذ في الحسبان. كل هذا يعني استحالة الحكم على سلوك الأفراد أو الجماعات أو على الظواهر الاجتماعية. ومع غياب المعايير غابت المرجعية الإنسانية، وظهرت العنصرية والفلسفة الداروينية التي جعلت من القوة المعيار الوحيد للحكم والآلية الوحيدة لحسم الخلافات. في هذا الإطار ولد التشكيل الاستعماري الغربي، وانطلاقا من الرؤية المادية، تحددت الإستراتيجية الغربية تجاه بقية العالم على نحو بسيط، وهو أن العالم مادة استعمالية (مصدر للمواد الخام - العمالة الرخيصة - الأسواق المضمونة) يمكن للجنس الأبيض أن يوظفها لحسابه باعتباره الجنس الأرقى، أي الأقوى. وفي هذا الإطار تحركت جيوش أوروبا ثم الولايات المتحدة واقتسمت العالم فيما بينها وحولته إلى مناطق نفوذ وفرضت رؤيتها على العالم بأسره، التي يمكن أن نلخص سماتها الأساسية فيما يلي:

١- الصراع هو أساس العلاقة بين كل الدول، وبين الدولة والفرد، وبين الإنسان وأخيه الإنسان، أي أن ما ساد هو رؤية ماكيافللي وهوبز للإنسان (الإنسان ذئب لأخيه الإنسان) والتي طورها داروين واستفاد منها ماركس، وهي الرؤية التي سيطرت على العلاقات الدولية والإنسانية، وعلى اقتصاديات السوق، سواء على المستوى المحلي أو المستوى العالمي.

٢- ظهرت فكرة الدولة القومية التي تركز كل السلطات في يدها حتى يمكنها تجنيد كل عناصر المجتمع في خدمتها، وحتى يمكنها أن تصوغ المواطن حسب قوالب محددة تضمن ولاءه الكامل، الأمر الذي أدى إلى إضعاف المجتمع المدني وتهميشه.

٣- ظهر الفكر القومي المتطرف (الشوفيني) وهو فكر ليس له مرجعية إنسانية أو أخلاقية. والانتماء القومي في هذا الإطار يعطي صاحبه حقوقا مطلقة، فلو قرر أعضاء قومية ما أو عرق ما أن من حقهم ضم هذه الأراضي أو طرد هذا الشعب أو حتى إبادته (كما حدث في أمريكا الشمالية وفي ألمانيا النازية وإسرائيل الصهيونية) فهو حق لا يمكن لأحد أن يعترض عليه، وهو حكم لا يمكن استئنافه.

٤- أفرز هذا الإطار الفكري والمرجعي فكرا عنصريا كريها قسم العالم إلى عالم غربي متقدم وعالم غير غربي متخلف.

٥- نتيجة لرؤيتها العنصرية حولت المجتمعات الغربية الديمقراطية من كونها مثلا إنسانيا أعلى وإطارا مرجعيا إلى مجموعة إجراءات تطبقها في إدارة مجتمعاتها، أما بالنسبة للعالم الثالث "المتخلف" فالديمقراطية غير صالحة له.

٦- مما زاد من حدة الصراع وشراهة الدول الاستعمارية أن التقدم رُبط بمعدلات الإنتاج والاستهلاك (وهذا أمر منطقي في الإطار المادي المنفصل عن القيمة) خاصة وأن الافتراض الذي ساد هو أن المصادر الطبيعية لا تنفد. وفي هذا الإطار نسيت قيم إنسانية أساسية مثل العدل والمساواة والتوازن والطمأنينة والحفاظ على البيئة.

هذا هو الإطار العام للمنظومة الحضارية الغربية والتي يتحرك العالم بأسره ـ عن وعي أو عن غير وعي ـ من خلالها، والولايات المتحدة الأمريكية هى التعبير المتبلور عن هذه الرؤية.

ويمكن القول إن ثمة تلازما وربما ترادفا بين العلمانية الشاملة والإمبريالية والعولمة (والأمركة والعلمنة). وليس من قبيل المصادفة أن أكثر الدول علمنة في العالم هي أيضا قائدة الإمبريالية الغربية، وهي دولة تصاعدت معدلات الرغبة في الغزو وفي حوسلة العالم (الإنسان والطبيعة) وتوظيفه بين نخبتها السياسية والعسكرية، ونجحت في تسويق هذه السياسة. وانتشار ظاهرة الأمركة في العالم يرجع إلى تزايد الهيمنة العسكرية والحضارية الأمريكية. ولعل من أكبر آليات العلمنة والأمركة في العالم الآن السينما الأمريكية، فأفلام توم وجيري مثلا تجسد القيم الداروينية بلا مواربة ولا حياء، وأفلام الكاوبوي وكل أفلام العنف مثل أفلام جيمس بوند تقوم بعملية تمجيد للعنف وتطبيع له. أما الأفلام الدرامية والكوميدية، فهي تحاول تحييد فكرة القيمة نفسها، ونحن لم نتحدث عن الأفلام الإباحية فمهمة هذه الأفلام واضحة لا شبهة فيها. لكن يجب ألا نكتفي بهذا العنصر البراني، فنحن نقترح نموذجا توليديا تفسيريا، ونقترح وجود نزعة رحمية (أي الرغبة فى العودة للرحم) في كل البشر، تُولِّد عندهم نزوعا نحو النماذج الاختزالية الواحدية، ونحو الحلول المريحة البسيطة المباشرة وتفضلها على الحلول الإنسانية المركبة، أي أن ثمة نزوعا نحو قبول البسيط بدلا من الجميل. وأمريكا هنا ليست تشكيلا حضاريا وسياسيا علمانيا وحسب وإنما هي حالة عقلية كامنة، وبطبيعة الحال يوجد نزوع ربّاني إنساني نحو التركيب والتجاوز والتسامي (القبس الإلهي) هذا النزوع الربّاني كامن في الإنسان، تماما مثل النزوع الرحمي.

ونحن نذهب إلى أن المنظومات المادية تحوي دائما تناقضا أساسيا، فهي تبدأ بتأكيد الخاص والمباشر والملموس ثم تتجه تدريجيا نحو القانون المادي العام المجرد والمبدأ الواحد الكامن وراء كل الظواهر. فتبدأ المنظومة القومية العلمانية (فى الإطار المادي) بتأكيد أسبقية الإنسان القومي [الخاص] على الإنسان الطبيعي [العام]. لكن المنظومات المادية عادة ما تؤكد بشكل قاطع أيضا أهمية الإنسان (الاقتصادي والجنسي) الطبيعي (العام) وتكتسب شرعيتها أمام

جماهيرها من خلال تأكيد هذا الإنسان الطبيعي. لذلك، وبالتدريج، تظهر أجيال جديدة لا تهتم كثيرا بالزخارف القومية أو بالطريق الخاص، وتتحرك مثل حركة المادة تماما نحو الطبيعي والعام والنمطي وغير المتجاوز. ويبدأ الحديث عن الإشباع الاقتصادي والجنسي خارج إطار أي منظومات متجاوزة، فتسقط الخصوصية القومية ويظهر الإنسان الطبيعي العام الذي لا يبحث إلا عن راحته أو عن الإشباع الفوري.

وتتسم المنتجات الحضارية الأمريكية بالمواصفات اللازمة التي تشبع رغبات هذا الإنسان الطبيعي العمومي الأممي. ولعل الدارس لليابان يعرف ماذا يحدث لها، فبعد أجيال من الحديث عن الشنتو والبوذية واحتفال الشاي والكيمونو والكابوكي والنوه والهايكو، وبعد سنين طويلة من التمسك بأهداب الخصوصية، اكتسحت الحضارة الأمريكية الأجيال الجديدة فهم الآن يلبسون التي شيرت ويشربون الكوكاكولا ويأكلون الهامبورغر ويرقصون الديسكو ويجرون عمليات جراحية على عيونهم حتى لا تكون ضيقة مثل عيون الآسيويين. وقل الشيء نفسه عن الدولة اليهودية التي يستند سبب وجودها إلى تحقيق الهوية اليهودية الافتراضية. هذه الدولة اكتسحتها تماما النزعة نحو الأمركة وإن كانوا يدّعون أن هناك هوية يهودية. لذلك، بدلا من أن يأكلوا ماكدونالد يأكلون الماكيفيد، ويا لها من هوية (وحتى هذا الماكديفيد قد تساقط أخيرا هو الآخر وأصبح ماكدونالد لا شبهة فيه. وبنيت في القدس، عاصمة إسرائيل الأبدية كما يقولون، محلات هامبورغر لا تتبع قوانين الطعام الشرعية اليهودية). وانتشار الأمركة في العالم هو تعبير عن هذا الانتقال من مرحلة الخصوصية إلى مرحلة العمومية في المجتمعات القومية العلمانية، وهو ما نشير إليه بالانتقال من مرحلة الصلابة إلى مرحلة السيولة، ومن الحداثة إلى ما بعد الحداثة. وبعد أن كان السوق والمصنع هما العنصران الأساسيان ينضم إليهما قطاع اللذة والاستهلاك الذي نرمز له بالملهى الليلي أو شركة السياحة.

ويجب أن ندرك أن هذه الأمركة ليست مؤامرة أو حتى مخططا، وإنما هو نسق حضاري (أو شبه حضاري) لا يحطم الحضارات الأخرى وحسب بل ويحطم الخصوصية الأمريكية والثقافة الأمريكية ذاتها. فالهامبورغر ليس طعاما أمريكيا والديسكو ليست موسيقى أمريكية وإنما هي أشكال حضارية ظهرت مع انتقال الحضارة العلمانية الأمريكية والثقافة الأمريكية من مرحلة الخصوصية والصلابة والتماسك إلى مرحلة العمومية والسيولة، وهو انتقال يؤدي إلى تحطيم الخصوصيات الأمريكية (حضارة الساحل الشرقي- حضارة وسط أمريكا- حضارة الجنوب...إلخ). وهي حضارات محلية في غاية الثراء، كلها آخذة في التآكل السريع بتأثير عمليات الأمركة والعلمنة (فى هذا المادي). لهذا يمكننا القول بأن الأمركة، في واقع الأمر،

مترادفة مع "العولمة" و"الكوكبة" التي تزيل الحواجز بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والأشياء، ليظهر الإنسان الطبيعي الذي لا خصوصية له ولا هوية.

وقد كانت الولايات المتحدة مرشحة أكثر من غيرها أن تكون حضارة علمانية مادية نماذجية لأسباب تاريخية واقتصادية وسياسية وأخرى ثقافية وفكرية، أي أن هناك مركب من الأسباب المتداخلة، ولكن سنفصلها بعضها عن بعض كضرورة تحليلية، ولنبدأ بالأسباب التاريخية:

١- نقل (ترانسفير) السكان الأصليين من الأماكن التي كان يرغب فيها الإنسان الأبيض إلى مناطق يرغب عنها. كما كان النقل يأخذ أحيانا شكلا أكثر جذرية، إذ كان يتم نقل السكان الأصليين من هذا العالم إلى العالم الآخر عن طريق إبادتهم. ولا يمكن القيام بهذه العملية إلا بإنكار تاريخ هؤلاء الضحايا، فبهذه الطريقة يتحولون إلى أشياء يمكن اجتثاثها ببساطة.
٢- اختطاف مادة بشرية من أفريقيا واقتلاعها من جذورها ونقلها (ترانسفير) إلى الأرض الجديدة لتصبح مادة استعمالية وطاقة عضلية صرف بلا ذاكرة تاريخية أو تراث.

٣- نقل عناصر مهاجرة من أوروبا أساسا (ومن بعض الحضارات الأخرى). والعناصر المهاجرة هي عادة عناصر حركية تبحث عن الحراك الاجتماعي من دون تقيد كبير بأي مطلقات وتترك وراءها ذاكرتها التاريخية لتبدأ من جديد (من نقطة الصفر) في الوطن الجديد. وهي عناصر بشرية تحلم بالعودة الرحمية للفردوس الأرضي ونهاية التاريخ، وبالعيش في مجتمع تسيطر عليه قيم الراحة والاستمتاع الفوري من دون أي إحساس بالذنب أو بالثنائيات أو المطلقات التقليدية. والولايات المتحدة، هذه الأرض العذراء، كانت بمثابة الرحم الأكبر لهم.

ولنلاحظ أن القاسم المشترك الأكبر بين كل هذه الظواهر هو إنكار التاريخ، الذي هو في جوهره إنكار التركيبية الإنسانية مما يؤدي إلى الوقوع في قبضة الصيرورة المادية. وقد أثر كل هذا في التصور الأمريكي للإنسان فعُرّف باعتباره باحثا عن اللذة، أي كائناً جسمانياً، وباعتباره دافعا للضرائب، أي كائنا اقتصاديا، وهو تصور معاد للتاريخ والتركيبية الإنسانية، فهو يختزل الإنسان إلى عنصرين ماديين.

والله أعلم.

***

٥- الإنسان والتـاريـخ

موقع الجزيرة نت 01-11-2007

رؤية الإنسان للتاريخ تعبر عن رؤيته للكون (وللإله والإنسان والطبيعة)، ولذا فدراسة رؤية التاريخ هى فى واقع الأمر دراسة لرؤى الكون (ومن ثم النماذج الإدراكية والتحليلية). وحتى نفهم رؤى التاريخ (والكون) سنطرح إشكالية تواجهها كل الديانات التوحيدية وهي: كيف يخاطب الخالق المخلوقات، فالخالق مطلق والمخلوقات نسبية، والإجابة على هذا السؤال تحدد الموقف من التاريخ؟ فكل عقيدة توحيدية تطرح نقطة تقاطع بين الخالق والمخلوق. في حالة الإسلام نقطة التقاطع هذه ليست الرسول عليه الصلاة والسلام ولا أي فرد وإنما القرآن، فالله سبحانه وتعالى أرسل القرآن هداية للعالمين، والرسول عليه الصلاة والسلام ليس تجسدا لله وإنما هو رسول وحسب، مجرد إنسان يحمل الرسالة. والقرآن هو اللوجوس، أي الكلمة، وهى كلمة بالفعل، كلمة مكتوبة فى كتاب يمكن لأي إنسان أن يقرأه ويفهمه. وقد أشرت إلى أن الرسول مجرد إنسان (رغم أن هناك محاولات حلولية داخل الإسلام لتأليهه، ومن هنا الحديث عن شرب بوله والتبرك بعرقه!) وهو إلى جانب ذلك هو خاتم المرسلين، بمعنى أن الله أرسل لنا الرسالة وقطع على نفسه وعدا بأن يرعانا فهو رحمن رحيم، ولكنه لن يتدخل فى التاريخ الذى أصبح مجال حرية الإنسان، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وبالتالي يصبح التاريخ مجالا للتعارف والتدافع. وكل إنسان قادر على تجاوز السطح المادي انطلاقا إلى قيم إنسانية غير خاضعة لقانون المادة، ولكنه أيضا بوسعه أن يختار أن يذعن لقوانين المادة ويفقد ما يميزه كإنسان. فالإنسان هو الكائن الوحيد القادر على أن يرتفع على ذاته أو يهوى دونها، على عكس الملائكة والحيوانات، فالملائكة لا تملك إلا أن تكون ملائكة والحيوانات هي الأخرى لا تملك إلا أن تكون حيوانات، أما الإنسان فقادر أن يرتفع إلى النجوم أو أن يغوص في الوحل. القرآن هو رسالة مقدسة مدونة في كتاب ليقرأها من يشاء، ويظل التاريخ حيزا مستقلا هو مجال حرية الإنسان يتصارع فيه البشر ويتدافعون.

وقد حلت العقيدة المسيحية مشكلة التواصل بين الخالق والمخلوق بأن جعلت نقطة التقاطع هي شخص المسيح، اللوجوس، ابن الإله، الذي ينزل إلى الأرض ليفدي البشر بدمه وهذا هو التجسد incarnation، مما أدى إلى ظهور إشكالية جوهرية، لأنه حين نزل ابن الإله إلى الأرض وتحول اللاهوت إلى ناسوت، والإلهي إلى إنساني فإنه بذلك دخل في إطار الزمان الدنيوي المادي واقتحم التاريخ الإنساني، فتداخل التاريخ المقدس بالتاريخ الزمني. وقد حاولت

الكنيسة الكاثوليكية أن تحل هذه الإشكالية بأن جعلت الحلول يتركز في فرد واحد وليس فى جماعة بشرية هو المسيح، وهو حلول انتهى بالصلب وصعود المسيح وعودته إلى أبيه في السماء. لكن العقيدة المسيحية تستند إلى حادثة الصلب هذه، فجعلت الكنيسة من نفسها جسد المسيح وأصبح البابا هو صاحب العصمة بمعنى أنها أحاطت الحلول (والمقدس) بحواجز حتى لا يتداخل التاريخ المقدس بالتاريخ الزمني، كما أنها قسمت العالم إلى قسمين: قسم ديني يضم رجال الدين من كرادلة ورهبان وراهبات، وقسم علماني (وهذا أول استخدام للكلمة) يضم بقية البشر وبقية مجالات النشاط الإنساني. وهذا يفسر أنه لا يمكن أن يعلن أي شخص قديسا canonization إلا بعد أن تعقد لجنة لدراسة الموضوع، حتى لا يختلط الحابل بالنابل وحتى لا يدعي أحد أنه موضوع الحلول. ولهذا يلاحظ أن الكنيسة الكاثوليكية عارضت عبر تاريخها الحركات الألفية التي تنادي بأن المسيح سيعود مرة أخرى ليحكم العالم لمدة ألف عام يسود فيها العدل والسلام، فهي عقيدة حلولية تنادي بنهاية التاريخ.

ولكن الإصلاح الديني فتح أبواب الحلول على مصراعيه، فخرج اللوجوس من الكنيسة وأصبح الشعب هو موضوع الحلول، وعبر هذا عن نفسه في عقيدة إلغاء الكهنوت الكنسي وظهر مفهوم كهنوت كل المؤمنين priesthood of all believers، بمعنى أن المؤمن يمكنه التواصل مع الإله مباشرة، لسبب بسيط وهو أن الإله قد حل فيه. (وهذه هي الرؤية اليهودية، كما سنبين فيما بعد). ومن هنا إعجاب البروتستانت الشديد بالعهد القديم، وفي هذا الإطار ظهرت الصهيونية المسيحية. ومع تزايد معدلات الحلول في الإنسان يزداد ذوبان الجزء في الكل والكل في الجزء، والإلة في الإنسان والإنسان في الله، إلى أن يصبح الإله مجرد صوت داخلي يسمعه الإنسان الفرد، أي أن التماهي بين الخالق والمخلوق يصبح كاملا. والنموذج الحلولي يفسر ظهور التفسيرات الحرفية فهي تنطلق من إلغاء المسافة بين الخالق والمخلوق ومن ثم إلغاء المسافة بين المقدس والزمني مما يعني تطابقهما، ولذا يصبح التاريخ الذي يرد في الكتاب المقدس هو نفسه التاريخ الزمني، وأن ما يحدث الآن أمام عيوننا هو ذاته ما حدث من قبل، أو جاءت نبوءاته في الكتاب المقدس، وهذا هو إطار الصهيونية المسيحية.

ولكن حين يصبح التاريخ موضع الحلول فإن إنسانية الإنسان تتلاشى لأنها تكمن حريته فى الاختيار وفى مقدرته على التجاوز، ولذا نجد أن الذي يحدد لنا الهدف من الوجود والاتجاه الذى يجب أن نسير فيه هو الكتاب المرسل من الله وليس التاريخ، ويظل التاريخ هو مجال المحاولة والنجاح والإخفاق. واعتقد أن علم التاريخ ظهر أول ما ظهر داخل المنظومة الإسلامية بسبب هذا، فقد أدرك ابن خلدون التاريخ كبنية تتحرك بهدي من الله ولكن بدون تدخل منه، على عكس

الرؤية المسيحية التي ترى أن التاريخ تعبير عن الإرادة الإلهية فيما يسمى providential history. وعلى عكس رؤية الإغريق القدامى للتاريخ باعتباره دائري وهندسي.

من منظور اليهودية الشعب اليهودي هو ذاته نقطة التقاطع بين الخالق والمخلوق وموضع الحلول والتجسد الإلهي. لقد حل الإله (المطلق) فى الشعب اليهودي (النسبي) الذى أصبح شعباً مختاراً له حظوة خاصة عند الإله، بل وتحول الشعب اليهودي فى هذا المنظور إلى إله وأصبح تاريخه مقدساً لا إنسانياً وفى بعض الأحيان يشار إليه بأنه "شعب مقدس" "وأمه الروح" بل وأحياناً اللوجوس أي الكلمة. كما أن القبالاه (وهى التراث الصوفي الحلولي اليهودي الموغل فى الحلول) يرى الإله باعتباره السفيروت أو التجليات العشر النورانية، ويرى أن الشعب اليهودي هو السفيروت العاشر، أي أنه جزء عضوي من الإله، وهو الحلقة الأخيرة فى التجليات العشر النورانية. فهو جزء من الإله ولكنه يوجد فى هذه الدنيا، وهو الصلة بين الإله وبقية شعوب العالم. وهكذا محيت ثنائية الإله والإنسان تماما بالنسبة للشعب المختار. فحينما يذوب الجزء الإنساني فى الكل الإلهي فإن الإنسان يفقد إنسانيته، ولذا فإن تاريخ الشعب اليهودي الزمني هو ذاته تاريخه المقدس، فتاريخ الملوك وتاريخ الأنبياء هو ذاته تاريخ الشعب اليهودي. ويبدو أن الوجدان الصهيوني يدور في هذا الإطار فهو لا يميز بين التاريخ الزمني والتاريخ المقدس، وتنطلق الخريطة الإدراكية الصهيونية من هذا الافتراض. وهذا بالفعل كارثة معرفية وأخلاقية، تبدت فى سلوك استعلائي وانطوائي بلغ ذروته فى الصهيونية. وقد تأثرت الدراسات التاريخية في الغرب بهذه الرؤية، فكثير من المؤرخين ينطلقون من التاريخ المقدس الذي ورد في التوراة، ثم يجدّون في البحث عن الآثار (التاريخ الزمني) للبرهنة على ما جاء في التوراة (التاريخ المقدس). ولكن يبدو أن علم الآثار الإسرائيلي الجديد بدأ يتخلص من هذه الأساطير.

ويظهر الاختلاف بين الرؤية القرآنية للتاريخ والرؤية التوراتية في قصص الأنبياء، إذ يلاحظ أن القصص "التاريخي" الذي ورد في القرآن لا يرد كاملا (باستثناء قصة سيدنا يوسف) فلا يذكر سوى بعض النقط والوقائع ذات المغزى الأخلاقي، فالهدف من هذه القصص ليس تقرير واقعة تاريخية أو السرد التاريخي، وإنما بعض المعايير الأخلاقية. هذا على عكس الرؤية التوراتية، إذ ترد تواريخ الملوك كاملة، فالتاريخ الزمني هو ذاته التاريخ المقدس، فالشعب اليهودي هو موضع الحلول، اللوجوس الذي يحل محل ابن الله في المسيحية ومحل القرآن في الإسلام.

الباحث التاريخي المدقق عليه أن يتناول التاريخ الزمني بمعزل عن التاريخ المقدس وإن حدث تلاقي بين الاثنين فمرحبا، ولكن نقطة البدء لابد أن تكون التاريخ الزمني وليس التاريخ المقدس. ويلاحظ أنه ظهر اتجاه في بعض الأوساط الإسلامية نحو دمج التاريخ المقدس بالتاريخ الزمني، فقد بدأ البعض يتصور أن تاريخ المسلمين، هو تاريخ إسلامي. مثل هذه الرؤية أصنفها على أنها رؤية حلولية ترى أن الله قد حل في تاريخ المسلمين وتجسد فيه، فاكتسب هذا التاريخ قداسة تجعله غير خاضع للنقد والتساؤل، أي أنها رؤية غير تاريخية للتاريخ، تمزج المقدس بالزمني بحيث يتوحدان فتسود الواحدية وتصفى كل الثنائيات ويصبح التاريخ كتلة واحدة مصمتة متجانسة. وإذا كانت الحلولية تؤدي إلى ذوبان الأجزاء في الكل، فإن هذا التاريخ تتساوى فيه التفاصيل، وتظهر مقولة واحدة وهي أن المسلمين محل رعاية خاصة من الله. وهذه الرؤية لا تختلف كثيرا عن الرؤية اليهودية الحلولية للتاريخ التي أفرزت الصهيونية والعنصرية. وهذا أبعد ما يكون عن الصحة. تاريخ المسلمين ليس تاريخا إسلاميا. هذان أمران مختلفان، فالتاريخ الذي ورد في القرآن يعطينا مجموعة من القيم نحكم بها على التاريخ الزمني، والتاريخ الزمني هو مجال الفوضى والمعارك والسقوط والانتصار.

تاريخ البشر في الزمان هو تاريخ زمني. وأنا كمسلم أؤمن بأن التاريخ هو مجال حرية الإنسان. ومفهوم "خاتم المرسلين" الإسلاميُّ هو، في واقع الأمر، وعدٌ إلهي بأن الله سبحانه وتعالى سيترك الإنسان حرّا في التاريخ. فقد اكتملت الرسالة، ويمكن للإنسان أن يصل إلى الخلاص والهلاك بنفسه. فالتصور الإسلامي للطبيعة البشرية تصور مركب يرى الإنسان داخل إطار تاريخي ولكنه قادر على تجاوزه. فالمسيحية تذهب إلى أن هناك "خطيئة أولى" original sin هي خطيئة آدم وحواء، وأن البشرية بأسرها تعاني من هذه الخطيئة اللصيقة بالوضع الإنساني ذاته، ولذا أصبح الخلاص مستحيلا من خلال الفعل الإنساني، ولذا يحتاج الإنسان لرحمة الإله عن طريق التدخل المباشر فى التاريخ الزمني. ولعله لهذا السبب كان لابد من التجسد، أي أن ينزل الإله من سمائه ليصبح بشرا وكان لابد وأن يصلب المسيح (ابن الإله حسب التصور المسيحي) ليفدي بدمه البشرية ويغسلها من خطاياها. ولذا يذهب اللاهوت المسيحي إلى أننا نموت في آدم ونولد في المسيح. وكان لابد من طقس التناول، أي أن يتناول المسيحي الخبز الذي يتحول حسب التصور المسيحي إلى جسد المسيح ودمه، بحيث تجرى دماء الله في الجسد الإنساني فتغسل خطايا البشر، وكان لابد من ظهور مؤسسة الكنيسة (التي تسمى جسد المسيح) ليصل الإنسان إلى الخلاص "فلا خلاص خارج الكنيسة". ولكن إذا كانت

الخطيئة لصيقة بالطبيعة البشرية ولا خلاص منها من خلال الفعل الإنساني داخل الزمان، فالعالم هو وادي الدموع مما يعني إلغاء التاريخ.

مفهوم الخطيئة في الإسلام مختلف تمام الاختلاف، فلا يوجد سقوط كامل ولا خطيئة أولى وإنما هناك نسيان، فالخير كامن في فطرة الإنسان ولكنه ينساه "نسوا الله فأنساهم أنفسهم". ولذا فالقرآن هو الذكر، حتى يتذكر الإنسان الله، وحين يتذكره فإنه يخرج من حمأة المادة ليصل إلى فضاء إنساني تاريخي فسيح يمكنه أن يختار فيه. في هذا الإطار يمكن للإنسان أن يخطئ ثم يتوب ويقوم بالعمل الصالح فيغفر الله له، فالله يحب التوابين. هذا يعني أن التاريخ (الزمان والدنيا) هو مجال الخطأ والتوبة، هو مجال الفعل الإنساني الذي يمكن الإنسان من خلاله أن يخطئ وأن يصيب ويُثاب، فالخطيئة ليست لصيقة بالطبيعة البشرية، ولذلك فكل ما يحتاجه الإنسان في هذا الإطار ليس ابن الإله الذي ينزل إلى الأرض فيصلب وينزف دمه ليغسل خطايا البشر، وإنما رسول يحمل الرسالة، كلام الإله للبشر، وهم أحرار بعد ذلك في التاريخ. ولا يحتاجون إلى وساطة أو كهنوت. إن التاريخ هو مجال حرية الإنسان.

والله أعلم.

ملاحظة: هذه المقالة نشرت بموقع الجزيرة نت بصفحة المعرفة- وجهات نظر بتاريخ ١ نوفمبر ٢٠٠٧. http://www.aljazeera.net/NR/exeres/1999C052-EA0D-4DD2-B80D-EA61CD465037.html

***

٦- الإنسان والشيء

موقع الجزيرة نت03-07-2008

(آخر مقال كتبه المسيري وأرسله للجزيرة قبل وفاته بساعات)

نحن نعيش في عالم يحولنا إلى أشياء مادية ومساحات لا تتجاوز عالم الحواس الخمسة، إذ تهيمن عليه رؤية مادية للكون .ولنضرب مثلاً بالتي شيرت T-Shirt الذي يرتديه أي طفل أو رجل. إن الرداء الذي كان يُوظَّف في الماضي لستر عورة الإنسان ولوقايته من الحر والبرد، وربما للتعبير عن الهوية، قد وُظِّف في حالة التي شيرت بحيث أصبح الإنسان مساحة لا خصوصية لها غير متجاوزة لعالم الحواس والطبيعة/ المادة، ثم تُوظف هذه المساحة في خدمة شركة الكوكاكولا (على سبيل المثال) وهي عملية توظيف تُفقد المرء هويته وتحيّده بحيث يصبح منتجاً وبائعاً ومستهلكاً، أي أن التي شيرت أصبح آلية كامنة من آليات تحويل الإنسان إلى شيء.

ويمكن قول الشيء نفسه عن المنزل، فهو ليس بأمر محايد أو برئ، كما قد يتراءى للمرء لأول وهلة، فهو عادةً ما يُجسِّد رؤية للكون تؤثر في سلوك من يعيش فيه وتصبغ وجدانه، شاء أم أبى. فإن قَطَنَ الإنسان في منزل بُنِيَ على الطراز المعماري العربي والإسلامي فلا شك أن هذا سيزيده من ثقة في نفسه واعتزازه بهويته وتراثه. ولكننا لا نرى في كثير من المدن من العالم الإسلامي أي مظاهر أو آثار للرؤية العربية الإسلامية (إلا في المسجد) وبدلاً من ذلك أصبح المنزل عملياً وظيفياً، يهدف إلى تحقيق الكفاءة في الحركة والأداء ولا يكترث بالخصوصية، أي أنه مثل التي شيرت أصبح هو الآخر خلواً من الشخصية والعمق. وأثاث هذا المنزل عادةً وظيفي، يلفظ أية خصوصية باسم الوظيفية والبساطة، ولكن البساطة هنا تعني في الواقع غياب الخصوصية) الرؤية المادية تفضل البساطة على الجمال المركب، ومن هنا عبارة "خليك طبيعي ."

ونفس الشيء ينطبق على طعام التيك أواي أو السفاري، هو الآخر يعيد صياغة وجدان الإنسان .الناس هي التي تُعد طعامها بنفسها، ثم يتناولونها سوياً. هذا ما كان سائداً في كل أرجاء العالم بما في ذلك الغرب. أما ظاهرة أكل طعام قد تم إعداده من قبل، ويأكله المرء وهو يسير أو يجري، فهذه ظاهرة جديدة على الجنس البشري، ولابد أن نتنبه إلى الرؤية الكامنة وراءها، فهي رؤية تعتمد السرعة والحركة في الحيز المادي، مقياسا وحيدا، وهي بذلك تحوِّل الإنسان إلى كائن نمطي يشبه الآلة .

إن هذه الوجبة السريعة الحركية تعني التخلي عن مجموعة ضخمة من القيم الإنسانية المهمة مثل أن يجلس المرء مع أعضاء أسرته أو أصدقائه في شكل حلقة ليتناول الطعام معهم فيتحدثون في مواضيع شتى، فالإنسان هو من يأتنس بغيره. ولعل العبارة العامية المصرية "أكلوا عيش وملح سوا" (أي سوياً) تشير إلى مجموعة القيم هذه. وأنا لست من الغباء بحيث أطالب بتحريم أو تجريم هذه الوجبات، فأنا أدرك تماما ضرورة اللجوء لكثير من الإجراءات ذات الطابع المادي (الاقتصادي السياسي) في حياة الإنسان اليومية، والوجبة السريعة كثيرا ما تكون ضرورية، بل وحتمية. ولكن عندما تتحرك هذه الإجراءات المادية إلى المركز وتصبح هي القاعدة والمعيار، نكون قد سقطنا في العلمانية الشاملة. وقد قرأت مؤخراً أن عدد الأقواس الصفراء، علامة ماكدونالد، يفوق عدد الصلبان في العالم الغربي !

وما يهمنا في كل هذا أن بعض المنتجات الحضارية التي قد تبدو بريئة (فهي معظمها حلال)، تؤثر في وجداننا وتعيد صياغة رؤيتنا لأنفسنا وللعالم .

وما قولكم في هذه النجمة السينمائية المغمورة (أو الساطعة) التي تحدثنا عن ذكريات طفولتها وفلسفتها في الحياة وعدد المرات التي تزوجت فيها وخبراتها المتنوعة مع أزواجها، ثم تتناقل الصحف هذه الأخبار وكأنها الحكمة كل الحكمة !وقد تحدثت إحداهن مؤخرا عما سمته "الإغراء الراقي"، مما يدل على عمقها الفكري الذي لا يمكن أن تسبر أغواره .أليس هذا أيضاً هيمنة النموذج المادي على الوجدان والأحلام إذ تحوَّلت النجمة إلى مصدر للقيمة وأصبح أسلوب حياتها هو القدوة التي تُحتذى، وأصبحت أقوالها المرجعية النهائية؟ ومع هذا، تُصر الصحف على أن «فلانة» المغنية أو الراقصة أو عارضة الأزياء لا تختلف في أحكامها وحكمتها عن أحكام وحكمة أحكم الحكماء وأعمق الفلاسفة .والمسكينة لا علاقة لها بأية مرجعية، ولا أية قيمة ولا أية مطلقية، إذ أن رؤيتها للعالم محصورة بحدود جسدها الذي قد يكون فاتناً، ولكنه ولا شك محدود ونسبي. كما أن خبراتها مع أزواجها (رغم أنها قد تكون مثيرة) لا تصلح أساساً لرؤية معرفية أخلاقية (إلا إذا كانت رؤية مادية عدمية ترى أن كل الأمور نسبية). وإذا أخذنا الحكمة من أفواه نجمات السينما والراقصات وملكات الجاذبية الجنسية، فستكون حكمة لها طابعها الخاص الذي لا يمكن أن يُوصف بالروحانية أو الأخلاقية أو ما شابه من أوصاف تقليدية عتيقة! وقد يكون وصف أقوال هذه النجمة بأنها منافية للأخلاق أو للذوق العام وصفاً دقيقاً، ولكنه مع هذا لا يُبيِّن الدور الذي تلعبه النجمة وأفكارها في إعادة صياغة رؤية الإنسان لنفسه وتَصوُّره لذاته وللكون بشكل غير واعٍ- ربما من جانبها ومن جانب المتلقي معا.

ولنتخيل الآن إنساناً يلبس التي شيرت، ويسكن في منزل وظيفي بُني ربما على طريقة البريفاب (الكتل الصماء سابقة الإعداد)، ويأكل طعاماً وظيفياً (هامبورجر -تيك أواي تم طبخه بطريقة نمطية) وينام على سرير وظيفي ويشرب الكوكاكولا، وينام على سرير وظيفي، ويشاهد الإعلانات التجارية، التي تغويه بالاستهلاك والمزيد من استهلاك سلع لا يحتاج إليها في المقام الأول ويعيش في مدينة شوارعها فسيحة عليه أن يجري بسيارته المستوردة بسرعة مائة ميل في الساعة، ويهرع بسيارته من محل عمله لمحلات الطعام التيك أواي ومنها على الشوبنج مول الذي يتسلع البشر ويداوم على مشاهدة الأفلام الأمريكية (إباحية أو غير إباحية) بشراهة غير مادية، ويسمع أخبار النجوم وفضائحهم، ويدمن تلقي الحكمة من النجمات الساطعات أو المغمورات، أفلن يتحول هذا الإنسان إلى إنسان وظيفي متكيف لا تُوجَد في حياته خصوصية أو أسرار، إنسان قادر على تنفيذ كل ما يصدر إليه من أوامر دون أن يثير أية تساؤلات أخلاقية أو فلسفية؟ قد يقيم هذا الإنسان الوظيفي الصلاة في مواقيتها، ولكن كل ما حوله يخلق له بيئة معادية لإدراك مفهوم القيمة المتجاوزة لعالم الحواس الخمس وجدواها .لقد سقط الإنسان في المنظومة المادية واخترقته مجموعة من الأحلام والأوهام والرغبات لا يدرك تضميناتها الاجتماعية والأخلاقية رغم أنها توجِّه وتحدِّد أولوياته دون وعي منه.

ونحن حين نتحدث عن الحضارة المادية فنحن عادةً ما نتصور أننا نتحدث عن الحضارة الغربية وحدها، وهذا خلل ما بعده خلل، ففي الغرب يوجد كثير من المظاهر الإنسانية المتجاوزة لسطح المادة، ففي الغرب موتزارت وبيتهوفن والطعام الفرنسي وكثير من المظاهر المحتفظة بأصالتها وخصوصيتها .

إن المنتجات المادية الحديثة تتميز بكونها معادية للخصوصية، للخصوصية الغربية وللخصوصية الإنسانية .ولنقارن موسيقى الديسكو بالموسيقى الكلاسيكية الغربية والعربية، و"التي شيرت" برداء الإنسان الغربي، ستجد أن منتجات هذه الحضارة المادية التي أسميها "ضد الحضارة" أنها حضارة غير منتمية لأي تشكيل حضاري أو اجتماعي. هي حقا بدأت في الولايات المتحدة لكنها ليست أمريكية، لأن الحضارة الأمريكية الحقيقية حضارة لها سماتها الفريدة، وهناك تقاليد حضارية أمريكية قامت هذه الحضارة الجديدة الضد بتقويضها. ولكن المشكلة أن كل هذه التقاليد وكل هذه الخصوصيات آخذة في التآكل بسبب المد الجارف للحضارة المادية، وهذه حضارة المادية ليست معادية للشرق وحده، بل هي ظاهرة ورؤية أمسكت بتلابيب العالم شرقه وغربه، وشماله وجنوبه، ولا يظنن أحد أننا بمأمن منها ومن عدميتها وعدائها للإنسان.

كل هذا مقدمة لما حدث في عالم الرياضة. إن الرؤية المادية قد تغلغلت في كل مجالات الحياة. خذ على سبيل المثال عالم الرياضة. كانت ممارسة الرياضة في الماضي تهدف إلى تهذيب الجسد والنفس وتدريب الناس على التعاون وتسليتهم في الوقت ذاته، بحيث يقضون وقت الفراغ بطريقة متحضرة. كما أنها على مستوى آخر كانت تدريبا على الصراع الرقيق لتفريغ نزعات البشر العدوانية من خلال قنوات متحضرة .حينما كنت في مدرسة دمنهور الثانوية كان فريق كرة السلة من أهم الفرق على مستوى الجمهورية وكنا نصل للمركز الأول في بعض البطولات إن لم تخني الذاكرة. ولكن ما أذكره جيداً هو أن الأستاذ الحبروك، المشرف على الفرق الرياضية، كان ينصحنا أنه حينما كانت تأتي إحدى الفرق من المراكز المجاورة لنا، وهم عادةً كانوا أدنى منا في المستوى، كان يطلب منا ألا نهزمهم هزيمة ساحقة، بل أن ندعهم يحرزوا بعض الأهداف حتى لا يشعرون بالإحباط. وكنا نشجع فريق كرة القدم الخاص بدمنهور، ولكننا في الوقت ذاته كنا نشجع "اللعبة الحلوة" بغض النظر عن مصدرها. إن ما كان يهيمن علينا ليس النموذج المادي ولا النموذج الداروينى الصارم حيث يكون كل الناس إلا منتصراً أو مهزوم، ولا نموذج السوق وآليات العرض والطلب التي لا تعرف الله أو الإنسان، وإنما نموذج إنساني يقبل حتمية الاختلاف والصراع ولكنه لا يجعلها مرجعيته النهائية، إذ توجد قيم أخرى مثل التراحم والإيمان بإنسانيتنا المشتركة.

ولكن الرياضة انفصلت تدريجيا عن كل هذه القيم لتصبح مرجعية ذاتها، ومنفصلة عن القيمة value free وتصبح معايير الرياضة رياضية، ويصبح إحراز النصر هو الهدف الأعلى والأسفل والوحيد. ونسمع بعد ذلك عن تفرغ اللاعبين تماما للرياضة واحترافهم .والاحتراف يتناقض تماما مع فكره التسلية وتزجية وقت الفراغ واللعب بطريقة إنسانية متحضرة، فهي تجعل الرياضة مركز الحياة .قابلت مرة أحد كبار لاعبي كرة القدم في الولايات المتحدة وهي مختلفة عن كرة القدم في بقية العالم. واللاعبون لابد أن يتمتعوا بلياقة بدنية فائقة، وأجسامهم يجب أن تكون ضخمة وعضلاتهم بارزة حتى يمكنهم تحمل الصدمات. المهم، فتح لي قلبه وتحدث عن بؤسه، وكيف يراقب المدرب كل جوانب حياته العامة والخاصة، فهو يراقب وجباته اليومية ويطلب منه أن يأكل كذا من البروتين وكذا من الخضروات، كما يراقب حياته العاطفية بل والجنسية. فهو لا يمكنه أن يخرج مع صديقته قبل المباراة بأسبوع، ولا يمكنه مضاجعتها أو مضاجعة زوجته. وهو لم يستخدم مصطلح "تشيؤ"، أي أن يتحول الإنسان إلى شيء، ولكن هذا هو أدق وصف لما حدث له. في المدارس الثانوية في الولايات المتحدة، تقوم فرق كرة القدم بدراسة تاكتيكات الفريق الذي سينازلهم من خلال أفلام فيديو يصورونها لمباراة سابقة

له، كما يدرسون أداءهم بنفس الطريقة. هل هذا له علاقة بالتسلية وباللعب، أم أنه ينبع من نموذج مادي صراعي، يجعل الفوز وهزيمة الآخر هو الهدف الوحيد؟ ومن هنا تدفع المكافآت السخية لأعضاء الفريق الفائز .وتنتهي المباريات في الآونة الأخيرة بمعارك يُجرح فيها بعض الناس، بل وقُتل ضابط شرطة في إيطاليا بعد مباراة حامية الوطيس. كل هذا يعني هيمنة النموذج الصراعي وتراجع النموذج الإنساني التراحمي.

وقد اقتحمت أخلاقيات السوق عالم الرياضة فيتم "بيع" لاعب مغربي لنادي إيطالي، ولاعب إيطالي لنادي ليبي وهكذا، وكأننا فى سوق النخاسة. ولذا بدلا من الانتماء إلى الوطن والقيم يصبح الانتماء إلى المال المحرك، الأول للإنسان الاقتصادي .ونسمع بعد ذلك عن عدد كبير من الرياضيين يستخدم المخدرات والأدوية المنشطة الممنوعة لتحقيق النصر .ويتقاضى أعضاء الفريق الفائز مبالغ طائلة مكافأة لهم، وهى مكافآت سخية على أدائهم، قد تصل إلى مرتب أستاذ جامعي لعدة سنوات. بل في إحدى الجولات الرياضية حصل كل عضو من أعضاء الفريق الفائز على سيارة BMW وهذه قمة الأحلام العلمانية !أين كل هذا من قيم التعاون والصراع الرقيق والمرجعية الإنسانية؟ لقد اقتحمت اقتصاديات السوق هذا القطاع تماما، وسيطرت عليه قوانين العرض والطلب والمادية وتم تشيئ الإنسان ونزع القداسة عنه وتحول إلى مادة استعمالية مرنة، ليس فيها من الإنسانية سوى الاسم، أي أن النموذج المادي الصراعي الدارويني قد ساد تماماً. هذه هي مأساة الحضري، الذي وقع صريع هذا النموذج، وسلك سلوكاً متسقاً معه، فهاجت الدنيا ضده؟ والسؤال هو: لماذا هذا الهيجان والتهيج، أليست المسألة مسألة عرض وطلب، وليست مسالة انتماء وطني وإنساني؟! وعلى أية حال بعد الهيجان استقرت الأمور داخل إطار الخصخصة وقبل النادي الأهلي التعويض المالي المناسب عن فقدانه إحدى أشيائه الثمينة.

والله أعلم.

***

٧- التعددية الثقافية والإثنية فى المجتمع الأمريكي

موقع الجزيرة نت 01-07-2007

يدّعي بعض دارسي المجتمع الأمريكي أنه يتسم بالتعددية والتنوع والانفتاح، إلا أن واقع الولايات المتحدة يبيّن أنه مجتمع تسود فيه النمطية بشكل مذهل، مما يؤدي في نهاية الأمر إلى طمس المعالم الخاصة لكل الهويات المختلفة ودمجها في هوية علمانية واحدة. فهذا المجتمع تسوده أسطورة علمانية واحدة، ومعيار قبول اجتماعي علماني عقلاني مادي واحد، وهو معيار يسمح للجميع بالانتماء شريطة أن يتخلوا عن خصوصيتهم الدينية والإثنية، أي عن القسط الأكبر من هويتهم لتحل محلها هوية واحدة. وكلما ازداد تخليهم عن هويتهم، ازدادت أمامهم فرص الحراك الاجتماعي، فما يسود المجتمع ليس تنوعا حقيقاًَ وإنما وحدة عقلانية علمانية عميقة وتنوعاّ إثنياً سطحياً -وهذا هو جوهر "الأمركة". وتبدّت هذه الرؤيا فى فكرة بوتقة الصهر melting pot التي يقفز فيها المهاجرون ثم يخرجون منها وقد نسوا تاريخهم وتراثهم وهويتهم ويتم دمجهم والقضاء على ما قد يكون قد بقي فيهم من رواسب تاريخية أو تراثية قديمة، فيصبحون مواطنين أمريكيين كاملين، عقولهم صفحة جديدة بيضاء مثل صفحة لوك الشمعية.

ولكن لوحظ أنه منذ أواخر الستينات ظهر احتفاء بالإثنيات في الولايات المتحدة. ويمكن تفسير هذا التحول بالإشارة إلى أن المؤسسة الحاكمة أدركت أن صفحة العقل لم تكن بيضاء تماما، وأن بوتقة الصهر تفترض مركزية الواسب Wasp اختصار عبارة (وايت أنجلو ساكسون بروتستانت)، أي بروتستانتي أبيض من أصل أنجلو ساكسوني يتحدث الإنكليزية. وهي فكرة سادت في المجتمع الأمريكي حتى منتصف الستينيات، إذ كان يفترض أن يتأقلم المهاجر تماما وينسى هويته ليصبح أمريكيا قلبا وإن أمكن قالبا. ومن هنا، ظهرت مشكلة السود الذين لم يكن بوسعهم تغيير لون جلدهم وثقافتهم الأفريقية الأمريكية، التى كانت مختلفة بشكل جوهري عن ثقافة الواسب. كما أن الصهاينة بدأوا يتحدثون عن الهوية اليهودية، ثم تدفق مهاجرون من كوريا والصين وأمريكا اللاتينية وبدأوا هم أيضا يتحدثون عن إثنيتهم، فانحسرت أسطورة بوتقة الصهر وظهرت استحالة تنفيذها، فحلت محلها أسطورة أكثر تركيبا وإن كانت لا تقل عنها أحادية، إذ أنه أصبح من الممكن الاحتفاظ بالميراث الإثني أو حتى الديني القديم في الحياة الخاصة طالما أن هذا لا يتعارض مع مقدرة الشخص على الأداء الكفء في الحياة العامة أو مع المنطلقات العامة للجميع، بل ويمكن الاحتفاظ بالهويات الإثنية والدينية فى الحياة العامة طالما

أن ذلك لا يتعارض مع الولاء الأساسي للدولة (ذلك المطلق الذي يلتف حوله العلمانيون الشاملون). هذا يعني أن الدين والإثنية ينكمشان ولا يتناقضان بأية حال مع مرجعية المجتمع النهائية. فيمكن للعربي أن يرقص الدبكة ويأكل الكبة أو الملوخية، ويمكن أن يؤدي الصلاة فى المسجد، طالما أنه يدور فى إطار المرجعية المادية النهائية للمجتمع المبني على التنافس والتى لا ترى الإنسان إلا باعتباره إنساناً اقتصادياً جسمانياً، يدخل حلبة الصراع اليومية. أمّا الأبعاد الإثنية والدينية، فيتم تهميشها وتصبح زخارف مسلية يمكن الاحتفاظ بها، لأنها لا تنطوي على أي تحدٍ للقيم السائدة. وقد أدى هذا الوضع إلى زيادة الإنتاجية، إذ تم ضبط حياة الإنسان الأمريكي الخاصة، فهو تحكمه معايير أخلاقية، دينية أو إثنية، وتنظمه، ثم ينطلق في رقعة الحياة العامة المنفصلة عن القيمة ليقاتل ويتنافس ويتصارع حسب القوانين الداروينية. وهذه خلطة فريدة تسببت في نجاح المجتمع الأمريكي، وإن كان من الملاحظ أن أبناء الجيل الثاني والثالث من المهاجرين يتخلى تدريجيا عن المنظومات الإثنية والأخلاقية التي أتى بها من العالم القديم. كما أن رقعة الحياة الخاصة آخذة في التآكل هي الأخرى، إذ يغزوها الإعلام والمؤسسات التعليمية المختلفة التي تدافع عن حداثة منفصلة عن القيمة فينخرط الجميع في الحياة الاستهلاكية الأمريكية والتمركز حول الذات. ومع هذا يأتي فوج جديد من المهاجرين ينتمون إلى النمط القديم ويدفعون بعجلة الإنتاج الأمريكية. وتظل المرجعية النهائية هي العلمانية الشاملة بإنكارها أي تركيبية إنسانية وباختزالها الإنسان إلى بعض العناصر المادية. وهكذا، تعامل الإثنية ذاتها معاملة الدين، أي يتم الاعتراف بها ما دامت لا تتناقض مع منطلقات المجتمع وقيمه الأساسية ولا تكون إطار لسلوك الإنسان في الحياة العامة.

وثمة أسباب سياسية واجتماعية واقتصادية جعلت الولايات المتحدة مرشحة لأن تكون أول حضارة علمانية شاملة:

١- رقعة الحياة العامة في الولايات المتحدة اتسعت بشكل هائل، وهي حياة تهيمن عليها الحكومة والاحتكارات ووسائل الإعلام وقطاع الاستهلاك التي تشيع قيما مادية نفعية صارمة لا تتسامح البتة مع أي مطلقات إنسانية أو أخلاقية أو دينية. وهي مؤسسات من القوة من حيث أنها تصل إلى الفرد في حياته الخاصة وفي عالم أحلامه ورغباته.

٢-يوجد في الولايات المتحدة دولة قومية مركزية قوية قادرة على الوصل إلى كل أرجاء الرقعة التي تحكمها. ويقال إن طبيعة أمريكا الشمالية المنبسطة، وعدم وجود حواجز طبيعية (جبال وغيرها)، سهلت عملية المركزية هذه.

٣- أصبحت الدولة المركزية دولة متغولة، يتبعها نظام تعليمي قوي قادر على صياغة المواطنين وعلى ترشيدهم وتلقينهم القيم العلمانية. فالكتب المدرسية لا يمكن لها أن تشير إلى أي قيم دينية، فهذا مخالف للدستور، لكنها تشيع القيم النسبية. وأخيرا، بدأت كتب المطالعة تتحدث عن الشذوذ الجنسي (أو الجنسمثلية) باعتباره شكلا من أشكال الاتصال المشروع.

وتعتمد هذه الكتب النظرية الداروينية في أصل الأنواع باعتبارها نظرية علمية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، ولذا لا يمكن الإشارة إلى نظرية الخلق الإلهي. وحينما حاولت بعض الجماعات الدينية أن تذكر الكتب الدراسية نظرية أخرى في أصل الأنواع وهي نظرية التصميم الذكي intelligent design والتى تستند إلى أساس علمي لا يقل مصداقية عن الأدلة التى يأتي بها الداروينيون، رفضت المحكمة العليا هذا الطلب!

٤- ثمة أسباب اقتصادية متداخلة مع الأسباب التاريخية، فالولايات المتحدة لا تعرف في تاريخها القصير إلا نمطاً اقتصادياً واحداً هو الرأسمالية المبنية على التنافس والفردية والقيم البراجماتية والداروينية والنيتشوية. فهي لا تعرف نظاما إقطاعيا سابقا، على قمته طبقة أرستقراطية تدين بالولاء لبعض المقولات غير المادية، مثل المكانة والفروسية والأريحية والجماعية والاهتمام بالزراعة، باعتبارها عملا نبيلا، واحتقار التجارة والبزنس.

٥- وإذا كان السوق هو الإطار الأساسي للحضارة في الولايات المتحدة، فإن المصنع هو الجانب الآخر، خصوصا بعد تطوير خط التجميع. فالمصنع يقوم بعلمنة العمل والإيقاع الإنساني تماما ولا يعترف بأي خصوصيات. ويذهب ماكس فيبر إلى أن الترشيد الكامل هو تحويل العالم إلى حالة السوق والمصنع، وقد وصلت الولايات المتحدة إلى هذه المرحلة بطريقة نماذجية تقريبا.

٦- وتشجع الخلفية البروتستانتية للحضارة الأمريكية (التي لا يسبقها تراث كاثوليكي) على الفردية وعلى الخلاص الشخصي وإنكار أهمية الجماعة، وعلى تمجيد قيم المنافسة ومراكمة الثروة. ولكننا بهذا نكون قد تحركنا من المجال الاقتصادي إلى المجال الديني والثقافي.

٧- يمكن القول إن الأسباب الثقافية والسياسية والتاريخية متداخلة لدرجة لا يمكن الفصل بينهم إلا كضرورة تحليلية. ينص إعلان استقلال أمريكا على فصل الدولة عن الكنيسة وهمشت الدين تماما حتى أصبح شأنه من شئون الضمير. وفي عام ١٨٤٠، اعترض المواطنون في ولاية

نورث كارولينا على إشارة حاكم الولاية للثالوث المسيحي في دعاء عيد الشكر، وتم استبعاد أي إشارات دينية من الحياة العامة.

ولم تسيطر الرموز المسيحية على الولايات المتحدة، ولم تختلط بالرموز القومية إلا لفترة قصيرة من تاريخها. وتمت علمنة الرموز تماما حتى وصلنا إلى مرحلة أصبح من المستحيل على المسيحيين أن يبنوا تماثيل صغيرة تبين منظر مولد المسيح في الحدائق العامة باعتبار أنها ملكية عامة، ولذا فهي خاضعة للدستور الأمريكي الذي يفصل الدين عن الدولة. وتم فصل أي مطلقات أخلاقية في الولايات المتحدة منذ البداية عن كثير من نشاطات الإنسان، إذ ساد تماما الاقتصاد الرأسمالي الحر الذي يستند إلى آليات السوق والبيع والشراء وسادت الفلسفة البراجماتية التي ترفض التجاوز ثم سادت معها الفلسفة الداروينية الاجتماعية.

كل هذه العوامل أدت إلى ظهور مجتمع علماني نماذجي أو شبه نماذجي وظهور فكر علماني شامل صرف. ومن هنا ظهور الداروينية الاجتماعية والبرجماتية وهيمنتهما على المجتمع الأمريكي. وهي فلسفات علمانية شاملة شرسة. جوهرها إنكار أي قيم متجاوزة ثابتة، إذ يصبح العالم حلبة صراع بين بشر نيتشويين (سوبرمان وفوق البشر) يبطشون بالآخرين (ويفرضون إرادتهم على الواقع وعلى الآخرين) من جهة، ومن جهة أخرى بشر خانعين (سبمن Submen دون البشر) عليهم التكيف مع الأمر الواقع (الذي خلقته إرادة الأقوياء) من دون أي تجاوز، أي أن ما يظهر هنا هو نماذج بشرية تجسد الواحدية المادية. وكان من الممكن حصار هذا الاتجاه المتطرف نحو العلمنة الشاملة وتحييده لو كانت توجد تقاليد حضارية وتاريخية سابقة تولد ضربا من التركيب وتفرض قدرا من الثنائية. لكن الولايات المتحدة كانت بالفعل "صفحة بيضاء" بلا ذاكرة تاريخية، من السهل أن يتبلور فيها النموذج العلماني الشامل بواحديته المادية ليقترب من اللحظة النماذجية (لحظة الصفر العلمانية) من دون مقاومة تذكر من أي تقاليد أخلاقية أو حضارية أخرى، ومن دون أي عوائق فكرية تقف في طريقه.

وقد يقول البعض إن ما يهيمن على الولايات المتحدة الأمريكية ويحركها فى الوقت الحاضر ليس العلمانية الشاملة أو الحداثة الداروينية، وإنما حس ديني وأن النخبة الحاكمة تأخذ هذا في الاعتبار حين تتخذ قرارا ما. فأنا لا اوافق على هذا القول. فما يحكم الولايات المتحدة في الوقت الحاضر تحالف بين الشركات الكبرى مثل إنرون وهاليبرتون وشركات البترول، وهو تحالف قريب جدا من النخبة الحاكمة، بل يصعب التمييز بين المجموعتين. ويعبر المحافظون الجدد عن فكر ومصالح هذا التحالف. كل المحافظين الجدد من العلمانيين، ورغم أن معظمهم يهود،

فأغلبهم ما يطلق عليه يهود إثنيون أو علمانيون أو ملحدون، وهؤلاء ينظرون لليهودية باعتبارها شكل من أشكال الفلكلور. هذه المجموعة تدرك أهمية العنصر الديني في تحريك الجماهير. فقاموا بتوظيف الصحوة الدينية المسيحية هناك فيما يسمى الصهيونية المسيحية، وهي شكل من أشكال الاحتجاج على التدهور الأخلاقي في المجتمع الأمريكي الذي أصبح حسب وصف أحد المحللين "مجتمع الانفلات". ولكن هذه الصحوة الدينية لا تتسم بذكاء شديد. فالصهاينة المسيحيون يدافعون عن الأسرة والتماسك الاجتماعي ويتصدون للشذوذ الجنسي ويصوتون ضد الاعتراف بالزواج المثلي، ولكنهم بسبب سذاجتهم وضحالة ثقافتهم السياسية لا يرون أي علاقة بين القيم التي يدافعون عنها من جهة، ومن جهة أخرى سياسة أمريكا الخارجية العدوانية. كما أنهم لا يدركون أن اعتمادات ميزانيات الدفاع الضخمة وإخفاق الدولة الأمريكية في مواجهة إعصار كاترينا وتخفيض المعونات الصحية وتدهور نظام الرعاية الصحية هو نتيجة رؤية النخبة الحاكمة الإمبريالية والتى تكلف الميزانية الأمريكية مئات البلايين من الدولارات بسبب مغامراتها العسكرية الفاشلة والتى تهدف إلى خدمة مصالح أصحاب الشركات الكبرى. وهم يدافعون عن سياسة السوق الحر والليبرالية الاقتصادية وآليات العرض والطلب والمنافسة، ولا يرون علاقة هذا بالنسبية الأخلاقية المتفشية والإباحية المتزايدة في وسائل الإعلام، وبالحداثة الداروينية ككل. كما أن جماهير الصهيونية المسيحية يأتون من الكنائس الشعبوية التي ينتمي إليها أعضاء الطبقات المتوسطة الدنيا، وهؤلاء ثقافتهم مستمدة من التليفزيون، خاصة الفضائيات الإنجيلية، ومن الصحف المحلية التي لا تعرف شيئا عن العالم. وبسبب جهلهم يسقطون في التفسيرات الحرفية التى يمكن توظيفها بسهولة فى خدمة أي هدف أو غرض، ومن هنا تأييدهم للدولة الصهيونية الأمر الذي تشجعه بطبيعة الحال النخبة الحاكمة.

والله أعلم.

***

٨- التناقض بين السفارد والأشكناز

موقع الجزيرة نت ٢٠٠٧-١٢-٠١

رغم أن كلاً من السفارد والأشكناز يُشار إليهم على أنهم "يهود" بشكل عام، ورغم أن كلا الفريقين تبنى التلمود البابلي (وليس الفلسطيني) مرجعاً وحيداً في الأمور الدينية، فقد ظلت بعض نقط الاختلاف، بعضها سطحي والآخر عميق، تعود إلى اختلاف البيئات الحضارية التي يعيش في كنفها أعضاء الجماعات اليهودية السفاردية والأشكنازية. فقد كان ليهود إسبانيا طريقتهم الخاصة في الصلاة وإقامة الشعائر الدينية التي تُعَدُّ استمراراً للتقاليد الدينية اليهودية التي نشأت وتطورت في بابل. أما الإشكناز، فتعود عبادتهم أساساً إلى أصول يهودية فلسطينية. وقد تعمَّقت الفروق بين الفريقين نتيجة تأثر السفارد في عبادتهم وتلاوتهم وترتيلهم وإنشادهم بالذوق العربي، كما انفردوا بنصوص شعرية ونثرية في أدعيتهم وصلواتهم قريبة الشبه بما يماثلها عند المسلمين.

ويمكن حصر أهم نقط الاختلاف فيما يلي:

١- بعض الاختلافات العامة:

أ- يُلاحظ أن السفارد، بسبب مستواهم الثقافي العالي، يتسمون باتساع الأفق، أما الإشكناز فلم ينفتحوا على الحضارات التي عاشوا بين ظهرانيها برغم تأثرهم بها، وانغلقوا على الكتاب المقدَّس والتلمود وعلى تفسير النصوص الجزئية.

ب- لم يحاول الإشكناز جَمْع الشريعة وتقنينها والتوصل إلى مبادئها العامة، على عكس السفارد الذين فعلوا ذلك نتيجة لاحتكاكهم بالحضارة الإسلامية ومفهوم أصول الدين.

ج- يُلاحَظ أن التأثير الفكري للسفارد في الإشكناز كان عميقاً. فرغم أن بدايات القبَّالاه إشكنازية، فإن تَحوُّلها إلى نسق متكامل في قبَّالاة الزوهار ثم القبَّالاه اللوريانية تم على يد السفارد، بل إن الفكر القبَّالي ذاته يكاد يكون فكراً سفاردياً، وهو الذي اكتسح الفكر الحاخامي الإشكنازي. كما أن أهم كتب الشريعة اليهودية الشولحان عاروخ (بالعربية: المائدة المنضودة)، وهو المصنف التشريعي الذي وضعه يوسف كارو السفاردي في أسبانيا كتاب سفاردي كتب عليه أحد الإشكناز شروحاً وتعليقات.

د- لاحَظ أحد المفكرين أثر الفكر المسيحي في الفكر الديني للإشكناز، فظاهرة الاستشهاد فيما يُعرَف بمصطلح «تقديس الاسم» (بالعبرية: «قيدوش هاشيم») هي ظاهرة إشكنازية لعلها

جاءت نتيجة تأثير واقعة الصلب في المسيحية على اليهود. أما المارانية، وهي شكل من أشكال التَقية، فهي ظاهرة سفاردية. ويمكن ملاحظة تأثير الفكر المسيحي في الحسيدية أيضاً، على عكس الفكر السفاردي الذي تأثر في بعض جوانبه بالفكر الديني الإسلامي.

ﻫ- ومن الظواهر التي تستحق التسجيل أن المشيحانية، أي عودة المسيح المخلص اليهودي (الماشيحّ) آخر الأيام ليقود شعبه إلى صهيون ويحكم العالم، وهي في واقع الأمر ظاهرة تعبر عن إحباط الجماهير، هي حركة إشكنازية بالدرجة الأولى رغم أن الفكر القبَّالي فكر سفاردي، ورغم أن شبتاي تسفي (أول ماشيَّح دجال في العصر الحديث) سفاردي. كما أن قيادة هذه الحركات انتقلت إلى الغرب بعد حركة شبتاي تسفي. فجيكوب فرانك إشكنازي (رغم تَبنِّيه بعض الأساليب السفاردية، ورغم أن أعداءه سموه «فرانك»، أي "السفاردي" باليديشية). والحركة الحسيدية أيضاً حركة إشكنازية. ولعل تعدد المسحاء الدجالين بين الأشكناز يعود على وضع أعضاء الجماعات اليهودية المتردي في الغرب، على عكس وضع أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الإسلامي.

و- يُلاحَظ أيضاً أنه بعد سنوات من التبعية للفكر السفاردي وبدأ الإشكناز في الإبداع في مجال الفكر الديني والدنيوي، فظهرت حركة التنوير في صفوفهم، كما ظهر بينهم علم اليهودية، وكذلك جميع الحركات الدينية في اليهودية الإصلاحية والمحافظة والأرثوذكسية والتجديدية.

ز- تختلف المصطلحات الدينية بين الأشكناز والسفارد على النحو التالي:

المصطلح	سفاردي	إشكنازي
صلاة العشاء	عربت	معاريف
تابوت العهد	هيكل	آرون
صلاة عيد الفصح	هاجاداه	سيدر
يوم الغفران	كيبور	يوم كيبور
حاخام	ربي / راف	راباي
كتاب صلاة	تيفيلوت	سيدور

ح- يستخدم السفارد الخس في عيد الفصح، باعتباره أحد الأعشاب المرة التي تؤكل في هذه المناسبة بدلاً من الفجل الحار الذي يستخدمه الأشكناز.

٢- الصلاة بين اليهود الشرقيين والغربيين:

تختلف صيغ الصلاة عند كل من السفارد والأشكناز، ولذا يرفض كل منهما الصلاة في معبد الآخر. فثمة اختلافات في تصوري طفيفة، ولكنها تسبب معارك فيما بينهم. فمعمار المعبد السفاردي يختلف، في بعض التفاصيل عن معمار المعبد الإشكنازي، وهذا يترك أثره على طريقة أداء الصلاة. ويرفع السفارد مخطوطة التوراة قبل قراءتها، على عكس الأشكناز الذين يفعلون ذلك بعدها، كما يلاحظ أن الخط المستخدم في كتابة مخطوطة التوراة مختلف. وتقول صحيفة هآرتس في تحقيقها عن الخلافات الفقهية بين السفارد والأشكناز إن "كل طائفة لها صيغ في الصلوات تختلف تماما عن صيغ الطائفة الأخرى، الأمر الذي جعل اليهودي الشرقي لا يصلي في معبد اليهودي الغربي، وذلك بالرغم من أن الديانة اليهودية واحدة والشعب اليهودي واحد! لقد فشلت حتى التوراة في التوحيد بين اليهود الأصوليين من كلا الطائفتين، وجمعهم في معبد واحد وعلى صيغة صلاة واحدة. وقد جرت محاولات عديدة لتوحيد صيغ الصلوات جوبهت جميعا بالرفض من جانب حاخامات السفارد. ومن أبرز هذه المحاولات تلك التي قام بها الحاخام الأكبر بالجيش الإسرائيلي شلومو جورن حيث فرض صيغة صلاة موحدة على أفراد الجيش الإسرائيلي من كلتا الطائفتين. ولكن عندما انتخب حاخام الإشكناز الأكبر عام ١٩٧١، ثم انتخب الحاخام عوفديا يوسف حاخام السفارد الأكبر، أخذت المواجهة تحتدم بين الاثنين حول هذه الصيغة الموحدة. فقد قال الحاخام يوسف إن صيغة الصلاة الموحدة التي فرضها جورن ليست إلا صيغة الصلاة الإشكنازية باستثناء بعض التغييرات الطفيفة غير ذات القيمة. وطالب يوسف المجندين الذين ينتمون إلى الطوائف الشرقية بالصلاة وفق الصيغ المتبعة في طوائفهم. ونجح الحاخام يوسف في إبطال صيغة الصلاة الموحدة داخل الجيش الإسرائيلي حيث قام أتباعه بتسريب صيغ صلوات داخل معسكرات الجيش كتبها عوفديا يوسف بنفسه.

٣- الزواج:

من أبرز وأشد مواضيع الخلاف بين االسفارد والإشكناز، موضوع الزواج، إذ لازال يحرم على السفاردي الحريدي (الأصولي والمحافظ دينياً) حتى الآن الزواج من إشكنازية وكذلك العكس. والزواج بين الحريديم عموما، الإشكناز واالسفارد، يتم بالوساطة. وكما تكشف الصحيفة المذكورة، فقد وزع منذ تسعة أعوام في كل من القدس ومدينة بني باراك الحريدية كتيبا مجهولا جاء فيه: "أن أبناء من يتزوجون من سفاردية هم "أبناء حُيّض" وأن كل السفارد بناء على ذلك أنجاس أبناء حوائض". وقد وزع هذا الكتيب الذي يحمل هذه الفتوى بعد أن أصدر الحاخام عوفديا يوسف فتوى عن طهارة الأسرة، أمر فيها النساء السفارديات بالالتزام بما جاء في كتاب الشولحان (شولحان عاروخ) بشأن فترة العدة الخاصة بالحيض. وينص الكتاب على أن فترة الحيض هي من ثلاثة حتى أربعة أيام (حتى فترة انقطاع أي أثر للطمث)،

فضلا عن سبعة أيام أخرى تتأكد فيها المرأة السفاردية من عدم وجود أثر للطمث تماما. وفي هذه الأيام السبع تحرم المعاشرة الجنسية، أي أن إجمالي فترة الحيض عند السفارد تبلغ من عشرة إلى أحد عشر يوما، أما عند الإشكناز ففترة الحيض تبلغ خمسة أيام على الأقل حتى انقطاع الطمث ثم سبعة أيام أخرى تتأكد فيها المرأة الإشكنازية من عدم وجود أية آثار للطمث تماما، وفيها تحرم أيضا المعاشرة الجنسية، أي أن فترة الحيض عند المرأة الإشكنازية تبلغ اثنى عشر يوما على الأقل. ومن هنا يتهم الإشكناز السفارد بأنهم ناقصو طهارة.

ولا يقتصر الخلاف في موضوع الزواج حول فترة العدة فقط، وإنما هناك خلافا أيضا حول موضوع غطاء الرأس. وفي هذا فإن النساء السفارديات أكثر تشددا والتزاما حيث يعتمدن على فتوى الحاخام يوسف الذي حرّم فيها عليهن ارتداء الباروكات وطالبهن بوضع غطاء للرأس وفقا للقاعدة الأصولية الواردة بكتاب الشولحان عاروخ والتي تقول "إن شعر المرأة عورة". أما النساء الإشكنازيات فلا يضعن غطاء للرأس ويرتدين الباروكة.

ويلاحظ هنا أن التعصب في موضوع الزواج يشمل أيضا موضوع تسجيل الزيجات. فتسجيل الزواج عند السفارد لابد وأن يتم على أيدي حاخام سفاردي. وكذلك عند الإشكناز لا يتم إلا عند حاخام إشكنازي.

ثم تتعرض الصحيفة إلى المشكلة العضال في هذا الموضوع وهو تعدد الزوجات. فتكشف الصحيفة: "أن هناك حاخاما إشكنازيا يدعي جرشوم ولد وعاش في ألمانيا في القرن العاشر الميلادي حرّم تعدد الزوجات. وقد قبلت الجاليات الإشكنازية فى أوربا هذا التحريم، أما الجاليات السفاردية عموما (والجالية اليمنية خصوصا) فقد رفضتها. واعتاد حاخامات السفارد بالدول الإسلامية في ذلك الوقت على الزواج من عدة نساء وظلوا على هذا النحو حتى القرن الماضي. ومع قيام الحاخامية الكبرى في عام ١٩٢١ في فلسطين في عصر الانتداب تمسك حاخامات الإشكناز بتعليمات جرشوم الخاصة بتحريم تعدد الزوجات، ونصت الشريعة الإشكنازية على عدم منح الترخيص بالزواج من ثانية إلا بموافقة وتوقيع ١٠٠ حاخاما من ثلاثة دول. وبعد قيام الدولة العبرية ازدادت معارضة الحاخامات السفارد خاصة بعد هجرة مئات الآلاف من يهود السفارد من الدول العربية إلى فلسطين. وقد اضطر الحاخام الأكبر الإشكنازي إسحاق هرتزوج (الذي كان قد عُيّن في هذا المنصب عام ١٩٣٩ تحت الضغط) إلى الموافقة على اقتصار الترخيص بالزواج من ثانية على توقيع الحاخامين الأكبرين فقط، بدلا من ١٠٠ حاخاما. وبطبيعة الحال وافق نظيره السفاردي على هذا القرار. ورغم ذلك ظلت معارضة الحاخامات الإشكناز لهذا الإجراء الجديد وللتوقيع على تراخيص الزواج، الأمر الذي عمق من شقة الخلاف بين السفارد والإشكناريم.

٤- الاختلاف بخصوص الذبح الشرعي وتركيبة النبيذ:

لا يأكل اليهود الأصوليون من السفارد والأشكناز من اللحم الذي ذبح على يد حاخام من الطائفة الأخرى، إذ يرى أعضاء كل فريق أن الفريق الآخر عنده مشكلة في طريقة الذبح إلى جانب مشاكل أخرى.

وقد أشارت الصحيفة إلى إسهام المصالح الاقتصادية في الإبقاء على الانقسام الطائفي بل وفي تعميقه، حيث أصبحت توجد الآن سلخانة في كل طائفة حسيدية (أصولية) إشكنازية كتلك الخاصة، "بطائفة اللتوانيين"، التي يرأسها الحاخام إليعازر شاخ.

ولم تقتصر الخلافات بين الإشكناز والسفارد في مجال الطعام على اللحوم فقط وإنما حول النبيذ أيضا. فعلى الرغم من أن التوراة تحرم الخمور إلا أن كل اليهود الأصوليين، السفارد والإشكناز، يبيحون شرابه لكنهم يختلفون حول تركيبته. وقد صرّح أحد الحاخامات أن النبيذ الذي يحمل ترخيصاً شرعياً وأُنتج بمعمل خمور أشكنازي شرعي، هو مجرد ماء بالنسبة له.

وترد صحيفة هاآرتس هذه الخلافات بين السفارد والأشكناز إلى خلفيتهما التاريخية، الذي يعني في واقع الأمر أن لكل فريق منهم هوية دينية مختلفة عن هوية الآخر، وأنه يرى ضرورة الحفاظ عليها. كما تذهب الصحيفة إلى تفسير الصراع السفاردي الأشكنازي على أساس أن السفارد يرفضون ما يصفونه بهيمنة الشريعة الإشكنازية على إسرائيل، من أجل التحرر من ربقتها واستعادة ما يصفونه بـ "مجدهم التليد". "فالخلاف بين الطائفتين -في تصور الجريدة- ليس مسألة خلاف حول العادات والتقاليد والطباع فقط، وإنما هو خلاف حول الشرائع والأحكام. فالإشكناز يطعنون في كتاب الشولحان عاروخ الذي يعتبر مرجعية السفارد الأوحد. وكذلك يطعنون في شرائع مقررة وفتاوى شرعية وردت بفصول المشنا الست: البذور والعيد والنساء والأضرار والمقدسات والطهارة، وهي التي قامت عليها كل فصول التلمود. بل أنهم أضافوا إلى أحكام كتاب الشولحان عاروخ أغلالا وقيودا غير واردة به، فضلا عن تعديلات وأحكام مشددة. وإن كان الإشكناز يعترفون بمرجعية هذا الكتاب إلا أنهم يتصرفون ويتبعون عمليا تفسيرات وشروح حاخامهم موشي إيسيرليز، وهم ينتمون بجذورهم إلى هذا الحاخام وشروحه وتفسيراته في حين ينتمي السفارد بجذورهم إلى الحاخام يوسف كارو وإلى موسى بن ميمون وإلى الحاخام إسحاق الفاسي، بل وإلى حاخامات العصر البابلي وحكماء التلمود. والسفارد يعتبرون الشريعة الإشكنازية مجرد فرع تفرع عن جذعهم.

وحيثما يجري الحديث، والكلام لازال للصحيفة، في دوائر الحاخاميين الإشكناز والسفارد حاليا عن "دولة الشريعة" وعن "استعادة المجد الضائع" فإن كل واحد من هؤلاء الحاخامات يعني شيئا آخرا مختلفا عما يعني الآخر. فالإشكناز يعنون استمرار فرض هيمنة شريعتهم، والسفارد

لا يعنون بذلك إعادة اليهود إلى دينهم ودعوتهم للتمسك بالشريعة كما يبدو للعلمانيين، وإنما يعنون إعادة هيمنة الشريعة السفاردية وسيطرتها كما كان الحال في عصور ما قبل قيام الدولة. فهم يعتبرون أن الإشكناز سلبوهم الريادة ومركز الصدارة الذي يستحقونه. إنهم لا يريدون المساواة مع الأشكناز وإنما يريدون السلطة بكاملها.

والله أعلم.

ملاحظة: هذه المقالة نشرت بموقع الجزيرة نت بصفحة المعرفة- وجهات نظر بتاريخ ١ ديسمبر ٢٠٠٧.

http://www.aljazeera.net/NR/exeres/1999C052-EA0D-4DD2-B80D-EA61CD465037.html

***

٩- الحجاب بين الدين والمجتمع*

جريدة المصري اليوم02-12-2006

لابد أن أبدأ هذا المقال بتأكيد أهمية الحوار بين أبناء الوطن الواحد وإلا سقطنا كلنا فى صراع يستنزف قوانا .ومن هنا الإصرار على التغيير والإصلاح الدستورى وإطلاق حرية تأسيس الأحزاب وإلغاء الأحكام العرفية حتى يمكن لكل ألوان الطيف السياسى أن تعبر عن الإرادة الشعبية دون خوف من البطش الأمنى ومن خلال حوار ديموقراطى سلمى. ولكن هذه الحرية، شأنها شأن أى شكل آخر من أشكال الحرية، ليست مطلقة، إذ أن أى تيار أو تنظيم سياسى يريد أن يشارك فى العملية السياسية الديموقراطية عليه أن يلتزم بقواعدا اللعبة، وبتداول السلطة، ولا يحاول أن يجلس على العرش مدى الحياة وكأنه امبراطور الصين العظيم. ولذا من الضرورى أن تُسن القوانين وتوضع الضوابط والآليات التى تضمن التزام الجميع بهذه القواعد.

كما أود أن أؤكد احترامى للسيد الوزير فاروق حسنى، فأنا معجب به عن بعد، فلم ألتق به سوى بضعة لقاءات قليلة قصيرة عابرة فى مناسبات رسمية. فأنا أعرف الجهود التى تبذلها وزارته فى عملية ترميم الآثار الفرعونية والقبطية والإسلامية وبناء المتاحف وحماية الآثار الفرعونية من السرقة.

بعد كل هذه المقدمات أحب أن أتوجه إلى تصريحات السيد الوزير بخصوص الحجاب، وأنا مثله، ومثل الكثيرين من أبناء جيلى، لا أعرف الكثير عن الرأى الفقهى فى مسالة الحجاب. وحين أقول "الرأى الفقهى"، فأنا لا أتحدث عن "احتكار السلطة والتشريع" كما قد يظن البعض. فأنا كمتخصص فى النقد الأدبى، أدرك تماماً ضرورة أن يكون الناقد على إلمام بقواعد النقد ولغته وتراثه ونظرياته وآلياته حتى يكون مؤهلاً لأن يقدم رؤية مركبة مستندة إلى قراءة متفحصة للنص الذى يدرسه، وإلا كان نقده عبارة عن انطباعات متناثرة ذاتية. وأزعم أننى متابع جيد للحركة الفنية التشكيلية، ومعجب بأعمال كثير من الفنانين، ولكننى حينما يسألنى أحد الصحفيين عن رأيى فى هذا الفنان أو ذاك، فإنى أنبهه أننى لست متخصصاً، وأن ما أقوله هو رأى انطباعى لأننى غير مؤهل لإصدار حكم نقدى مركب. بعد كل هذه التحفظات أدلى برأيى باعتبارى أحد المهتمين الهواة وحسب. وهذه ليست دعوة لاحتكار السلطة النقدية وإنما توضيح لحدود أحكامى التى أصدرها فى هذا المجال .

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للنقد الأدبى والنقد الفنى، فلابد وأن نطبق نفس القواعد على أمر فى أهمية الشئون الدينية، أليس كذلك؟! لكل هذا سألت أحد أصدقائى عن الرأى الفقهى فى قضية الحجاب، وصديقى هذا ليس من رجال الدين ولكنه يعرف هذه الأمور أكثر منى فقال : "الحديث النبوي الأكثر شيوعاً حول شكل الحجاب وحدوده هو حديث النبي (صلى الله عليه وسلم (للسيدة أسماء بنت أبي أبكر الصديق رضي الله عنهما، وهو بالمعنى: إذا بلغت المرأة المحيض، فلا ينبغي أن يرى منها إلا هذا وهذا، وأشار عليه الصلاة والسلام إلى الوجه والكفين. هذه الرواية أو الحديث فيه ضعف من حيث أنه "منقطع"، أي أن الصحابي الذي روى عن السيدة أسماء مجهول.

ثم استطرد صديقى قائلاً: "بيد أن التوصيف العام لما ينبغي أن يُستر من المرأة – في رواية أسماء- متفق بشكل عام مع التوجيهات والأوامر القرآنية حول الموضوع. ومنها الآية التالية: "وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ... ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون" (سورة النور: ٣١) . والجيوب هي الفتحات، فتحات العنق والصدر، والإبطين، والساقين. والخمر جمع خمار هي أغطية الرأس والصدر.

ومن الآيات الأخرى آية "وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ..." (الأحزاب: ٣٣)، وآية "يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما" (الأحزاب: ٥٩) .والجلابيب، كما نعرف، هي القمصان الطويلة المسدلة إلى القدمين.

وقد استنتج صديقى من كل هذا ما يلى" :هذه الآيات مجتمعة تحدد الإطار العام للستر المنافي لتبرج الجاهلية والمانع للإثارة والاستفزاز الذي يختزل إنسانية المرأة وعقلها وشخصيتها ويلغي دورها الاجتماعي والإنساني إلى مجرد مصدر للاستفزاز الغرائزي". ويجب أن أشير إلى أن هناك من المدافعين عن الحجاب من يرى أنه بالفعل فرض ولكنه جزء من كل، وأنه فى إطار فقه الأولويات لا يعد أولوية كبرى، فهناك أولويات إسلامية أخرى مثل إقامة العدل فى الأرض والحرب ضد الفساد ومقاومة المستعمر..إلخ. وكما قال فضيلة المرشد العام للإخوان المسلمين: "الجميع يعلم أن الحجاب فريضة إسلامية، ومع هذا فالقضية أخذت أكثر مما

تستحق. فمصر تعانى من مشاكل وأزمات أكبر وأخطر ألف مرة من الحجاب مثل الاستبداد والفقر والبطالة والفساد والتدهور الخطير فى التعليم والصحة".

وحيث أن الوزير فاروق حسنى ليس من المتفقهين فى أمور الدين مثلى، فأنا أصدقه تماماً حين قال إنه لم يكن يصدر حكماً دينياً. إذن، كيف يمكن تصنيف تصريحه أو دردشته (على حد قوله)؟ أعتقد أننى لن أجانب الصواب كثيراً حين أقول إنه كان يصدر حكماً ثقافياً حضارياً، فالتخلف مقولة اجتماعية حضارية، والجاهلية والردة تماماً مثل النهضة والاستنارة هى مصطلحات ذات مضمون ثقافى وحضارى غير دينى فى الخطاب التحليلى المصرى المعاصر. ولذا فلنتناول الموضوع من هذا المنظور!

إن من يصفون الحجاب بأنه مظهر من مظاهر التخلف يزنون كلماتهم، ووزير الثقافة واحد منهم. وحيث أنه يحاول أن يدفع هذا البلد فى طريق التقدم، فإنه بلا شك يعرف مؤشرات التقدم، ومن ثم يعرف أيضاً مؤشرات التخلف، وقد جعل الحجاب إحداها!

ولنحاول أن نحلل خطاب السيد الوزير وكل من يحذو حذوه. إنهم يتحدثون عن حرية التعبير والإبداع، باعتبارهما مطلق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهذه صيحة يطلقونها فى وجه كل من يتجرأ ويحتج على رأى ما. قد لا يعرف الكثيرون أن إحدى اهتماماتى هو تطور الأزياء، وبالذات أزياء النساء، إذ أحاول رصد تطورها كتعبير عن تطور الرؤية للإنسان فى الغرب. وقد لاحظت أن ملابس النساء تزداد فى الغرب انكماشاً يوماً بعد يوم من المينى سكيرت إلى المايكرو إلى البلوزة التى تكشف البطن demi-ventre إلى أن وصلنا إلى ما سماه أحد الصحفيين) the well-undressed woman أى المرأة قليلة الهندام، فى مقابل المرأة حسنة الهندام) .the well-dressed woman ولعل أحسن ترجمة لهذه العبارة، هو عبارة عادل إمام الشهيرة "لابسة من غير هدوم"). وحين أخبرت أحد مصممى الأزياء عن اعتراضى على الأزياء التى لا علاقة لها بأى دين أو ثقافة أو ذوق، قال إن هذه أعمال فنية، وأن اعتراضى هذا يعد شكلاً من أشكال الرقابة على حرية الفكر والإبداع، هذا المطلق العلمانى الجديد. وهنا سألته: أليس من حق المجتمع أن يدافع عن نفسه ضد أى اتجاهات تفكيكية عدمية؟ وقد صُدم صاحبنا من هذا الطرح الذى لم يطرأ له على بال، لأنه لا يدرك (شأنه شأن المثقفين الذين يدافعون عن الحرية المطلقة للإبداع) أنها رؤية بورجوازية تجعل من الفرد مرجعية ذاته (تماماً مثل رأس المال الذى يتحرك فى السوق بكامل حريته لا يخضع إلا لقوانين مادية آلية غير إنسانية غير اجتماعية هى قوانين العرض والطلب والربح والخسارة). ولكن

المجتمع ليس هو السوق، فالمجتمع كيان مركب متماسك يتسم بقدر من الوعى، وله أسبقيته على الفرد مهما بلغت درجة إبداع هذا الفرد، فالفرد ينتمى إلى المجتمع وليس المجتمع هو الذى ينتمى إلى الفرد، إلا إذا كان مجتمعاً شمولياً. إن بعض المثقفين الثوريين انساقوا وراء هذه الدعوة للحرية المطلقة للإبداع والمبدعين، دون أن يدركوا تضميناتها الفلسفية المعادية للإنسان وللمجتمع. عندئذ لزم مصصم الأزياء الصمت، خاصة وأنه كان يعرف أن خمسة من كبار مصممى الأزياء ماتوا منذ عدة أعوام، من مرض الإيدز، وكانوا جميعهم من الشذاذ جنسياً، فسارعت مصانع الأزياء بالتعمية على الخبر حتى لا تتأثر أرباحهم سلباً، أى أنهم أدركوا البعد غير الاجتماعى غير الأخلاقى غير الإنسانى لإبداع مصممى الأزياء، باعتباره إبداعاً لا ينتمى إلى المجتمع .

وهؤلاء الذين يدافعون عن حرية التعبير والذين جعلوا الفن مطلقاً، سحبوا الإطلاق من الدين وأى قيم مطلقة) أخلاقية كانت أم إنسانية) وجعلوا من الدين شأناً خاصاً، وأمر من أمور الضمير، وتصوروا أن الدين يوجد فى قسم خاص فى وجدان الإنسان منفصل تماماً عن عالم السياسة وعالم الاقتصاد وعالم الاجتماع الإنسانى، (وكأن الضمير الفردى لا علاقة له برقعة الحياة العامة). ولذا حين يتم تناول ظاهرة ما فهى إما أن تكون ظاهرة دينية أو غير دينية، انطلاقاً من تعريف العلمانية أنها فصل الدين عن الدولة (أى الدنيا ومجمل حياة الإنسان). ولكن هذا رؤية سوقية للعالم وللنفس البشرية، فالإنسان كائن مركب، وكذا الفعل الإنسانى. فالدينى يتداخل مع السياسى والاقتصادى والنفسى. وهنا يمكن أن نطرح السؤال التالى: الفدائى الفلسطينى الذى يذهب ليهاجم مستوطنة فلسطينية: هل يفعل ذلك لأسباب دينية أم أسباب اقتصادية أم أسباب اجتماعية أم نفسية؟ الرد السليم على هذا السؤال أن دوافعه مركبة، فهو حين يقوم بفعله الفدائى فإن ما يحركه هو كل هذه الدوافع مجتمعة. ويرى هؤلاء الذين يفصلون الدين عن بقية مجالات الحياة أنه لو ظهر فى الحياة العامة فإن هذا مظهر من مظاهر التخلف، وفى ذهنهم بطبيعة الحال المشروع العلمانى الغربى وما يسمى مشروع النهضة العربى الذى جعل شعاره اللحاق بأوروبا، بحلوها ومرها، وخيرها وشرها، وكأننا ببغاءات عقلها فى أذنيها. ومن هنا كان الاقتراح المشئوم الخاص بالاحتفال بالذكرى المئوية الثانية للحملة الفرنسية على مصر وغزو قوات الثورة الفرنسية لمصر المحروسة، باعتبار أن هذا هو بداية التقدم نحو الغرب والاستنارة على طريقة الغرب. لم يدرك هؤلاء أن الحملة الفرنسية على مصر هى بداية الاستعمار الغربى لبلادنا الذى يحاول تحطيم تراثنا وتحويلنا إلى مادة استعمالية يوظفها لصالحه. لقد تناسوا المقاومة النبيلة التى أبداها الشعب المصرى لهذا الاستعمار وتناسوا ثورة

القاهرة الأولى والثانية التى اندلعت من الأزهر، كما تناسوا الأزهرى سليمان الحلبى الذى اغتال كليبر قائد الحملة، وعلماء الأزهر الذين رفضوا التعاون مع الاستعمار. لقد أخرجوا الحملة الفرنسية من سياقها التاريخى والاجتماعى المصرى والفرنسى، وحين يفعل أى باحث أو مفكر ذلك يصبح بوسعه فرض أى معنى يشاء على الظاهرة التى يدرسها، ولذا حولوا الحملة الفرنسة إلى مؤشر على التقدم وحولوا المقاومة (بالتالى) إلى مظهر من مظاهر التخلف. (وهذا لا يختلف كثيراً عما يفعله الغرب الآن مع المقاومة حين يسمى المقاومة الفلسطينية "إرهاباً"، ويصنف حزب الله وحماس والجهاد على أنها "منظمات إرهابية"، ولا حول ولا قوة إلا بالله).

وأعتقد أن أصحاب هذا الخطاب قد فعلوا شيئاً من هذا القبيل، حين جعلوا من الحجاب رمزاً للتخلف. فقد نزعوه من سياقه الاجتماعى والتاريخى والإنسانى، واستقوا مؤشرات التقدم والتخلف من النموذج الغربى .وهنا يمكننى ان اسأل هؤلاء: ماهى مؤشرات التقدم بالنسبة لهم؟ السؤال هنا خطابى، فالمؤشرات هنا واضحة وهو أن خلع الحجاب علامة على التقدم والاستنارة، أما ارتداء الحجاب فهو علامة على التخلف والردة والظلمة..إلخ. ولكن هل المسالة بهذه البساطة والسذاجة؟ فلنأخذ على سبيل المثال لا الحصر فتاة متبرجة متحررة ومستنيرة لا ترتدى الحجاب، ترتاد نادى الجزيرة أو أى نادى آخر، وتلعب التنيس بالشورت، وتلبس المايوه، وترتاد قاعات الديسكو، وتجيد التحدث بلغة أعجمية أو لغة عربية معظم مفرادتها إنجليش أو فرنش، تماماً مثل مذيعات قناة LBC (التى يطلق عليها بعض المصريين قناة "إلبسى" إشارة إلى المذيعات الجميلات اللبنانيات والتى تحاول بعض مذيعاتنا اللحاق بهن وبركب التقدم) .مثل هذه الفتاة التى تتمتع بمستويات استهلاكية عالية ولا تعرف شيئاً عن مصر الحقيقية، مصر الفقراء والكادحين والمتعبين، ولا تشترك بطبيعة الحال فى أى حركة سياسية، هى أكثر تقدماً من فتاة محجبة تعيش فى مصر الحقيقية بين أهلها وتعرف همومهم، ولا تتمتع بمعدلات الاستهلاك الشيطانية التى أمسكت بتلابيب المجتمع المصرى والتى ستقضى على كل محاولات التنمية؟ وغالبية المحجبات يشاركن فى العمل العام، السياسى والمدنى. ألم يلاحظ المتحدثون عن الحجاب باعتباره علامة التخلف الوجود الملحوظ للمحجبات فى المظاهرات؟ ألم يشاهدوا الصورة التاريخية لبعض المحجبات وهن يصعدن على السلم الخشبى للوصول إلى لجنة الانتخابات وصندوق الاقتراع، بعد أن تصدى لهن رجال الأمن الحكومى؟ ألم يسمعوا عن تلك المحجبات اللائى اضطررن لخلع الحجاب حتى يمكنهن الوصول لصندوق الاقتراع؟ حينما أذهب إلى دمنهور (المدينة التى نشأت فيها) أرى المجتمع المدنى هناك فى

غاية الحيوية والنشاط، وكثير من القائمين على بعض جمعياته (غير الرسمية وغير المعلنة) فتيات محجبات. أعرف إحدى هذه الجمعيات وتخصصها هو توفير أجهزة غسيل الكلى لمرض الفشل الكلوى. وتقوم تلك الفتيات المحجبات بجمع الأموال من القادرين، بل ومن بعض الأقارب المقيمين فى الولايات المتحدة لتمويل مشروعهم الخيرى. بالله عليكم، من هو أكثر تقدما، فتاة نادى الجزيرة المتحررة وأمثالها أم هؤلاء المحجبات؟

يجب أن يُنظر إلى الحجاب فى سياق اجتماعى وتاريخى، وإذا كان الدينى يختلط بالسياسى بالاقتصادى بالاجتماعى بالتاريخى كما أسلفت، فيجب أن ننظر للحجاب بهذه الطريقة. فمن ناحية يرى الكثيرون أنه فرض دينى، ولكن يجب ألا ننسى أنه أصبح أيضاً عرفاً اجتماعياً. ويرى علماء الاجتماع أن كل مجتمع له dress code شفرة أو لغة الملابس الخاصة به، وهى لغة، شأن أى لغة، أمر اجتماعى، فالمجتمع هو الذى يحددها وليس الأفراد .وينضوى تحت هذا ما يُكشف وما لا يُكشف من جسد الرجل أو جسد المرأة، وما يُلبس وما لا يُلبس فى كل مناسبة. هل كانت إحدى الفتيات تتجرأ على لبس بلوزة تكشف عن بطنها منذ عامين فى الشرق أو الغرب، والآن هل يجرؤ أحد أن يعترض على هذا الزى؟! ولذا فإن شكوى البعض من أنهن يضطررن إلى ارتداء الحجاب بسبب الضغوط "الدينية" عليهن، قد يكن على حق، وإن كن عليهن أن يدركن أن هذه الضغوط قد تكون دينية فى الأصل، ولكنها تحولت إلى عرف اجتماعى ومن ثم أصبحت الضغوط اجتماعية. هل تجرؤ سيدة أن تذهب إلى مأتم مرتدية فستاناً أحمراً بهيجاً، أو أن تذهب إلى عرس ترتدى فستاناً أسوداً حزيناً؟

والحجاب إلى جانب كل هذا تعبير عن التمسك بالهوية (أعرف بعض الصديقات العلمانيات اللائى تحجبن تمسكا بالهوية، وهو ما حدث أيضاً فى إيران أثناء الثورة الإسلامية ضد شاه إيران)، وهو كذلك تعبير عن مقاومة الاستعمار الأجنبى. وهناك كذلك الجانب الاقتصادى، فالحجاب دون شك تعبير عن رفض النموذج الاستهلاكى (نموذج الموضات وضرورة تبنى الجديد ونبذ القديم، بناء على أوامر القرد الأعظم فى باريس أو لندن أو إيطاليا). حينما عدنا أنا وزوجتى من الولايات المتحدة عام ١٩٧٩، كان الانفتاح قد اكتسح مصر المحروسة، وكان راتبنا الشهرى لا يتجاوز ١٨٠ جنيه مصرى. وحين ذهبت زوجتى لشراء حقيبة وحذاء، وجدت أن مجموع ثمنهما هو ١٥٠ جنيه بالتمام والكمال (هذا أيام الرخص)، فعادت وقالت إن الفتيات فى مصر أمامهن حل واحد من حَلَين لا ثالث لهما لمواجهة هذا التضخم: إما الحل التايلانى (أى أن يبعن أنفسهن كما حدث فتايلاند) أو الحل الإسلامى، أى ارتداء الحجاب، وتنبأت بأن الأرجح هو انتشار الحجاب. وهى بذلك اكتشفت البعد الاقتصادى فى ظاهرة

الحجاب، ولكنها لم تردها إليه، فهو بعد واحد ضمن أبعاد أخرى، لأنه لو كان البعد الاقتصادى هو البعد الوحيد الحاكم، فإن الحل التايلاندى أضمن وعائده أسرع .ولكنهن اخترن الحل الإسلامى لأن الاسلام هو الإطار المرجعى لجماهير هذا المجتمع (هو عقيدة بالنسبة للمسلمين وحضارة بالنسبة للمسلمين وغير المسلمين) وهو الذى حماها من الاختراق الاستعمارى والاستهلاكى.

إن اختزال الحجاب فى البعد الدينى، ثم عزل البعد الدينى عن الابعاد الاجتماعية والانسانية الأخرى، فيه دليل على القصور التحليلى لمن حولوه إلى مؤشر على التخلف. حينما كنت صبيا فى دمنهور، ذهبت فى رحلة مدرسية إلى القاهرة، وبهرت بلافتات النيون، فقررت أن أجعل من عدد لافتات النيون مؤشرا على التقدم. وكنت أقوم بإحصائها فى دمنهور كل شهر، لأننى تصورت أنه كلما ازداد عدد لافتات النيون فيها، كلما ازدادت تقدماً واقتراباً من نموذج القاهرة المضيئة، (أى أوروبا). ولكننى نضجت واكتشفت اختزالية مؤشرى الصبيانى المضحك. جاء فى العهد الجديد (رسالة بولص الأولى للكورنثيين) ما معناه "حينما كنت طفلا، كنت أتحدث كالأطفال وأفكر كالأطفال، ولكننى بعد أن أصبحت رجلاً، تركت خلف ظهرى الأشياء الطفولية". فلماذا بالله يا إخوتى لا ننضج وننفض عن أنفسنا المؤشرات الاختزالية، وننظر لواقعنا بعيون لا تغشيها غشاوات أجنبية تعمينا عن رؤية الحقيقة الثرية المركبة بكل أبعادها المادية وغير المادية المتداخلة.

والله أعلم.

*هذا المقال نشر بجريدة المصري اليوم بتاريخ ٢٠٠٦/١٢/٢

http://www.almasry-alyoum.com/article2.aspx?ArticleID=39427

١٠- الحداثة المنفصلة عن القيمة والإله الخفي

موقع الجزيرة نت01-03-2007

عُرِّفت الحداثة بأنها مقدرة الإنسان أن يعدل من قيمه بعد إشعار قصير للغاية (وهذا تعريف للإنسان الحديث وللحداثة وجدته في كتاب يتحدث عن "فشل" العرب في اللحاق بهذا العالم الرائع). بل إن كثيراً من المفكرين يرى أن حداثة هذا الإنسان الحديث تكمن في مقدرته على التغير بسرعة، وأنه يعيش في بيئة كل ما فيها يتغير (بما في ذلك الطبيعة البشرية) حسب صيرورة المادة، وحسب الظروف الاجتماعية والبيئية والحقبة التاريخية. كما عُرِّفت الحداثة أنها العلاقات الكونية primordial (مثل علاقة القرابة والقبيلة والأمة) بحيث يخضع كل شيء للتفاوض (أي يتحول إلى مادة استعمالية) .وكل هذا يعني في التحليل الأخير وفى نهاية الأمر أنه لا توجد طبيعة بشرية تتسم بقدر من الثبات، ومن ثم لا توجد إنسانية مشتركة، لأنه إذا كانت الطبيعة البشرية تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة والظروف، فهي تتغير بشكل يختلف من مكان لآخر ومن حقبة تاريخية لأخرى ومن مجتمع لآخر، فتتعدد المراكز والرؤى والتطلعات والتوقعات وتسود النسبية المطلقة أو الشاملة، مما يقوض أي أساس للحوار الإنساني وللإنسانية المشتركة، إذ ستتمترس كل جماعة إنسانية داخل زمانها ومكانها، وتسقط جميعاً فيما يسميه ما بعد الحداثيين، بالقصص الصغرى، أي أن كل مجتمع، بل وكل فرد، سيدور في إطار رؤيته الخاصة (قصته الصغرى) ولأنه لا توجد قصة كبرى، أي إطار إنساني عام، ينتظم كل القصص الجميع. وهذا الافتراض الفلسفي شائع في الغرب، وقد بدأ يأخذ طريقة لنا، مثل كثير من المنتجات الحضارية الأخرى وأدوات التأمل والتفكير، التي لا ندرك أحياناً دلالاتها.

ومما لا شك فيه أن التغير من أهم سمات الوجود الإنساني، ولكن هل كل أبعاد الإنسان تتغير؟ ألا يوجد أي شكل من أشكال الثبات؟ وهل كل المعرفة نسبية؟ إن فكرة الضمير عند سقراط لا يمكن ردها لأساسها التاريخي أو الاجتماعي والجغرافي، فنحن كمسلمين لانزال نؤمن بها وكذا غالبية البشر في هذا العصر، ولذا فالمذابح التي تحدث حولنا تزيد اشمئزازنا. وجمال الأعمال الفنية لا يمكن رده للمادة المتشكلة منها أو إلى وضع الفنان التاريخي أو الاجتماعي أو الطبقي، فنحن في عصرنا هذا لا نزال نتمتع بأعمال إنسان الكهف ونقرأ أعمال ايسخيلوس وسوفوكليس والملاحم الغربية في فنلندا وانجلترا ومسرحيات شكسبير ولوحات ڤان جوخ ورينوار. إن فكرة الضمير، رغم أن لها أساساً تاريخيا ماديا، وفكرة الجمال، على الرغم من أنها تعبر عن نفسها من خلال المادة، تتخطيان المادة، وبالتالي تكتسبان استقلالاً، بل وتصبحان

بمرور الزمن قيماً عالمية ثابتة لصيقة بظاهرة الإنسان. فإنسانيتنا المشتركة تتسم بقدر كبير من الثبات. وحينما يحاول البشر أن يعيدوا صياغة أنفسهم وصورتهم، هل يحاولون محاكاة صورة الآلهة أم صور القرود؟ وهل نقبل البشر الذين يحاولون تحقيق المثل العليا قبولنا لأولئك الذين يسلكون مسلك القردة العليا؟ وحين ندير مجتمعاتنا الإنسانية، هل نفعل ذلك متحررين من كل أعباء أخلاقية أو إنسانية، فإن خططنا لتشجير الكرة الأرضية فهذا أمر مقبول، وإن خططنا لتدميرها سبع أو عشر مرات فهل التدمير أمر مقبول تماما مثل التشجير؟

بل ويحق لنا أن نتساءل عن إمكانية قيام حضارة إنسانية في إطار من النسبية المطلقة أو الشاملة، فالحضارة الإنسانية، حسب معظم التعريفات المقبولة، تعني ظهور الإنسان التدريجي وانفصاله عن الحالة أو الطبيعة المادية الحيوانية، فكيف يمكننا التعرف على هذه الحالة الإنسانية إن لم يكن لدينا مؤشرات متفق عليها؟ والحضارة الإنسانية -كما نعرف- هي نتاج جهد جماعي بذلته الإنسانية جمعاء، ولذا فهي تتطلب أن يعيش البشر سويا، ولكن كيف يتأتى لنا أن نعيش سويا دون أن يكون هناك قيم عامة نستند إليها حين نحكم على أنفسنا وعلى الآخرين، قيم يمكننا الاحتكام إليها إن اختلفنا وإن رأينا البشر يتصرفون مثل الذئاب أو الزواحف أو القرود، قيم تمكننا أن نسمي الإنسان إنسانا والقرد قردا، على الرغم من عمومية وغموض مفهوم الإنسان والقرد؟ هل يمكن أن نميز بين ما هو إنساني وغير إنساني دون افتراض وجود طبيعة بشرية وإنسانية مشتركة؟

إن هذا الإيمان بالتغير كمطلق ويقين أوحد وغاية وهدف، التغير الكامل دائما وأبدا دون هدف أو غاية أو نهاية، قد يؤدي إلى لا شيء أو لعله قد يؤدي إلى دمار الإنسان والكون إن لم تتم عملية التغير داخل حدود، وإن لم يكن لها عقل وروح، وإن لم تفترض مركزية الإنسان في الكون، واعتبار الإنسان هو الغاية، وأن الهدف من وجودنا في هذا الكون هو تحقيق إمكانياتنا الإنسانية التي تتجاوز حدود المادة المتغيرة.

وفي تصوري إن إنكار وجود طبيعة بشرية ثابتة وإنسانية مشتركة وتصور أن الحديث عن الطبيعة البشرية هو نوع من أنواع الميتافيزيقا، أو الـ essentializating أي البحث عن الجوهر هو محاولة واعية، للهرب من الميتافيزيقا والإيمان بما وراء المادة، ولكنه أيضا محاولة، ربما غير واعية للهرب من فكرة الحدود والمسؤولية والأخلاق. فإن كانت الطبيعة البشرية تتسم بقدر معقول من الثبات والاستمرارية يصبح من الممكن توليد معايير أخلاقية منها. أما إذا كان التغير مطلقاً وشاملاً، فإنه يؤدي إلى غياب أي معايير ومن ثم تصبح كل

الأمور نسبية وتختفي مع النسبية أي معايير معرفية أو جمالية أو أخلاقية، والفرق بين الواحد والآخر يشبه الفرق بين الإيمان بالله والإيمان بالأطباق الطائرة. فالضرب الأول من الإيمان لابد أن يترجم نفسه إلى أفعال فاضلة إن كان إيمانا حقا، فهو تحد للذات ومحاولة لفرض حدود عليها. إن أدرك الإنسان أن ثمة طبيعة بشرية تتسم بنوع من الثبات وأن ثمة جوهراً إنسانياً ما، يصبح من المحتم أن تتحول تلك الطبيعة إلى نقطة ارتكاز فلسفية ثابتة ينبع منها نسق أخلاقي، بحيث أن كل ما يحقق هذه الطبيعة ويثريها يعد خيرا، وكل ما يبتعد عنها فهو شر. أما الضرب الثاني من الإيمان هو عملية تفريغ لشحنة نفسية، وتوتر داخلي يبحث عن بؤرة، وهو ضرب من ضروب تحقيق الذات يصلح كميتافيزيقا بدون أعباء أخلاقية يتبناها الإنسان الاقتصادي والإنسان النفعي الذي لا يؤمن إلا بالمادة، ويجد صعوبة حقة في التسامي عليها وتجاوزها.

إن الموقف الفلسفي "الإنساني "الهيوماني humanist الذى يضع الإنسان في مركز الكون لابد وأن يؤدي بالضرورة إلى ضرب من ضروب الإيمان بشيء يتجاوز حدود الحواس الخمسة وعالم المادة. فإذا كانت الطبيعة البشرية تتسم بشيء من الثبات والتماسك، وفي نهاية الأمر التسامي على الواقع المتغير وتجاوزه، فإن هذا الثبات والتماسك شاهد على وجود شيء ما في الإنسان منفصل عن المادة ليس خاضعا لقوانينها الصارمة الآلية. ولذلك فإن أي إنسانية مادية إلحادية (أي إيمان بالإنسان مع إنكار وجود الماوراء) كما هو الحال مع الإنسانية الماركسية أو الليبرالية في الغرب، لا يمكن أن يتسق مع نفسه ولابد وأن يتحول إما إلى إيمان بالماوراء أو إلى عدمية كاملة، لأن المفكر الإنساني حينما يواجه ظاهرة الإنسان السامي المتميز الذي تفترض الماركسية والإنسانية الليبرالية وجوده فهو إما أن يأخذه دليلا على شيء أكبر منه خارج المادة ويؤمن بالماوراء، أو يرده إلى المادة كلية ويصبح عدميا تتساوى عنده الأمور.

وكما أسلفت، ثمة محاولة لإنكار مفهوم الطبيعة البشرية الثابتة في الحضارة الغربية الحديثة، ولكنني مع هذا أذهب إلى أن هذا الإنكار يتم على مستوى الوعي والظاهر وحسب، فكثير من المفكرين وغالبية البشر العاديين يتبنون مفهوم الطبيعة البشرية التي تتسم بقدر من الثبات والاستمرارية كأداة تحليلية بشكل كامن غير واعي. وقد سميت هذه الظاهرة "الإله الخفي " (بالإنجليزية: هيدن جودhidden God) .وهو مصطلح قريب من مصطلح "الضمير" ولكنه غير مترادف معه. فالضمير يعني أن ثمة شيئاً ما غير مادي، كامن في الإنسان، يدفعه نحو الخير، وهو إن لم يتجه نحو الخير كما يملي عليه ضميره فإنه يشعر بالذنب وأنه أنكر بُعداً أساسياً من وجوده. والضمير شأنه شأن الإله الخفي ليس أمراً مادياً ولا يمكن رده إلى الطبيعة/

المادة، وإنما يستند إلى عنصر ما في الإنسان (القبس الإلهي والنزعة الربانية تلك النزعة التي تنقذ الإنسان من النزعة الجنينية والرغبة في الالتحام بالمادة)، عنصر لا يمكن تفسيره مادياً، ولذا لا مناص من أن نسميه "روحياً". ولكن الضمير يرتبط في ذهننا بمنظومة أخلاقية محددة، من خلالها يعرف الإنسان الشر والخير، أما مفهوم "الإله الخفي"، رغم أنه يشارك الضمير في كثير من السمات، إلا أنه يشير إلى أن الإنسان قد لا يكون مؤمناً بأي منظومة أخلاقية أو معرفية أو دينية، بل وقد يكون معادياً بشكلٍ واعٍ وصريح لكل القيم بلا استثناء، وقد يؤمن بنموذج مادي إلحادي ويظن أنه استنبطنه تماماً حتى أصبح جزءاً لا يتجزأ من رؤيته ووجوده. ولكن هذا الإنسان، مع هذا، تفضحه، في ظروف معينة، أقواله وأفعاله بشكلٍ غير مباشر وغير واعٍ عن وجود شيء ما في أعماق أعماقه يتناقض مع الإطار المادي الواحدي الذي تبناه. ورغم هذا، فإن مثل هذا الإنسان قد لا يتجه بالضرورة نحو اختيار منظومة أخلاقية بديلة. ويمكننا أن نقول إن الإله الخفي هو، في واقع الأمر، البحث غير الواعي للإنسان المادي عن المقدَّس بعد أن تصور أنه قد قتل الإله وأسس عالماً زمانياً مكانياً لا قداسة ولا محرمات ولا حرمات فيه .

ويمكن القول إن الفلسفة الإنسانية الهيومانية في الغرب، بانطلاقها من مفهوم الطبيعة البشرية وبمركزية الإنسان في الكون وبتأكيدها على القيم الأخلاقية المطلقة وعلى مقدرة الإنسان على تجاوز واقعه الطبيعي/ المادي وذاته الطبيعية/ المادية، هي تعبير عن الإله الخفي وعن البحث غير الواعي من قِبل الإنسان المادي عن المقدَّس، فمثل هذه القيم، ومثل هذه المقدرة، ليس لهما أي أساس مادي. وكل الفلسفات التي تدور في إطار مادي ومع هذا تستند إلى نموذج توليدي وتؤكد فعالية عقل الإنسان ووجود أفكار مفطورة فيه واستقلاله عن الطبيعة/ المادة، ومن ثم تؤمن بثنائية الإنساني والطبيعي/ المادي، هي الأخرى تعبير عن الإله الخفي.

ويمكن القول إن الحديث عن" حتمية الميتافيزيقا" هو حديث عن الإله الخفي، فقد لوحظ أن الإنسان مهما بلغ من إلحاد ومادية فإنه لا يقبل بالمادة المتغيرة كإطار مرجعي، وإنما يبحث عن مركز للعالم وعن إطار وعن أرض ثابتة يقف عليها وعن كليات متجاوزة للأجزاء. وقد أدرك نيتشه أن هذا تعبير عن الإله الخفي، واختار مصطلح "ظلال الإله" ليشير إليه. وقد أدرك فلاسفة ما بعد الحداثة ذلك، ولذا يتلخص مشروعهم لا في الهجوم على الميتافيزيقا الدينية أو المثالية وحسب، وإنما في تحطيم فكرة الحقيقة ذاتها حتى يتم إزالة ظلال الإله وتحطيم الميتافيزيقا بلا رجعة .

والإله الخفي كامن وراء عبارة جون سيتوارت ميل (المفكر الليبرالي العلماني الذي كان ينكر وجود الخالق) حين قال" :خير لي أن أكون سقراطاً ساخطاً على أن أكون خنزيرا راضيا". والعبارة تفترض ثنائية الوجود الإنساني، وتأرجحها بين الحالة السقراطية الساخطة والحال الخنزيرية الراضية .ومصدر الحالة الخنزيرية الراضية مفهوم تماماً، ولكن ما مصدر سقراطية الإنسان؟ ولماذا يفضل الإنسان الحالة السقراطية، بكل ما تأتي به من أعباء أخلاقية وقلق وسخط، على الحالة الخنزيرية بكل ما تأتي به من لذة حسية ورضى جسدي؟ من منظور مادي خالص، لا يوجد أي فارق بين سقراط والخنزير، بل إن الخنزير أكثر مادية وشيئية من سقراط، خصوصاً إذا كان خنزيراً راضياً تماماً. وقد حاول ميل تبرير اختياره على أساس عقلاني قائلاً إنه يفضل سقراط على الخنزير لأن سقراط يعرف حقيقة ذاته وحقيقة الخنزير في ذات الوقت، أو بالإنجليزية **for knows Socrates both sides of the argument** أما الخنزير فلا يعرف شيئا عن سقراط، أي أن سقراط متعدد الأبعاد، حر، قادر على الاختيار. وقد اختار أن يكون سقراطاً على عكس الخنزير الذى وجد نفسه خنزيراً وظل كذلك دون اختيار من جانبه. ولكن مقاييس مثل الحرية والقدرة على الاختيار والتركيبية هي مقاييس تستند إلى الإيمان بوجود شيء ما غير مادي، شيء متجاوز (شيء مقدَّس) ينقذ الإنسان من السقوط في حالة الخنزير الراضي أو في حماة المادة، ولا يمكن للإنسان السقراطي أن يدرك خنزيرية الخنزير إلا إذا كان داخله شيء ما يتجاوز هذا الخنزير المادي العنيد الواقعي المتشيِّئ.

ولنترك عالم الفلاسفة والمفكرين والأدباء ونضرب مثلاً آخر على المقدرة التفسيرية لمقولة الإله الخفي مستمداً من حياة الإنسان اليومية: تصدر المنظومة العلمانية والحداثة المنفصلة عن القيمة عن التفريق بين رقعة الحياة العامة ورقعة الحياة الخاصة، وتحاول العلمانية أن ترشِّد رقعة الحياة العامة وتضبطها في إطار النماذج الطبيعية/ المادية. ومع هذا، يلاحَظ أنه إذا ارتكب بعض أعضاء النخبة الحاكمة في الغرب فعلاً إباحيًّا أو غير أخلاقي في حياتهم الخاصة (التي يفترض فيها أنها شأن خاص لا علاقة له بالحياة العامة)، فإن الناس يحتجون على ذلك. وقد اتضحت هذه المفارقة بحدة مع الفضائح المتعددة لبعض أعضاء النخبة الإنجليزية سواء من أعضاء الأسرة المالكة أو من أعضاء وزارة جون ميجور (طفل غير شرعي – عشيقة – شذوذ جنسي) التي كانت تدعو إلى التمسك بمبادئ الأخلاق. والنموذج السائد في المجتمع لا يرفض مثل هذه الأفعال ولا يصنفها باعتبارها أفعالاً غير أخلاقية بسبب شيوع النسبية الأخلاقية، ومن ثم افتقاد المعايير، والدليل على ذلك عدد الأطفال غير الشرعيين والعشيقات والشواذ جنسياً. بل إن من يقف ضد مثل هذه الأفعال يُتهم بضيق الأفق. ومع هذا، ثمة شيء ما

داخل البشر(رغم علمنتهم وترشيدهم وتطبيعهم) يجعلهم يحتجون على أعضاء النخبة لتبني نفس القيم التي يدافعون هم أنفسهم عنها في حياتهم اليومية. فكأن الجماهير تود أن تحتفظ بالنخبة وبرموزها في إطار المقدَّس، ولا تود أن تُنزع عنها القداسة. ولذا، فإن الفضائح الأخلاقية لأعضاء هذه النخبة تثير حفيظة الناس رغم أنها فضائح خاصة للغاية .ويصل الأمر ببعض الناس إلى المطالبة بإلغاء الملكية نظراً لتبني الأسرة المالكة نفس القيم السائدة في المجتمع.

وتتضح نفس الظاهرة في الولايات المتحدة، فالنموذج السائد فيها هو نموذج علماني شامل مادي تماماً، ومع هذا نجد أن البشر يسلكون بطريقة تتنافى مع النموذج المهيمن الذي يعلن الجميع ولاءهم له. فتظل هناك ثنائيات الخير والشر، والمقدَّس والمدنَّس، والمطلق والنسبي. ويظل هناك علاقات كونية ثابتة غير رشيدة كان من المفروض التخلي عنها وإخضاعها للتفاوض وإحلال علاقات تعاقدية رشيدة محلها. ولكن العلاقات الكونية، مع هذا، تستمر وتؤكد نفسها. ولذا، فنحن نزعم أن الأمريكيين كبشر أعظم من القيم السائدة في المجتمع الأمريكي، وهو تأكيد يبين أن العنصر الرباني في الإنسان لا يمكن تصفيته. ومن الممكن القول أن هذا العنصر الرباني اللصيق بإنسانية الإنسان وفطرته والذي يأخذ شكل الإله الخفي هو ما يمنع النموذج العلماني والحداثة المنفصلة عن القيمة من التحقق الكامل .

والله أعلم.

***

١١ـ الحداثة ورائحة البارود

صحيفة الأهرام01-02-2003

زاد الحديث في الغرب (وفي بلادنا أيضا) عن التحديث في جميع المجالات:المجال السياسي(الديمقراطية) ـ المجال الاقتصادي(مزيد من الخصخصة)ـ المجال التربوي (تعديل المقررات الدراسية بما يتفق مع المعايير الغربية الحديثة). وبدأ بعض يتحدثون عن أن الإسلام بطبيعته معاداة الحداثة، فانبري بعض المفكرين العرب والإسلاميين للدفاع عن الاسلام ولإثبات العكس، مبينين بالبرهان القاطع أن الإسلام بطبيعته ليس معاديا للحداثة، بل يرحب بها، ويمكنه أن يتبني مناهجها وقيمها.

وهذا الحوار يفترض أن مصطلح الحداثة مصطلح محدد المعني والدلالة، وأن الحداثة ليس لها تاريخ وأن تبدياتها لا تختلف من حضارة لأخري، أو من حقبة تاريخية إلى أخري، وأن هناك حداثة واحدة، وعادة ما نعود للمعاجم الغربية لنعرف المعني الدقيق لأي مصطلح وماهد منه علي وجه الدقة، وبعد أن نقرأ التعريفات المختلفة للمصطلح ونتقبلها كلها أو بعضها بأمانة بالغة، تصبح الإشكالية هي كيف نترجمه دون أن نختبر هذه التعريفات ومدي مطابقتها للواقع، سواء كان واقعنا أم الواقع الغربي، ودون أن ندرس المراجعات التي تمهذا المصطلح في الغرب، ودون أن ندرس تاريخ تطور الظاهرة الذي يشير إليها هذا المصطلح ومصطلح التحديث لا يشكل أي استثناء لهذه القاعدة، فتوجد تعريفات كثيرة لمفهوم الحداثة، لكن ثمة ما يشبه الإجماع علي أن الحداثة مرتبطة تماما بفكر حركة الاستنارة الذي ينطلق من فكرة أن الإنسان هو مركز الكون وسيده، وأنه لا يحتاج إلا إلى عقله سواء في دراسة الواقع أو إدارة المجتمع أو للتمييز بين الصالح والطالح، وفي هذا الإطار يصبح العلم هو أساس الفكر،مصدر المعني والقيمة، والتكنولوجيا هي الآلية الأساسية في محاولة تسخير الطبيعة وإعادة صياغتها ليحقق الإنسان سعادته ومنفعته.

هذا التعريف قد يبدو للبعض تعريفا جامعا مانعا أو علي الأقل كافيا، ولكننا لو فحصنا الأمر بدقة أكبر لوجدنا أن الحداثة ليست مجرد استخدام العقل والعلم والتكنولوجيا، بل هي استخدام العقل والعلم والتكنولوجيا المنفصلة عن القيمة، أو كما يقولون بالإنجليزيةـ فاليوفري -Value free، وهذا البعد هو بعد مهم لمنظومة الحداثة الغربية، ففي عالم متجرد من القيمة تصبح كل الأمور متساوية، ومن ثم تصبح كل الأمور نسبية، وحين يحدث ذلك فإنه يصعب الحكم علي أي

شيء، ويصبح من المستحيل التمييز بين الخير والشر وبين العدل والظلم، بل وبين الجوهري والنسبي، وأخيرآ بين الإنسان والطبيعة أو الإنسان والمادة. وهنا يطرح السؤال نفسه كيف يمكن أن تحسم النزاعات والصراعات، وكيف يمكن أن نسوي الخلافات، وهي كلها من صميم الوجود الإنساني؟ في غياب قيم مطلقة، يمكن الاحتكام لها، يصبح الإنسان الفرد العرقية مرجعية ذاتها، وتصبح ما تراه في صالحها هو الأساس وما ليس في صالحها هو الطالح. وقد أدي هذا إلى ظهور القوة والإرادة الفردية كآلية واحدة لحسم الصراعات وحل الخلافات.

هذه هي الحداثة التي تبناها العالم الغربي والتي جعلته ينظر إلى نفسه باعتبار أنه هو(وليس الإنسان أو الإنسانية) مركز العالم، وأن ينظر للعالم باعتباره مادة استعمالية يوظفها لصالحه باعتباره الأكثر تقدما وقوة، ولذا فإن منظومة الحداثة الغربية هي في واقع الأمر منظومة إمبريالية داروينية. هذا هو التعريف الحقيقي للحداثة كما تحققت تاريخيا، وليس كما عرفت معجميا، وهذا هو التعريف الذي يمكننا من قراءة كثير من الظواهر الحديثة. كانت الظاهرة الغربية الحديثة تؤكد أنها حضارة إنسانية(هيومانية) جعلت من الإنسان مركز الكون، وكانت المجتمعات الغربية مجتمعات لا تزال متماسكة من الناحية الاجتماعية والأسرية، ولم تكن كثيرا من الظواهر السلبية التي نلاحظها بأنفسنا ونقرأ عنها في صحفهم ومجلاتهم، والتي أصبحت نمطا ثابتا وظاهرة محددة، كانت مجرد حوادث متفرقة لا ظواهر دالة، ومن ثم كان من السهل تهميشها. واذا كان دعاة الإصلاح (من الليبراليين والماركسيين والإسلاميين) كلهم ينادون بضرورة اللحاق بالغرب(أي تبني منظومة الحداثة الغربية). ولم يكن هناك أي أصوات تعارض الحداثة أو تنتقدها، بل كان الجميع يسبح بحمدها، وقد كانوا محقين إلى حد كبير في هذا، فشكل الحداثة الذي أدركوه آنذاك كان أمرا يثلج القلوب.

ولكن تدريجيا تكشف الوجه الدارويني حين أرسلت الحداثة الغربية لنا جيوشها الاستعمارية لتهلك الأخضر واليابس، وتحول بلادنا إلى مادة استعمالية كمصدر للمواد الخام والعمالة الرخيصة، وسوق مفتوحة بشكل دائم للسلع الغربية، ويبدو أن المفكرين الإصلاحيين الأول لم يربطوا بين الحداثة الغربية والإمبريالية الغربية، فقد ذهبوا إلى العواصم الغربية ولم يروا سوي النور والاستنارة، في الوقت الذي كانت المدافع الغربية تدك بلادنا دكا، ولذا فهؤلاء الذين بقوا في بلادهم رأوا ألسنة النيران المندلعة، وسمعوا قعقعة القنابل، وشموا رائحة البارود.

يقول أحد كتب التاريخ إنه قيل لأحد الشيوخ الجزائريين إن القوات الفرنسية إنما جاءت لنشر الحضارة الغربية الحديثة في ربوع الجزائر، فجاء رده جافا ومقتضبا ودالا، إذ قال ولم أحضروا

كل هذا البارود إذن؟ لقد رأي هذا الشيخ علاقة الحداثة الغربية بالإمبريالية من البداية، وهو ما أدركه الكثيرون بعد ذلك. فعصر الاكتشافات الجغرافية وعصر النهضة في الغرب(القرن السابع عشر) هو أيضا العصر الذي بدأت فيه إبادة الملايين، وكما يقول الزعيم بن بيلا: إن هذا الإله الصناعي الحديث إغتال عرقا بأكمله(العرق الأحمر)، أي السكان الأصليين في الأمريكتين، وأخذ زبدة عرق اخر(العرق الأسود) عن طريق النخاسة واستعباد ملايين (مما يضع عدد ضحايا هذه العملية نحو مائة مليون إنسان) باعتبار أن عبدا واحدا يحتفظ به النخاسون الغربيون كان يقتل مقابله تسعة عبيد.ثم يشير بن بيلا إلى سكان المكسيك الذين تمت إبادتهم وإلى سكان الجزائر الذين أبيدت منهم الملايين في أثناء هباتهم المتكررة ضد الاستعمار الفرنسي، ويمكن أن نضيف إلى ذلك حرب الأفيون في الصين والمجاعات التي أصابت الهند بسبب تطبيق قوانين الملكية الغربية الحديثة، وحربين عالميتين كلفت الأولي الإنسانية ٢٠ مليون قتيل، والثانية ٥٠ مليون قتيل، وقنابل هيروشيما ونجازاكي، وضحايا معسكرات الجولاج في الاتحاد السوفيتي. إن بطل رائعة الطيب صالح موسم الهجرة إلى الشمال قد لخص الموقف ببساطة حين قال: إنني أسمع.. صليل سيوف الرومان في قرطاج، وقعقعة سنابك خيل اللنبي وهي تطأ أرض القدس.البواخر مخرت عرض النيل أول مرة تحمل المدافع لا الخبز، وسكك حديد أنشئت أصلا لنقل الجنود، وقد أنشئوا المدارس ليعلمونا كيف نقول نعم بلغتهم.

وقد جاءت هذه الجيوش الاستعمارية ففتت العالم العربي والإسلامي، وأخضعت شعوبه لكل أنماط الاستعمار:استعمار عسكري في مصر وسوريا ولبنان والمغرب والسودان والعراق وليبيا، واستعمار استيطاني في الجزائر، واستعمار استيطاني احتلالي في فلسطين، وقد تعاون هذا الاستعمار مع القوي التقليدية والرجعية في المجتمع، وحاول إعاقة تحديث عالمنا الغربي فقام بتحطيم تجربة محمد علي، أول تجربة تحديثية خارج العالم الغربي، ثم قاموا بقمع ثورة عرابي الشعبية، وساندت الجيوش الغربية الحديثة الخديو ودعمته وساندته. ثم انتهي الأمر بأن أقامت هذه الجيوش الدول الحديثة التي لا تعرف من الحداثة سوي الأجهزة القمعية والأمنية. ثم زرع العالم الغربي الحديث في وسطنا بقوة السلاح مجموعة من المستوطنين الذين ادعوا أن فلسطين أرض بلا شعب وأنهم شعب يهودي يعود إلى أرض أسلافه حسب الرواية التوراتية.

ويطالب الصهاينة والأمريكيون في الوقت الحاضر بتحديث مؤسسات السلطة الفلسطينية، مع أنه من المعروف أن الصهاينة - شأنهم شأن كل المستعمرين- رفضوا من البداية التعامل مع القطاعات الحديثة في المجتمع الفلسطيني مثل نقابات العمال والأحزاب السياسية(بل قاموا

باغتيال أحد زعماء نقابات العمال الفلسطينية قبل عام١٩٤٨)، وفضلوا التعامل مع القطاعات التقليدية في المجتمع الفلسطيني، ظنا منهم أن هذه القطاعات قد تكون أكثر مرونة في التعامل معهم نظرا لعدم فهمها لطبيعة الهجمة الاستعمارية البريطانية/ الصهيونية عليهم، ولكن خاب ظنهم، فحينما تحاور معهم بعض القيادات التقليدية (برئاسة الشيخ رشيد رضا) أبدي الفلسطينيون رغبتهم في تحديث مجتمعهم، ولم يجدوا أي غضاضة في الاستعانة برأس المال الأجنبي، والخبرة الأجنبية علي أن يتم تطبيق المبادئ الديمقراطية، أي إجراء انتخابات حرة بحيث يكون لكل مواطن صوت، باعتبارها الوسيلة الوحيدة لتحقيق السلام. فعلق حاييم وايزمان بقوله هذا هو سلام القبور، وهو كان محقا تماما في ذلك، فتطبيق المثل الديمقراطية في فلسطين كان يعني أن المستوطنين الصهاينة سيكونون أقلية، ولن يتحكموا في مصائر الفلسطينيين، ولن يقيموا دولتهم اليهودية الخالصة التي يصرون عليها، والتي يدعمها الغرب الديمقراطي الحديث بكل ما أوتي من قوة، وقد قال أحد المعلقين الإسرائيليين إن الدولة الصهيونية لم تعد دولة ديمقراطية، وإنما دولة ديموجرافية (أي ذات أغلبية يهودية). وهم الآن يطالبون بتحديث النظام السياسي العربي والنظام التربوي الإسلامي، ولكن التحديث هنا يعني في واقع الأمر تقويض المنظومات القيمية والثقافية التي تضفي علينا قدرآ من التماسك يمكننا من مقاومة محاولات الغزو العسكري والثقافي، ولذا فقد وصف أحد المعلقين هذا النوع من التحديث بالتحديث الطبيعي، أي التحديث الذي يجعلنا نقبل الظلم الواقع علينا، والاستغلال الذي ينزفنا ويثقل كاهلنا، والآثار السلبية للحداثة الداروينية لم تلحق بنا وحسب، بل ظهرت علي الكرة الأرضية، علي الجنس البشري بأسره. فهذه الحداثة قد طرحت فكرة التقدم اللانهائي باعتباره الغاية النهائية للإنسان، ولكن التقدم دائما هو حركة نحو غاية، فلم تعرف هذه الغاية في المعاجم، ولكن في التطبيق نعرف كلنا أن غاية التقدم هي تسخير العالم بأسره لصالح الإنسان الغربي، وأصبحت أهم مؤشرات التقدم هو الاستهلاك والمزيد من الاستهلاك، إستهلاك الإنسان الغربي للموارد الطبيعية اللامتناهية، وانتهي الأمر بأن الشعوب الغربية التي تشكل ٢٠% من شعوب العالم تستهلك ٨٠% من موارد الكون الطبيعية، ويبلغ حجم ما استهلكه الشعب الأمريكي في القرن الماضي أكثر مما استهلكه الجنس البشري عبر تاريخه، ولكن المصادر الطبيعية محدودة، الأمر الذي تسبب في الأزمة البيئية التي ستودي بنا جميعا، وقد جاء في إحدي الدراسات أنه لو عم التقدم بأسره علي النمط الغربي فإن الجنس البشري سيحتاج إلى ست كرات أرضية ليستخلص منها المواد الخام، وكرتين ليلقي فيها بنفاياته، كل هذا يعني أن المشروع الحداثي الدارويني الغربي مشروع مستحيل لا يستفيد منه سوي العالم الغربي، وبعض أعضاء النخب الحاكمة في العالم الثالث، وما العربدة الأمريكية الداروينية ضد

العراق سوي تعبير عن إدراك المؤسسة الحاكمة الأمريكية لهذه الحقيقة، فهي تود الهيمنة علي مصادر الموارد الطبيعية في عالم تتناقص فيه هذه الموارد حتي يمكنها الاحتفاظ للإنسان الأمريكي بمعدلاته الاستهلاكية العالية، فهذا هو وعد الحداثة الداروينية له.

وقد اتضح لنا جميعا أن الثمن المادي والمعنوي لمنظومة الحداثة الداروينية مرتفع للغاية، ولنأخذ الجانب المادي أولا: تتحدث بعض الدراسات عما يسمي رأس المال الطبيعي الثابت fixed natural capital أي العناصر الطبيعية التي لا يمكن استبدالها، وثمة إحصائية تذهب إلى أنه لو تم حساب التكاليف الحقيقة لأي مشروع صناعي غربي(أي حساب المكسب النقدي المباشر مخصوما منه الخسارة الناجمة عن استهلاك رأس المال الطبيعي الثابت) لظهر أنه مشروع خاسر، وأن المشروع الصناعي الغربي قد حقق ما حقق من نجاح واستمرار لأن الجنس البشري بأسره قد دفع الثمن، وقام الإنسان الغربي وحده بأخذ الغنيمة، وقد أدي هذا إلى فداحة ثمن التقدم الذي تنادي به الحداثة الإمبريالية الداروينية:تآكل طبقة الأوزون - تلوث البحار - التصحر الناتج عن قطع الغابات - النفايات النووية - تلوث الهواء - تزايد سخونة الغلاف الجوي.

والحداثة الداروينية لها أثرها علي نسيج المجتمع، وعلي منظوماته الحاكمة.. ولنذكر بعض الظواهر الاجتماعية السلبية المختلفة:تآكل الأسرة - تراجع التواصل بين الناس - الأمراض النفسية - تزايد الإحساس بالاغتراب والوحدة والغربة - ظهور الإنسان ذي البعد الواحد - هيمنة النماذج الكمية والبيروقراطية علي الإنسان - تزايد العنف والجريمة (يعد قطاع السجون هو أسرع القطاعات توسعا في الاقتصاد الأمريكي)- الإباحية (التكاليف المادية لإنتاجها والتكاليف المعنوية لاستهلاكها) - السلع التافهة (التي لا تضيف إلى معرفة الإنسان ولا تعمق من إحساسه، والتي تستغرق وقتا إجتماعيا في إنتاجها واستهلاكها) -تضخم الدولة وهيمنتها من خلال أجهزتها الأمنية والتربوية علي الأفراد - تضخم قطاع اللذة والميديا وغزوها حياة الإنسان الخاصة ودورها الضخم في صياغة صورة الإنسان وطموحاته وأحلامه، برغم أن القائمين علي هذا القطاع لم يتم انتخابهم ولا تتم مساءلتهم- تزايد الإنفاق علي التسلح وأدوات الدمار الشامل (يقال إنه لأول مرة في التاريخ البشري ينفق الإنسان علي السلاح أكثر مما ينفق علي الطعام والملبس)- ظهور إمكانية تدمير الكرة الأرضية إما فجأة (من خلال الأسلحة النووية) أو بالتدريج(من خلال التلوث)، وكل ما سببه هذا من قلق للإنسان الحديث، وعند هذه النقطة تلتقي الآثار المادية بالآثار المعنوية بحيث لا مكن التفريق بين الواحد والآخر.

وقد أدرك كثير من المفكرين الغربيين هذه الجوانب المظلمة للحداثة الداروينية، فعبارات مثل أزمة الحداثة وأزمة المعنى والأزمة الأخلاقية كلها عبارات تتواتر في علم الاجتماع الغربي، وتدل علي تنامي هذا الإدراك، وفكر الخضر تماما مثل رفض العولمة والرأسمالية المتوحشة وفكر مدرسة فرانكفورت، ونظريات التنمية الجديدة التي تتحدث عن التنمية المستديمة والدعوة إلى تطوير عولمة تراحمية هي كلها محاولات لرفض الحداثة الداروينية التي تهدد سكان الكرة الأرضية، وتهدد إنسانية الإنسان، وفي مجال نقده للحداثة الداروينية قال روجيه جارودي (قبل تحوله للإسلام): إن معركة عصرنا هي ضد أسطورة التقدم، والنمو علي المنوال الغربي، فهي أسطورة انتحارية، وهي أيضا معركة ضد الأيديولوجية التي تتسم بالفصل بين العلم والتكنولوجيا(تنظيم الوسائل والقدرة) من جهة، والحكمة(التبصر بالغايات وبمعني حياتنا) من جهة أخرى.

هذه الأيديولوجية تتسم بأنها تؤكد فردانية متطرفة تبتر الإنسان عن أبعاده الإنسانية، وفي نهاية الأمر خلقت قبرا يكفي لدفن العالم.

وهو محق في ذلك تماما فالحداثة علي النمط الغربي بدأت بادعاء أنها تري الإنسان مركزا للعالم وانتهت بكلمات ميشيل فوكوه:لا يسع المرء إلا أن يقابل بضحك فلسفي كل من لا يزال يريد أن يتكلم عن الإنسان وعن ملكوته وعن تحرره.. فسيضمحل الإنسان مثل نقش علي رمال الشاطيء تمحوه أمواج البحر، بدأ العالم بدون الإنسان وسينتهي بدونه، وما يتأكد في أيامنا هذه ليست غياب الإله أو موته بقدر ما تتأكد نهاية الإنسان.

إن وعد الحداثة الغربية كان هو تأكيد مركزية الإنسان في الكون، ولكن تحققها تاريخيا يسير بنا كلنا بخطي حثيثة نحو موت الإنسان بل وموت الطبيعة. والموقف الإنساني من الحداثة الداروينية المنفصلة عن القيمة هو جزء من هذه الثروة العالمية ومن المحاولة الرامية إلى مراجعة المفاهيم المعادية للإنسان التي سيطرت علي الحضارة الحديثة.

ولذا، فقد يكون من الأجدي أن يوحد الجميع قواهم وأن يتعاونوا علي توليد المشروع الحداثي العربي والإسلامي كجزء من المحاولة الإنسانية العامة التي تحاول تجاوز الحداثة الداروينية، المنفصلة عن القيمة، المبنية علي الصراع، والتنافس والتقاتل والاستهلاك المتصاعد حتي نتوصل إلى حداثة إنسانية، تنطلق من إنسانيتنا المشتركة، حداثة تدير المجتمع بطريقة مختلفة، فهي لا تري الإنسان مادة محضة، ولا تنفصل عن القيمة.. وإنما تدور في إطار

منظومة قيمية تري أن تحقيق السعادة لا يكون بالضرورة عن طريق زيادة الثروة ونهب الطبيعة، واستغلال الإنسان، وانما عن طريق تبني قيمة إنسانية تبني مثل العدل والتكافل والتراحم، والتوازن (مع الذات ومع الطبيعة)..وفي ذلك خيرنا.. وخير الإنسانية كلها.

والله أعلم.

***

http://www.ahram.org.eg/ARCHIVE/Index.asp?CurFN=WRIT1.HTM&DID=-30000

***

١٢- الحقائق الكاذبة

جريدة الاتحاد الإماراتية 23-02-2008

"الحقائق الكاذبة true lies" مصطلح في المعجم الغربي يشير إلى حقائق غير مزيفة، ولكنها ليست كاملة، أي أن الحقيقة الكاذبة هي حقيقة جزئية، ومن ثم يمكن توظيفها لتوثيق أي أطروحة مهما كان زيفها، ولتبرير أي سلوك مهما كان ظالماً. ولعل أقرب شيء في تراثنا العربي لهذه العبارة عبارة "لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ" الجزئية، وكأن هذا هو الأمر الإلهي وليست العبارة الكاملة "لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى". وعادة ما أضرب المثال التالي على ظاهرة "الحقائق الكاذبة true lies"، إذ تذكر التواريخ الصهيونية أن تيتوس القائد الروماني جاء بجيشه وهزم اليهود وهدم الهيكل وشتتهم. ثم يأتي الصهاينة بإحصائية تقول إن عدد اليهود كان ٣ أو ٤ مليون في حوض البحر الأبيض المتوسط وبابل (بل وكان عددهم يصل حسب بعض التقديرات التخمينية إلى ٧ مليون)، قبل هدم الهيكل، بينما كان عددهم في فلسطين بعد هدم الهيكل لا يتجاوز المليون، ثم أخذ في التناقص، أي أن القائد الروماني تيتوس هو المسئول عن شتات اليهود، وهو الذي أرغمهم على النزوح عن "وطنهم القومي". وإذا نظرنا إلى الإحصائيات التي أتى بها الصهاينة سنجد أنها حقيقية ولم يتم تزييفها، ولكنه تم ما هو أسوأ من ذلك، إذ تم نزعها من سياقها التاريخي وفرض معنى صهيوني عليها. فنحن إذا نظرنا إلى الإحصائيات الخاصة بأعداد اليهود قبل هدم الهيكل، سنجد أنه كان هناك مليون يهودي في فلسطين بينما كان هناك ما يقرب من ستة ملايين في حوض البحر الأبيض المتوسط وبابل، أي أن اليهود هاجروا من فلسطين لا لأن تيتوس فرض عليهم ذلك، وإنما بسبب مركب من الأسباب، أي أن الشتات (التهجير القسري) لم يكن شتاتاً، وإنما كان انتشاراً، لا يختلف عن انتشار الأقليات والجماعات الإثنية والدينية الأخرى لأسباب عديدة من أهمها البحث عن الرزق، ويبدو أن فلسطين عبر تاريخها كانت طاردة لسكانها، بسبب فقر مصادرها الطبيعية.

ومن الأمثلة الدرامية على الحقائق الكاذبة، ما يتعلق بمأساة عائلة تيودور هرتزل. فقد نشرت الصحف الإسرائيلية ووكالات الأنباء اليهودية مؤخرا أخبارا عن نقل رفات ستيفين تيودور نورمان، الحفيد الوحيد لتيودور هرتزل، إلى إسرائيل. وقد ورد الخبر دون ذكر الكثير من الحقائق، وذلك لتحويل نورمان إلى رمز صهيوني باعتباره يهودياً عائداً إلى أرض الميعاد والدولة اليهودية حتى بعد وفاته! ولكن المعروف أن يهودية هرتزل نفسه أمر مشكوك فيه، فحين حضر حاخام إصلاحي لعقد قرانه اكتشف أنه أمام شخص غير يهودي. ولم يختن هرتزل

أولاده كما تتطلب الشريعة اليهودية، كما أنه لم يخفي قط احتقاره لكل من اليهود واليهودية. ولعل هذا انعكس على أفراد عائلته. فكبرى بناته بولين (١٨٩٠ ـ ١٩٣٠) كانت مختلة عقلياً وطُلِّقت من زوجها وأصبحت صائدة للرجال ومدمنة للمخدرات. أما أخوها هانز (١٨٩١ـ ١٩٣٠) الذي لم يختن طيلة حياته، فقد أصيب بخلل نفسي واكتئاب شديد ثم تَحوَّل إلى المسيحية وانتحر يوم وفاة أخته. أما الابنة الصغرى، فقد ترددت على كثير من المصحات النفسية حتى ماتت عام ١٩٣٦. وقد نشأ ابنها نورمان ـ وحفيد هرتزل الوحيد ـ في إنجلترا حيث غيَّر اسمه من نيومان (اسم ذو نكهة يهودية) إلى نورمان (اسم ذو نكهة أنجلو ساكسونية)، وكان يعمل ضابطاً في الجيش الإنجليزي . وبعد أن ترك الخدمة عُيِّن مستشاراً اقتصادياً للبعثة البريطانية في واشنطن حيث انتحر عام ١٩٤٦ بإلقاء نفسه من على كوبري في النهر عقب علمه أن والديه قد لقيا حتفهما في معسكر "تيريسآينشتات Theresieinstadt" في تشيكوسلوفاكيا. وقد أثارت حالات الانتحار هذه حفيظة المؤسسة الحاخامية التي رفضت في البداية دفن أفراد عائلة هرتزل في القدس (لأن الشريعة اليهودية تُحرِّم الانتحار)، إلا أن الأمر تم تبريره بحجة أنهم كانوا يعانون من الأمراض النفسية مما يسقط عنهم المسئولية الأخلاقية.

ورغم أن الحدث يتم تناوله في الصحافة اليهودية على انه نوع من التكريم والاعتراف بالجميل، مع إضافات درامية تتعلق بيأس الحفيد وانتحاره عقب علمه بموت والديه في أفران الغاز النازية، وهو ما يسهم في ترسيخ الربط الدائم بين المحرقة النازية و حق إسرائيل في الوجود، إلا أن هذه الرواية تتغاضى عن جزء هام من الحقائق وتقوم بحجبه كي تستقيم الحجة وتبدو الحقيقة الكاذبة منطقية.

فما لا يتم ذكره أن معسكر "تيريسآينشتات Thereseinstadt" الذي لقي والدا نورمان حتفهما فيه لم يكن معسكرا للإبادة، وإنما أحد "المعسكرات النموذجية " التي أسسها النازيون على شكل " جيتوات " كانت تأخذ شكل مناطق قومية تتمتع بقدر كبير من الاستقلال، فكان يتم إخلاء رقعة من إحدى المدن من غير اليهود ثم يُنقل إليها عشرات الآلاف من اليهود. ومن أشهر هذه المناطق جيتو وارسو ولودز وريجا في بولندا ومستوطنة تيريسآينشتات «النموذجية» في بوهيميا. ويُقال إن الهدف النازي من تأسيس هذه المستوطنة النموذجية كان إعلامياً بحيث تقدم للإعلام العالمي باعتبارها مثالاً على "حياة اليهود الجديدة تحت حماية الرايخ الثالث" (وهو اسم أحد الأفلام التي صُورت في المستوطنة).

وقد حول النازيون تيريسآينشتات إلى مستوطنة نموذجية بين عامي ١٩٤١ و١٩٤٥، ورُحِّل إليها حوالي ١٥٠.٠٠٠ يهودي من يهود وسط أوربا وغربها من المتميِّزين أو المسنين أو اليهود من أبناء الزيجات المختلطة. وقد مات حوالي ٢٥ % منهم داخل المعسكر بسبب ظروف الحرب، ورُحِّل حوالي ٨٨.١٩٦ إلى معسكرات الاعتقال.

ومن الجدير بالذكر أن زعماء الجماعة اليهودية في تشيكوسلوفاكيا أيدوا خطط بناء معسكرات الاعتقال النموذجية والجيتوات اليهودية باعتبارها تنطلق من تصور استقلال اليهود كشعب عضوي منبوذ له شخصيته القومية المستقلة. ولذا كان للمعسكر النموذجي مؤسساته المستقلة الخاصة به (عملة خاصة- وسائل نقل خاصة- خدمة بريدية- مؤسسات الرفاه الاجتماعي).

وقد تمت إدارة مستوطنة تيريس آينشتات عن طريق مجلس من الكبراء يضم القادة اليهود ويترأسه أحد كبراء اليهود كانت تعينه السلطات الألمانية. وتمتعت المستوطنة بحريات كثيرة، حيث كان لها نظامها التعليمي ونظامها البريدي المستقل ومكتباتها وهويتها الثقافية. ومن ثم، كان من مسئوليات مجلس الكبراء الحفاظ على النظام في المستوطنة وتوزيع العمل فيها وتوطين المستوطنين الجدد والعناية بالصحة وبالمسنين والأطفال والإشراف على النشاط الثقافي. كما كان يتبع المستوطنة نظام قضائي مستقل (أي أن تيريس آينشتات كانت تتمتع بالحكم الذاتي). وقد سمحت السلطات النازية لسلطات الصليب الأحمر بزيارة المستوطنة وبالاجتماع بمجلس الكبراء.

وتثير هذه المستوطنة قضية هامة هي عدد اليهود الذين تمت إبادتهم عن طريق أفران الغاز. فالموسوعة اليهودية (جودايكا) تتحدث عن أن ربع سكان هذه المستوطنة المثالية التي كانت تتمتع بظروف خاصة ماتوا بسبب ظروف الحرب. كما تذكر أنه في أبريل ١٩٤٥ وصل إلى تيريس آينشتات ١٤.٠٠٠ سجين من معسكرات الاعتقال الأخرى، فاجتاحت الأوبئة سكان المستوطنة وهلك منهم ومن المرحلين الجدد الآلاف، واستمرت الأوبئة في حصدهم حتى بعد سقوط النظام النازي. فإذا كانت الأوبئة قد حصدت حياة الألوف بعد انتهاء الحرب، ألا يثير هذا قضية عدد اليهود الذين أُبيدوا عن طريق أفران الغاز؟ ولكن الأدبيات الصهيونية لا تذكر هذه الحقائق، وتكتفي بترويج الحقائق الكاذبة، أي الحقائق الجزئية.

والله أعلم.

ملاحظة: هذه المقالة نشرت بجريدة الاتحاد الإماراتية بصفحة وجهات نظر بتاريخ ٢٣ فبراير ٢٠٠٨.

http://www.alittihad.ae/authorarchive.php?AuthorID=3

***

١٣- الحماقة الصهيونية الكبرى

جريدة الدستور المصرية: ٢٠٠٨-٠٣-٠٥

تحطيم الحدود بين مصر وغزة غيّر كثيراً من المشهد السياسي في المنطقة وأفشل كثيراً من المخططات الصهيونية. ولكن بدلاً من دراسة الحدث في كل أبعاده، اندفع بعض الإعلاميين المصريين، بإيعاز من النخبة الحاكمة، إلى الحديث عن "السيادة المصرية"، وتحدث السيد وزير الخارجية عن كسر قدم كل من يتحدى هذه السيادة! ومع الأسف حين اطلعت على الصحف الإسرائيلية وجدت أن معظمها أدرك التضمينات الحقيقية للحدث، ودلالته وباستثناء صوت أو صوتين، رأى كل المعلقين أن عبور فلسطين يشكّل فشلاً للمخطط الصهيوني وخطراً على الكيان الصهيوني وليس على السيادة المصرية، عجبي! ففي مقال نُشر في هآرتس (٢٨ يناير ٢٠٠٨) بقلم موشيه آرنس، وهو من كبار الاستراتيجيين الإسرائيليين وكان وزيراً سابق للدفاع، يبيّن كاتبه المقدمات التي انطلقت منها النخبة الحاكمة في إسرائيل حين قررت فرض الحصار على الفلسطينيين: "عندما جاءت سيطرة حماس علي غزة وإطلاق الصواريخ الكثيفة علي إسرائيل بعد فك الارتباط أصرت حكومة أولمرت علي وجوب معالجة المشكلة من خلال سلاح الجو والهجمات المؤقتة محدودة النطاق علي قطاع غزة. وعندما لم تؤد هذه العمليات إلى إيقاف الإرهاب ضد سكان سديروت، ادعي أولمرت ووزير الدفاع الجديد إيهود باراك بأن زيادة هذه العمليات ستؤدي إلى حل المشكلة.

"بعد ذلك جاء دور النظرية التي أُخذت من الكتب الدراسية في الاقتصاد: إسرائيل ستحدد ثمن العمليات الإرهابية الفلسطينية بحيث سيكون هذا الثمن باهظاً جداً. المخربون في القطاع سيقومون بتحليل الوضع ويتوصلون إلى الاستنتاج بأنهم خاسرون فيتوقفون عن إطلاق النار. ولكن اتضح أن الإرهابيين في القطاع يستخدمون كتب اقتصاد مختلفة. كلما قُتل فلسطينيون أكثر كلما ازداد عدد الصواريخ التي تطلق علي سديروت. وعندها بدأت تُطرح اقتراحات فضائحية: كل هجمة صاروخية ستقابل بتدمير مناطق معينة في القطاع، وطُرحت شعارات حمقاء من قبل وزراء كبار في الحكومة مثل: إن كان أطفال سديروت لا يستطيعون النوم في الليل، فلن يكون بإمكان أطفال غزة أن يناموا. "وأخيراً جاءت الحماقة الكبرى: فرض الحصار علي غزة لمنع إمدادات الوقود والأغذية عن السكان، وعندئذ سيقوم المواطنون بالتأكيد بالضغط علي المخربين لإيقاف هجماتهم". وان يقوم وزير دفاع سابق بوصف استراتيجية الصهيونية لحصار غزة وتجويع أهلها والبطش بهم بأنه "حماقة كبرى" أمر له دلالة عميقة،

ويبيّن أن استمرار المقاومة هو السبيل الوحيد "الإقناع" الإسرائيليين بأنه لا جدوى، وراء الاستمرار في البطش العسكري.

ولعل الموضوع الأساسي المتكرر في الصحف الإسرائيلية هو أن "الأسوار مصيرها الانهيار مهما كانت عالية"، كما جاء في مقال جاد شمرون (معاريف ٢٨ يناير ٢٠٠٨) الذي بيّن أنه من اللحظة التي خرج فيها الجيش الإسرائيلي من غزة كان انهيار سور رفح حدثاً متوقعاً مسبقاً. إذ أن التاريخ يدل علي أن الأسوار مهما كانت عالية، مصيرها الانهيار حين يحرسها حراس تعوزهم الدوافع. فقد حصل هذا في سور الصين الكبير، وحصل في برلين قبل ١٩ سنة، ومع ذلك، فقد فوجئت حكومة إسرائيل وفوجئ الجيش الإسرائيلي عندما فجّر بعض الحماسيين السور.

وتتكرر نفس الفكرة، أي حتمية انهيار الأسوار أمام الجوعى، في مقال بقلم يوفال البيشان (معاريف ٢٧ يناير ٢٠٠٨) جاء فيه "من سمع أصوات أولئك الناس البسطاء، رأى حقيقة إنسانية بسيطة نسيها متخذو القرارات ومقررو المصائر. والحقيقة هي أنه لن يوجد أبداً سور يستطيع أن يوقف إنساناً يقرقر بطنه، ولا يوجد له شيء يخسره. حتى لو كان ذلك جداراً هو الأشد إحكاما، وإلى جانبه كتائب جنود ذوي خبرة، فلن يساعد الأمر. لن يوقف شيء إنساناً فقد كل أمل ليحسن حياته في الطريق إلى المكان الذي يلوح انه الحل الوحيد لضيقه. فالضرورة قوة باعثة عظيمة." ثم يرسم الكاتب صورة للخريطة الإدراكية التي تحدد مجال الرؤية للمستعمرين فيقول: "يؤمنون في إسرائيل وفي الولايات المتحدة كما في جنوب إفريقيا سابقا، بالأسوار إيماناً شديداً. فهم يقيمون جدراناً عالية بين البلدات المنعمة في النقب وبين البدو الفقراء، وينشئون في يافا أحياء مسورة تسويراً جيدا للأثرياء فقط، ويستأجر أصحاب الأموال خدمات حراسة خاصة، لإبعادهم من أولئك الذين لا يملكون شيئا تقريبا. فالفقر والضيق يبقيان في الجانب الثاني، لا يراهم أحد من أولئك المسئولين عنهم، وهكذا ينشأ وهم أن الحياة المرفهة للمستغلين يمكن أن تستمر إلى الأبد.

"بيد أن التجربة الإنسانية، كما قيل آنفا، تعلمنا أن هذا وهم، إذا ما دفعتَ من هو اضعف منك دفعا زائدا الي وضع لا يكون فيه ما يخسره، فانه سينهض آخر الأمر ويعمل عملا: سينقض علي مزرعتك، ويغتصب امرأتك ويفجر دارتك.

"لهذا فان قصة انهيار السور في غزة هي قبل كل شيء قصة إنسانية بسيطة ودرس اجتماعي واضح: لن ينمو اي مجتمع اذا نشأت حوله جزر من الفقر والضيق، ولن يخفيها أي جدار. هذا أهم درس يجب أن يتعلمه متخذو القرارات في إسرائيل".

وتؤكد أسر تحرير هآرتس في افتتاحيتها (٢٥ يناير ٢٠٠٨) أن "الحصار في غزة فشل" فتبيّن أن مئات الفلسطينيين يتدفقون "على رفح المصرية ويهزأون من السياسة الإسرائيلية" "رئيس الوزراء يتحدث عن الحاجة إلى مواصلة الحصار علي غزة، والحكومة تعرب عن خيبة أمل من مصر، وكأنه كان هناك أي احتمال في أن يعمل المصريون علي حماية مصالح إسرائيلية في محور فيلادلفيا ولا يفكروا قبل كل شيء في مصالحهم. لقد فشل الحصار علي غزة، الذي أعلنت الحكومة قبل أسبوع فقط بأنه يعطي ثماره".

ولعل من أهم المقالات التي نُشرت عن الاستجابة الإسرائيلية لهدم السور الفاصل بين غزة ومصر ما كتبه كوبي نيف في صحيفة معاريف (٢٨ يناير ٢٠٠٨) في مقال بعنوان "مع كل فشل نفاجأ بأن العالم لا يتصرف كما نريد الغرور في جينات الصهيونية". يصف المقال في دقة بالغة الخريطة الإدراكية الصهيونية التي تُعمي المؤسسة الصهيونية عن الواقع. يبدأ المقال بالإشارة إلى أن الإسرائيليين يعتقدون حقا بأنهم قادرون على كل شيء. فلا يتعلق الأمر بهذا الزعيم أو ذاك، هذا الحزب أو ذاك، هذه الشريحة الاجتماعية- الاقتصادية أو تلك. هذا يتعلق بنا جميعا، من رئيس الوزراء وحتى رئيس كل بلدية. من وزير الدفاع وحتى الحارس في المجمع التجاري، جميعنا واثقون من أننا قادرون على كل شيء. أعطنا فقط نقطة نمسك بها زمام الأمور، أي ما يكفي من الدبابات والطائرات، ونحن سنحرك العالم إلى حيث شئنا. هذا التفكير المغرور لم يبدأ اليوم، بل كان معتقدا يتجذر عميقا في جينات الصهيونية. وهكذا نحن نعود إلى التفكير، في كل مرة من جديد، بأننا قادرون على كل شيء".

ثم يذكر الكاتب سلسلة الأوهام التي تساقطت: "كنا واثقين تماما بأن بوسعنا أن نحتفظ بسيناء ومخزون النفط فيها إلى الأبد، دون أن يتمكن المصريون من عمل أي شيء في هذا الشأن. وكنا نعول ونثق بأن بوسعنا أن نحتفظ بالشعب الفلسطيني تحت الاحتلال والاستغلال إلى أبد الآبدين، دون أن يثوروا. وعندما ثاروا رغم ذلك، كنا علي قناعة بأن بوسعنا أن نقمع تمردهم هذا من خلال تحطيم عظامهم.

"وفي حرب لبنان الأولى كنا واثقين من أن بوسعنا أن نفرض علي لبنان النظام المرغوب فيه من جانبنا. وفي حرب لبنان الثانية مرة أخرى كنا واثقين بأنه إذا ما استخدمنا ما يكفي من القوة، فسنخضع لبنان وحزب الله. والآن مرة أخرى كنا واثقين من أن بوسعنا أن نحبس وأن نجوِّع مليون ونصف مليون إنسان إلى أن يستسلموا مرة أخرى مثلما هو الأمر دوما، لإرادتنا".

ثم يشير الكاتب إلى أن الصهاينة قد وقعوا صرعى خريطتهم الإدراكية إلى مدى إصرارهم على عدم إدراك الواقع. "والمفاجئ الأكبر هو أنه في كل مرة يعود فيها هذا المفهوم إلى الانهيار،

نعود ونفاجئ من جديد من أن العالم لا يتصرف كما نريد، رغم أننا استخدمنا تجاهه كل قدراتنا التي يفترض بها أن تخضع كل من يقف في طريقنا، من خلفنا ومن أمامنا ومن كل الجوانب، بواحد، اثنين، ثلاثة.

"ماذا، هل حقا اعتقدنا بأننا إذا ما حبسنا وجوعنا وأظلمنا الفلسطينيين في غزة، فإنهم لن يحطموا السور مع مصر كي يحطموا جوعهم؟ وماذا، هل حقا اعتقدنا أننا إذا بنينا استحكامات علي القناة، فلن يتجرأ المصريون حتى علي التفكير باجتيازها؟ ماذا، فهل حقا اعتقدنا أننا إذا احتللنا لبنان فسيكون بوسعنا أن نعين هناك رئيسا كما نشاء ليصنع السلام معنا؟ وماذا، هل حقا اعتقدنا بأن الفلسطينيين لن يثوروا أبدا؟ وماذا، هل حقا اعتقدنا بأننا سنحطم التمرد الفلسطيني بتحطيم عظامهم؟ وماذا، هل حقا اعتقدنا بأنه سيكون بوسعنا أن نبقي المستوطنات في قطاع غزة إلى الأبد؟ وماذا، هل حقا نعتقد انه سيكون بوسعنا أن نمنع إيران من التحول النووي بقوة الذراع الجوية، الصاروخية، الذرية عندنا؟".

بعد ذكر هذه القائمة من الأوهام التي تساقطت (والتي لا يرصدها مع الأسف الإعلام العربي)، ينصح الكاتب المؤسسة الصهيونية والعقل الصهيوني بأنه "حان الوقت لأن نفهم، في عمرنا المتقدم (فنحن بتنا أبناء ٦٠!)، بأننا لسنا حقا كليي القدرة، ويمكننا أخيرا أن نتعاطى مع الواقع كما هو، وليس كما نحلم".

وفي مقال بعنوان "انهيار البوابة وفشل نظرية التصدي للارهاب من خلال سجن منطقة جغرافية كاملة" بقلم تسفي برئيل (هآرتس ٢٧ يناير ٢٠٠٨) يقول فيه إن كبار المسئولين في إسرائيل ظنوا في بداية الأمر أن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ستنتقل إلى مصر التي ستكون مسئولة عنها، والتي ستضطر لحراسة البوابة المخترقة، لمنع إدخال المواد التخريبية والمخربين والإشراف علي سلوك حماس. دولة يمكن في كل لحظة لي ذراعها من خلال العقوبات التي لن تلحق الضرر بمليون ونصف مليون إنسان فقط وإنما بـ ٧٥ مليون مصري".

كان هذا هو الوهم الصهيوني، الذي يبدده الكاتب بقوله: "هؤلاء ينسون حقيقتين اثنتين علي الطريق، ليست مصر هي التي اقتحمت الجدار، هي فعلت ما تقوم كل دولة إنسانية بفعله في مثل هذه الأوضاع، وما فعلته أيضاً كان متأخراً. لقد سمحت لمئات الآلاف من الناس البائسين بالدخول إلى أراضيها حتى يشتروا ما افتقدوه في غزة طوال أشهر متعاقبة. النظام المصري خضع للضغوط الشعبية حيث يطالبه المصريون بالتحرك لإنقاذ الفلسطينيين مهما كانت الصورة التي تنظر فيها لهم إسرائيل". ثم يبيّن أن حكومة إسرائيل بسياستها الفاشلة قد فقدت السيطرة علي غزة. لقد توهمت أنه من الممكن توجيه الضربات لشعب بأكمله حتى الثمالة، ومنع دخول الوقود والغذاء وإغلاق المعابر أمام التجارة والعلاج الطبي وإحداث عصيان مدني ضد قيادة

حماس من اجل إيقاف إطلاق صواريخ القسّام. من توهم ذلك هو الذي فقد السيطرة علي المعبر، وهو أيضاً المسئول عن إفساح المجال أمام غزة حتى تتزود بكل ما تريده بما في ذلك المواد المطلوبة لتصنيع القسّام والمال المطلوب من أجل تغطية هذه الأعمال".

ويمكن القول إن التقييم الحقيقي لهذا الحدث ما قاله كاتب هذا المقال: "ما حدث الآن في غزة ليس مجرد اختراق للجدران، هذا تغير استراتيجي جرد السياسة الإسرائيلية من ملابسها. نظرية التصدي للإرهاب من خلال حبس منطقة جغرافية كاملة من وراء الجدار الذي انهار، والسياسة التي رغبت في إحداث عصيان مدني ضد قيادة حماس انهارت، والاحتكار الذي احتفظت به إسرائيل لنفسها علي عملية السلام قد تبدد وتلاشي. من الصعب علي الشريك الفلسطيني الآن بدرجة أكبر إجراء مفاوضات مع إسرائيل. وهناك مسألة اشد خطورة في سيناء، يتجول الإرهابيون الآن ويستطيعون اجتياز الحدود المصرية المخترقة".

ولكن من أهم المقالات مقال ناحوم برنياع "الجوع لن يهزم حماس بل العيش بكرامة" (يديعوت أحرونوت ٢٨ يناير ٢٠٠٨) الذي يتنبأ فيه بأن "السهولة التي انهارت بها الحدود في رفح ستؤدي في وقت ما الي مسيرة مشابهة تجاه الجدار في كيسوفيم، أو نير عام أو ياعر باري [أي نحو فلسطين المحتلة قبل عام ١٩٦٧]. ولا يوجد رد لدى الجيش الإسرائيلي علي مسيرة جماهيرية كهذه، علي رأسها يقف نساء وشيوخ وأطفال. فهل سيطلق الجنود النار عليهم؟ هل سيطاردونهم الي داخل سديروت؟ نحن سنرى في السائرين عدوا نهض لإبادتنا. أما العالم فسيري فيهم لاجئين عادوا إلى ديارهم.

"انهيار الحدود بين سيناء وغزة يعرض للخطر العلاقات الهشة بين مصر وإسرائيل. بعض من الأدمغة الواهية في وزارة الدفاع سخفت مشهد الجماهير الفلسطينية التي تتدفق الي العريش ورفح وقالوا: أصبح القطاع الآن هو مشكلة المصريين وليس مشكلتنا. وهم لم يفهموا بأنه بالنسبة للمصريين تسلل الفلسطينيين إلى سيناء هو مجرد مصدر إقلاق. أما بالنسبة لنا فهو مشكلة أمنية خطيرة، ليس لها في هذه اللحظة جواب". "الجهة الوحيدة التي خرجت كاسبة من الحصار علي غزة هي حماس فقد تعززت مكانتها وامتلأت مخازنها. رعاياها يكنون لها الإحساس بالجميل. العالم العربي معجب بها. بكلتي يدينا أعطينا حماس هذا النصر".

ويطرح زئيف تسحور رؤية مماثلة في جريدة يديعوت أحرونوت (٢٧ يناير ٢٠٠٨) في مقال بعنوان "العطش سيقود أهل غزة كالمسحورين لمصادر المياه الأقرب الاقتحام التالي.. الهائل.. باتجاه إسرائيل" جاء فيه "أن المفاجأة الوحيدة في قصة اندفاع جماهير سكان قطاع غزة إلى مصر هي أن حكومة إسرائيل فوجئت بما حدث. فهل الموساد والشاباك والاستخبارات المجيدة عندنا لم تنقل إلى الحكومة المعلومات التي يعرفها كل واحد من السكان في غلاف غزة؟

"من سمع المرة تلو الأخرى، الانفجارات المخيفة لنار المدفعية في ضواحي بيت حانون كلما كان يطلق من هناك صاروخ قسّام، يمكنه أن يقدر بان حدود المعاناة الإنسانية توشك علي التحطم. من رأي في الأسبوعين الأخيرين قوافل الشاحنات المحملة بالغذاء من إسرائيل تعود من معبر كارني دون أن تنزل شحناتها، عرف بان هناك جوعا في القطاع. لا حاجة لوحدات التنصت المجيدة للجيش الإسرائيلي كي يعرف المرء بأن ١٠ أنفاق تهريب من الحدود المصرية بل وحتى مئات الأنفاق لا يمكنها أن تغذي مليون ونصف مليون جائع. سادتي وزراء الحكومة، كي لا تقولوا مرة أخرى أنكم فوجئتم، فان التوقع بالاقتحام التالي الهائل، الذي سيتدحرج ككرة الثلج من القطاع، ويحطم الجدار الذي يغلف غزة، سيذهب هذه المرة ليس باتجاه مصر بل باتجاه إسرائيل. الاقتحام التالي لن يتم لأن حماس ستنظم الباصات مع الإعلام والشعارات، الاقتحام التالي سيقع في اليوم الذي تنفد فيه المياه من المخزونات الجوفية للقطاع". ثم يشير الكاتب قائلاً "إنه ليس من الصعب حساب متى ينفد الماء، المعامل الوحيد هو سنوات من الجفاف، مثلما هو الحال هذه السنة. الوقت قصير ولكن الجفاف سيزيده قصراً".

ثم يحذر الكاتب قائلاً "إنه حينما ستندفع الكتلة الفلسطينية العطشى نحو المياه، لن يعطي أي ضابط في الجيش الإسرائيلي أمرا بإطلاق النار عليها، لن يطلق النار أي جندي. كل مخزون السلاح لدي إسرائيل سيكون عديم القيمة أمام الكتلة الإنسانية التي تتحرك بتصميم من ينعدم لديه البديل، آلاف النساء الحوامل، أمهاتهن العجائز، وخلفهن مئات آلاف الأطفال والرجال العطشى. ووجهتهم جميعا نحو صنابير مياهنا. ساعة الرمل لهذه الهجمة مصنوعة من ملح البحر، ملح يحتل يوما بعد يوم مخزون المياه الجوفي لغزة. العطش أقسى من الجوع لا يمكن الصمود أمامه. قوة المندفعين نحو المياه ستحطم كل سور واقٍ".

والله أعلم.

***

١٤ـ الخطة داليت

جريدة الاتحاد الإماراتية: ٢٠٠٨ـ٠٥ـ٢٤

في مقال سابق تمت الإشارة إلى ضرورة استخدام مصطلح "التطهير العرقي" بدلاً من مصطلح "النكبة"، لأن المصطلح الأخير يؤكد العنصر الذاتي على حساب واقعة المذبحة ذاتها، كما أنه يسلط الضوء علي الضحية ولا يسلطه علي الجزار، ويجعل المذابح التي قام بها الصهاينة مجرد "أحداث حرب"، وليست خطة مبيته. وقد بين أيلان بابيه، المؤرخ الإسرائيلي الرافض للصهيونية، أنه كان هناك خطة تسمى الخطة داليت والتي بدأ الصهاينة (بزعامة بن جوريون) في التفكير فيها ورسمها وتبلورت في منتصف الأربعينات وجرى وضعها موضع التنفيذ قبل قيام الدولة وأبعدها

وقد استطاع المؤرخون الفلسطينيون، وفي طليعتهم وليد الخالدي، في السبعينات من القرن الماضي، من خلال جمع مذكرات ووثائق أصلية تتعلق بما جرى لشعبهم، أن يستعيدوا جزءاً كبيراً من الصورة التي حاولت إسرائيل محوها، وأن يكشفوا الخطة المبيتة المشار إليها، لكن سرعان ما تم التعتيم على الحقائق المستعادة فترة من الزمن إلى أن ظهر في ثمانينات القرن الماضي، ما يسمى في إسرائيل "التاريخ الجديد"، الذي طوّره المؤرخون الجدد لمراجعة الرواية الصهيونية عن حرب ١٩٤٨، باستخدام الأرشيفات العسكرية الإسرائيلية أساساً، في إظهار كذب الادعاء الإسرائيلي أن الفلسطينيين غادروا البلد "بمحض إرادتهم". واستطاع هؤلاء المؤرخون أن يوثقوا حالات كثيرة لطرد جماعي من القرى والمدن، وان يبينوا أن القوات المسلحة الصهيونية ارتكبت عدداً كبيراً من الأعمال الوحشية والمجازر. وأما المؤرخ الإسرائيلي بني موريس فقد خلص إلى رسم صورة جزئية لما جرى في الواقع بالاعتماد حصراً على وثائق في الأرشيفات العسكرية الإسرائيلية. غير أن الصورة التي رسمها يني موريس كانت جزئية لأنه صدّق من دون تمحيص ما ورد في التقارير العسكرية الإسرائيلية التي وجدها في الأرشيفات، بل اعتبره الحقيقة المطلقة. وقاده ذلك إلى تجاهل أعمال وحشية ارتكبها الصهاينة، مثل تلويث القناة التي تصل المياه عبرها إلى عكا بجراثيم التيفوئيد، وحالات الاغتصاب المتعددة، وعشرات المذابح. كما أنه بقي مصراً على أنه لم يحدث قبل ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨ إخلاء للسكان بالقوة، بينما تظهر المصادر الفلسطينية بوضوح أن القوات الإسرائيلية كانت قد نجحت قبل أشهر من دخول القوات العربية فلسطين في طرد ما يقارب ربع مليون فلسطيني بالقوة، في وقت كان البريطانيون ما زالوا مسئولين عن حفظ الأمن والنظام

في البلد، ولو كان موريس وغيره استخدموا مصادر عربية، أو التفتوا إلى التاريخ الشفوي، لكانوا استطاعوا – ربما – أن ينفذوا على نحو أفضل إلى التخطيط المنهجي وراء طرد الفلسطينيين في سنة ١٩٤٨، وأن يقدموا وصفاً أكثر صدقاً لفداحة الجرائم التي ارتكبها الجنود الإسرائيليون.

قبل ١٥ مايو ١٩٤٨ وفي وقت كانت الأمم المتحدة مازالت تنظر في شأن مستقبل فلسطين، وكان الأمل مازال قائما لإنشاء دولة متعددة الإثنيات والعرقيات بحيث يستطيع العرب واليهود الحياة فيها وتحقيق الحد الأدنى من التفاهم. بدأت القوات الصهيونية العمل وفقاً للخطة داليت التي شكلت نموذجاً لعمليات الطرد الجماعي المفاجئ بحيث تفقد القرى أي فرصه للاستعداد لتحصين مواقعها. وكانت المنطقة الأولى التي اختيرت لوضع الخطة دالِتْ موضع التطبيق هي الهضاب الريفية الواقعة على المنحدرات الغربية لجبال القدس، في منتصف الطريق المفضي إلى تل أبيب. واتخذ القرار بتنفيذ عملية نَحْشون، التي ستشكل نموذجاً للحملات التالية: الطرد الجماعي المفاجئ. وبينما كانت الخطة داليتْ الرسمية تعرض على القرية خيار الاستسلام، فإن الأوامر الفعلية لم تستثنِ أي قرية [من التدمير والطرد] مهما يكن السبب.

بدأت عمليات الطرد بعمليات ترويع منظمة، حيث كانت وحدات الهاغاناه تدخل القرى بحثاً عن المتطوعين العرب وتوزع منشورات تحذر السكان المحليين من التعاون مع جيش الإنقاذ. وكانت أي مقاومة لهذه التعديات تنتهي في العادة بإطلاق القوات اليهودية النار عشوائياً وقتل عدد من القرويين، وكانت الهاغاناه تسمي هذه الغارات «الاستطلاع العنيف».

في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٧، هاجمت القوات الصهيونية قري دير أيوب وبيت عفّا والخصاص التي يقطن فيها بضع مئات من المسلمين ومائة مسيحي، وشرعت في نسف البيوت في سواد الليل، بينما كان سكانها يغطون في النوم. فقُتل جراء ذلك خمسة عشر قروياً، بمن فيهم خمسة أطفال.

واتبعت الخصاص بعملية حيفا، فبعد تبني الأمم المتحدة قرار التقسيم بيوم واحد، تعرض سكان المدينة، والبالغ عددهم ٧٥.٠٠٠، حملة إرهابية اشتركت في شنها الإرغون والهاغاناه. ولأن المستوطنين الصهاينة جاؤوا المدينة في العقود المتأخرة، فإنهم بنوا مساكنهم في أعالي الجبل، وبالتالي فإنهم كانوا يقطنون، من ناحية طوبوغرافية، فوق الأحياء العربية، وكان في استطاعتهم أن يقصفوا القرى والأحياء بسهولة. وشرعوا في ذلك مراراً وتكراراً منذ أوائل كانون الأول. كما استخدموا وسائل أُخرى لإرهاب السكان: فعلى سبيل المثال، كانت القوات الصهيونية تدحرج براميل مملوءة بالمتفجرات وكريات حديدية ضخمة في اتجاه المناطق السكنية العربية، وتصب نفطاً ممزوجاً بالبنزين على الطرقات وتشعله. وعندما كان السكان

الفلسطينيون المذعورون يخرجون من بيوتهم راكضين بغية إطفاء تلك الأنهار المشتعلة، كان اليهود يحصدونهم بالمدافع الرشاشة.

وفي المناطق التي كان فيها عرب ويهود ما زالوا يتعاملون مع بعضهم البعض، كانت الهاغاناه تُحضر إلى الكاراجات الفلسطينية سيارات بحجة إصلاحها، مملوءة بالمتفجرات وأدوات التفجير، ومن ثم تفجرها. وكانت تقوم بهذا النوع من الهجمات وحدة خاصة تابعة للهاغاناه، هَشَاحَر («الفجر»)، مكونة من «مستعربين»، أي صهاينة متنكرين كفلسطينيين.

وفي منتصف شباط ١٩٤٨، اجتمعت الهيئة الاستشارية لمناقشة تداعيات الوجود المتنامي لمتطوعين عرب داخل فلسطين. وأخبر إلياهو ساسون الحاضرين أن عدد المتطوعين العرب الذين دخلوا البلد كجزء من جيش الإنقاذ لم يتجاوز حتى تلك اللحظة ٣٠٠٠ متطوع.

وبدأت العمليات الإرهابية في ١٣ شباط ١٩٤٨، وركزت على مناطق عدة. فنُسفت عدة منازل في يافا، اختيرت عشوائياً، على رؤوس أصحابها، وهوجمت قرية سعسع، وثلاث قرى في جوار قيسارية. واختلفت عمليات شباط، التي خططت لها الهيئة الاستشارية بعناية، عن العمليات التي حدثت في كانون الأول:بأنها لم تعد متفرقة، وإنما أصبحت جزءاً من محاولة أولية للربط بين فكرة حركة مواصلات صهيونية غير معرقلة على طرقات فلسطين الرئيسية وبين التطهير العرقي للقرى.

كانت الأهداف الأولى ثلاث قرى واقعة بالقرب من قيسارية، وقد تم اختيار القرى الثلاث لأنها كانت فريسة سهلة، إذ لم تكن لديها قوة دفاعية من أي نوع، لا محلية ولا من متطوعين قدموا من الخارج. وصدر الأمر في ٥ شباط بأن احتلوا القرى، وطردوا سكانها، ودمّروها.

ثم قامت الغارة على سعسع، في ليلة ١٤-١٥ شباط. وصدر الأمر بمهاجمتها من ييجال آلون، قائد البلماخ في الشمال، وكُلف موشيه كالمان، نائب قائد الكتيبة الثالثة التي ارتكبت الأعمال الوحشية في قرية الخصاص، تنفيذه. شروين آلون أن القرية يجب أن تهاجَم بسبب موقعها، وأنه يجب نسف عشرين منزلا وقتل أكثر ما يمكن قتله من المحاربين. وهوجمت القرية بالفعل في منتصف الليل، ونشرت نيويورك تايمز، في عددها الصادر بتاريخ ١٦ نيسان (أبريل) ١٩٤٨، أن الوحدة الكبيرة التابعة للقوات الصهيونية لم تواجه أي مقاومة من سكان القرية عندما دخلتها وبدأت بتثبيت أحزمة الديناميت حول البيوت. وتقدم جنود كالمان في الشارع الرئيسي للقرية ونسفوا في شكل منهجي البيوت واحداً تلو الآخر بينما كانت العائلات القاطنة فيها لا تزال نائمة. وتابع كالمان روايته «خلفنا وراءنا ٣٥ منزلاً مدمراً، و٦٠-٨٠ قتيلاً» (منهم عدد لا يستهان به من الأطفال) .

والله أعلم.

***

١٥- الدولة الصهيونية بين المأساة والملهاة

موقع الجزيرة نت: ٢٠٠٨-٠٩-١٤

النكتة لها وظائف عديدة، بعضها سلبي وبعضها إيجابي، فمن الناحية السلبية يمكن أن تكون النكتة مجرد تنفيث عن غضب مكبوت بخصوص أوضاع اجتماعية وسياسية غير مرضية وغير عادلة، ولكن بدلا من أن يحاول المرء أن يتمرد عليها ويغيرها فإنه يكتفي بإطلاق النكتة والضحك على الوضع القائم. ولكن النكتة لها أيضا جوانب إيجابية عديدة، فهي محاولة للمرء أن يفهم وضعا متناقضا ربما لا يمكنه تغييره، وهي طريقة للتصالح مع حقيقة أن الطبيعة البشرية تحوي داخلها "فجورها وتقواها"، وأنه لا مناص من قبول هذا التناقض، وهذا شكل بلا شك من أشكال النضج الإنساني. والنكتة باعتبارها جزءا من الثقافة الشفهية يمكن أن تكون قناة يعبر من خلالها الرأي الشعبي عن رأيه ورؤيته وغضبه بعيدا عن رقابة سلطة الدولة المركزية، وبالتالي يمكن للنكات أن تكون مؤشرا على تصاعد الوعي الشعبي ودعوة لقوى المعارضة وأعضاء المجتمع المدني للتحرك، تساندهم قاعدة شعبية عريضة.

ولكن النكتة بكل حسناتها ومساوئها تعبر عما يسمى السكوت عنه، وهي الأمور التي لا يمكن التصريح بها لأسباب عديدة. قد تكون هذه الأسباب ذاتية، بمعنى أنه لا يمكن للمرء أن يواجهها بصراحة خاصة إن فوجئ بأن الواقع الذي يواجهه مختلف عن رؤيته له وتوقعاته منه. وقد تكون أسباب موضوعية، بمعنى أن المرء يخشى أن يصرح برأيه علانية، فيلجأ للتعبير عنه بطريقة ملتوية مغلفة بالضحك والسخرية، لا تؤدي بالضرورة إلى المساءلة والمحاسبة من "الجهات المسئولة".

ومنذ أعوام طويلة وأنا أجمع بعض النكت من الصحف الإسرائيلية وقد وجدت أن هذه النكات تعبر عن لا وعي الإسرائيليين وعن خريطتهم الإدراكية الحقيقية، أي الطريقة التي يدركون بها الواقع. وما تعبر عنه هذه النكت يختلف إلى حد كبير عن التصريحات السياسية الصهيونية التي يؤكدون من خلالها عن مقدرة الدولة الصهيونية على إلحاق الهزيمة بأي قوة تقف في طريقها وعلى التوسع من النيل إلى الفرات أو من النهر إلى البحر، وعن مدى حداثة الدولة الصهيونية وتقدمها ومستوى معرفتها، وأنها خططت لكل شيء وأن مخططاتها كلها آخذة في التحقق، إلى آخر هذه الترهات التي يصدرونها لها، ويفسح لها الإعلام العربي المجال، كما لو كانت المزاعم حقائق، فيخلق جو الهزيمة دعوة خفية أن نقبل شروط الدولة الصهيونية والسلام التى تعرضه بالشروط تفرضها.

ومثل هذه التصريحات الصهيونية التي تعبر عن الثقة بالذات تخبئ في واقع الأمر إحساسا إسرائيليا عميقا بالورطة التاريخية التي وجد الإسرائيليون أنفسهم فيها. لقد أخبرهم الغرب أنه سيوطنهم في صهيون، فلسطين، أرض السمن والعسل (كما تخبرهم الرواية التوراتية)، وهي أرض يسكنها العماليق والكنعانيون الذين يمكن إبادتهم ببساطة (كما تخبرهم الرواية التوراتية أيضا، وكما تخبرهم الرواية التاريخية لما حدث في تجارب استيطانية أخرى مثل الولايات المتحدة وأستراليا). ولكنهم بدلا من ذلك وجدوا أن فلسطين عامرة بسكانها الذين يتكاثرون كما وكيفا، ويقاومونهم بكل عنف. وأن الغرب في واقع الأمر كان يود التخلص منهم من خلال توطينهم في منطقة ذات أهمية استراتيجية بالنسبة له حتى يمكنهم حماية مصالحه، وأنهم دخلوا في طريق مسدود، فصراعهم مع الفلسطينيين والعرب مستمر لم يتوقف منذ بداية الاستيطان عام ١٨٨٢ حتى عام ٢٠٠٧، ولا توجد نهاية للصراع في الأفق. وقد ولَّد هذا عندهم إحساسا سوداويا بالورطة التاريخية وشعورا بفقدان الاتجاه.

ويتبدى هذا الإحساس بالورطة التاريخية في قصة دان أدليسط "أغنية الموت" حيث يجلس جنديان إسرائيليان في الخنادق، ويدور الحوار التالي بينهما:

- هل ستسقط قنبلة؟

- لقد سمعت أن الموقع البديل على طريق الإمدادات ينطوي على انتحار حقيقي.

- ماذا إذن؟ هل سنظل هكذا للأبد!

- هل جننت؟

- هل ننس

- حب؟

- هل جننت؟

- حرب جديدة إذن؟

- هل الموقف مجرد من الأمل إلى هذا الحد؟

- هل تعرف ماذا تريد؟

- كلا.. وأنت؟

- كلا...

- واحسرتاه.. هيا بنا نفتش عن الموقع الثانوي.

ثم يحدث انفجار، لعله أودى بحياتهما (وربما حياة الكيان الصهيوني).

ونجد نفس الإحساس بالورطة التاريخية في هذه القصيدة القصيرة التي خطها مستوطن صهيوني على حائط دورة المياه في الجامعة العبرية.

ليذهب السفارد إلى إسبانيا

والإشكناز إلى أوربا

والعرب إلى الصحراء،

ولنُعد هذه الأرض إلى الخالق -

فقد سبب لنا من المتاعب الكفاية

بوعده هذه الأرض لكل الناس.

والقصيدة تعبير فكاهي عبثي عن رفض فكرة الوعد الإلهي التي يستند إليها الخطاب الصهيوني.

وقد تعمق الإحساس بالورطة التاريخية وفقدان الاتجاه بعد حرب لبنان الأخيرة التي هُزم فيها الجيش الإسرائيلي، ولم يحقق أيا من الأهداف التي أعلن أنه ينوي تحقيقها. وتقول النكتة الإسرائيلية إن أحد الصحفيين طرح على وزير الدفاع عمير بيريتس السؤال التالي: "صرحت قبل الحرب أن عمير بيريتس سيجعل حسن نصر الله ينسى اسمه، فما تعليقك"؟ فأجاب مندهشا: "من هو عمير بيريتس هذا؟" فكأن الذي نسى اسمه هو وزير الدفاع الإسرائيلي بعد الهزيمة الساحقة الماحقة التي لحقت بالجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر (كما يدعون).

ونفس الإحساس المأساوي الملهاوي بفقدان الاتجاه تبدى في هذه النكتة التي تدور أحداثها في منزل إسرائيلي عادي. جاء مستوطن إسرائيلي إلى الحاخام وأخبره أن جاره يثير الكثير من الضجيج ويلقي بالقاذورات في الشارع. ففكر الحاخام قليلا وقال: أنت بلا شك على حق. وبعد يومين جاءه الجار المشار إليه وأخبره أن المستوطن صاحب الشكوى هو في الواقع الذي يثير الضجيج الذي لا ينتهي، كما أنه لا يتوقف عن إلقاء القاذورات في الشارع. ففكر الحاخام قليلا وقال: أنت بلا شك على حق. فسمعت زوجة الحاخام ما قاله زوجها فصاحت من المطبخ: لا يمكن أن يكون الاثنان على حق، أليس كذلك؟ ففكر الحاخام قليلا ثم قال: أنت أيضا بلا شك على حق. ولأن الجميع على حق، رغم تناقض الرؤى والادعاءات، تضيع الحقيقة ويفتقر المرء إلى الاتجاه.

والدولة الصهيونية مليئة بالصراعات فهناك الصراع العلماني/الديني، والصراع الإشكنازي (الغربي) السفاردي (الشرقي)، والصراع الطبقي بين الذين ازدادوا ثراء بعد سياسات الخصخصة والعولمة والفقراء الذين ازدادوا فقرا، وهناك الصراعات بين الأحزاب المختلفة. ولذا يرى البعض أنه لو ترك الإسرائيليون وشأنهم فإنهم سرعان ما سيلتهمون بعضهم البعض في صراعات داخلية. وتعبر إحدى النكات الإسرائيلية المتداولة عن هذا الوضع: هبطت طائرة ركاب أمريكية هبوطا اضطراريا ناجحا فوق قطعة أرض جرداء في وسط غابة. وكانت تخضع

هذه المنطقة لسيطرة قبيلة من أكلة لحوم البشر. ووجد المسافرون أنفسهم يقتادون إلى خيمة، فنظر رئيس الطباخين إليهم وأمر أعوانه بإطعامهم مدة أسبوع، ففعلوا وبعدها احتفل أبناء القبيلة بوليمة فاخرة. وبعد سنة هبطت على نفس المنطقة طائرة فرنسية هبوطا اضطراريا ناجحا، وتم اقتياد ركابها الـ ٢٠٠ إلى رئيس الطباخين الذي نظر إليهم مليا ثم أمر أعوانه بإطعامهم من خيرة الطعام المتوفر مدة أسبوعين، وبعدها احتفل أبناء القبيلة بوليمة فاخرة أخرى. ثم مرت سنة ثانية وهبطت طائرة في نفس المنطقة وكانت تحمل ٤٥٠ مسافرا إسرائيليا، فجُمع كل المسافرين في الساحة وأخذ أبناء القبيلة ينتظرون تعليمات رئيس الطباخين المعتادة، فطلب منهم إعداد أواني الطهي على الفور واتخاذ الخطوات اللازمة لإعداد الوليمة الفاخرة. فقال أحد أبناء القبيلة متسائلا: ألن نقوم هذه المرة بتسمينهم لمدة أسبوع أو أسبوعين كما هي عادتنا؟ فنظر إليه رئيس الطباخين نظرة احتقار وغيظ وقال: "هؤلاء إسرائيليون يا عزيزي، فهم سيلتهمون بعضهم البعض خلال أسبوع" (يديعوت أحرونوت ٢٦ أغسطس ٢٠٠٥).

ويتبادل الإسرائيليون هذه الأيام (٢٢ ديسمبر ٢٠٠٦) رسالة إلكترونية طويلة بعض الشيء تعكس اليأس الذي يعتريهم من الوضع الذي آلت إليه دولتهم والفساد الذي يضرب فى أطنابها، ولشدة انتشار هذه الرسالة قرأتها إحدى مقدمات البرامج السياسية المهمة في الإذاعة الاسرائيلية كاملة، ولم تعقب عليها سوى بالتنهد. وفي ما يلي نص الرسالة: «مستشفى تل هشومير، ومساء ماطر. ممرض واحد فقط اسمه شميل وبقي ليمضي الليل في غرفة رئيس الحكومة السابق آرييل شارون الذي كان يغط في نومه.

كان شميل جالسا يقشر تفاحة (بينما كان حارس من جهاز الأمن الداخلي شاباك يغط في النوم). فجأة أخذت الأجهزة الطبية في المستشفى تصدر أصواتا... المصابيح الكهربائية أضاءت... الخطوط المستقيمة أخذت في الاعوجاج... رئيس الحكومة يستيقظ.

شارون: منذ فترة طويلة لم أنم نوماً هكذا... أيها الشاب اطلب من (المستشار الإعلامي) أدلر أن يحضر... ثمة فكرة جديدة لاتجاه جديد.

شميل: صباح الخير سيدي، كيف تشعر الآن؟

شارون: أنا ميت من الجوع... أين أنا؟

وفيما يواصل الحارس من شاباك نومه، يحكي شميل لشارون ما حصل له، وأنه لم يعد رئيسا للحكومة. فيسأله شارون: من حل محلي؟

شميل: ايهود اولمرت.

شارون: أولمرت؟ ذلك المقدسي المبعثر؟ ما هي مؤهلاته؟ ماذا سيحصل لو وقعت حرب... هل يعرف كيف يدير الجيش... من حسن الحظ أن شاؤول موفاز مازال هناك (في وزارة الدفاع).

شميل: شاؤول موفاز ليس وزيرا للدفاع، إنه وزير المواصلات.

شارون: ومن هو وزير الدفاع؟

شميل: إنه بيرتس

شارون: وهل هذا العجوز (يقصد شمعون بيريز) ما زال على قيد الحياة؟

شميل يهمس مرتجفا: ليس بيريز إنما بيرتس، عمير بيرتس.

شارون: ماذا؟ هل مسّكم جنون؟ أغمضت عيني للحظة وأتحتم لزعيم العمال أن يسيطر على أمن الدولة؟ اسمع أيها الشاب أرسل لي على عجل ابني عومري، سيرتب الأمور.

شميل: آسف سيدي، عومري في طريقه إلى السجن.

زأر شارون وقال: إلى السجن؟ على ماذا؟ على ذلك الهراء؟ (يقصد تورطه في تجنيد أموال بطرق احتيال)، لا أصدق ذلك... أنا بحاجة إلى محام وفورا... أرسل لي المحامي كلاغسبلد.

شميل مرتبكا: كلاغسبلد في المنطقة ذاتها مع عومري.

هدأ روع شارون: عرفت دائما أنه يمكن الاعتماد على كلاغسبلد.

شميل، مصححاً: أقصد أن كلاغسبلد أيضا في طريقه إلى السجن، تورط في حادث طرق، لم يحذَر، فقتل من دون سبق إصرار شابة وطفلها الصغير.

شارون: أطلب من مدير مكتب رئيس الحكومة السابق النائب حاليا في الكنيست افيغدور يتسحاقي أن يأتي، انه يجيد إطلاق الحملة المناسبة في مثل هذه الظروف.

شميل: سيدي، ثمة شبهات ضد يتسحاقي بتقديمه استشارة ضريبية غير قانونية، يبدو أنه تمادى في الحملة التي قام بها.

شارون: هذا ليس معقولا، أعرفه جيدا، لقد رتبوا له ملفا. اطلب القائد العام للشرطة (موشيه كرادي).

شميل: آسف سيدي، إنه منشغل بالتحقيق.

شارون: إنه شرطي، أكيد إنه منشغل بالتحقيق.

شميل: لا سيدي، هذه المرة يجري التحقيق معه.

شارون: ليس معقولاً، نظام القانون معطوب، ينبغي تخليصهما، يتسحاقي وكرادي، من الورطة، جئني بوزير الأمن الداخلي تساحي هنغبي.

شميل: سيدي، تم تقديم لائحة اتهام ضد تساحي بعدد من المخالفات المتعلقة بالرشوة والخداع، لم يعد وزيرا للأمن الداخلي.

شارون: ماذا عن وزير العدل؟ من عيّنه أولمرت في هذا المنصب؟

شميل: حاييم رامون.

شارون: حسنا، ليأت إلى هنا.

شميل: معذرة، لقد تم تقديم لائحة اتهام ضده لارتكابه عمل شائن؟

شارون: لا أصدق، إذن ابعث للرئيس كتساف ليحضر... ما زال رئيسا، ليس كذلك؟

شميل: آسف سيدي... كتساف في وضع علق مهماته، انه تحت التحقيق في قضايا اغتصاب خمس شابات والتنصت السري.

شارون: آه ... دائما لمست كم يقترب كتساف من الشخص عندما يتكلم. اسمع الوضع فعلاً مزر، اطلب من رئيس الأركان بوغي، آسف حالوتس، ليحضر، وضعه جيد أليس كذلك؟

شميل: ثمة قضية بالنسبة إلى أسهمه المالية في البورصة، لكنها ليست جنائية. المشكلة الاكبر أنه سيتم استدعاؤه قريبا للجنة تحقيق برئاسة قاض في فشل الحرب على لبنان. [أرغم حالوتس على الاستقالة].

شارون: لكنه كان فتى يافعا أثناء الحرب، بالكاد طيار صغير.

شميل: إنها حرب لبنان الثانية، تذكر انك كنت نائما، وقعت حرب. ونحن، كيف لي أن أقول ذلك بلطف، خسرناها. لكن رئيس الحكومة طلب إلينا أن نتحلى بالصبر، ربما يأتي النصر في المستقبل.

نظر شارون حوله، نظر إلى المصباح الكهربائي في الغرفة والى غرفته الخضراء، على الكرسي بجانب سريره ولاحظ أن الحارس من «شاباك» واصل نومه وإلى جانبه وعاء مع باقة ورد في أيامها الأخيرة.

نظر إلى الممرض شميل وقال له:

اصنع معروفا، لا تحك لأحد عن محادثتنا.

شميل: بإمكانك الاعتماد علي، سيدي.

شارون: أنا عائد للنوم.

وعلى عكس ما يتصور الكثيرون هاجس نهاية الدولة اليهودية يعشش فى الوجدان الإسرائيلي. وهم محقون في ذلك، إذ يجب ألا ننسى أن كل الجيوب الاستيطانية المماثلة (الممالك الصليبية – الجيب الاستيطاني الفرنسي في الجزائر- دولة الأبارتهايد في جنوب أفريقيا) قد لاقت نفس المصير، أي الاختفاء. ويعبر هذا الهاجس عن نفسه أحيانا عن طريق دراسات، أو مقالات متشائمة تحذر المستوطنين من هذه النهاية الحتمية، كما أنها تعبر عن نفسها أحيانا عن طريق النكات.

وقد نشرت إحدى المجلات الإسرائيلية مقالاً بعنوان "خروج صهيون"، وكلمة "خروج" exodus في الوجدان الديني اليهودي تعني "الخروج من مصر" (مع موسى التوراتي) و"الصعود إلى صهيون أو إرتس يسرائيل" أي فلسطين، أي أنها تعني الهجرة الاستيطانية، ولذا فاستخدامها للحديث عن "الخروج" من صهيون يحمل قدراً كبيراً من السخرية النابعة من الإحساس بالمفارقة المتضمنة في الموقف. وقد أشار المقال الذي كُتب عام ١٩٨٧ إلى أن عدد النازحين سيبلغ ٨٠٠ ألف إسرائيلي بعد ١٢ عام (في الواقع يُقال إن العدد قد وصل بالفعل إلى أكثر من مليون). ثم علق كاتب المقال بقوله: إذا وضعنا في الاعتبار أن هيئة الأمم قد قررت الاعتراف بحق اليهود في أن تكون لهم دولة خاصة بهم في الوقت الذي كان عدد المستوطنين في البلاد يُقدر بحوالي ٦٠٠ ألف، فإننا سنفهم المغزى لهذه المعلومة المفجعة!

ومن أطرف النكات تلك التي أطلقتها صحيفة إسرائيلية مع تزايد النزوح أو الهجرة إلى خارجها تلك النكتة التي تقول إنه توجد الآن في مطار ابن جوريون لافتة تقول: "على آخر المغادرين أن يطفأ النور"، كأن عملية النزوح سينتهي بها الأمر أن تفرغ فلسطين المحتلة من مستوطنيها اليهود.

والصراع العربي – الإسرائيلي –حسب التصور الصهيوني- صراع ليس له نهاية، أو أن نهايته شمشونية، مدمرة للجميع، كما يتضح في هذه النكتة إذ يجلس راعيان، موشيه ومحمد، واحد يهودي والآخر عربي، على صخرتين فوق أرض محروقة، ويدور الحوار التالي بينهما:

* كيف حالك يا محمد؟

* الحمد لله، وكيف حالك أنت؟

* با روخ هاشيم (حرفيا: تبارك الاسم، وتعني الحمد لله).

* قل لي، كم ولد عندك في القبر؟

أي أنه لم يبق أحد بعد حالة الحرب المستمرة، هذه هي النهاية المأساوية المتوقعة لصراع لن ينتهي.

ولعل النكتة التالية تلخص الموقف تماما. ففي إحدى الكيبوتزات أي المزارع الجماعية، وهي ما أسميه الزراعة المسلحة حيث كان المستوطنون يستولون على الأرض الفلسطينية ثم يحيطونها بالسياج وأبراج حراسة، فيقومون بزراعة الأرض وبصد العرب الذين قد يحاولون استرجاع أرضهم بقوة السلاح، ويعيشون حياة عسكرية صارمة تتسم بالزهد والجماعية ولا يمكن لأي إنسان أن يقوم بهذا الفعل الاستيطاني المسلح إلا إذا كانت دوافعه الأيديولوجية قوية. وقد بلغ الإحساس بالجماعية درجة عالية حتى أن أعضاء الكيبوتزات كانوا لا يدركون هويتهم ولا يحققونها إلا من خلال الجماعة. وقد أطلق أحد الإسرائيليين نكتة عن هذا الوضع. فقال إنه

في إحدى الليالي خرج أعضاء الكيبوتس للنزهة وتركوا عضوا واحدا للحراسة. فشعر بوحدة قاتلة فقرر أن ينتحر، ولكنه أخفق لأنه كان لا يوجد أحد لمساعدته! ولكن مع تساقط الأيديولوجية الصهيونية، تغيرت طبيعة الكيبوتزات فدخلت عالم الصناعة والمضاربات المالية، وأصبحت مركزا للنخبة الإشكنازية الأرستقراطية تتمتع بمستوى استهلاكي مرتفع، ولا علاقة لها لا بالزراعة أو القتال. وزادت معدلات الاستهلاك والتوجه نحو اللذة. وتعبر النكتة التالية عن هذا الوضع الجديد، وتقول إن أحد أعضاء الكيبوتزات المسنين ممن تعودوا على أسلوب الحياة القديم اختفى طيلة النهار وفي المساء حين عاد سأله شباب الكيبوتز أين كان؟ فكان رده أنه ذهب لزيارة رفاقه القدامى في قبورهم. فكان ردهم: "لماذا عدت؟" بمعنى أن ما يمثله هذا المستوطن القديم لم يعد له وجود.

هذه هي بعض النكات التي يطلقها الإسرائيليون والتي تعبر عن حقيقة رؤيتهم للواقع واستجابتهم له، وهي رؤية مختلفة عن التصريحات الصهيونية وعن الصورة التي يقدمها الإعلام العربي وبعض الدراسات الأكاديمية التي تكتفي بدراسة التوراة والتلمود والتصريحات الصهيونية، بدلا من دراسة الواقع الاستيطاني الصهيوني بكل تناقضاته وإنجازاته وإخفاقاته.

والله أعلم.

http://www.aljazeera.net/NR/exeres/2FB2BD9E-D49D-4D6F-86FA-E72B0034FE67.htm

***

١٦ـ الدولة الصهيونية ويهود العالم

جريدة الاتحاد الإماراتية: ٢٠٠٨ـ٠٤ـ١٩

بالرغم من عداء الصهيونية لليهود واليهودية الذي كان واضحاً في البداية، ثم توارى عن الأنظار دون أن يختفي، وبالرغم من أن ثمة توتر مستمر بين الدولة الصهيونية وأعضاء الجماعات اليهودية يعبر عن نفسه من آونة لأخرى، كما بيّنّا في المقالات السابقة، إلا أنها تدّعي أن يهود العالم ملتفين حولها، يدعمونها قلباً وقالباً، وهذا أبعد ما يكون عن الحقيقة. فهناك قضايا كثيرة يثيرها يهود العالم من أهمها السؤال الخاص بيهودية الدولة اليهودية، وهل هي فعلاً دولة يهودية تعبّر عن الهوية اليهودية ؟ أم أنها تعبّر عن هويتها الإسرائيلية العلمانية؟ وهل هي دولة اليهود تدافع عن مصالحهم، أم أنها دولة تدافع عن مصالحها دون أخذ مصالح يهود العالم في الحسبان؟!

وعادة ما تثار مثل هذه القضايا حين تتعاون الدولة الصهيونية مع إحدى الحكومات التي تأخذ موقفاً معادياً من أعضاء الجماعة اليهودية. فعلى سبيل المثال لا الحصر تعاونت الدولة الصهيونية مع النظام العسكري في الأرجنتين، حينما كان شامير رئيساً للوزراء، وقد ثبت أن هذا النظام المشهور بميوله النازية المعادية لليهود، كان يقوم بتعذيب معارضيه، واليهود منهم على وجه الخصوص، ومع هذا فقد استمر النظام الصهيوني في الحفاظ على علاقاته بالنظام العسكري في الأرجنتين. وكانت السفارة الإسرائيلية ترفض التدخل لصالح المعتقلين السياسيين اليهود. وثمة حقيقة مهمة تدعو إلى التساؤل: إن أحد أهداف الدولة اليهودية هو توفير الأمن والحماية لليهود، ومع ذلك فإن أعضاء الجماعات اليهودية يشعرون بأن أمنهم قد تزعزع بسبب الأحداث في الشرق الأوسط، وأن الجو الذي يعيش فيه اليهود في عدة بلاد قد تحوّل من جو آمن إلى جو قلق مشحون. وفي الواقع، فإن كثيراً من المؤسسات اليهودية تحتاج الآن إلى حراسة مسلحة.

ويشير اليساريون اليهود في العالم إلى علاقات إسرائيل بالنظم العسكرية في أمريكا اللاتينية، فهي من أكبر موردي السلاح إليها، كما أن علاقاتها السياسية والاقتصادية والثقافية والعسكرية مع نظام جنوب أفريقيا كان محل انتقادهم، إذ كيف يتأتى لدولة يهودية متمسكة بالقيم اليهودية أن تتحول إلى حليف لكل قوى القمع والإرهاب في العالم؟ ويضطر الليبراليون أيضا إلى الاحتفاظ بمسافة بينهم وبين الكيان الصهيوني حينما يقوم بعمليات وحشية تفوح رائحتها مثل صابرا وشاتيلا وقانا وحصار غزة وتجويع أهلها.

وقد لاحظ هرب كاينون (في مقاله الذي نشرته الجيروساليم بوست ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٠) أن موقف يهود أمريكا من سياسة الولايات المتحدة الخارجية لا يتفق تماماً مع موقف إسرائيل، و٨٥% منهم يريدون أن تلعب الولايات المتحدة دوراً نشيطاً في الشرق الأوسط، و٧٥% لا يمانعون في ذلك حتى لو أدى إلى مواجهة بينها وبين الدولة الصهيونية.

وقد انفجرت القضية بحدة مؤخراً، فقد سجل لايزي لايبلر (جيروساليم بوست ١٩ نوفمبر ٢٠٠١) أقوال بعض قيادات الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ممن يرون أن سياسات إسرائيل والولايات المتحدة ليست بالضرورة متماثلة، مما يعطي الحق لأعضاء الجماعة اليهودية فيها أن يكون لهم رأي في السياسة الخارجية مستقل عن رأي إسرائيل.

وقد طالب زعيم كلال الحاخام إرفين كوهين بتوسيع النقاش، لأن قد لا تكون المصالح الإستراتيجية الأمريكية والإسرائيلية متماثلين بالضبط. وعلق الليبرالي ليونارد فاين بأنه "قد آن الأوان أن نبين أن السياسة الإسرائيلية تعرِّض أمن إسرائيل للخطر". كل هذه التصريحات تؤكد شيئاً أساسياً وهو حق يهود العالم في اتخاذ موقف مستقل عن موقف إسرائيل.

وقد وصل هذا التيار ذروته مع خطاب إدجار برونفمان أمام اجتماع المؤتمر اليهودي العالمي (الذي يضم ممثلين عن كل الجماعات اليهودية في العالم ويحاول أن يعبر عن وجهه نظرها). عقد الاجتماع في القدس في شهر أكتوبر ٢٠٠١، وفاجأ برونفمان الكثيرين بقوله إن الوجود الإسرائيلي في غزة خطأ، وأن المستوطنات التي لا يمكن حمايتها يجب تفكيكها، وأن على الإسرائيليين أن يفصلوا أنفسهم عن الفلسطينيين. كما أن برونفمان ادعى أن القرارات في مثل هذه المسائل يجب ألا تتقرر في الكنيست بل من خلال الاستفتاء العام.

وقد لاحظ لابير أن برونفمان هو أول زعيم يهودي يستخدم منصة فائقة النفوذ كي ينتقد بصراحة حكومة وحدة وطنية في وقت تعيش فيه الدولة اليهودية حصارا حقيقيا، ويتعرض سكانها للعنف، ويوجه معظم العالم الانتقادات لإسرائيل على الطريقة التي تدافع فيها عن نفسها، وتؤيد فيها أغلبية ساحقة ائتلاف رئيس الوزراء آرييل شارون الواسع.

ويرى الكاتب أنه إذا ما بدأ زعماء يهود الشتات (أي يهود العالم) يحذون حذو برونفمان، فإن هذا سيقوِّض أكثر فأكثر المجتمعات اليهودية المحطمة أصلاً، وأكثر من ذلك سيشجع الحكومات الأجنبية على تكثيف ضغطهم على إسرائيل وهذا صحيح على نحو خاص بالنسبة للولايات المتحدة حيث تقف -بصفتها الحليف الوحيد لإسرائيل- في موقع تحاول فيه إدارة منقسمة المراوحة بين تأييد إسرائيل ومحاوله إقناع الدول الإسلامية بالانضمام إلى ائتلافها.

ويختتم لايبر مقاله بإعلانه رفض مثل هذا الموقف من يهود العالم، ويعبر عن استنكاره أسلوب هذا الزعيم اليهودي، الذي يعقد زيارة تضامن قصيرة لإسرائيل، وبدلا من ذلك يوجه النقد

لسياسات إسرائيل، في أمور تتعلق بالحياة والموت. "فلنقلها بوضوح وبصوت عال في السياسة الخارجية وأمور الأمن إسرائيل والشتات (أي يهود العالم) غير متساوين". يبدو أن الدولة الصهيونية تريد من يهود العالم أن يهاجروا إليها ويغدقوا عليها العطاء وأن يلتزموا الصمت تجاه سياساتها الإرهابية، مهما بلغ خللها.

العلاقة إذن بين يهود العالم والدولة الصهيونية ليست علاقة وئام ووفاق كما تدعي آلة الإعلام الصهيونية، فهناك كثير من التوترات والتفجرات، ومع هذا أعلن المتحدث باسم الوكالة اليهودية أنها ستشن "حملة هجرة" على دول مثل الولايات المتحدة وكندا، وستأخذ هذه الحملة شكل حملة إعلامية مناسبة يمكن من خلالها تذكير أعضاء الجماعات اليهودية بأن تحقيق الوجود اليهودي لا يمكن أن يتم على أكمل وجه إلا في إسرائيل، وأن وجود إسرائيل مسألة مصيرية بالنسبة ليهود العالم. وأن الديموجرافيا مسألة مصيرية لوجود إسرائيل، ولذا فالهجرة ضرورية لتحقيق ذلك، ومن خلال الحملة يمكن تحويل الهجرة إلى قيمة يهودية مشتركة بين كافة التيارات الدينية (جيروساليم بوست ٢٥ نوفمبر ٢٠٠١)، أي أن المتحدثين باسم الوكالة اليهودية يخرجون المقولات الصهيونية التقليدية من الأدراج وينفضون عنها التراب والعناكب فيتحدثون عن الحفاظ على الهوية اليهودية ونفي الدياسبورا وبناء الوطن القومي، وهي مقولات -كما بيّنا- أكل الزمان عليها وشرب، ولا تجد آذاناً صاغية من يهود العالم.

والله أعلم.

***

١٧- الديمقراطية والقيمة

شهدت السنوات الأخيرة، خاصة في أعقاب تفجيرات ١١ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١، مجموعة من الأحداث والمواقف والسياسات كان من شأنها أن تثير شكوك البعض، وتؤكد الشكوك القائمة أصلا لدى البعض الآخر، بخصوص ما يسمي بالممارسات الديمقراطية في الولايات المتحدة الأميركية، التي طالما وصفت بأنها "زعيمة العالم الحر" و"قلعة الديمقراطية" و"المدافعة عن حقوق الإنسان".

فعلى المستوى الداخلي، فرضت سلسلة من القيود التي تحد من الحريات الفردية للمواطن الأميركي، وبدأ تطبيق تدابير أمنية لا تختلف كثيرا عن تلك المتبعة في أعتى النظم الاستبدادية، ومنها مثلا "قانون الأدلة السرية" والمحاكم العسكرية، كما بدأ اتخاذ إجراءات تتسم بالتمييز ضد أبناء الأقليات، لا سيما من ينحدرون من أصول عربية أو إسلامية.

وعلى المستوى الدولي كان هناك غزو أفغانستان ثم العراق، وما صاحب ذلك وما تلاه من ممارسات وحشية من قبيل تلك التي كشفت عنها فضيحة "سجن أبو غريب" في بغداد، فضلا عن التلويح باستخدام القوة ضد أي دولة لا تستجيب لشروط الهيمنة الأميركية، بدعوى أنها من الدول "المارقة" أو من أطراف "محور الشر". ووسط هذا كله كان هناك ولا يزال الدعم الأميركي المطلق للممارسات الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني، التي تتنافي مع أبسط معايير القانون الدولي وحقوق الإنسان والأعراف الإنسانية.

ومن الطبيعي أن تقود هذه التطورات إلى طرح تساؤلات عن النموذج المثالي الذي يطرح للديمقراطية والنموذج الفعال الذي يطبق على أرض الواقع، فعادة ما تعرّف الديمقراطية بأنها نظام سياسي يوفر فرصة المشاركة لكل أعضاء المجتمع الذين لهم حق التصويت في اتخاذ القرارات التي تؤثر في حياتهم الفردية والجماعية على حد سواء في أي من المجالات الاجتماعية أو السياسية. كما تعرّف الديمقراطية بأنها نسق سياسي قائم على مبادئ ممارسة الحكم من خلال موافقة المحكومين وتقبلهم له، على اعتبار أن الحكومة تستمد شرعيتها، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، من إرادة غالبية أعضاء المجتمع المحلي أو المجتمع بأكمله. ويقتضي نموذج الديمقراطية النيابية هذا عددا من الشروط، مثل الانتخابات الحرة وسرية التصويت وتكافؤ فرص المرشحين، فضلا عن المساواة أمام القانون وحرية التعبير والنشر والاجتماع.

إلا أن أي نظرة فاحصة على الأوضاع في الولايات المتحدة ستكتشف أن النموذج الفعال المطبق في الواقع يختلف بشكل جوهري عن المثل الأعلى المطروح، فالمواطن الأميركي الذي ينتخب أعضاء الكونغرس ومجلس الشيوخ ورئيس الدولة التي تريد أن تحكم العالم هو مواطن ساذج لا يعرف شيئا عن علاقة الاقتصاد بالسياسة، وعن آليات الاستغلال الاقتصادي، وهو جاهل بما يجرى في العالم، والحزبان الرئيسيان (الديمقراطي والجمهوري) لا يقدمان له برامج توعية سياسية، ويكتفيان بتقديم برامج متناثرة لا يربط أجزاءها رابط، حتى ترضي معظم الأذواق، إن لم يكن كلها، وهي برامج تختزل تطلعات المواطن إلى بعدها المادي (الاقتصادي والجسماني) وقضيتها الأساسية هي إشباع تطلعاته الاقتصادية بشكل سريع ومباشر، ويتولى الإعلام الترفيه عنه وتفريغه من الداخل، من خلال تصعيد نزعاته الاستهلاكية والجسمانية، وحصره في عالم الحواس والسلع والمادة والأشياء.

كما أن المعركة الانتخابية في الدول الغربية، خاصة الولايات المتحدة، تتكلف مئات الملايين من الدولارات، ومن ثم فلا مكان في هذه المعركة سوى للمرشح الثري الذي يمكنه تدبير الاعتمادات اللازمة للقيام بحملة انتخابية مستمرة وفعالة، أما المرشح الذي لا يملك مثل هذه الإمكانات فمصيره التهميش الإعلامي. ويعني هذا، في عصر سيطرة وسائل الإعلام، أن بوسع أصحاب المصالح وكبار الرأسماليين وجماعات الضغط التأثير في الانتخابات لا بسبب برامجهم السياسية وإنما بسبب ثرواتهم، أو لأسباب أخرى لا علاقة لها بمصلحة الجماهير أو مصلحة الوطن.

وقد كنت في رحلة علاجية في الولايات المتحدة عندما حدثت المواجهة الخطيرة بين دولتين نوويتين، هما الهند وباكستان، فسألت كبيرة الممرضات (وهي في منزلة الطبيب وتتلقى تعليما جامعيا طويلا مثله) عن رأيها في هذه المواجهة، ففوجئت بأنها لا تعرف شيئا عنها، وبررت ذلك بقولها إن الهند وباكستان بعيدتان عن الولايات المتحدة!!

وذكر أحد الصحفيين الذين ذهبوا إلى العراق لتغطية الأحداث هناك أن الجنود الأميركيين لا يعرفون أين هم ويسألون "أين القاهرة؟"، وبعضهم يتعجب من عدم وجود محلات ماكدونالدز ولا فتيات يمكنه اصطحابهن.

وكثير من أعضاء الكونغرس يخلطون بين العراق وإيران Iran و Iraq بسبب تقارب النطق بين الكلمتين بالإنجليزية، وبسبب جهلهم الشديد بالجغرافيا والتاريخ. ومن المفارقات أن أحد

أهم أعضاء الكونغرس الأميركي هو عامل مبيدات من إحدى قرى ولاية تكساس، وهو من الصهاينة المسيحيين ولديه رؤاه الخاصة بآخر الأيام وهرمجدون ولا يعرف عن الشرق الأوسط إلا ما قرأه في العهد القديم!!

وقد ظهرت واحدة من أهم مشاكل الديمقراطية مع حرب العراق، حيث تظاهر الملايين في بريطانيا وإسبانيا والولايات المتحدة احتجاجا على الحرب، وطالب مجلس الأمن بإعطاء المفتشين الدوليين مهلة للبحث عن أسلحة الدمار الشامل، ولكن حكومات هذه البلاد لم تلق بالا لآراء الجماهير في بلادها ولا للمجتمع الدولي، ودفعت بقواتها إلى الحرب استنادا إلى معلومات ثبت بعد ذلك أنها كانت مختلقة وملفقة.

ومن أهم القضايا التي تواجهها الديمقراطية في التطبيق مشكلة المرجعية النهائية، أي مجموعة القيم التي تحكم الإجراءات الديمقراطية نفسها. فبوسع ٥١% من الناخبين أن يقرروا القانون والحقيقة والقيمة، أي أن عدد الأصابع المرفوعة هو المرجعية النهائية، فهي ديمقراطية بلا مرجعية فلسفية أو أخلاقية أو معرفية، ويمكن تسميتها "الديمقراطية الإمبريقية"، أو "الديمقراطية المنفصلة عن القيمة "value-free democracy، شأنها شأن "العلم المنفصل عن القيمة"، و"حرية التعبير المطلقة المنفصلة عن القيمة".

وقد ضرب أحد المفكرين مثلا على ديمقراطية عد الأصابع بإحدى مباريات كرة القدم، وتساءل: إذا أحرز الفريق الضيف أهدافا أكثر من أعضاء فريق البلد المضيف، فهل من حق أغلبية المتفرجين أن يقرروا ما إذا كان الفريق الضيف هو الفائز أم لا؟ والإجابة بطبيعة الحال بالنفي، فإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لمباراة في كرة القدم، فهل يصح تطبيق هذا المنطق على شيء بمثل أهمية القيم الإنسانية العليا كمرجعية نهائية؟

وتعد التجربة النازية نموذجا لتلك الديمقراطية التي لا مرجعية لها، والتي تختزل في عد الأصابع. فقد وصل هتلر إلى الحكم من خلال القنوات الشرعية الديمقراطية، وحاز على رضا وإعجاب وحماس الشعب الألماني، وحينما بدأ الحكم النازي بتصفية الأقليات العرقية والدينية غير المرغوب فيها، مثل الغجر والمعوقين واليهود، باعتبارها عناصر بشرية تستهلك ولا تنتج، وافق أغلبية الشعب الألماني على عمليات التطهير العرقي.

كما وافقت الشعوب الغربية على إرسال جيوشها إلى آسيا وأفريقيا فأبادت ما أبادت من بشر، وسخرت ما سخّرت من شعوب، ونهبت ما نهبت من أراض. وقد عبرت هذه الشعوب عن رأيها بشكل بالغ الديمقراطية.

كما توافق الأغلبية الساحقة من أعضاء التجمع الصهيوني على عمليات البطش والذبح التي ترتكبها القوات الإسرائيلية، ويتمتعون بالمكاسب الاقتصادية التي تحققها عمليات البطش هذه، فالديمقراطية الإسرائيلية هي ديمقراطية بلا مرجعية، وهي في هذا تشبه عصابات المافيا، حيث يتم كل شيء من خلال إجراءات ديمقراطية دقيقة لا غبار عليها ولا شبهة فيها، ولكن مرجعيتها النهائية هي الحق الذي تعطيه هذه العصابة لنفسها في سلب الآخرين حقوقهم وتقويض إنسانيتهم.

وفي إطار الديمقراطية المنفصلة عن القيمة، رشحت إحدى نجمات الأفلام الإباحية (البورنو) نفسها لعضوية البرلمان الإيطالي، وكان برنامجها الانتخابي يتلخص في خلع ملابسها قطعة قطعة أمام السادة الناخبين. ويبدو أن هذا البرنامج الانتخابي له فعالية فائقة في بلد مثل إيطاليا، إذ نجحت السيدة الفاضلة نجمة البورنو في الانتخابات!

ومن المشاكل الأخرى التي واجهت تلك الديمقراطية المفتقرة إلى المرجعية مشكلة الاستنساخ التي يرى الكثيرون أنها تهدد ظاهرة الإنسان نفسه. وقد أصدر الرئيس كلينتون قرارا بحظر الاستنساخ، وهو قرار لا علاقة له بالعلم أو بعدد الأصوات، وإنما يصدر عن مرجعية إنسانية عامة.

وتواجه الديمقراطية الغربية الآن مشكلة الزواج المثلي، أو الاتحاد المدني كما يسمونها، فمن يقف ضد هذا يستند إلى مرجعية دينية أو إنسانية متخفية، أما من يؤيده فهو يرضخ لمنطق الديمقراطية الإمبريقية وعد الأصابع.

لكل هذا، فثمة ضرورة لإعادة تعريف الديمقراطية، وبدلا من القول بأن الديمقراطية هي "صوت واحد لكل مواطن" one man, one vote، يجب تعريفها بأنها نظام سياسي يعطي صوتا واحدا لكل مواطن شريطة توفير المعلومات الكاملة له، وهذا مهم ومتيسر في عصر المعلومات. كما يجب أن تدار المعركة الانتخابية بشفافية بحيث تتاح مساحة زمنية متساوية في وسائل الإعلام لكل المرشحين ويجب أن يوضع حد أقصى لما يمكن للمرشح الواحد أن ينفقه، سواء على الإعلانات أو في إدارة حملته الانتخابية.

ومن الضروري أيضا تقليم أظافر الدولة وبيروقراطيتها التعليمية والإدارية، التي عادة ما تستقل عن مصالح الجماهير لتعبر عن مصلحتها هي، وذلك عن طريق زيادة فاعلية مؤسسات المجتمع المدني والنقابات وكل المؤسسات والتنظيمات غير الحكومية (التي تخشاها الدولة المركزية)، والتي تعبّر عن مصالح ومطامع الجماعات المختلفة في الوطن الواحد.

كما يجب التأكيد على أن الديمقراطية ليست هي رأي الأغلبية وحسب، إذ يجب أن تكون هناك ضوابط لحفظ الحقوق المدنية والدينية والثقافية لأعضاء الجماعات العرقية والدينية المختلفة، وربما أمكن تنفيذ هذا من خلال إقامة مجلسين، مجلس على أساس التمثيل الشعبي، ومجلس على أساس تمثيل الجماعات العرقية والدينية تكون مهمته مراقبة تنفيذ القوانين الخاصة بحقوق هذه الجماعات. ولا بد أيضا من اتخاذ خطوات تكفل ألا تتحول المؤسسة العسكرية إلى جماعة ضغط خفية تتحكم في سياسات الدولة بل وفي كل شيء.

وقد ارتبطت الديمقراطية الإمبريقية في الغرب بالنظام الرأسمالي في كل وحشيته وداروينيته، وحددت الأولويات فيه انطلاقا من هذه العقلية الرأسمالية التي جعلت من الربح الهدف الأسمى والوحيد، ما أدى إلى إهمال كثير من الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والإنسانية (ولعل النقد الاشتراكي لديمقراطية بلاد الرأسمال الحر يفيد كثيرا في فهم هذا الجانب)، ولذلك لا بد من وضع الضوابط الكفيلة بكبح جماح الرأسمالية المتوحشة والشركات الضخمة، وتحديد هدف المجتمع بطريقة تضمن تحقيق الإمكانيات الإنسانية لكل أعضاء المجتمع وخدمة مصالحهم في حدود إمكانياته، وليس مجرد الربح ومزيد من الربح للشركات الرأسمالية وللأثرياء.

ولكن الأهم من هذا كله أن تكون مرجعية النظم الديمقراطية هي القيم الإنسانية العامة المتمثلة في المواثيق والأعراف الدولية المختلفة، مثل "الإعلان العالمي لحقوق الإنسان"، و"ميثاق الأمم المتحدة"، واتفاقيات جنيف، ومبدأ عدم التدخل في شؤون الدول الأخرى، وألا تخضع هذه القيم للتصويت أو لعد الأصابع.

وليس المقصود من الانتقادات السابقة رفض الديمقراطية، فهناك إنجازات تحققت بالفعل، ولا بد من الإفادة منها ومحاولة تطبيقها، مثل تعدد الأحزاب والفصل بين السلطات وخضوع السلطة التنفيذية للمساءلة أمام السلطة التشريعية، مع التنبه في الوقت نفسه للمثالب التي يتسم بها نموذج الديمقراطية الغربية. والله أعلم.

***

١٨ـ الرؤية الصهيونية للتاريخ

موقع الجزيرة نت 01-01-2008 :

الحلولية هي أن يحل الإله في كل مخلوقاته أو في أحدها ويتماهى معها ليصبحا جوهراً واحداً. والرؤية اليهودية للتاريخ -في تصوري- رؤية حلولية، بمعنى أن بعض الحاخامات كانوا يتصورون أن الإله قد حل في الشعب اليهودي فاصبح شعباً مختاراً، كل أفعاله، خيّرة كانت أم شريرة، أفعال مقدسة، وتاريخه أصبح تاريخاً مقدساً. وقد ورث الصهاينة هذه الرؤية الحلولية والتي تتبدى في عدة أمور:

١ـ الخلط بين التاريخ الزمني والتاريخ المقدس. "التاريخ" الذي ورد في القرآن أو القصص التي وردت فيه ليس تاريخاً زمنياً، وإنما تاريخاً يهدف إلى هداية الناس. ومن هنا، فإن قصص الأنبياء – كما يبيّن الدكتور علي عبد الواحد وافي – ليست كاملة، وإنما تم اختيار أحداث معينة منه ذات دلالة، حتى يتضح الدرس الأخلاقي وحتى تظهر الموعظة. ومن هنا، لا يمكن الحديث عن تاريخ إسلامي، وإنما تواريخ المسلمين. والتاريخ الزمني هو مجال الفوضى، ومجال النهوض والسقوط، أما التاريخ المقدَّس فهو تاريخ مثالي، يُكافَئ فيه المصيبُ، ويُجازَى المخطئ. ومهمة التاريخ المقدس هي تزويد الإنسان بمعايير يحاكم بها التاريخ الزمني.

على العكس من هذا يرى بعض الصهاينة أن الإله قد حل في التاريخ ومن ثَمَّ يختلط التاريخ البشري الزمني (مجالُ الهداية والضلال) بالتاريخ المقدَّس (الذي تتجلى من خلاله، في كل كبيرة منه وصغيرة، إرادةُ الله). ولذا نجد أن الصهاينة يذهبون إلى أن القصص الذي ورد في العهد القديم (تاريخ الملوك والأسباط) هو تاريخ مقدس وزمني في ذات الوقت. ولذا نجد أن القصص التوراتي يرد كاملاً بكل وقائعه، فوقائع تاريخ الملوك العبرانيين -على سبيل المثال- ترد كاملة منذ اعتلاء الملك العرش حتى وفاته. فالهدف ليس الموعظة ولا تزويد المؤمن بالمعايير الأخلاقية، وإنما الهدف هو رصد كل الوقائع، فهي موضع الحلول، وهامة في حد ذاتها، كما أنها تتجاوز الخير والشر، ولذا لا يمكن الحكم عليها بأية معايير أخلاقية.

٢ـ يتحدث الصهاينة عن المسألة اليهودية كما لو كانت أمرا فريدا، وعن الدولة اليهودية كما لو كانت ليس كمثلها شيء، والهولوكوست باعتباره أمرا فريدا حدث لليهود وحدهم. وحتى يصلوا إلى هذه النتيجة يقومون بعزل هذه الوقائع التاريخية عن سياقها وإطارها بحيث تصبح ظواهر غير تاريخية يمكن للصهاينة أن يفرضوا عليها أي معنى يشاءون، ثم يوظفونها

بالطريقة المناسبة لهم والتي تخدم مصالحهم ورؤيتهم الأيديولوجية. هذه الظاهرة أسميها الأيقنة، أي أن تتحول الواقعة التاريخية إلى ما يشبه الأيقونة، يتعبد الإنسان أمامها لأنها أصبحت موضع الحلول، أي أن الإله حلّ فيها فتألهت. وحتى نفهم هذه الوقائع حق الفهم، في تركيبيتها وزمنيتها وتعينها، لابد من استرجاع البعد التاريخي والإنساني، إن فعلنا ذلك سيتضح لنا أن المسألة اليهودية لم تكن مسألة عالمية وإنما كانت مسألة يهود شرق أوروبا، وخاصة في روسيا، ولم تكن مسألة مقصورة عليهم وإنما كانت جزءا من مشكلة كل الأقليات في روسيا القيصرية التي كان يصفها لينين بأنها"سجن الأمم". أما الدولة اليهودية فلو قارناها بالجيوب الاستيطانية الأخرى لوجدنا أنها جيب استيطاني إحلالي لا يختلف في توجهه وسماته العامة عن الجيب الاستيطاني في جنوب أفريقيا. أما الهولوكوست فلابد من وضعها في سياق إنساني وزمني أوسع، وداخل نمط متكرر، وهي عمليات الإبادة التي قامت بها الحضارة الغربية الحديثة ابتداء بإبادة السكان الأصليين في الأمريكتين وانتهاء بعمليات الإبادة في فيتنام والشيشان والجزائر. وبذلك تكتسب الهولوكوست بعداً إنسانياً تاريخياً. ولعل السمة المميزة الوحيدة للهولوكوست والتى تفصلها عن وقائع الإبادة الأخرى أنها حدثت داخل أوروبا وضد المواطنين البيض، على عكس كل عمليات الإبادة الأخرى. النمط هنا لا يعني أنه كان من الحتمي أن تنشأ مسألة يهودية في روسيا القيصرية أو أن تغرس الدولة الصهيونية غرسا في وسط العالم العربي على أرض فلسطين، كما لا يعني أن الإبادة النازية ليهود ألمانيا مسألة حتمية لا مفر منها. رصد النمط وبلورته هو آلية لمحاولة فهم التاريخ لا كأحداث متفرقة وإنما كأحداث مختلفة تنتمي لنفس النمط. ولكي نصل إلى النمط المتواتر علينا أن نضع الأحداث التي تشبه بعضها البعض في إطار ونسميه ونصنفه ونطلق عليه اسما، ونستخلص منه بعض التعميمات التي تساعدنا على فهم بعض أحداث التاريخ، وما يدور حولنا، وربما على التنبؤ ببعض جوانب المستقبل.

٣- تتبدى الحلولية بشكل مثير فيما أسميه ظاهرة "الاستمرار اليهودي"، فإذا كان تاريخ الشعب اليهودي هو موضع الحلول لأن الإله قد حل فيه ويوجهه ويحوطه بعنايته (فالشعب اليهودي هو الشعب المختار)، فإن مسار هذا التاريخ معروف ومقرر مسبقا ويتبع نمطا واحدا وسينتهي نهاية سعيدة، مهما كانت الصعاب والمشقات التي يلاقيها الشعب المختار. وهذا النمط ثلاثي الإيقاع: شعب مختار مستقر في وطنه- قوة ظالمة تنفيه من وطنه- عودة إلى وطنه لبناء الهيكل، هذا النمط حتمي متكرر يأخذ شكلا هندسيا متسقا مع نفسه، منغلقا على ذاته، مكتفيا بها، لا علاقة له بالواقع التاريخي المتعين الحي، ويصل إلى درجة عالية من الاتساق العضوي

مع نفسه، ولذا فهو يشبه الأساطير القديمة ولا يختلف عن الرؤية اليونانية القديمة للتاريخ باعتباره تاريخا دائريا يأخذ شكل حلقات متكررة، والتي أعجب بها نيتشه، ربما بسبب عبثيتها، ولذا كان يتحدث هو الآخر عن فكرة العود الأبدي **eternal return**. إن كل الحلقات التاريخية بكل تفاصيلها بعد أن تصل إلى نهايتها ستتكرر مرة أخرى بحذافيرها.

في هذا الإطار، وانطلاقاً من فكرة الاستمرار التاريخي يرى الصهاينة أن العبرانيين القدامى دخلوا كنعان واستقروا في أرض الميعاد، وتبع ذلك حكم القضاة والملوك وهذا هو الكومنولث اليهودي الأول أو الهيكل الأول. ثم جاءت الجيوش الأشورية ثم البابلية وتم نفي اليهود من وطنهم فيما يسمى السبي الأشوري والسبي البابلي، ثم عاد اليهود من بابل بأمر قورش إمبراطور فارس، وتم تأسيس الكومنولث اليهودي الثاني أو الهيكل الثاني. وبدأ الغزاة السلوقيون في مناوشة اليهود في وطنهم القومي (أي فلسطين) فقامت الثورة الحشمونية وانتهى الأمر بأن جاءت الجيوش الرومانية بقيادة تيتوس فهدم الهيكل الثاني ونفى اليهود. ولكن رغم هذا النفي، ظل الشعب اليهودي قابعا داخل تاريخه المقدس الذي حل فيه الإله ولم تكتمل الحلقة ثلاثية الإيقاع (وطن- نفي- عودة) إلا عام ١٩٤٨ بعودة اليهود مرة أخرى إلى فلسطين. وبالتالي، فالاستيطان الصهيوني تعبير عن نمط متكرر ومستمر ومتوقع.

ويحاول بن جوريون تبرير عسكرة المجتمع الإسرائيلي باللجوء إلى أسطورة الاستمرار، فيقول: « إن جنود موسى ويوشع وداود لم يكفُّوا عن القتال... وكذلك جنود صهيون [أي دولة إسرائيل] لن يتوقفوا عن القتال ». بل إن الصراع العربي الإسرائيلي بأسره ينظر إليه على أنه استمرارا لصراع العبرانيين مع الفراعنة والآشوريين والبابليين والفينيقيينن.

٤- تتبدى الرؤية الصهيونية الحلولية للتاريخ فيما أسميه القياس التاريخي الزائف الذي يفترض أن الظواهر المحيطة بيهود اليوم تشبه في كثير من الوجوه الظواهر التي واجهها اليهود في ماضيهم السحيق وتنتمي لنفس النمط. فنجد، مثلاً، أن حاييم وايزمان يطالب العرب في خطابه أمام المؤتمر الصهيوني العشرين (١٩٣٧) بالتفاوض مع اليهود مذكراً إياهم بأنه، في الفترات العظيمة من التاريخ العربي، تعاون الشعبان معاً في بغداد وقرطبة على حفظ كنوز الثقافة العربية. فالعرب في نظره ما زالوا كما كانوا، واليهود أيضاً لم يتغيروا، أما الظروف التاريخية المتغيرة فهي أمر ثانوي يحسن التغاضي عنه كلية.

٥- تشكل الرؤية الصهيونية الحلولية للتاريخ خريطة الصهاينة الإدراكية. فهم لا يمكنهم رؤية حقوق الآخرين، إذ كيف يمكن لشعب مقدس بل ومتأله أن يدرك هذه الحقوق. وهم يرون أن احتلالهم فلسطين ليس اغتصاباً وقيامهم بذبح الفلسطينيين هو مجرد دفاع عن النفس وعن الحقوق اليهودية المطلقة لشعب مقدس يعود إلى أرضه المقدسة. وهكذا يختفي عنف الصهاينة ودمويتهم وراء ستار القداسة والحلول الإلهي.

وقد تنبه الحاخامات القدامى لخطورة الرؤية الحلولية، فهي تصعد أوهام أعضاء الجماعات اليهودية وتؤدى إلى التفجرات المشيحانية، نسبة إلى الماشيح (المسيح المخلص اليهودى) الذي سيأتي في آخر الأيام ويقود شعبه ويعود بهم إلى صهيون. فأكد الحاخامات أن عوده الماشيح (أي المسيح المتظر اليهودي، أو المهدي المنتظر اليهودي) والعصر الماشيحاني لن يأتي إلا فى آخر الأيام (أي خارج التاريخ) وأنه لن يحدث إلا بأمر الإله، ولذلك حرموا العودة إلى فلسطين وطلبوا من اليهود الانتظار في صبر وأناه (داخل التاريخ) إلى أن يشاء الإله ويرسل بالماشيح فينهي التاريخ الزمني ويعود التاريخ المقدس. ومن يخالف الإرادة الإلهية ويعود بإرادته فإنه بذلك يكون قد ارتكب خطيئة الداحيكات هاكتس، أي التعجيل بالنهاية، دون الانتظار لإرادة الإله. ولكن جاء الصهاينة فالغوا المسافة بين التاريخى والزمني، وأصبحوا هم موضع الحلول، أي أن إرادتهم تجب إرادة الإله، وأعلنوا أنه لابد من العودة دون الانتظار لمشيئة.

ويلاحظ أن المؤرخين الجدد وعلماء الاجتماع النقديين في إسرائيل بدأوا ينضجون الوعي التاريخي في الكيان الصهيوني. فالممارسة الصهيونية جعلتهم يكتشفون أن فلسطين ليست أرضا عذراء، وأن الشعب الفلسطيني ليس غائبا ولا بد من التعامل معه، ولذا فشعارات صهيونية معادية للتاريخ مثل "أرض بلا شعب" أو "من النيل إلى الفرات" تراجعت، والآن يتحدث الصهاينة أنفسهم عن تحديد الحدود. فكرة الحدود نفسها فكرة تاريخية أما "صهيون" التي تشكل حجر الزاوية في الرؤية الصهيونية فهي فكرة معادية للتاريخ. وقد بدأ كثير من الإسرائيليين ينظرون للدولة الصهيونية باعتبارها دولة تستند إلى حقائق سياسية وليس إلى حقوق مطلقة أو إلى الوعد الإلهي. وقد كتب زئيف هرتزوج، أحد المؤرخين الإسرائيليين، دراسة بيّن فيها أن الأساطير التوراتية ليس لها أي سند تاريخي. وحين سُئل: إذا كانت الأساطير التوراتية ليس لها أي سند تاريخي، فلماذا أنتم (أي الإسرائيليون) هنا؟! فكان الرد: نحن هنا لأننا هنا (أي أمر واقع)، وهو رد مهذب، فهو لم يتحدث عن السلاح الإسرائيلي أو

البطش الإسرائيلي، ولكنه مع هذا أكد أن إسرائيل حقيقة سياسية تاريخية، لا تتمتع بأي قداسة، وهذا يشكل في تصوري خطوة إلى الأمام.

واصطبغت الصهيونية فى الآونة الأخيرة بصبغة دينية فاقعة، وجعلت التوسع الصهيوني مصدر شرعيتها، والأرضية التى تستند إليها، ولكن تحت ضغط الواقع وبسبب المقاومة الفلسطينية التى لا تتوقف نجد أن ثمة محاولة لفصل التاريخ المقدس عن التاريخ الزمني حتى في الأوساط الدينية. فللمرة الأولي في تاريخ الصهيونية يعتزم الممثلون الرسميون لدولة إسرائيل التنازل رسميا عن سيادة الدولة اليهودية على جزء من أرض إسرائيل (التوراتية) أراض هي -في تصورهم- موضع الحلول الإلهي. ولذا يذهب بعض الصهاينة المتدينيين إلى أن تنازل دولة إسرائيل عن السيطرة على "القلب التاريخي" لأرض إسرائيل يقوّض الأرضية التي يستند إليها الشرعية الصهيونية، ويسقط عن دولة إسرائيل صفتها كتعبير عن الاستمرارية التاريخية لليهودية.

والله أعلم.

ملاحظة: هذه المقالة نشرت بموقع الجزيرة نت بصفحة المعرفة- وجهات نظر بتاريخ ١ يناير ٢٠٠٨.

http://www.aljazeera.net/NR/exeres/1999C052-EA0D-4DD2-B80D-EA61CD465037.html

***

١٩ـ الزمن الموت والشـعراء

حينما نقول إن هذه القصيدة عن الحب أو عن المدينة أو عن الموت، فنحن في واقع الأمر لا نطلق حكماً أدبيا أو جماليا، أو حتي فكريا، بل نكون قد قمنا بتصنيف العمل علي أساس الموضوع الظاهر وحسب. وهُوية العمل الفني، ومعناه المحدَّد، وسماته الفريدة لا تفصح عن نفسها من خلال الموضوع الذي يتناوله، وإنما من خلال طريقة المعالجة والبناء الكُلِّي الذي يتبدي في عشرات التفاصيل، مثل الصور الشعرية، ونبرة المتحدث في القصيدة، والكلمات المستخدمة والموضوع الكامن الذي يضفي علي العمل الوحدة ويربط بين تفاصيله وبين شكله ومضمونه. ولذا فالتصنيف حسب الموضوع الظاهر يختزل الأعمال الأدبية، ويفقدها هُويتها وفرادتَها وثراءها، بل ويعزلها عن التجربة الإنسانية الحية التي يحاول العمل التعبير عنها.

وتعالج هذه الدراسة مجموعة من القصائد التي تتناول موضوع الموت، وسنكتشف سويا كيف أن كل شاعر يتناول الموضوع نفسه بطريقة مختلفة، تعبر عن تجربته بكل ثرائها وفرادتها وخصوصيتها، رغم أن الموت هو الموت. ولن نتبع منهجاً واحداً في قراءتنا لهذه القصائد، بل سنغير منهجنا النقدي حسب ما تتطلبه القصيدة موضع البحث. ولكن في جميع الأحوال كان تركيزنا علي النص الأدبي نفسه، ولذا أتينا بالنصوص الكاملة للقصائد موضوع الدراسة، كما أننا حاولنا دائماً أن نركز علي النقطة التي يتقاطع فيها الشكل (الصورة- النبرة- البنية.. إلخ) مع المضمون.

وضع وولتر سكوت الموت في إطار أخلاقي. أما في أغنية البيتلز «إليانور رجبي»؛ فقد وضع الموت في إطار العصر الحديث، عالم «الأرض الخراب»:

آهٍ! انظر إلى كل هؤلاء الذين يشعرون بالعزلة!

إليانور رجبي تلتقط حبات الأرز من أرض الكنيسة بعد حفل زفاف،

تعيش في حلم،

تنتظر بجوار النافذة، ترتدي الوجه الذي تحتفظ به في إناء بجوار الباب،

لمَ تحتفظ به؟

آهٍ! كل هؤلاء الذين يشعرون بالعزلة.. من أين يأتون؟

الأب ما كنزي يكتب كلمات الموعظة التي لن يسمعها أحد،

لن يقترب أحد،

أنظر إليه وهو يعمل، يرْتُقُ جوربَه في الليل حينما لا يكون أحد هناك،

ماذا يهمه؟

آه! كل هؤلاء الذين يشعرون بالعزلة، من أين يأتون؟!

إليانور رجبي ماتت في الكنيسة ودفنت مع اسمها،

لم يأتِ أحد.

الأب ماكنزي نظف يده من الطين وهو يبتعد عن المقبرة.

لا، لم يكن الخلاص من نصيب أحد.

آهٍ! كل هؤلاء الذين يشعرون بالعزلة، من أين يأتون؟!

إن أردنا أن نصنف هذه القصيدة الغنائية القصيرة علي أساس الموضوع، لقلنا إنها عن موت إليانور رجبي. ولكننا لو فعلنا ذلك لتركنا معظم تفاصيل القصيدة دون تفسير أو تحليل. ولذا لابد أن نوسع من دائرة العملية التفسيرية حتي نتوجه إلى هذه التفاصيل، وسنجد أن القصيدة ليست عن موت إليانور رجبي، وإنما عن غياب الله وموت الإنسان.

تبدأ القصيدة بحبات الأرز المتبقية من حفل زفاف عقد في الكنيسة، فاللحظة الاحتفالية لم يبق منها سوي بعض حبات الأرز التي يجب أن تلتقط ليلقي بها في سلة المهملات. بعد أن تنتهي إليانور من مهمتها تنتظر بجوار النافذة، أي أنها تنضم للملايين الذين يشعرون بالعزلة، ولا يتواصلون. ولنلاحظ أن البنية الأساسية هنا هي شيء جميل واعد لا يثمر شيئاً، تماماً مثل الموعظة التي يكتبها الأب ماكنزي في المقطع الثاني والتي لن يسمعها أحد، وهو أيضاً ينضم للملايين التي تشعر بالعزلة، إذ يجلس وحيداً «يرْتُقُ جوربه في الليل/ حينما لا يكون أحد هناك».

كل هذه التفاصيل تكتسب معناها المحدد من المقطوعة الثالثة حينما تموت إليانور رجبي وتدفن مع اسمها، أي تدفن تماماً ولا يبقي منها حتي الذكري، ولكن العزلة تضرب علي الجميع، فلم يأتِ أحد لجنازتها.

وتنتهي القصيدة بصورة الأب ماكنزي ينظف يديه من الطين بعد أن دفن إليانور بمفرده (تماماً كما التقطت هي بمفردها حبات الأرز من أرض الكنيسة في بداية القصيدة وكما كتب الأب ماكنزي كلمات الموعظة التي لن يسمعها أحد)، فلم يأت أحد لجنازتها، وهكذا تحولت طقوس الحداد إلى عملية فارغة تماماً، في عالم خالٍ من المعني. ولذا «لم يكن الخلاص من نصيب أحد». وتنتهي القصيدة باللازمة نفسها «آهٍ! كل هؤلاء الذين يشعرون بالعزلة، من أين يأتون؟!».

وموضوع الموت (والزمان) من أهم الموضوعات المتواترة في شعر «الهايكو» الياباني، وهي أقصر الأنواع الأدبية، إذ تتكون كل قصيدة من ثلاثة أبيات شعرية قصيرة:

«شيئان يسرقهما القمر

الضوء من سيقان الأشجار،

ويومٌ من حياتي».

«تطفو البجعة بعيداً،

وقد حملت في ريشها

ضوءَ النهار».

القصيدتان السابقتان من شعر باشو، أشهر شعراء الهايكو، بل هو واضع أسسه. ويحق للمرء أن يتساءل: هل هما عن الموت ومرور الزمن، أم عن منظر طبيعي جميل يتسم بشيء من الحزن؟!

العناصر الطبيعية موجودة، وبشكل واضح، وسطح القصيدتين مليء بها (القمر- الأشجار- البجعة- الريش- ضوء النهار). ولكن هذه العناصر لم توضع بشكل زخرفي أو عشوائي، وإنما رتبت بطريقة تولِّد معني محدداً. فنلاحظ أن في كلتا القصيدتين صورةً أساسية، وهي الغياب التدريجي للضوء، فالبجعة تحمله بعيداً والقمر يسرقه، فكأن هناك حركةً من حالة الضياء إلى حالة الظلام (أو علي الأقل العتمة)، ومن حالة الحضور إلى حالة الغياب. وإذا كانت القصيدة الأولي توحي بالمعني؛ فإن الثانية، رغم قِصَرها، تقررها: فالقمر يسرق الضوء ويوماً من حياته، فالضوء هو الزمان، هو حياته، ومن هنا فحينما يسرق القمر الضوء من سيقان الأشجار، فإنه يخضعها لحكم الزمان والموت.

ولكن.. هل هناك مجال لتجاوز مأساة الموت؟ الإجابة ستكون بلا شك بالنفي. ومع هذا، يمكن القول إن ثمة تجاوزاً من خلال البعد الجمالي، فالسطح والصور والألوان، رغم أنها زائلة عابرة، ورغم أن الضوء ينسحب، إلا أن كل هذه التفاصيل تظل محتفظة بجمالها، ولعلها بذلك تدخل بعض العزاء علي قلوبنا، حتي ونحن في طريق العودة!

والقصيدة التالية للشاعرة الأمريكية أميلي ديكنسون «لأنه لم يكن بوسعي أن أمر علي الموت» (اعتمدت إلى حد كبير علي ترجمة د. محمد هشام). تتسم القصيدة بأنها ذات مستويين: واحد ظاهر كوميدي خفيف، والآخر ليس مأساويا وحسب وإنما سوداوي، وهو ليس مجرد تعبير عن مرحلة في حياتها وإنما هو تعبير عن رؤيتها للموت وعن علاقة الإنسان به.

***

٢٠ـ الشرق الأوسط الجديد في التصور الأمريكي الصهيوني

موقع الجزيرة نت: ٢٠٠٦-١١-٠١

تردد في الآونة الأخيرة مصطلح "الشرق الأوسط الجديد" وهو سليل مجموعة من المصطلحات الأخرى مثل "النظام العالمي الجديد" و"الشرق الأوسط الكبير". وقد ظننا أن مثل هذه المصطلحات قد دفنت بلا رجعة، ولكن بعد الهجوم الإسرائيلى على لبنان فى الحرب الأخيرة أعلنت وزيرة الخارجية الأمريكية أن الشرق الأوسط الجديد سيولد من رحم هذه الحرب. فما هو هذا الشرق الأوسط الجديد؟ هل هو بالفعل جديد؟!

يمكن القول بكثير من الاطمئنان أن الاستراتيجية الغربية تجاه العالم الإسلامي منذ منتصف القرن التاسع عشر تنطلق من الإيمان بضرورة تقسيم العالم العربي والإسلامي إلى دويلات إثنية ودينية مختلفة، حتى يسهل التحكم فيه. وقد غرست إسرائيل في قلب هذه المنطقة لتحقيق هذا الهدف. فعالم عربي يتسم بقدر من الترابط وبشكل من أشكال الوحدة يعني أنه سيشكل ثقلا استراتيجيا واقتصاديا وعسكريا ويشكل عائقا أمام الأطماع الاستعمارية الغربية. وفي إطار الوحدة والتماسك تشكل إسرائيل جسما غريبا تلفظه المنطقة مما يعوق قيامها بدورها الوظيفي، كقاعدة للمصالح الغربية. أما في إطار عالم عربي مقسم إلى دويلات إثنية ودينية بحيث تعود المنطقة إلى ما قبل الفتح الإسلامي، أى منطقة مقسمة إلى دويلة فرعونية في مصر وأخرى أشورية بابلية في العراق وثالثة آرامية في سوريا ورابعة فينيقية في لبنان، وعلى القمة تقف دولة عبرية متماسكة مدعومة عسكريا من الولايات المتحدة في فلسطين. ففي إطار التقسيم تصبح الدولة الصهيونية الاستيطانية، المغروسة غرسا في الجسد العربي، دولة طبيعية بل وقائدة. فالتقسيم هو فى واقع الأمر عملية تطبيع للدولة الصهيونية التى تعانى من شذوذها البنيوى، باعتبارها جسداً غريباً غرس غرساً فى المنطقة العربية. وكما قال شمعون بيريس لقد جرب العرب قيادة مصر للمنطقة مدة نصف قرن، فليجربوا قيادة إسرائيل إذا. وهذه هي الرؤية التي طرحها برنارد لويس منذ السبعينيات والتي تبناها المحافظون الجدد، وتدور السياسة الأمريكية في إطارها. ويبدو أن الولايات المتحدة بعد أن ذاقت مرارة الفشل في العراق وأفغانستان قررت أن تعهد لإسرائيل بتنفيذ مخططها الاستعماري بحيث تقوم بتدمير لبنان وحكومتها فتتحول لبنان إلى بلد ديموقراطي على الطريقة العراقية، أي تدور في فلك المصالح الأمريكية. وتتساقط قطع الدومينو العربى، الواحدة تلو الأخرى، كما تنبأ برنارد لويس، وقد أكد

وليام كريستول (من المحافظين الجدد) أن هذه فرصة للولايات المتحدة أن تأخذ زمام المبادرة مرة أخرى في المنطقة.

وفي مقال بعنوان "الولايات المتحدة متواطئة مع إسرائيل في تحطيم لبنان" يقول المعلق الأمريكي بول كريج روبرتس (الموقع الإلكتروني ٢٥ يولية ٢٠٠٦) أن ما نشاهده في الشرق الأوسط هو تحقق خطة المحافظين الجدد في تحطيم أي أثر للاستقلال العربي الإسلامي، والقضاء على أي معارضة للأجندة الإسرائيلية.

وهذا التصور للشرق الأوسط ينطلق من تصور أن التاريخ متوقف تماما فى هذه المنطقة، وأن الشعب العربي سيظل مجرد أداة بيد معظم حكامه الذين ينصاعون انصياعا أعمى للولايات المتحدة. وأن هذا الشرق العربي مجرد مساحة أو منطقة بلا تاريخ ولا تراث مشترك تقطنها جماعات دينية وإثنية لا يربطها رابط وليس لها ذاكرة تاريخية ولا إحساس بالكرامة، فالعربي مخلوق مادي اقتصادي تحركه الدوافع المادية الاقتصادية. هذا هو الإطار الذى يتحرك داخله رالف بيترز، وهو ضابط متقاعد يحمل رتبة مقدم، وضع مخططاً لإعادة تقسيم الشرق الأوسط (في مقال نشر في مجلة القوات المسلحة الأمريكية في عدد يونية ٢٠٠٦، نقلا عن مقال لبيان الحوت "الشرق الأوسط الجديد مشروع أمريكي محكوم بالفشل" ٢٠٠٦/٨/٩). ولا تعود أهمية المقال إلى عمقه أو إمكانية تحققه، وإنما إلى أنه يبين ما الذى يدور فى خلد دعاة الشرق الأوسط الجديد، خاصة وأن الذى كتبه شخص مسئول كان يعمل فى الاستخبارات العسكرية الأمريكية.

ينطلق بيترز مما يسميه الظلم الفادح الذي لحق بالأقليات حين تم تقسيم الشرق الأوسط فى أوائل القرن العشرين (يقصد اتفاقية سايكس بيكو)، مشيرا إلى هذه الأقليات "بأنها الجماعات أو الشعوب التي خدعت حين تم التقسيم الأول"، ويذكر أهمها: الأكراد، والشيعة العرب. كما يشير إلى مسيحي الشرق الأوسط، والبهائيين، والإسماعيليين، والنقشبنديين. ويرى بيترز أن ثمة كراهية شديدة بين الجماعات الدينية والإثنية في المنطقة تجاه بعضها البعض، وأنه لذلك يجب أن يعاد تقسيم الشرق الأوسط انطلاقا من تركيبته السكانية غير المتجانسة القائمة على الأديان والمذاهب والقوميات والأقليات، حتى يعود السلام إليه. (والنموذج الكامن هناك هو الدولة الصهيونية القائمة على الدين والقومية وامتزاجهما).

ثم يقدم بيترز خريطته للشرق الأوسط الجديد فيتحدث عن تقسيم العراق إلى ثلاثة أجزاء، دولة كردية في الشمال، و دولة شيعية في الجنوب، و دولة سنية فى الوسط ستختار الانضمام إلى سوريا مع مرور الزمن. ويصف رالف بيترز السعودية بأنها دولة غير طبيعية، ويقترح أن يقتطع منها كلاً من مكة والمدينة المنورة حتى تنشأ فيها "دولة إسلامية مقدسة"، على رأسها

مجلس يترأسه بالتناوب أحد ممثلي الحركات والمدارس الإسلامية الرئيسية، أي أن يكون المجلس نوعا من "فاتيكان إسلامي أعلى". ويقترح إضافة الأرض المقتطعة من شمالي السعودية إلى الأردن، وأن تقتطع أرض من جنوبي البلاد كي تضاف إلى اليمن، وأما شرقي البلاد فلن تسلم أيضا من المقص، إذ تقتطع منها حقول النفط لمصلحة دولة شيعية عربية. أما المملكة الأردنية الهاشمية فستحتفظ بأراضيها وتضاف إليها أرض من شمالي السعودية، كما سيرتبط "مستقبل الضفة الغربية بها".

أما الإمارات فيطلق السيد بيترز عليها اسم "الدولة المدينية" (تشبها بالمدن اليونانية قديما)، وقد يُدمج بعضها مع الدولة العربية الشيعية التي تلتف حول الخليج الفارسي، والتى ستصبح قوة توازُن مقابل الدولة الفارسية، لا حليفا لها. أما دبي، فيتكرم عليها بالسماح كي تبقى مسرحا للأغنياء الفاسقين (كما ورد)، وأما عمان والكويت، فتحتفظ كل منهما بأراضيها. ويفترض أن إيران، وفقا لهذا المشروع الجهنمي، ستفقد الكثير من أراضيها لصالح أذربيجان الموحدة، وكردستان الحرة، والدولة الشيعية العربية، وبلوخستان الحرة، لكنها تكسب أراضي من أفغانستان حول حيرات. ويطرح رالف بيترز تصوره بأن إيران سوف تصبح في النهاية بلدا إثنيا فارسيا من جديد.

ينتهي السيد بيترز إلى أن تعديل الحدود بناء على رغبات الناس قد يكون مستحيلا، لكنه من الممكن أن تنشأ حدود جديدة مع الزمن. فتعديل حدود الشرق الأوسط الأكبر، بناء على روابط الدم الطبيعية والعقيدة الدينية، ضرورة ملحة لحقن الدماء!! ومن هنا مسئولية الولايات المتحدة وحلفائها! ويختتم السيد بيترز مخططه بقوله "سيستمر جنودنا، رجالا ونساء، في الحرب من أجل الأمن والسلام ضد الإرهاب، من أجل فرصة نشر الديموقراطية، ومن أجل حرية الوصول إلى منابع النفط في منطقة مقدر لها أن تحارب نفسها".

وهذا التصور للشرق الأوسط الجديد لصيق للغاية بالرؤية الصهيونية منذ بدايتها، فقبل إنشاء الدولة الصهيونية بعدة أعوام قال بن جوريون "إن عقب أخيل (أي نقطة الضعف) في الائتلاف العربي هى سيادة المسلمين في لبنان فهى سيادة زائفة، يمكن بسهولة قهرها. وبدلاً من ذلك ستقوم دولة مسيحية تكون حدودها الجنوبية علي نهر الليطاني، وستكون الدولة الصهيونية علي استعداد لتوقيع معاهدة مع هذه الدولة. "وبعد أن نكسر الفيلق العربي ونضرب عمان بالقنابل، سوف يكون بإمكاننا إزالة دولة الأردن، وبعد ذلك سوف تسقط سوريا، وإذا اجترأت مصر علي محاربتنا فسوف نقصف بورسعيد والإسكندرية والقاهرة، وهكذا ننهي الحرب ونقضي قضاء مبرماً علي مصر، وآشور بالنيابة عن أسلافنا".

وقد حاول شارون وضع الجزء الخاص بلبنان فى هذا المخطط موضع التنفيذ عام ١٩٨٢، ولكن المقاومة اللبنانية اضطرته للانسحاب إلى الجنوب ثم إلى الدولة الصهيونية! ولكن شارون نجح فى الآونة الأخيرة في تحقيق التطابق الكامل بين السياسة الإسرائيلية والسياسة الإمبراطورية الأمريكية في إعلان حرب لا نهاية لها ضد الإرهاب، كما نجح في الجمع بين سياسة التوسع الاستيطاني وضم الأراضي ونهج الفصل العنصري ووافقته الولايات المتحدة على ذلك ودعمته. وقد أعطى هذا دفعة للأوهام الإسرائيلية مرة أخرى. انظر علي سبيل المثال إلى موقف جيورا آيلاند رئيس شعبة العمليات في الجيش الإسرائيلي سابقاً، والرئيس السابق لمجلس الأمن الوطني المسئول عن وضع الاستراتيجية الأمنية للدولة الصهيونية. فقد طرح خطته لإعادة تنظيم الشرق الأوسط (في حديث له مع آري شفيط من صحيفة هآرتس)، فاقترح ضم ١٢% من الضفة الغربية (٦٠٠ كيلو متر مربع) إلى الدولة الصهيونية و٦٠٠ كيلو متر مربع أخري من مصر تُضم إلى قطاع غزة ويوطن فيها مليون نسمة (لإقامة ميناء بحري ومطار دولي) علي أن تعطي مصر ١٥٠ كم مربع في النقب تعويضاً لها".

وقد قام عبقري آخر وهو جاي بخور (في يديعوت أحرونوت في ٢٠٠٦/٧/٢٧) بتقديم خطته لإعادة صياغة الشرق الأوسط. والخطة لا تعدو أن تكون شكلا من أشكال الأحلام المتورمة، ولكنها مع هذا تعطينا فكرة عما يدور في خلد الولايات المتحدة وإسرائيل. فالمقال يزعم أن هذه الحرب تدافع عن "جوهر" الغرب دون أن يذكر لنا ما هو جوهر هذا الجوهر؟ وهل الهدف من هذه الحرب هو إقامة العدل وتحقيق السلام أم فرض الهيمنة ونهب الشعوب؟

تبدأ المقال بالقول إنه يجب عدم العودة للشرق الأوسط القديم الذي يصفه الكاتب بأنه "توجد فيه دولة ذات نظام مجنون تتسلح بسلاح ذري وتسلح رفيقاتها. [وهذا بطبيعة الحال لا يعني إسرائيل] والعراق غارق في حرب أهلية، ومنظمات راديكالية تسيطر علي حكومات ونظم حكم، وهذه بدورها تمنح جماعات مخربين مسلحة دعماً قوياً وعلاقة متسامحة.

ثم يستأنف العبقري الحديث قائلا: ثمة حاجة إلى تغيير جوهري، فلم تنجح هذه الدول في منح مواطنيها حياة ثقافية كاملة، ومعظم شعوبها فقيرة، وهي دول تتسم كلها بالطغيان ولا تُنطق كلمة الديموقراطية ولو في دولة واحدة، وإذا ما تمت محاولة ديموقراطية في بعضها، فإن النتيجة تكون تولي نظم إرهابية إسلامية أو فوضى". (ولنلاحظ التناقض الذي يقع فيه هذا العبقري، فهو يرفض الطغيان العربي، ولكنه يجد أن الديموقراطية تؤدي إلى الإرهاب الإسلامي).

ولعلاج هذا الوضع يقترح جاي بخور "أن يُقسم العراق إلى ثلاث دول، بحسب مقياس طائفي: سنية في الوسط والغرب، وشيعية في الجنوب، وكردية في الشمال، كما يجب إنهاء نظام

سورية وإعادة الأكثرية السنية إلى الحكم. وعلي الأردن أن يتحمل المسؤولية عن الضفة الغربية، وبهذا ينشأ كيان فلسطيني واحد فينتشر الفلسطينيون إلى الشرق. [بعيدا عن إسرائيل بطبيعة الحال لا إلى الغرب في اتجاه الدولة الصهيونية والمطالبة بحق العودة]. أما مصر فستصبح مسئولة عن قطاع غزة، وهو شيء –حسب تصوره- أصبح يحدث في الواقع أكثر فأكثر. ويجب إعاقة إيران بواسطة نظام عقوبات شامل، ويجب أن يقوم في لبنان نظام دولي في جنوب الدولة وشرقها، لمنع عودة الأصولية الشيعية أو غيرها". وماذا عن شعوب المنطقة؟ هل هي مستعدة لتقسيم جديد (سماه المفكر الاستراتيجي العربي منير شفيق سايكس بيكو الثاني: تقسيم ما هو مقسم وتجزئة ما هو مجزء)؟ يري هذا العبقري الجهبذ أن الشعوب سترحب أيما ترحيب بهذا، بينما سيعارضه الحكام وحدهم. "فسكان العراق يشتاقون إلى الاستقرار، ومن المؤكد أن الأكثرية السنية في سوريا تطمح إلى إنهاء سلطة القلة العلوية، وفي الأردن ٨٠% في الأصل من السكان فلسطينيون، والملك متزوج بفلسطينية، وأبناؤه نصف فلسطينيين. وسيفرح سكان الضفة الغربية أيضاً بإنشاء دولة فلسطينية كبيرة. وفيما يتعلق بمصر، من المعقول أنها تدرك اليوم أن غزة الفائرة تعني سيناء الخطرة، وتهديد السياحة والاستقرار السياسي والاجتماعي كله". ثم يختم جاي بخور حديثه بالقول أنه إزاء تفشي الراديكالية الخطرة للتدين المتشدد الإسلامي، يجب علي العالم الغربي أن يستيقظ وأن يفهم أن الحديث ليس عن الشرق الأوسط أو إسرائيل فقط، بل عن جوهر وجوده.

إن مخطط جاى بخور وكل المخططات الأخرى المماثلة نابعة من غطرسة القوة، حين يتصور إنسان أنه يمكنه أن يفعل ما يشاء طالما أن موازين القوى في صالحه، وطالما أن استعداداته العسكرية تفوق استعدادات الخصم، وطالما أن التاريخ قد توقف.

ولكن كما يقول كريج روبرتس فى مقاله الذى أشرنا له من قبل "هل يمكن لخمسة مليون إسرائيلي، حتى مع دعم الولايات المتحدة لهم، أن ينجحوا إلى الأبد في إذلال ملايين المسلمين الذين يغلون غضبا بسبب هذا الإذلال الذي لحق بهم. إن هذه وصفة للصراع المستمر ولدمار إسرائيل في نهاية الأمر.. إن حرب بوش ليست حربا ضد الإرهاب، وإنما هي عباءة يغطي بها خداع المحافظين الجدد، فهي ليست حربا ضد الإرهاب بل هي حرب ضد الدول الإسلامية التي لا تحكمها دمى أمريكية". ومن حقنا أن نتساءل: هل لا تزال الولايات المتحدة الأمريكية والدولة الصهيونية غارقين فى الأحلام المتورمة الخاصة بالشرق الأوسط الجديد، بعدما حدث فى لبنان؟

والله أعلم

***

٢١- الصهيونية ويهود أميركا

جريدة الاتحاد الإماراتية: ٢٠٠٨-٠٥-١٠

في مقال بعنوان "الاتجاه هو الدياسبورا والمنفي" نشر في الطبعة الإلكترونية لمجلة جيروساليم ربورت.كوم (٢٥ فبراير ٢٠٠٢)، تشير الكاتبة دراين جاميك إلى مقال نشر في البوسطن جلوب الأمريكية بقلم كاتب يدعو تاي Tye يقول فيه: "ثمة حقيقة يهودية إيجابية جديدة، وهي أن عشرات الجماعات اليهودية في العالم تمارس نهضة دينية وثقافية". ولكن ما هي هذه "النهضة"؟ يخبرنا الكاتب أن دعوة "العام القادم في أورشليم" قد أصبحت صورة مجازية قديمة لا تصلح للعصر الحديث. فإسرائيل -حسبما يقول الكاتب- لم تعد الوطن القومي لليهود، بل هي مجرد وطن لليهود مثل أوطان كثيرة أخري، يقيم فيها اليهود ولا ينوون مغادرتها. ولم يعد من الممكن تصور أن الدياسبورا محطة مؤقتة {كما يتصور الصهاينة} في الطريق إلى إسرائيل، فالاتجاه هو الدياسبورا. [ولذا يمكن تصحيح الدعاء والقول بأنه أصبح بالنسبة ليهود أمريكا على الأقل "العام القادم في صهيون العلمانية" التي كان المهاجرون من يهود اليديشية يسمونها الجولدن مدينا" أي المدينة الذهبية حيث الشوارع من فضة والأرصفة من ذهب].

وقد كتب إبراهام تيروش مقالاً في غاية الأهمية، مدعّماً بالإحصائيات بعنوان "تبدد قوة جذب إسرائيل ليهود المنفي رؤيا الآخرة" (معاريف ٢٨ فبراير ٢٠٠٨). يشير تيروش في مقاله إلى خبرين يسببان قلقاً للمؤسسة الصهيونية، أولهما: أن يهود الشتات لا يهاجرون إلى إسرائيل، والثاني أن ما يسمى الشعب اليهودي يفقد أكثر فأكثر أجزاء واسعة منهم. أحد الخبرين قال، حسب معطيات مكتب الإحصاء المركزي، أنه في العام ٢٠٠٧ وصل إلى إسرائيل ١٨.١٢٩ مهاجرا فقط- وهو العدد الأدنى منذ العام ١٩٨٨. أما الآخر، ويشير إلى مبادرة متبلورة في مكتب رئيس الوزراء لتعزيز صلة وعلاقة يهود العالم مع إسرائيل، ولكنها أفادت بالمعطيات التالية: ٧٠ في المائة من يهود الولايات المتحدة لم يكونوا أبدا في إسرائيل ولا يعتزمون زيارتها؛ ٥٠ في المائة من يهود الولايات المتحدة متزوجون زواجا مختلطا؛ ٥٠ في المائة من الشباب اليهودي هناك لا يهمهم اذا كفت اسرائيل عن الوجود وفقط اقل من ٢٠ في المائة من يهود رابطة الشعوب يتعرضون لمضامين يهودية.

ثم يستمر الكاتب في شرح هذا الوضع، وبدلاً من وضعه في إطار "التاريخ اليهودي" وما شابه من ترهات، فإنه يتعامل مع هجرة أعضاء الجماعات اليهودية على أنها هجرة إنسانية

عادية، يجب دراستها في إطار أسباب الطرد والجذب، وليس في إطار التطلع الأبدي اليهودي للهجرة إلى الوطن القومي أو أرض الميعاد...إلخ، فيقول: "من الصعب علي المرء إن يكون متفائلا في موضوع الهجرة. مسلمة لها إسناد تاريخي ثابت، هي أن معظم الهجرات إلى ارض إسرائيل، من نهاية القرن التاسع عشر، جاءت إلى هنا (أي فلسطين المحتلة) أساسا بسبب دوافع سلبية في المنفي: اضطهادات، معاداة السامية، الحروب، الوضع الاقتصادي الصعب، وبقدر اقل بكثير بسبب قوة جذب البلاد. ولكن حتى بعد أن نشأت حالات الضائقة والخطر تلك، فإنهم لم يوجهوا خطاهم إلى بلاد صهيون والقدس، التي صلوا إليها وتاقوا زعما طوال أيام حياتهم. فقد فضلت الأغلبية الهجرة إلى بلدان أخرى.

"قوة الجذب الهزيلة لإسرائيل، البلاد وبعد ذلك الدولة، لم تقف إلى جانبها لاجتذاب الأغلبية الي هنا. النماذج لا تنقص، من عهود الهجرة الثانية وحتى عهدنا الحالي، وفقط من أنقذته دولة إسرائيل من بلدان الضائقة وجلبته إلى هنا، ولم يكن في يديه وسائل للسفر إلى مكان آخر، هاجر الي البلاد.

"واليوم، تآكلت قوة الجذب أكثر فأكثر. الولايات المتحدة ليست وعلي ما يبدو ايضا لن تكون طاقة كامنة لهجرة كبري (فقط نحو ٢.٦٠٠ هاجروا من هناك في العام ٢٠٠٧)، ولا أي دولة غربية اخري. ولكن يهود الاتحاد السوفييتي سابقا، والذين اعتبروا كمصدر كامن كبير للتعزيز الديمغرافي، كفوا عن الهجرة. هذا المصدر الكامن استنفد. فقط نحو ٦.٦٠٠ من كل هذه البلدان هاجروا في العام ٢٠٠٧.

ثم يتساءل الكاتب عن السبب، فيذهب إلى أن "الوضع الاقتصادي في معظمه تحسن، صلة اليهود الذين بقوا هناك بإسرائيل وباليهودية واهنة، هذا إذا كانت موجودة أصلا، محافل يهودية عالمية ذات وسائل تعمل هناك لتثبيت الجماعات اليهودية [في أوطانها]، وليس لتشجيع الهجرة؛ وقوة جذب إسرائيل ليس فقط تبددت تماما، بل إنها تعتبر اليوم دولة من الخطر العيش فيها ووجودها موضع شك. وهي تخيف اليهود أكثر بكثير من اللاسامية في دولهم (هذا صحيح ايضا بالنسبة لبعض الدول في الغرب).

"إسرائيل تري نفسها، منذ قيامها، كفيلة لسلامة وأمن يهود المنفي. بلاد لجوء لحين الضائقة. اليوم انقلبت الأمور رأسا علي عقب. الكثير من اليهود في الولايات المتحدة يعتقدون، كما شهد علي ذلك علي مسمعي واحد منهم، فان إسرائيل تحتاج للمنفي لا العكس. ليس فقط لغرض الدعم السياسي، المالي والمعنوي، بل كمكان لجوء، اذا ما حلت بها كارثة.

[وهذه إشارة لموضوع نهاية إسرائيل، المسكوت عنه في الخطاب السياسي الإسرائيلي].

"ليس لطيفا سماع ذلك ولكن هذا يعبر بوضوح عن الإشكالية وعن الحاجز في الطريق لجلب

مهاجرين إلى إسرائيل. وحتى تعزيز الجامعات اليهودية وعلاقاتها مع إسرائيل، الأمر الذي من السليم عمله، لن يولد هجرة كبري، ولا حتى تعليم يهودي، طالما لم تتغير الظروف في المنطقة وإسرائيل تسكن بأمان حرة من التهديدات ومن الحروب. ولكن هذا يكاد يكون رؤيا الآخرة.

"سيقول الساخرون إن تعزيز الجماعات اليهودية في الشتات يهدف إلى إنقاذنا أكثر مما يهدف إلى إنقاذها، فهي ملجأنا ليوم بارد [مقبل]. فمن دون يهود الشتات نحن في مشكلة عسيرة".

[مرة أخرى نهاية إسرائيل]

وفي محاولة لتفسير هذه الظاهرة يقول التقرير، حسب ما جاء في الموقع الإلكتروني فوروارد.كوم forward.com، إن السبب هو تصاعد معدلات الزواج المختلط. ثم فتح الموقع الإلكتروني الباب أمام الشباب للرد، وقد وافق علي هذا التشخيص العديد منهم، أي أنهم يرون أن السبب في ازدياد ابتعاد الشباب من أعضاء الجماعات اليهودية عن إسرائيل هو الزواج المختلط باعتبار أن أولاد مثل هذه الزيجات لا علاقة لهم بما يسمى "الهوية اليهودية". وهذا أمر متوقع، ففي أي مجتمع يجد أبناء الزيجات المختلطة أنه من الطبيعي أن يتبنوا هوية غالبية المجتمع.

ولكن إخرون يقولون إن القضية هي فقدان يهود أمريكا إحساسهم بأنهم شعب. "فيهود أمريكا لا يرون أنفسهم جزءاً من أمة قديمة، ويعرّفون يهوديتهم كما يعرّفها الأمريكيون باعتبارها ديانة وحسب... وهذا الاتجاه لا يمكن العودة عنه لأن تبني اليهود للهوية الأمريكية هو جوهر قصة النجاح اليهودية في الولايات المتحدة... إن الأمريكيين يرون إسرائيل باعتبارها بلداً أجنبياً، وهذه هي ذاتها نظرة يهود الولايات المتحدة لها.

ولكن أهم الخطابات –في تصوري- خطاب ديفيد نيلسون (وهو من الواضح شاب يهودي) فهو يذكر الحقيقة كاملة ويعبّر عن المسكوت عنه. يتساءل مستر نيلسون "هل استطلاع الرأي الذي قام به ستيفن كوهين فكر في أن ضعف ارتباط [الشباب اليهودي بالدولة الصهيونية] له علاقة ما بسلوك إسرائيل منذ عام ١٩٦٧ وليس بالزواج المختلط".

إن أصحاب الميديا الأساسية يبذولن قصارى جهدهم ليحسنوا صورة إسرائيل الإعلامية بالنسبة للأمريكيين. ولكن يبدو أن يوتوبيا هرتزل (أي الدولة الصهيونية) بترسانة الأسلحة النووية التي ترفض الإفصاح عنها ومستوطنيها المتعصبون الذين يمرحون ويلهون بجوار حمامات سباحة [في مستوطنات] بُنيَت على أرض عربية، مستوطنات تقع على طرق بنيت خصيصاً للمستوطنين ومقصورة عليهم وأسوار ضخمة تمتد كالثعبان... فتقسم القرى الفلسطينية إلى نصفين... وهناك فقر الصبية اليهود الشرقيين، ورجال السياسة الفاسدون، وإعطاء مكانة سامية لأفيجدور ليبرمان [العنصري المجنون].

والله أعلم.

***

٢٢ـ الفيديو كليب والجسد والعولمة

صحيفة الأهرام: ٢٠٠٤ـ٠٤ـ٠٨

الفيديو كليب هو فيلم سينمائي قصير يحتوى على أغنية، ورقص، وشئ يشبه التمثيلية. كنا نستمع في الماضي للأغنية فنتأمل في كلماتها ولحنها وصوت المغنى أو المغنية ثم نحكم عليها. وكانت معظم الأغنيات تتحدث عن الحب بين الرجل والمرأة (وبالعكس). ومع هذا كان هناك أنواع أخرى من الأغاني: فكان هناك أغنية أو اثنان تتحدث عن الأم، أو عن علاقة الأم بابنتها، أو عن الطبيعة؛ أى عن علاقات إنسانية خارج إطار موضوع الحب بين الرجل والمرأة، كما كان هناك أغان بالفصحى لبعض كبار الشعراء مثل شوقي، والأخطل الصغير، وإبراهيم ناجى. ومن أحسن الأغنيات التي أتذكرها في هذا المضمار أغنية "تسلم إيدين اللى اشترى" لعبد المطلب، وأغنية "الصباح الجديد" لعبد العزيز محمود، وهى من شعر أبي القاسم الشابي وتلحين مدحت عاصم، (ويبدو أن هذه الأغنية الرائعة قد فقدت حتى من أرشيف الإذاعة. ولعل أحد هواة التسجيلات القديمة عنده نسخة يرسلها للإذاعة لتحتفظ بها، وربما لإحيائها)، وأغنية أسمهان "ليالي الأنس فى فيينا"، وطبعًا لا يمكن أن ننسى بعض أغاني عبد الحليم حافظ مثل "لا تلمني". وهذا التنوع كان يوجد بشكل ملحوظ في أغاني فيروز، ولا يزال يسم أغنيات ماجدة الرومي. وإلى جانب هذا التنوع في الموضوعات، كان هناك تنوع في أشكال الأغنية، فكان هناك المونولوج الكوميدي (إسماعيل ياسين – ثريا حلمي)، وأغاني الديالوج التي اشتهر بها محمد فوزي، والأوبريتات (مجنون ليلى)، وأغاني الأفلام ("غزل البنات") وأغاني التمثيليات الإذاعية ("عوف الأصيل"). وبالطبع كان هناك الأغاني الوطنية التي كنا نسمعها طوال العام (وليس في يوم واحد في السنة لتذكرنا بما مضى!). كما كان هناك أغان دينية مثل أغنية فايدة كامل الشهيرة "إلهى ليس لي إلاك عونا"، وأغنية أسمهان "عليك صلاة الله وسلامه".

هذا التنوع اختفى تقريبًا تمامًا، فأغاني الفيديو كليب تنحصر فى النوع الأول، أي أغاني الحب بين الرجل والمرأة. ولكن يلاحظ أن "الفيديو كليب" لم يترك هذه الأغاني على حالها، ففي الماضي مثل هذه الأغاني كانت مبهمةومركبة ومتنوعة. انظر على سبيل المثال الأدوار القديمة مثل: "كادنى الهوى"، و"غزال تركي"، و"يا صلاة الزين"، وأغنية محمد قنديل "يا غاليين عليا يا أهل إسكندرية" أو أغنية عبد العزيز السيد "البيض الأمارة والسمر الحيارى"، وأغنية محمد العزبي "عيون بهية"، وأغنية محمد رشدي "قولوا لمأذون البلد ييجي يتمم

فرحتي"، وأغنية نجاة الصغيرة "كلمني عن بكرة وابعد عن امبارح"، وأغاني ليلى مراد (بحب اتنين سوى- شفت منام واحترت أنا فيه- الحب جميل للي عايش فيه)، وأغاني محمد عبد الوهاب (جفنه علم الغزل – عاشق الروح – الخطايا) وأغاني عبد الحليم حافظ (سمراء – وأنا كل ما أجول التوبة يا بوي) وأغاني أسمهان (دخلت مرة الجنينة - يا طيور)، وأم كلثوم (ما دام تحب بتنكر ليه – الأطلال – حانة الأقدار).

ومثل معظم أغاني الحب بين الرجل والمرأة كانت معظم هذه الأغنيات تتضمن إيحاءات وإيماءات ورموز جنسية، أقول: "إيحاءات وإيماءات ورموزًا" وحسب، لأن البعد الجنسي كان دائمًا مستوعبا في أبعاد أخرى رومانسية وفى الصور المستخدمة أو في خلفية الأغنية (باستثناء بعض الأغنيات مثل "ما قال لى وقلت له، ومال لي وملت له" لفريد الأطرش والتي منع النحاس باشا رحمه الله إذاعتها).

كل هذا الإبهام والتركيب والتنوع اختفى تقريبا تماما؛ فالفيديو كليب يؤكد جانبًا واحدًا من الأغاني وهو الجانب الجنسي. فالراقصات لا يتركن أى مجال لخيال المشاهد، والصورة عادة أقوى من الكلمة، فالكلمة (المجردة) توجد مسافة بينها وبين المتلقي، الأمر الذي يسمح له أن يتأمل في معناها ويتمعن في مغزاها، أما الصورة (خاصة إذا كانت صورة حسناء نصف أو ربع عارية تقفز وتحرك كل ما يمكن تحريكه في جسدها بصورة غير موضوعية أو محايدة)، نقول إن الصورة حسية ومباشرة ولا تترك مجالا للعقل أن يتأمل، أو للجهاز العصبي أن يستريح قليلا، بل تقتحم الإنسان اقتحامًا. (هل يمكن أن تتصور أغنية مثل "كادني الهوى" أو "دخلت مرة الجنينة" وقد تحولت إلى فيديو كليب من النوع الجديد الراقص؟).

وبعد دراسة متأنية للفيديو كليب استغرقت ساعات طويلة لذيذة أمام التليفزيون أقلب من قناة راقصة إلى أخرى أكثر عريا، اكتشفت أنه مما يساعد الفيديو كليب على اقتحامنا ما أسميه "الرقص الأفقي"؛ فكلنا يعرف الرقص الرأسي، وألفناه، فقد شاهدناه في الأفلام وفى الفنادق الخمس نجوم والكباريهات التي بلا نجوم، ولكنه كان رقصا رأسيا دائمًا، أما الرقص الأفقي فهو مختلف تماما إذ تنام الراقصة/ المغنية على الأرض (وهى نصف أو ربع عارية ثم تحرك ما يمكن تحريكه في جسدها بصورة غير موضوعية أو محايدة) لأسباب لا تغيب عن بال أي مشاهد. هذا الرقص أكثر وقعا وتأثيرًا، وهو يدهشنا تماما، مما يجعلنا نستسلم لإغواء الصورة ونرفع الرايات البيضاء والخضراء والحمراء وكل الألوان الأخرى، إذ كيف يمكن للمشاهد أن يتفكر أمام هذه الصور الملونة بالألوان الطبيعية وغير الطبيعية لهذه الحسناء المتحركة الأفقية.

والرقص البلدي يهدف للإثارة الجنسية بشكل واضح وصريح، ولكننا كنا لا نراه إلا في الأفلام وفى الأفراح والليالي الملاح، فهو جزء من عالم "العوالم"، أي أننا كنا نعرفه بوصفه جزءًا من عالم مستقل عن عالمنا، قد نتمتع به وقد نرفضه، ولكن في كلتا الحالتين هو ليس جزءًا من عالمنا (حاولت سعاد حسنى في "خللي بالك من زوزو" أن توسع من الإمكانيات التعبيرية للرقص البلدي، إذ قدمت مرثية عالم أمها الراقصة التقليدية من خلال رقصة حزينة في حين كان شفيق جلال يغنى أغنية "لا تبكى يا عين على اللي فات ولا اللي قلبه حجر"). وفى تصوري أن هذه كانت المحاولة الأولى والأخيرة لفصل الرقص البلدي عن الإثارة الجنسية. وما تفعله الفيديو كليبات هو عكس ذلك تماما، وتحاول إنجازه من خلال عشرات الراقصات (الروسيات والمصريات والهنديات...إلخ) المتحركات! ولكن الأهم من كل هذا هو ما أسميه عملية تطبيع الرقص والإثارة؛ فالرقص يقدم في الفيديو كليب على أنه جزء من صميم حياتنا العادية اليومية. وبدل أن تذهب إلى الكباريهات جاءت هي إلينا. ولعل هذا ما حققه شريف صبري في أغنية روبي الأولى "إنت عارف ليه" حين ظهرت تسير في الشارع بشكل عادى جدًا ببدلة الرقص، ثم ظهرت بملابس عادية، واستمرت في نفس الرقص البلدي.

ولكن نلاحظ أن الرقص البلدي هنا ليس رقص المحترفات وإنما يشبه الرقص الذي ترقصه بنات الناس الطيبين في الاجتماعات العائلية، وبذا يتم هدم الحواجز بين حياتنا اليومية والرقص البلدي، ويتم تطبيعه تماما. (ولعله لهذا السبب فشل الفيديو كليب الأخير للوسي، فهو ينتمي لعالم الكباريهات الخالص).

ثم تم تعميق هذا الاتجاه في أغنية روبي الثانية "ليه بيداري كده"، فهي تظهر بملابس رياضية وبفستان سهرة وبملابس تشبه ملابس فتيات المدارس المراهقات ثم ملابس أرملة، ولكنها داخل كل هذه الملابس العادية تقوم بحركات أقل ما توصف به أنها غير عادية فهى حركات "كده". وحتى لا يتوه المعنى المقصود انظر إلى اللقطة الأخيرة في هذا الكليب. ويتم تأكيد هذا الاتجاه نحو التطبيع فى الجزء الأخير من "ليه بيداري كده" فهو عبارة عن هوم فيديو، أي فيديو عادي، منزلي، تظهر فيه روبي مرتدية ملابس عادية، وتذهب إلى الكوافير، عادى، بل ويظهر وجهها فى إحدى اللقطات في غاية البراءة (وليس "كده") وتبتسم وبراءة الأطفال فى عينيها (وإن لم يمنع الأمر أن تذكرنا بعالم الرقص في لقطة عابرة من الهوم فيديو). إن عملية التطبيع هذه تحول راقصة الفيديو كليب إلى جزء من حياتنا اليومية العادية، وربما قدوه يقتدي بها أو مثل أعلى يحتذي، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وهنا سيطرح الكثيرون على هذا السؤال: لماذا تكتب عن هذه الأمور؟ والرد بسيط للغاية، وهو أن مثل هذه الأمور تؤثر في الملايين، وهى تبين مدى تغير إدراكنا لأنفسنا ولما حولنا،

ولوظيفة العواطف والجسد والجنس (وهى أمور من صميم وجودنا الإنساني). أذكر أنني حينما عدت من الولايات المتحدة أوائل السبعينيات، كان أولادي يعرفون أقل من القليل عن الثقافة الشعبية المصرية بسبب نشأتهم في الولايات المتحدة. ثم فوجئت بابني الذي كان لا يزيد عمره عن أربع سنوات يغنى أغنية "يا واد يا تقيل" فقررت أن أعرف الحكاية حتى أعرف ماذا يحدث له، وماذا يحدث للمجتمع المصري ككل؟ وذهبت إلى فيلم "خلى بالك من زوزو" وشاهدته ومعي قلمي وأوراقي، وكتبت دراسة نشرتها جريدة الأهرام في حينها بعنوان "تأملات فى الواد التقيل والقلب الكاروهات" حيث أشرت إلى المنظر الذي تقول فيه سعاد حسنى:

"وما نيل المطالب بالتمني ولكن تُأخذ الدنيا كدهه"

أي أنها قررت أن تكون فاعلا لا متلقيا سلبيا.

ثم شاهدت بعد سنتين مسلسلا تليفزيونياً يسمى "مغامرات المعلم عماشة" فكتبت مقالا فى الطليعة بعنوان "بين أحزان فاتن حمامة وأفراح المعلم عماشة"، وقد بينت ساعتها أن أفلام فاتن حمامة كانت تميز تمييزًا واضحا بين فاتن حمامة (العذراء)، وميمي شكيب (الغانية). ولكن المسلسل السابق ذكره كسر الحواجز بين الاثنين، ففي إحدى المناظر يجلس المعلم عماشة بين صحفية وراقصة و"يعنبر" لهما (أي يقبلهما حسب لغة المسلسل) الواحدة بعد الأخرى. وهنا يمكن أن نتساءل: هل هناك متتالية حلقاتها مترابطة بدأت بالمعلم عماشة ثم وصلت إلى روبي وأخواتها؟ وهل هذه المتتالية حتمية، أم أننا يمكننا أن نفعل شيئًا ما لنوقفها عن التحقق إن أردنا ذلك؟ إن الثقافة الشعبية (والفيديو كليب من أهم أشكالها الآن) تؤثر فينا ولا يمكن أن تترك مثل هذه الأمور لمقاولي الفنانين دون دراسة أو تحليل.

وهنا قد يطرح على قارئ ماكر سؤالاً آخر، ألا "تتمتع" برؤية الفيديو كليبس؟ والرد هو نعم أتمتع به، ولعل القارئ قد لاحظ أن وصفى للراقصات لم يكن محايدًا أو موضوعياً، فقد أشرت بأنهن حسناوات رقيقات لذيذات يتحركن رأسياً وأفقياً بشكل مستمر يثير الدهشة ويدير الرأس (بما في ذلك رأسي بطبيعة الحال). ويمكن أن أتحدث عن الديكور والماكياج وما يرتدين (أو لا يرتدين) من ملابس. يمكن أن أتحدث عن كل هذا بعين خبير غير متخصص. ولكن هل القضية هي مدى ما يقدمه الفيديو كليب من متعة؟ ألا يتضمن السؤال تحيزًا واضحًا للمتعة الفردية وكأنها الهدف الوحيد من الحياة، وكأن حياة الإنسان لا يوجد فيها أبعاد أخرى، وكأن الفرد (ومقدار ما يحصل عليه من لذة من خلال المشاهدة) هو المرجعية الوحيدة والمطلقة. ولكن ماذا عن المجتمع والأسرة، أليس من المفروض أن تكون الوحدة التحليلية هي المجتمع وتوجهه ومصلحته، والأسرة وتماسكها، وليس الفرد ولذته ومتعته؟ وأليس من حقنا كبشر

(والإنسان كائن اجتماعي بالدرجة الأولى) أن نطرح أسئلة أخرى تتناول جوانب أخرى من حياة البشر؟

وقد لاحظت أن كل من تناول ظاهرة الفيديو كليب قد ركز على ظاهرة العرى وعلى "كده"، وأنا بطبيعة الحال أتفق معهم في الرأي بخصوص العرى والإباحية، وبخصوص "كده". ولكنني أرى أن هذا يمثل جانبًا واحدًا من القضية، إذ يمكننا أن نسأل عن أثر الفيديو كليب على نسيج المجتمع وعلى بناء الأسرة؛ فالفيديو كليب لا يقدم مجرد أنثى تغنى وترقص وتتعرى وتتلوى بل إنه يعبر عن رؤية كاملة للحياة، نقطة انطلاقها -كما أسلفنا- هو الفرد الذي يبحث عن متعته مهما كان الثمن. والمتعة في حالة الفيديو كليب متعة أساسا جنسية ولذا فهي متعة بسيطة أحادية تستبعد عالم الموسيقى والطرب وجمال الطبيعة وكل العلاقات الإنسانية الأخرى. والفيديو كليب بتركيزه على هذا الجانب وحده يسهم في تصعيد السعار الجنسي (في مجتمع فيه أزمة زواج). ولكن من المعروف أن تصعيد السعار الجنسي مرتبط تماما بتصعيد الشهوات الاستهلاكية، وهذا ما أدركته تماما صناعة الإعلانات التليفزيونية، فمعظم الإعلانات تلجأ إلى الجنس لبيع السلع، فالسعار الجنسي يفصل الفرد عن مجتمعه وأسرته، وعن أي منظومة قيمية اجتماعية، فيحاول تحقيق ذاته من خلال منظومة المتعة الفردية والمنفعة الشخصية، والتي تترجم نفسها عادة إلى استهلاك السلع والمزيد من السلع (في مجتمع تعيش غالبيته إما تحت خط الفقر أو فوقه ببضعة سنتيمترات وجنيهات خاصة بعد ارتفاع سعر الدولار).

إن الفيديو كليب يختزل الأنثى (والإنسان ككل) إلى بعد واحد هو جسده، فيصبح الجسد هو المصدر الوحيد لهويته، وهى هوية ذات بعد واحد لا أبعاد لها ولا تنوع فيها (ومن هنا التكرار المميت في الفيديو كليبس، ولنقارن "كدهه" التى تقولها سعاد حسنى بـ"كده" التي تقولها روبي بجسدها؛ فكدهه التي قالتها سعاد حسنى كانت عبارة عن إعلان استقلال الفتاة المصرية ورفضها أن تكون كائنًا سلبيًا فى علاقتها بالرجل الذي تحبه، فزوزو لا تبكى ولا تنهزم حينما تقع في غرام البطل وإنما تهز رأسها بطريقة غزلة لعوب وتقول: "يا واد يا تقيل"، ثم تقرر اصطياده، وتنط كما الزمبلك من كنبة لكرسي لترابيزة وتغني أغنية الأنثى الجديدة - فتصف صاحبنا بأنه بارد كجراح بريطاني، هادئ "وراسي" وكأنه أمين شرطة أو دبلوماسي (وكلاهما صاحب سلطة ومكر ودهاء)، وهو متحفظ للغاية يرد بالقطارة فكأنه الرجل الغامض (الشخصية الروائية الأفرنكية غير الحقيقية)، ويسير كأنه تمثال رمسيس الثاني (الفرعون المغرم بالتماثيل الضخمة). والإشارات هنا تدل كلها على الذكورة والفحولة والضخامة والسيطرة، ولكن السياق والنبرة العامة للأغنية يدلان على أن الغرض من التضخيم ليس التفخيم وإنما فضح ادعاءات الرجل المصري عن نفسه، ولذلك فكل صور الفخامة تسبقها عبارات مثل "ما تقولشى"

و"بسلامته" و"اسم الله"، وهى عبارات تشككنا فى جدية هذه الصور وتحول الذكر الضخم إلى طفل صغير تتلاعب به هذه الأنثى الحقيقية. وحينما يقف أبو شوارب ويعلن أن "الكون مش قد مقامه" وأنه "أطول واحد فى الحارة" نعرف أنه ضحية مؤامرة تشهير ضخمة وأن الفتاة الزمبلك قد نصبت له فخًا، وأوهمته أنه الصياد المفترس التقيل، وهو في واقع الأمر ليس سوى صيدة سهلة ولقمة سائغة، إنها تعلم أنه لا داعي للمقاومة فهو لن يغلبها رغم ضخامته الأسطورية ورغم ثقله التاريخي.

كل هذا يقف على طرف النقيض من "كده" في أغنية روبي، فهي إعلان أن الفتاة إن هي إلا جسد متحرك لذيذ، واللي ما يشترى يتفرج. إنها في نهاية الأمر مفعول به، رغم جاذبيتها الجنسية التي لا يمكن إنكارها! (لماذا لم تتحرك حركات تحرير المرأة لامتهان الأنثى بهذه الطريقة؟).

والإنسان الجسماني الاستهلاكي المنشغل بتحقيق متعته الشخصية يدور في دائرة ضيقة للغاية خارج أي منظومات قيمية اجتماعية أو أخلاقية، ولذا نجد أن ولاءاته للمجتمع وللأسرة تتآكل بالتدريج، كما أن انتماء مثل هذا الشخص لوطنه ضعيف للغاية إن لم يكن منعدمًا. والآن انظر لخلفية الفيديو كليب ستجد أنها لا أرض لها ولا وطن، فأحيانًا الخلفية هندية، وأحيانًا أخرى أمريكية، وثالثة أوربية، والبنات فى معظم الأحيان شقراوات، وحتى لو كن من بنات البلد فما يرتدينه (أو لا يرتدينه) من ملابس لا علاقة له بما نعرفه في حياتنا. كما أن أبطال الفيديو كليب عادة يركبون سيارات فارهة وأحيانا يظهرون في قصور، وكل هذا بطبيعة الحال يصعد الشهوة الاستهلاكية ويضعف الانتماء.

بعد كل هذه المقدمات يمكننا أن نضع الفيديو كليب في سياق أوسع، وهو سياق العولمة. فجوهر العولمة هو عملية تنميط العالم بحيث يصبح العالم بأسره وحدات متشابهة، هي في جوهرها وحدات اقتصادية تم ترشيدها، أي إخضاعها لقوانين مادية عامة؛ مثل قوانين العرض والطلب، والإنسان الذي يتحرك في هذه الوحدات هو إنسان اقتصادي جسماني لا يتسم بأي خصوصية، ليس له انتماء واضح، ذاكرته التاريخية قد تم محوها، وإلا لما أمكن فتح الحدود بحيث تتحرك السلع ورأس المال بلا حدود أو سدود أو قيود. فالخصوصيات الثقافية والأخلاقية تعوق مثل هذا الانفتاح العالمي. وفى غياب الانتماء والهوية والمنظومات القيمية والمرجعيات الأخلاقية والدينية تتساوى الأمور، ويصبح من الصعب التمييز بين الجميل والقبيح، وبين الخير والشر، وبين العدل والظلم وتسود النسبية المطلقة. وأهم تعبير أيديولوجي عن العولمة هو فلسفة ما بعد الحداثة التي يطلق عليها أيضا **anti-foundationalism** والتي يمكن ترجمتها حرفيا بعبارة "ضد الأساس" والتي يمكن ترجمتها بتصرف "رفض المرجعيات"،

مما يعنى السقوط في اللاعقلانية الكاملة. وقد وصف رورتي ما بعد الحداثة أنها تعنى أن الإنسان لن يقدس شيئًا حتى ولا نفسه، فهي ليست معادية للدين والأخلاق وحسب، بل معادية للإنسان ذاته.

وقد يضيق القارئ بهذا "الكلام الكبير" وقد يتساءل: وما علاقة كل هذا بروبي والفيديو كليب؟ هل يمكن ربط جسد راقصات الفيديو كليبس بالنظام العالمي الجديد؟ والرد هو بالإيجاب، فكل الأمور مترابطة ليس بشكل مباشر وليس بشكل عضوي، ولكنها مترابطة. وقد شبه ليوتار الفيلسوف ما بعد الحداثي علاقة الإنسان بالواقع، بعلاقة الرجل الساذج (أو المشاهد الساذج) بالمرأة اللعوب: يظن أنه أمسك بها، ولكنها تفلت منه دائمًا، الأمر الذى يعنى أن علاقة العقل بالواقع غير قائمة. ويذهب كل من فريدريك نيتشه ورولان بارت وجاك دريدا إلى أن تحطيم المقولات العقلية واللغوية هي عملية ذات طابع جنسي: ذوبان وسيولة. بل إن بعض دعاة ما بعد الحداثة ورفض المرجعيات يرون أن جسد المرأة، هو مرجعية ذاته، ولذا فهو تحد للعالم الثابت الذي له مركز ويمكن إدراكه عقليا. وفى كتابها الشهير ضد التفسير (الذي يؤرخ لظهور ما بعد الحداثة بتاريخ نشره) قالت سوزان سونتاج إن أكبر تحد للثوابت والعقل هو الجسد. ولتلاحظ ما يحدث لعقلك وفهمك حينما تشاهد رقصة من النوع الأفقي، وهذا الجسد لا علاقة له بأي خصوصية تاريخية أو ثقافية أو اجتماعية، ولذا فهو يقوض الذاكرة الاجتماعية والتاريخية، وهذا هو جوهر ما بعد الحداثة أي أن كل إنسان يعيش داخل ما يسمونه قصته الصغرى أي رؤيته للعالم، أما القصة الكبرى الاجتماعية التاريخية التي تنضوي تحتها كل القصص الصغرى فلا وجود لها، فتتساقط القيم والمرجعيات وتظهر الراقصة الرأسية والأفقية، والشركات عابرة القارات التي تود أن يكون الإنسان حزمة نمطية من الرغبات الاقتصادية والجسمانية التي يمكن التنبؤ بسلوكها، حتى يمكن التحكم في صاحبها وتوظيفه داخل منظومة السوق (والكباريه). وقد ظهرت فضيحة الفيديو كليبات بعد استشهاد الشيخ أحمد ياسين، فبينما كانت الأمة بأسرها تعبر عن حزنها وعزمها وإصرارها، كان الرقص الرأسي والأفقي شغال على ودنه، وكأن جسد الراقصة هو البداية والنهاية، بداية المتعة ونهاية التاريخ.

إن القنوات الفضائية التي تذيع الفيديو كليبات تصل إلى منازلنا وأحلامنا وتعيد صياغة رؤانا وصورتنا للآخرين ولأنفسنا، ودافعها الوحيد هو الربح المادي، وليس الاستنارة أو تعميق إدراك الناس لما حولهم، فهي مشاريع رأسمالية طفيلية يبحث عن الربح الذي أدى إلى التنافس بين المخرجين والمغنين والممولين والذي لم تكن نتيجته الارتقاء بالمستوى الفني والجمالي، وإنما المزيد من الإسفاف والاغتراب والعرى الذي سيتزايد حتما مع الأيام، ومن يود أن يعرف إلى أين نحن ذاهبون عليه أن يرى محطة MTV وبعض الفيديو كليبات الأمريكية التى تحول

الإنسان إلى ما أسميه البروتين الإنساني المحض. عليه أن يعرف أن هناك مقهى فى القاهرة (يسمى Evolution x أي "التطور في اتجاه غير معلوم") يقدم مشروبا يسمى Blue lesbian أي "المساحقة الزرقاء"، وهى محاولة لتطبيع الشذوذ، لا تختلف في جوهرها عن محاولة تطبيع الرقص والإثارة الجنسية وهذا أمر أقل ما يوصف به أنه مفزع.

والآن السؤال هو: هل من سبيل لوقف هذا التدهور المستمر؟ هنا قد يقول البعض إن فى هذا تدخل في حرية الفكر والفن، والرد على هذا أن الفيديو كليبات ليست فكرًا وليست فنا ولا إبداعا، وإنما هي شكل من أشكال البورنو الذي يهدف إلى استغلال الإنسان وتحقيق الربح. الفن العظيم يتناول موضوعات شتى من بينها الجنس، ولكن الجنس (مثل العنف) لا يقدم في حد ذاته وليس هو الهدف، وإنما هو عنصر ضمن عناصر إنسانية أخرى، فالفن العظيم (على عكس البورنو) لا يهدف إلى الإثارة الجنسية وإنما إلى تعميق فهمنا للنفس البشرية. وإن كان أصحاب الفيديو كليب يطرحونه باعتباره فكرًا أو فنا فعليهم الالتزام بشرطين: أولهما ألا يحققوا أي ربح مادي منه، وثانيهما أن يثبتوا لنا اقتناعهم الكامل بهذا الفكر بأن يمارسوه في حياتهم الشخصية مع زوجاتهم وأمهاتهم وبناتهم وأبنائهم، ولا أعتقد أن هناك من سيجد الشجاعة في نفسه أن يفعل ذلك.

والله أعلم.

http://www.ahram.org.eg/archive/Index.asp?CurFN=opin11.htm&DID=8085

***

٢٣- إلقاء الحجارة في الضفة الغربية*

يوم: ٢٠٠٨-١٠-٠٨

من المقولات التي لا يمكن للعدو الصهيوني مواجهتها مقولة العربي او الفلسطيني. فاعترافه بوجود العربي هو اعتراف ضمني يكذب أيديولوجيته من أساسها ولذا نجد الصهاينة يبذلون قصارى جهدهم في أن يزيلوا الوجود الفلسطيني تماماً لا من الوجود وحسب، وإنما من وجدانهم ووجدان الآخرين.

ويتبع الصهاينة. مناهج عديدة للوصول لهذا الهدف. فيسمون العربي بأنه متخلف (وبالتالي لا حقوق له)، أو أنه لا هوية محددة له (وبالتالي يمكن توطينه في أي مكان) أو أنه لا وجود له (ولذا قالوا عن فلسطين الآهلة بالسكان والتي كانت تعد من أزحم بقاع العالم: أرض بلا شعب، أي أرض خالية).

وكل هذه المناهج كانت تصلح للتعامل مع الفلسطينيين عن بعد، ولكن بعد حرب ١٩٦٧ اختلت الأمور، وكان علي العدو الإسرائيلي أن يتعامل مع الفلسطينيين، وكان عليه أن يقاتل ضدهم وأن يحاول التصدي لمظاهراتهم وأن يهرب من رصاصاتهم، وأصبح من الصعب عليه أن ينادي بأنهم لا وجود لهم، وإلا بما يفسر تلك القلاقل التي يثيرها هذا العربي الغائب، ولذا لجا العدو، شأنه شأن كل المستعمرين، إلى تقسيم الفلسطينيين إلى أقلية مناضلة "سريرة" يسميها بالإرهابيين أو المتسللين أو المتشردين أو أتباع المنظمة (ولا يسمونهم قط بالفدائيين أو المدافعين عن الحرية) وأغلبية طيبة خيرة طيعة مستسلمة تستمع إلى أوامره وتنصاع لها. ويجب أن تنتبه إلى أن مثل هذه التقسيمات الساذجة بل والواضحة البلاهة ليست من قبيل التدليس على الآخرين وحسب ولا من قبيل خداع الرأي العام العالمي، بل هي قناعة إسرائيلية حقيقية، تحدد سلوك العدو وتفسر العديد من برامجه الفاشلة. ويظهر في الصحف الإسرائيلية من آونة لأخرى أنباء توحي بأنه "تم أخيرا السيطرة على الموقف سيطرة تامة" أو "أن المقاومة قد اجتثت تماما من جذورها" أو أن "أهل الضفة قد بدأوا يظهرون الثقة في القيادة الإسرائيلية الحكيمة الرشيدة" وقد امتلأت الصحف الإسرائيلية بأنباء عن نجاح غزو لبنان وعن أن القوات الإسرائيلية قد حققت ما تصبو إليه (وهم يسمون غزو لبنان "عملية سلام الجليل" ، وهكذا يصبح الفلسطيني الذي يدافع عن حقه إرهابيا، والصهيوني الذي يستولي على أرض الآخرين مدافعا عن السلام).

ومن أطرف الأمثلة على هذا الاتجاه التصريح الذي أدلى به الجنرال بنيامين بن اليعازر (الذي يشغل وظيفة "منظم الأنشطة في يهودا السامرة، أي الضفة الغربية) (الجيروساليم بوست ٤ نوفمبر ١٩٨٣) بأنه لاحظ أخيرا علامات وقرائن على ما سماه اتجاها مترددا أو حذرا نحو البرجمانية بين عرب الضفة والقطاع.

والبراجمانية تعني في نهاية الأمر التكيف مع الأمر الواقع وتقبله، والأمر الواقع هو القهر الإسرائيلي. وكي يرتدي مسوح الموضوعية قال الجنرال الصهيوني أن الوضع الآن مختلف عما كان عليه بين عامي ١٩٧٨ و ١٩٨١ (حينما كان يشغل منصب الحاكم العسكري في الضفة الغربية).

وقد حاول الجنرال تفسير التغير الذي حدث بأنه يعود إلى هزيمة المنظمة في بيروت وانقسامها في طرابلس وإلى انشغال الدول العربية كل بمشاكلها ومصالحها. ثم أضاف أن ٥٥% من كل الفلسطينيين في المناطق المحتلة وُلدوا بعد ١٩٦٧ ولا يعرفون الأردن ورمزهم الأساسي هو منظمة التحرير، و٤٠% منهم يذهب للمدارس والجامعات وقد سألته الجريدة كيف ينوي أن يكسب قلوب هؤلاء الشبان المرتبطين بالمنظمة، فكان رده متواضعا إذ قال إنه لن يحاول بطبيعة الحال أن يحولهم إلى مؤيدين للصهيونية وإنما سيساعدهم على حل مشاكلهم المحلية بأن ينشئ عددا أكبر من البنوك وأن يؤسس شركة استثمارية ولا داعي للحديث عن القضايا السياسية العريضة!

وهكذا ستحل إسرائيل المسالة الفلسطينية بتحويل انتباه الشباب الفلسطيني إلى أمور المال والدنيا بدلا من قضايا الوطن والأرض.

ولا يعدم الصهاينة أن يجدوا من يتعاون معهم ويؤازرهم ويقدم لهم العون والنصح والاستشارة.

فالولايات المتحدة الأمريكية التي تود التوصل إلى حل سريع ودائم وشامل للمشكلة الفلسطينية عن طريق تقوية قبضة الاحتلال الإسرائيلي وعن طريق فرض الكيان الصهيوني كأمر نهائي وجدت أن من الضروري مد يد المساعدة للجنرال بنيامين بن اليعازر ولذا تمت دعوته لزيارة الولايات المتحدة ليجتمع مع وزير الخارجية الأمريكية وكبار موظفي الوزارة ليبحث معهم عن كيفية تحسين مستوى معيشة العرب في الأراضي المحتلة (أي مزيد من البنوك) وكيف يمكن للولايات المتحدة أن تساهم في التخفيف من حدة بعض جوانب الاحتلال الإسرائيلي ععن طريق المساعدات الفنية والتنموية. (وتأتي زيارة بن اليعازر ردا على زيارة وفد أمريكي رسمي قام بزيارة الضفة الغربية وبدراسة المشاكل التي يواجهها الاحتلال الإسرائيلي هناك) (الجيروساليم بوست ١ ديسمبر ١٩٨٣) وتوجد عناصر أخرى من الفلسطينيين العرب تساند هذه المحاولات

البرجمانية ولا تشغل بالها بمشاكل الوطن أو الأرض، وهذه العناصر ممثله فيما كان يسمى بروابط القرى، التي أصيبت بالسكتة القلبية أو ماتت دون أن يرثيها أحد (لا العدو ولا الحبيب).

ولكن بعد مرور عشرة أيام وحسب من تصريحات الجنرال المتفائلة، وجد نفسه يحضر اجتماعا مع وزير الدفاع لمناقشة أعمال الشغب والفوضى بالضفة الغربية، وقد صرح لـ معاريف (١٤ نوفمبر ١٩٨٣) أن الحكومة لن تسمح بتدهور الأحوال (وهو الذي كان يتحدث عن التحسن الملحوظ) وقد انذر الجنرال أنه سيضع حدا لظاهرة إلقاء الحجارة ثم أضاف قائلا: ولكن هذا لن يتم إلا حسب معايير الدولة الصهيونية جيش الدفاع الإسرائيلي (وهذه المعايير المتحضرة لا تستبعد سد مداخل مخيمات اللاجئين أو أنشاء أسوار عالية مثل أسوار السجون وحول مباني المدارس، أو فرض ساعات طويلة من حظر التجول) ولكن حسب ما جاء في الجيروساليم بوست، باءت كل هذه المحاولات بالفشل ولم يظهر الفلسطينيون الذين وُلدوا في الأرض المحتلة، أي استعداد لتقبل الكيان الصهيوني ولعل الجنرال المتفائل قد قرأ هذه الافتتاحية التي اقتبسنا منها هذه المعلومة عن شباب الأرض المحتلة، خاصة وأنهم هم محط أمله ومصدر تفاؤله!

وبعد مرور أسبوعين وحسب من تصريحات الجنرال المتفائل كان جنرال آخر هو شلومو اليا، رئيس الإدارة المدنية في الضفة الغربية، يقوم بافتتاح مبني البلدية الجديد في أحدي مدن الضفة ، وقد اصطحبه في هذه الزيارة مصطفي دودين مؤسس روابط القرى. ولكن الجماهير الفلسطينية العنيدة لم بيد أي برجمانية أو اعتدال، لم تقابل أبطال البنوك والاستثمارات والقضايا المحلية بالزهور وإنما بالحجارة (الجيروساليم بوست ١٦ نوفمبر ١٩٨٣). وقد اندلعت الاضطرابات في نفس اليوم في مدينة نابلس وأحاطت الجماهير الغاضبة بسائق تاكسي إسرائيلي وألقت عليه الحجارة مما أضطره إلى إطلاق النار عليهم، وألقى البوليس القبض على ثلاثة طلاب من جامعة النجاح.

ويبدو أن إلقاء الحجارة أصبح سلاحا أساسيا في يد الجماهير العزل من السلاح في الضفة الغربية. ولكن يجب أن تدري مدى أهميته في الحرب ضد المستعمر الاستيطاني الإحلالي فهذا المستعمر لا يود استغلالنا أو استغلال مواردنا الطبيعية وحسب (كما كان الحال مع الاستعمار الإنجليزي في مصر) وإنما يود استلاب الأرض والعيش فيها ينعم براحة البال والهدوء، كما أنه يود أن يسلبنا أسباب الحياة والاستمرار حتى نرحل عن الأرض ليحل محلنا فيها. وكما قلنا من قبل يتميز المستوطنون الصهاينة الجدد بأنهم أساسا من المرتزقة، الذين استوطنوا الضفة الغربية لأغراض اقتصادية نفعية ولذا بالمنظمة الصهيونية تدفع لهم الرشاوي الباهظة على هيئة منازل مريحة وطرق معبده خصيصا لهم ومدارس لأطفالهم حتى ينعموا بالعيش في هواء

أرض الميعاد المكيف! ولذا فكل ما ينغص عليهم حياتهم هو في نهايته إحباط للمخطط الصهيوني. وبالفعل يبدو أن هذا السلاح، رغم ضعفه وبدائيته، قد أصبح سلاحا فعالا، ولذا نجد أن المحاكم الإسرائيلية قد حكمت على ساب عمره ١٧ عاما بالسجن لمدة ستة شهور وبالغرامة ٣٠ ألف شيكل لإلقائه بالحجارة على الصهاينة (الجيروساليم بوست ٢٢ نوفمبر ١٩٨٣) (بل ويطالب ممثلو المستوطنين الصهاينة بتوقيع عقوبة السجن لمدة ٢٥ عاما لمن يقذف الحجارة، وذلك في اجتماع حضره وزير الخزانة كوهين/ اورجاد (الذي يعيش في منزل فاخر في الضفة الغربية) والوزير تسيبوري والوزيرة سارة دورون. وقد قال ممثلو المستوطنات أن منظمة التحرير الفلسطينية لها اذرع ممتدة في الأراضي المحتلة تتلقي التعليمات من وراء الحدود بل ويطالب المستوطنون كذلك بتوقيع عقوبة الطرد على من يلقي بالحجارة (عل همشمار ١٤ ديسمبر١٩٨٣). وفي اجتماع سابق ناقش المستوطنون الطرق اللازم اتخاذها للقضاء على ظاهرة إلقاء الحجارة وطالبوا بتدخل الجيش وقد قام المستوطنون بمظاهرة احتجاج قادها الحاخام موشيه ليفنجر (أحد زعماء الجوش ايمونيم) لإظهار استيائهم. كما اقتحمت جماعة أخرى من المستوطنين أحدى المدارس العربية وانذروا الناظر بتوقيع العقوبات عليه أن قام أي من تلاميذ مدرسته بإلقاء الحجارة (الجيروساليم بوست ٢٢ نوفمبر ١٩٨٣) بل أن بعض المستوطنين اقتحم إحدى المدارس بعد أن ألقت طفلة لا تتعدى العاشرة الحجارة عليهم. وتصل الماساة/ الملهاة ذورتها حينما نجد رئيس وزراء الكيان الصهيوني (الجيروساليم بوست في ٢٤ يناير ١٩٨٤) وقد اجتمع مع عضوي الكنيست من كتلة هتحيا ليخبرهما أن إلقاء الحجارة من أسباب قلقه العميق ويعد بأنه سيدرس القضية شخصياً كما قال أنه يجب اتخاذ الخطوات اللازمة لوقف هذه المضايقات خاصة على الطرق السريعة وقد أدلى بتصريحات مماثلة !

وهكذا يمكن القول أن تفاؤل الجنرال بن اليعازر كان من قبيل تهدئة الذات، وأن العدو الإسرائيلي قادر على خداع نفسه. بل أن خداعه لنفسه ضرورة لبقائه. ولذلك علينا إلا نقتنع باقتباس ما يقول وكأنه الحقيقة وعلينا ألا نخاف من مخططاته لأنها هي الأخرى قد تكون من قبيل خداع الذات. هذا لا يعني بطبيعة الحال أن العدو لا يردد سوى الأكاذيب، ولكنه يعني إلا نندفع لتصديق كل ما يقول، وأن نحكم على كلماته بمحك الواقع.

والله أعلم.

*هذا المقال نشر بـ جريدة الرياض بالمملكة العربية السعودية ٢٤ فبراير ١٩٨٤م الموافق ٢٣ جمادى الأولى ١٤٠٤ هـ في العدد ٥٧٢٤ السنة العشرون.

***

٢٤ـ المحافظون الجدد والعربدة العسكرية الأمريكية

جريدة الاتحاد الإماراتية: ٢٠٠٨-٠٣-٠٨

يمكن القول إن العربدة العسكرية الأمريكية في العالم تعود إلى تصور المحافظين الجدد أن القطبية الثنائية التي كانت من سمات النظام العالمي القديم قد تساقطت، وأن النظام العالمي الجديد أحادي القطب. ولكن بسبب إنكارهم التاريخ (فهم من المؤمنين بنهايته) لم يدركوا أن هذه الأحادية لا يمكن أن تستمر. فأوروبا في حالة خوف من هذا القطب الواحد وربما يحدث تكتل فرنسي -ألماني- روسي، ومن المحتمل أن تنضم إليه الصين، وهي قوة عظمى آخذة في النمو وكذلك دول آسيا. ولعل وعسى بعض الدول العربية تفيق وتدرك أنها يجب أن تتكتل فيما بينها لتواجه التكتلات الاقتصادية والسياسية الكبرى في عالم اليوم، وإن كنت متشائما بخصوص صحوة النخب العربية الحاكمة. عموما أعتقد أن هذه القطبية الأحادية لن تستمر طويلا تؤيدني في ذلك تلك المعارضة المتزايدة للولايات المتحدة على مستوى الرأي العام العالمي. كما أنني أعتقد أن الرؤية الاختزالية التي هيمنت على النخبة الحاكمة في الولايات المتحدة لن تعمر طويلا، ورغم أنني لا أستطيع تحديد مدى زمني متوقع لهذه التحولات، إلا أننا علينا ملاحظة أن الدورات التاريخية في الآونة الأخيرة أصبحت أكثر سرعة وذلك بسبب وسائل الاتصال الحديثة.

وقد صدر كتاب بعنوان ما بعد الإمبراطورية، يقول فيه مؤلفه إن هناك تناسباً عكسياً بين التراجع الاقتصادي الأمريكي الذي يعتقد أنه لا رجعة فيه، وبين زيادة النزعة العسكرية العدوانية، ويقول إن الدليل على بداية سقوط الإمبراطورية الأمريكية هو زيادة عملياتها العدوانية ضد البلاد الأخرى. وأنا أتفق معه تماماً، وأعتقد أن كل الإحصاءات تبين ذلك، فوزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس لخصت الموقف في قولها إن ميزانية الحرب، أو ميزانية الدفاع في الولايات المتحدة، تصل إلى حوالي ٥٠٠ مليار دولار، وهذا يعادل ميزانيات الدفاع في كل أرجاء العالم. ثم أضافت قائلة إن تكاليف السلم أعلى بكثير من تكاليف الحرب، أي أنها تجاهلت تماما التكلفة البشرية (فهي تدور داخل إطار نفعي مادي) ونظرت إلى الحرب باعتبارها مجرد استثمار اقتصادي لا يختلف عن أي مشروع رأسمالي لابد أن يكون له عائد، وحيث أنه لابد لمصانع السلاح أن تستمر في الدوران، باعتبار أن هذا من أهم القطاعات الاقتصادية في الولايات المتحدة، لابد وأن يكون هناك حالة حرب، كما أن الولايات المتحدة تحاول تعويض تراجعها الاقتصادي عن طريق القوة العسكرية، واختيار أفغانستان والعراق للغزو هو اختيار

اقتصادي بالأساس، فلم يكن هناك تهديد عراقي لأمن الولايات المتحدة. قد يمكن القول إن أفغانستان بوجود طالبان فيها كانت تشكل تهديدا أمنيا للولايات المتحدة، وهذا أمر مشكوك فيه، أما العراق فلا يمكن تفسير غزو الولايات المتحدة لها إلا في إطار حاجة الآلة الأمريكية الصناعية الشرهة للبترول بأسعار رخيصة، وحتى يتسنى للولايات المتحدة أن تسيطر على منابع البترول في كل أنحاء العالم حتى تعوض تراجعها الاقتصادي. وقد قمت بنحت مصطلح "المسألة الغربية"، أي شراهة الإنسان الغربي ومحاولته الوصول إلى معدلات استهلاكية لا تتناسب مع معدلات إنتاجيته ولا مع المصادر الطبيعية المتاحة في الحركة الأرضية. يجب ألا ننسى أن منظومة التقدم الغربية مبنية على افتراض خاطئ، وهو أن المصادر الطبيعية لا تفنى وأنها لا نهائية وهو أمر غير حقيقي، لكن رغم ذلك تظل آلة الاستهلاك الغربية في التصاعد يوماً بعد يوم، وكل هذه الحروب الاستعمارية والعربدة العسكرية هي محاولة للاحتفاظ بمعدلات استهلاكية عالية.

ورؤية المحافظين الجدد للواقع قد قوضتها تغيرات حدثت على المستوى العالمي والمستوى المحلي:

١. دخلت المنظومة الحضارية الغربية مرحلة الأزمة، كما اتضح من سقوط الاتحاد السوفيتي، وكما تتبدى في مظاهر التفكك المجتمعي في الولايات المتحدة.

٢. مع تعاظم الأزمة البيئية ومع اكتشاف أن المصادر الطبيعية لا تتجدد، بدأت تظهر في الغرب قطاعات كثيرة تدرك أن مفهوم التقدم الغربي بتركيزه على الإنتاج والاستهلاك، وبإغفاله أي مرجعية إنسانية قد أدخلنا جميعا في ورطة كونية، فظهرت جماعات الخضر والجماعات المعارضة للعولمة ومنظمة التجارة العالمية.

٣.اكتشف الاستعمار الغربي أن المواجهة العسكرية مع قوى التحرير في العالم الثالث أصبحت باهظة التكاليف، مما اضطره إلى اللجوء إلى وسائل مراوغة لتوظيف العالم لصالحه، ولعل طرح فكرة النظام العالمي الجديد هو إحدى هذه الآليات.

٤. بعد إخفاق النظم الحاكمة في العالم الثالث في تحقيق التنمية المرجوة، تزايدت القناعة بأن محاكاة النموذج الغربي بشقيه الرأسمالي والاشتراكي لم يعد يجدي، وأن المطلوب هو الوصول إلى رؤية تنموية جديدة.

٥. تساقطت فكرة الدولة المركزية كما تساقطت فكرة الحزب الواحد أو الزعيم الواحد الذي يملك الحقيقة المطلقة، وبالتالي تأكدت ضرورة ظهور دولة المؤسسات وتداول السلطة ومشاركة الجماهير إما مباشرة من خلال الانتخاب وإما من خلال مؤسسات المجتمع المدني. لكل هذا تغير الوضع تمام، وفُتحت نوافذ لقوى الممانعة.

٦. أدرك الجميع -على المستوى المحلي- أن الدولة الحديثة مركبة للغاية، وأن إدارتها لا يمكن أن تتم من خلال فرد أو حزب واحد أو نخبة مغلقة، فالمطلوب هو إدارة الدولة من خلال مجموعة من المؤسسات المتخصصة.

٧. كانت الدولة المركزية تحتكر المعلومات، فتذيع ما يخدم رؤيتها وتحجب ما عدا ذلك. ولكن ظهر مجتمع المعلومات وتطورت الفضائيات، الأمر الذي وفر المعلومات والتحليلات للجماهير وقد زاد هذا من وعيها ونشط الوعي النقدي عند جيل الشباب.

٨. بدأ الجميع يدركون أن الديمقراطية ليست مطلبا سياسيا وحسب، وإنما مطلب اقتصادي (ضرورة المساءلة لمنع الفساد باعتباره العائق الأكبر أمام جذب الاستثمارات، كما أنه يشجع على الطفيلية والانصراف عن الإنتاج) ومطلب أمني (تجنيد الجماهير للتصدي لمحاولات الاعتداء على السيادة الوطنية) ومطلب ثقافي حضاري (تأكيد الهوية القومية في مقابل اتجاهات العولمة التي تريد اكتساح كل الهويات).

كل هذه العناصر جعلت العالم الذي يتعامل معه المحافظون الجدد عالماً مركباً، وليس بسيطاً أو أحادي البعد، عالم القطب الواحد الذي يتخيلونه. فهم يصرون على اختزال عالمنا المركب بسبب خريطتهم الإدراكية المتحيزة وبسبب رؤيتهم الأيديولوجية الجامدة المعادية للتاريخ. ولهذا السبب فهم لن يغيروا من مواقفهم إلا من خلال ما أسميه الحوار المسلح، أن نرسل لهم برسائل مسلحة أو شبه مسلحة (مقاومة مسلحة- صواريخ- مقاطعة- ضغط اقتصادي) يواكبها حملة إعلامية لتوضيح موقفنا. ولعل هذه الرسائل المسلحة وشبه المسلحة تُدخِل بعض الرشد على عقل أعضاء النخبة الحاكمة الذين لا يدركون العالم إلا من خلال حواسهم الخمسة، فيدركون طبيعة الورطة التاريخية التي زجّ المحافظون الجدد بهم فيها.

والله أعلم.

ملاحظة: هذه المقالة نشرت بجريدة الاتحاد الإماراتية بصفحة وجهات نظر بتاريخ ٨ مارس ٢٠٠٨.

http://www.alittihad.ae/authorarchive.php?AuthorID=3

***

٢٥ـ المحافظون الجدد وصناعة السلاح

موقع الجزيرة نت: ٢٠٠٨ـ٢ـ٠٢ـ٠١

يمكن القول إن القيام الولايات المتحدة بغزو أفغانستان والعراق ودعم الدولة الصهيونية وعدم الاكتراث بالشرعية الدولية وتأليب دول العالم ودول الخليج ضد إيران ليست مجرد أحداث متفرقة بل جزء من نمط إمبريالي بدأ منذ بداية تاريخ الولايات المتحدة، ويتلخص في عبارة واحدة: رفض الآخر وتوظيفه في خدمة المصالح المادية أو إبادته إن قاوم. وكثير من الناس لا يعرفون تاريخ أمريكا الإمبريالي: إبادة الهنود الحمر وتسخير الإفريقيين السود واحتلال الفلبين وهاواي والهيمنة على أمريكا اللاتينية إلى آخر هذا التاريخ الإمبريالي الطويل النابع من رؤية إمبريالية للعالم تراه باعتباره مادة استعمالية يوظفها القوي لصالحه. وقد وصلت هذه السياسة الإمبريالية إلى الذروة في تفكير المحافظين الجدد.

ولكن بدلاً من الحديث النظري عن هذا الفكر، فلنبيّن معالمه الأساسية من خلال توضيح الأسباب التي دفعت الولايات المتحدة لغزو العراق، والرؤية الكامنة وراء هذا الغزو (ووراء غزو أفغانستان والعداء لإيران ودعم الدولة الصهيونية...إلخ). تصور المحافظون الجدد أنه من الضروري تفتيت المنطقة العربية وإعادة تركيبها على أسس قَبَلية وعشائرية وإثنية ودينية وعرقية على حساب القومية العربية، بحيث تُقسّم المنطقة إلى دويلات يمكن إخضاعها والهيمنة عليها بدلاً من أن تشكل كتلة سياسية واقتصادية وثقافية كبرى، تدخل في علاقة ندية مع بقية الكتل الاقتصادية والسياسية. كما أن هذا الفكر الإمبريالي يذهب إلى ضرورة الهيمنة على منطقة الخليج لسببين أساسين: أن هذه المنطقة تحتوي على أكبر مخزون بترول في العالم، إلى جانب أن الهيمنة الأمريكية على هذه المنطقة تعني ضمان أن أصحاب الأموال العربية والتي تقدر بمئات البلايين والتي أودعوها في البنوك الأمريكية والتي تشكل الدعامة الأساسية للدولار لا يمكنهم استخدمها كوسيلة للضغط على الولايات المتحدة. ويرى المحافظون الجدد أنه يمكن تحقيق هذا في ظل غياب نظام عربي قوي، وأنه يمكن ابتزاز دول الخليج بكل سهولة ويسر.

ويذهب المحافظون الجدد إلى ضرورة تغيير النظم العربية تحت ستار الالتزام بمبادئ الديموقراطية وحقوق الإنسان، وتنصيب نظم جديدة ونخب حاكمة أكثر مرونة يمكنها أن تقبل الدولة الصهيونية، وتطبّع العلاقة معها. ويرى أصحاب هذا الفكر الإمبريالي أنه من الضروري تغيير التوجه الثقافي للبلاد العربية والإسلامية، من خلال تعديل المناهج الدراسية واختراق

الإعلام وإشاعة ما يسمى ثقافة السلام" التي تعلي من شأن قيم مثل التكيف والمرونة وتحذر من قيم مثل الجهاد والالتزام، حتى تظهر أجيال جديدة لا تكترث كثيراً بالهوية أو التراث، وترى أن المقاومة مسألة عبثية. ومن أولويات هذا الفكر التصدي للتيار الإسلامي الآخذ في التصاعد والذي يحمل علم المقاومة (حزب الله- حماس) والتصدي للغزو الأمريكية الصهيوني، ومحاولة استئناس العالم الإسلامي الذي أثبت أنه من أكثر المناطق رفضاً للهيمنة الأمريكية. وقد أخبرهم برنارد لويس، المستشرق الأمريكي الصهيوني، أن تركيع دولة عربية كبرى مثل العراق سيؤدي إلى خضوع بقية العالم العربي للهيمنة الأمريكية.

كما يرى دعاة الفكر الإمبريالي الغربي أنه من الضروري بقاء شكل مكثف من أشكال الوجود العسكري في المنطقة العربية، حتى تضمن استمرار الهيمنة الأمريكية، وضرورة قيام نظام إقليمي جديد في المنطقة يسمّونه الشرق الأوسط الجديد يضم إسرائيل وإيران (بعد تدجينها) والعالم العربي بما في ذلك عراق ما بعد صدّام. وهم يذهبون إلى أن إسرائيل ستلعب دوراً أساسياً في عملية إعادة صياغة المنطقة سياسياً وثقافياً بحيث تصبح دولة يهودية بين دويلات مختلفة (دولة درزية- دولة شيعية- دوبلات سنية- دولة أمازيغية). والمخطط الآن أن تصبح إسرائيل عنصراً أساسياً باعتبار أنها الأعلى مستوى والأكثر تقدما والأقوى عسكريا، ثم لديها في نهاية الأمر الدعم العسكري والاقتصادي والسياسي الأمريكي.

كما لاحظ أصحاب هذا الفكر الإمبريالي أن تراجع الولايات المتحدة اقتصادياً، إلى جانب أنها لأول مرة تواجه قوة عظمى ضخمة، تساندها قوة عسكرية لا تقل ضخامة (الصين). ففي الماضي واجهت الولايات المتحدة قوة اقتصادية ليس لها قاعدة عسكرية (اليابان)، أو قوة عسكرية لا تساندها قاعدة اقتصادية (الاتحاد السوفيتي). لهذا تحاول الولايات المتحدة الاستيلاء على منابع البترول حتى يمكنها أن تجعل موازين القوى في صالحها.

وقد لاحظ حملة هذا الفكر الإمبريالي أنه مع انتهاء الحرب الباردة وظهور الولايات المتحدة كقطب أعظم واحد في العالم، تطلب استمرار إنتاج السلاح أن تستمر النخبة الحاكمة في تحريك الجيوش والدخول في مغامرات عسكرية. ولكن لابد من إعطاء مبررات جديدة للجماهير الأمريكية، التي سلبتها الإدارة الأمريكية أموالها من خلال الغش والخداع، كما اتضح في فضائح شركة إنرون وغيرها من الشركات. وبالطبع لم يكن هناك مبرر أفضل من وجود تهديد لأمن البلاد سواء كان ذلك التهديد من أسامة بن لادن أو العراق ثم إيران الآن. ويبدو أن التفكير الإمبريالي الجديد في الولايات المتحدة كان قد وصل إلى قناعات عديدة أشرنا لها من قبل. ثم جاء ١١ سبتمبر (أيلول) وأعطاهم الذريعة التي كانوا يبحثون عنها، وبدأت أكذوبة أسلحة الدمار الشامل وعلاقة نظام صدام حسين بالقاعدة، وقد ثبت كذب الادعاءين، إذ لم

يعثروا على أي أسلحة دمار شامل أو جزئي، وأنه لم يكن هناك أي علاقة بين النظام القائم آنذاك والقاعدة. وهذا ما يدفعني إلى التأكيد على أن السبب الحقيقي لغزو العراق يتمثل في رغبة المجمع الصناعي العسكري في الولايات المتحدة في توظيف الأسلحة المنتجة واستهلاكها المستمر حتى يمكن دفع عملية الإنتاج للاستمرار في الدوران.

وتجار السلاح يتحكمون إلى حد كبير في صنع القرار في الولايات المتحدة الأمريكية، ومع هذا يجب التحفظ على هذا التعميم بالقول إن ظاهرة إنسانية لا يمكن تفسيرها بسبب واحد فمن يتحكم في الولايات المتحدة هي جماعة تمثل المصالح الرأسمالية الكبرى وقد بيّن الأستاذ هيكل أن المصالح الرأسمالية الكبرى. كانت هي دائما المهيمنة على صنع القرار في الولايات المتحدة، ولكن كان هناك دائما مسافة تفصل بين الإدارة الأمريكية واللوبي الذي يمثل هذه المصالح، أو على الأقل التأثير فيه. ولكن هذه المسافة ضاقت تماما في حالة إدارة بوش، فالإدارة الأمريكية الحالية تمثل هذه المصالح بشكل فظ ومباشر. ومن أهم القطاعات الاقتصادية في البلاد الرأسمالية المتقدمة قطاع صناعة السلاح، ولذا فهو يلعب دورا مهما يتناسب مع أهميته داخل الاقتصاد الأمريكي.

وهناك شيء لا يعرفه الكثيرون، ذلك أن تجارة السلاح في الولايات المتحدة هي الطريقة التي يتم بها نهب الشعب الأمريكي بلا تحفظ، لأن السلاح ليس سلعة تطرح في الأسواق وتدخل في منافسة مع مثيلاتها. فالسلاح الأمريكي يتم تحديد ثمنه، لا من خلال مناقصة، وإنما بالاتفاق مع النخب الحاكمة والتي يشكل جنرالات الجيش السابقين جزءا أساسيا منها. كما أن الجنرالات الحاليين سيصبحون عما قليل مدراء لشركات السلاح. وللتدليل على ما أقول سأشير إلى ما قرأته ذات يوم عن تكاليف طائرة الإيواكس: جهاز إعداد القهوة داخل الطائرة ثمنه ١٠٠٠ دولار أمريكي، وتوجد أربع قطع من البلاستيك أسفل مقعد قائد الطائرة ثمن الواحدة منها ٧٥٠ دولاراً!، والمعنى أن الثمن في هذه الحالة اعتباطي لأنه غير خاضع لآليات السوق، وبالتالي فإن تجارة السلاح هي الطريق الحقيقي لنهب الشعب الأمريكي. وإذا توقفت عجلة الإنتاج في قطاع إنتاج السلاح فإن كثيرا من أعضاء النخبة سيتضررون إلى أقصى درجة.

إن جاردنر الذي نصبته أمريكا حاكما عسكريا على العراق تاجر سلاح في الأصل، وكانت الشركة التي يمثلها هي المسئولة عن توريد صواريخ باتريوت للجيش الأمريكي. أما تشيني فهو عضو مجلس إدارة هاليبرتون التي قامت بنهب الملايين من خلال توريد سلع للجيش الأمريكي في العراق بأثمان مبالغ فيها. ودونالد رامزفيلد هو الآخر له علاقة بصناعة السلاح.

وقد نبّه الرئيس أيزنهاور في خطابه الوداعي إلى خطورة ما سماه المجمع الصناعي العسكري، وحذر من أثره على الحياة العامة، في المعادلة الداخلية السياسية والاقتصادية الأمريكية هذا

المجمع يعني مصالح الصناعات العسكرية (أسلحة- طائرات- دبابات- غواصات- حاملات طائرات- أردية جنود... إلخ) التي تسيطر على الحياة السياسية، وصنع القرار. فهي بمقدورها أن تمول الأحزاب وتهيمن عليها وتوجهها بما يخدم مصالحها، وليس الصالح القومي العام. وقد لوحظ أثناء الإعداد لغزو العراق أن المؤسسة العسكرية كانت غير مستريحة، وبدأت علامات التململ والتمرد، فكان القادة العسكريون يقولون إذا قمنا بغزو العراق فسنحتاج إلى ضعف القوات التي أرسلت، لكن رامسفيلد ممثل المجمع الصناعي العسكري وشركات صناعة الأسلحة الذكيةSmart Weapons تصور أنه من خلال هذه الأسلحة سيمكنه أن يغزو العراق دونما حاجة لعدد كبير من الجنود. كثير من العسكريين كان يتحدثون عن طول خطوط الإمداد، والآن يشيرون إلى أن الولايات المتحدة دخلت العراق دون أن تكون قد وضعت خطة للخروج، وأن غزو العراق أدى إلى الفوضى الكاملة، بسبب جهل القيادة السياسية وغرورها. لدرجة أن صحيفة النيويورك تايمز New York Times الأمريكية قالت كنا نخاف دائماً من انقلاب يقوم به العسكريون ضد المدنيين، لكن ما حدث هو أن المدنيين قاموا بانقلاب ضد العسكريين. والمدنيون هنا هم ممثلو المجمع الصناعي العسكري.

ويمكن القول إن العربدة العسكرية الأمريكية تعود إلى تصور المحافظين الجدد أن القطبية الثنائية التي كانت من سمات النظام العالمي القديم قد تساقطت، وأن النظام العالمي الجديد أحادي القطب، وهذا تصور خاطئ. فهذه الأحادية لا يمكن أن تستمر. فأوروبا في حالة خوف من هذا القطب الواحد وربما يحدث تكتل فرنسي -ألماني- روسي، ومن المحتمل أن تنضم إليه الصين وهي قوة عظمى آخذة في النمو وكذلك دول آسيا. ولعل وعسى بعض الدول العربية تفيق وتدرك أنها يجب أن تتكتل فيما بينها لتواجه التكتلات الاقتصادية والسياسية الكبرى في عالم اليوم، وإن كنت متشائما بخصوص صحوة النخب العربية الحاكمة. عموما أعتقد أن هذه القطبية الأحادية لن تستمر طويلا تؤيدني في ذلك تلك المعارضة المتزايدة للولايات المتحدة على مستوى الرأي العام العالمي. كما أنني أعتقد أن الرؤية الاختزالية التي هيمنت على النخبة الحاكمة في الولايات المتحدة لن تعمر طويلا، ورغم أنني لا أستطيع تحديد مدى زمني متوقع لهذه التحولات إلا أننا علينا ملاحظة أن الدورات التاريخية في الآونة الأخيرة أصبحت أكثر سرعة وذلك بسبب وسائل الاتصال الحديثة.

وقد صدر كتاب بعنوان ما بعد الإمبراطورية، يقول فيه مؤلفه: أن هناك تناسباً عكسياً بين التراجع الاقتصادي الأمريكي الذي يعتقد أنه لا رجعة فيه، وبين زيادة النزعة العسكرية العدوانية، ويقول أن الدليل على بداية سقوط الإمبراطورية الأمريكية هو زيادة عملياتها العدوانية ضد البلاد الأخرى. وأعتقد أن كل الإحصاءات تبين ذلك، فوزيرة الخارجية الأمريكية

كوندوليزا رايس لخصت الموقف في قولها، أن ميزانية الحرب، أو ميزانية الدفاع في الولايات المتحدة، تصل إلى حوالي ٥٠٠ مليار دولار، وهذا يعادل ميزانيات الدفاع في كل أرجاء العالم. ثم أضافت قائلة أن تكاليف السلم أعلى بكثير من تكاليف الحرب، لقد تجاهلت تماما التكلفة البشرية (فهي تدور داخل إطار نفعي مادي) ونظرت إلى الحرب باعتبارها مجرد استثمار اقتصادي لا يختلف عن أي مشروع رأسمالي لابد أن يكون له عائد، ولابد لمصانع السلاح أن تستمر في الدوران، باعتبار أن هذا من أهم القطاعات الاقتصادية في الولايات المتحدة. إن الولايات المتحدة تحاول تعويض تراجعها الاقتصادي عن طريق القوة العسكرية، واختيار أفغانستان والعراق للغزو هو اختيار اقتصادي بالأساس، فلم يكن هناك تهديد عراقي لأمن الولايات المتحدة. قد يمكن القول إن أفغانستان بوجود طالبان فيها كانت تشكل تهديدا أمنيا للولايات المتحدة، وهذا أمر مشكوك فيه، أما العراق فلا يمكن تفسير غزو الولايات المتحدة لها إلا في إطار حاجة الآلة الأمريكية الصناعية الشرهة للبترول بأسعار رخيصة، وحتى يتسنى للولايات المتحدة أن تسيطر على منابع البترول في كل أنحاء العالم حتى تعوض تراجعها الاقتصادي. وقد قمت بنحت مصطلح "المسألة الغربية"، أي شراهة الإنسان الغربي ومحاولته الوصول إلى معدلات استهلاكية لا تتناسب مع معدلات إنتاجيته ولا مع المصادر الطبيعية المتاحة في الحركة الأرضية. لا تنسى أن منظومة التقدم الغربية مبنية على افتراض خاطئ، وهو أن المصادر الطبيعية لا تفنى وأنها لا نهائية واكتشفنا أن هذا غير حقيقي، لكن رغم ذلك تظل آلة الاستهلاك الغربية في التصاعد يوماً بعد يوم، وكل هذه الحروب الاستعمارية هي محاولة للاحتفاظ بمعدلات استهلاكية عالية لا تتناسب مع المقدرة الإنتاجية للإنسان الغربي، ولا تتناسب مع المصادر الطبيعية لهذه الكرة الأرضية.

والله أعلم.

ملاحظة: هذه المقالة نشرت بموقع الجزيرة نت بصفحة المعرفة- وجهات نظر بتاريخ ١ فبراير ٢٠٠٨.

http://www.aljazeera.net/NR/exeres/1999C052-EA0D-4DD2-B80D-EA61CD465037.html

***

٢٦ـ المـــلاح القـديم

قراءة قصيدة الملاح القديم التي كتبها الشاعر الإنجليزي صمويل تيلور كوليردج تجربة روحية وجمالية فريدة ومثيرة؛ فهي قصيدة ذات مستويات متعددة، يكمل الواحد فيها الآخر، ولا يلغيه. ولهذا يجب ألا نبحث عن معني واحد محدد نهائي للقصيدة، كما يجب أن نراها باعتبارها قصة شعرية ذات مغزي إنساني عميق ولكنها في الوقت ذاته قصة مثيرة ومسلية. وهذا المغزي لا يوجد في هذا البيت أو هذين البيتين، وإنما في القصيدة ككل، وفي صميم بنيتها.

ولد صمويل تيلور كوليردج في ٢١ أكتوبر ١٧٧٢ في أسرة متدينة، وكان عزوفًا عن اللعب، ميالاً إلى الانطواء علي نفسه، محبًا للتأمل والتفكير والأحلام، ولكنه كان يحب القراءة حبًا جمًا. التحق بجامعة كمبردج لدراسة اللاهوت، وعُرف عنه ولعه بالنقاش والجدل مع زملائه، فكانت غرفته بالكلية ملتقي أصدقائه المحبين للجدل مثله. وإبان إقامته في كمبردج ظهر اهتمامه بالسياسة وبالتطورات والأفكار السياسية في عصره. وتعرّف في تلك الآونة علي كثير من الأفكار الثورية ذات النزعة الآلية والمادية، فقرأ كتاب العدالة السياسية للفيلسوف الإنجليزي وليام جُدوين، كما اهتم بكتابات فلاسفة عصر التنوير في فرنسا الذين طرحوا رؤية اختزالية للإنسان، تراه في بعده المادي أو الطبيعي/المادي وحسب، وتري أن أصل الشر في العالم عوامل خارجة عن إرادة الإنسان مثل البيئة الاجتماعية، وأنه يمكن بالتالي إزالة أسباب الشر والوصول بالإنسان إلى الكمال.

ويتبدي النمط نفسه في مفهوم الفيلسوف الإنجليزي جون لوك للعقل باعتباره صفحة بيضاء تنطبع عليها المعطيات الحسية والمادية، وتترابط بشكل آلي لتصبح بالتدريج أكثر تركيبًا، إلى أن يصل إلى الأفكار المركبة المجردة. وقد أدت هذه الرؤية المادية للإنسان إلى ظهور ما يسمي «علم النفس الترابطي» الذي أسسه ديفيد هارتلي، والذي أعجب به كوليردج إلى درجة أنه سمي ابنه باسم مؤسس هذا العلم، والذي يذهب إلى أن ثمة قوانين ترابط آلية laws of association تربط بين الأفكار مثل علاقات التشابه والتجاور والمقابلة وأنه يمكن إصلاح الإنسان من خلال التحكم في قوانين الترابط هذه. وبطبيعة الحال استوعب كوليردج آراء هيوم وبنتام وتشرب مبادئ الفلسفة النفعية، فقد كانت أكثر الأفكار الفلسفية شيوعًا في أواخر القرن الثامن عشر في إنجلترا. وقد وجدت هذه الفلسفات دعمًا «علمياً» لها في نظريات نيوتن الذي شبه العالم بالساعة التي صنعها الإله وأدارها ثم تركها وشأنها تدور حسب قوانينها الكامنة فيها. إلى جانب هذا، تأثر كوليردج بفلسفة جيوردانو برونو وباروخ إسبينوزا بنزوعهم

الحلولي المتطرف، إذ كانوا يرون أن الكون هو الإله وأن الإله هو الكون، ولا فارق بينهما، مما يعني أنه لا فارق بين الروح والمادة أو بين المادة والروح، وأن الواحد هو الآخر ثمة شيء جوهري مشترك يجمع بين كل الأفكار والرؤي الفلسفية وشبه الدينية السابقة، والتي قد تبدو وكأنها مختلفة بل ومتناقضة، فكلها رؤي واحدية تري أن العالم مكون من جوهر واحد، وبذا فهي تنكر أي ثنائية سواء كانت ثنائية الخالق والمخلوق والطبيعة والإنسان والروح والجسد هذا يعني في واقع الأمر أن ثمة قانونًا واحدًا يحكم الكون بأسره، يسري علي الإنسان سريانه علي الأشياء، الأمر الذي يعني إنكار مقدرة الإنسان علي تجاوز حدوده المادية الطبيعية، ورفض رؤية العقل باعتباره عقلاً تركيبيا توليديا.

وفي هذا العالم الواحدي لا يوجد أي مجال للخصوصية، سواء خصوصية الأفراد من بني البشر أو الكائنات الطبيعية، وقد وقع كوليردج في أسر هذه الأفكار البسيطة ذات البعد الواحد أثناء بحثه عن حل للمشكلات الاجتماعية والفلسفية في عصره الذي شهد تحولات بنيوية كبري علي جميع المستويات. فقد شهدت هذه الفترة من تاريخ أوربا حركات سياسية ثورية مثل الثورة الصناعية والانتقال من الاقتصاد الزراعي والقرية إلى الاقتصاد الصناعي والمدينة، والثورة الأمريكية، والثورة الفرنسية، وحركة تحرير العبيد. وقد تعرف كوليردج في كمبردج علي روبرت سذي والذي أصبح فيما بعد من شعراء الحركة الرومانسية وقرر الاثنان إقامة مجتمع مثالي جديد قائم علي فكرة المساواة التامة وإنكار الملكية الفردية، ولكن المشروع كان مصيره الإخفاق.

ومع انحدار الثورة الفرنسية إلى عصر الإرهاب وعبادة العقل المادي، ظهر فكر جديد يرفض الرؤية الثورية المادية الآلية بكل ما جلبته من إرهاب وحروب. وقد عبر الشاعر الإنجليزي الرومانسي وليام بليك، وهو معاصر لكوليردج، عن احتجاجه علي الرؤية الآلية في قصيدة من سطرين: «ليحفظنا الله من الرؤية الواحدية/ ومن نوم نيوتن». وكان لهذا أثره العميق علي كوليردج الذي بدأ يمارس تحولا فكريا عميقًا نتيجة لهذا التحول في المناخ الثقافي العام. وقد عمق هذا الاتجاه نحو الرؤية الآلية المادية، تجارب كوليردج الخاصة وقراءاته المختلفة، بما في ذلك قراءاته في الفلسفة الألمانية خاصة أعمال كانط وشلنج بتأكيدهما علي مقدرات العقل التوليدية ودور الإرادة الإنسانية. وبالتدريج لم يعد كوليردج يقتنع بالفلسفات التجريبية المادية والآلية.

كما أدرك كوليردج خطورة الرؤية الحلولية وأنها في واقع الأمر رؤية اختزالية مادية واحدية، رغم المصطلح الروحي الذي تستخدمه. ولذا بدأ يبحث عن فهم أكثر عمقًا وتركيبية للحياة لا يهمل الجانب الروحي غير المادي. هذا النمط نعرفه تمامًا في العالم الإسلامي والعالم الثالث،

فكثير من مثقفي العالم الثالث عادة يبدأون تطورهم الثقافي بتبني رؤية فلسفية مادية تؤكد العام علي حساب الخاص، ولكنهم تدريجيا يتحولون عن هذه الرؤية ويتبنون رؤية للإنسان والمجتمع أكثر تركيبية وإنسانية، ويبدأون في اكتشاف خصوصية التشكيلات الحضارية والاجتماعية التي نشأوا فيها ويرفضون قوانين المادة العامة التي لا تفرق بين مجتمع وآخر، أو بين الإنسان والطبيعة. وقد ازداد هذا النمط تبلورا مع فشل الحداثة في تحقيق كثير من وعودها.

وقصيدة الملاح القديم هي تعبير عن هذا التحول، وفي هذا الإطار تطرح عدة أسئلة هامة:

هل يمكن للإنسان أن يولّد منظومةً أخلاقية من قوانين الطبيعة والمادة ومن العلم الطبيعي المنفصل عن القيمة، بمعني: هل يمكن للمعرفة العلمية أن تزودنا بمعايير أخلاقية تمكننا من التمييز بين الخير والشر، والعدل والظلم؟ هل تصلح النسبية المطلقة أن تكون الأساسَ المعرفي للمجتمع، والنفعية المادية الأساس الأخلاقي له؟ وحينما تنطبع التفاصيل والمعطيات المادية الحسية المتناثرة علي دماغ الإنسان.. هل يمكن أن تترابط بشكل آلي من تلقاء نفسها، وتتحول إلى مدركات عقلية كلية ومفاهيم مجردة مثل الأمانة والوجود والشكل والمضمون دون تدخل العقل الإنساني؟

***

٢٧- الولايات المتحدة والإمبريالية

الجزيرة نت 01-03-2008

يتصور البعض أن قيام الولايات المتحدة بغزو أفغانستان والعراق ودعم الدولة الصهيونية وعدم الاكتراث بالشرعية الدولية وتأليب دول العالم ودول الخليج ضد إيران، هي أمور استثنائية، لأن الولايات المتحدة بلد ديموقراطي لا علاقة له بالاستعمار. ولكن الملاحظ المدقق سيرى أن هذه ليست مجرد أحداث متفرقة بل جزء من نمط إمبريالي بدأ مع بداية تاريخ الولايات المتحدة، يتلخص في عبارة واحدة: رفض الآخر وتوظيفه في خدمة المصالح المادية أو إبادته إن قاوم. وكثير من الناس لا يعرفون تاريخ أمريكا الإمبريالي: إبادة الهنود الحمر، وتسخير الإفريقيين السود، واحتلال الفلبين وهاواي والهيمنة على أمريكا اللاتينية إلى آخر هذا التاريخ الإمبريالي الطويل النابع من رؤية إمبريالية للعالم تراه باعتباره مادة استعمالية يوظفها القوي لصالحه. وقد وصلت هذه السياسة الإمبريالية إلى الذروة في تفكير المحافظين الجدد.

ولكن بدلاً من الحديث النظري عن هذا الفكر، فلنبيّن معالمه الأساسية من خلال توضيح الأسباب التي دفعت الولايات المتحدة لغزو العراق، والرؤية الكامنة وراء هذا الغزو (ووراء غزو أفغانستان والعداء لإيران ودعم الدولة الصهيونية...إلخ). تصور المحافظون الجدد (وهي النخبة الثقافية التي توجه جورج بوش وسياساته) أنه من الضروري تفتيت المنطقة العربية وإعادة تركيبها على أسس قَبَلية وعشائرية وإثنية ودينية وعرقية، بحيث تُقسّم المنطقة إلى دويلات يمكن إخضاعها والهيمنة عليها بدلاً من أن تشكل كتلة سياسية واقتصادية وثقافية كبرى، تدخل في علاقة ندية مع بقية الكتل الاقتصادية والسياسية. كما أن هذا الفكر الإمبريالي يذهب إلى ضرورة الهيمنة على منطقة الخليج لسببين أساسين: أن هذه المنطقة تحتوي على أكبر مخزون بترول في العالم. إلى جانب أن الهيمنة الأمريكية على هذه المنطقة تعني ضمان أن أصحاب الأموال العربية والتي تقدر بمئات البلايين والتي أودعوها في البنوك الأمريكية والتي تشكل الدعامة الأساسية للدولار لا يمكنهم استخدمها كوسيلة للضغط على الولايات المتحدة. ويرى المحافظون الجدد أنه يمكن تحقيق هذا في ظل غياب نظام عربي قوي، وأنه يمكن ابتزاز دول الخليج بكل سهولة ويسر.

ويذهب المحافظون الجدد إلى ضرورة تغيير النظم العربية تحت ستار الالتزام بمبادئ الديموقراطية وحقوق الإنسان، وتنصيب نظم جديدة ونخب حاكمة أكثر مرونة يمكنها أن تقبل

الدولة الصهيونية، وتطبّع العلاقة معها. ويرى أصحاب هذا الفكر الإمبريالي أنه من الضروري تغيير التوجه الثقافي للبلاد العربية والإسلامية، من خلال تعديل المناهج الدراسية واختراق الإعلام وإشاعة ما يسمى "ثقافة السلام" التي تعلي من شأن قيم مثل التكيف والمرونة وتحذر من قيم مثل الجهاد والالتزام، حتى تظهر أجيال جديدة لا تكترث كثيراً بالهوية أو التراث، وترى أن المقاومة مسألة عبثية. ومن أولويات هذا الفكر التصدي للتيار الإسلامي الآخذ في التصاعد والذي يحمل علم المقاومة (حزب الله- حماس) والتصدي للغزو الأمريكية الصهيوني، ومحاولة استئناس العالم الإسلامي وتدجينه إذ أثبت أنه من أكثر المناطق رفضاً للهيمنة الأمريكية. وقد أخبرهم برنارد لويس، المستشرق الأمريكي الصهيوني، أن تركيع دولة عربية كبرى مثل العراق سيؤدي إلى خضوع بقية العالم العربي للهيمنة الأمريكية.

كما يرى دعاة الفكر الإمبريالي الغربي أنه من الضروري بقاء شكل مكثف من أشكال الوجود العسكري في المنطقة العربية، حتى تضمن استمرار الهيمنة الأمريكية، وضرورة قيام نظام إقليمي جديد في المنطقة يسمّونه الشرق الأوسط الجديد يضم إسرائيل وإيران (بعد تدجينها) والعالم العربي بما في ذلك عراق ما بعد صدّام. وهم يذهبون إلى أن إسرائيل ستلعب دوراً أساسياً في عملية إعادة صياغة المنطقة سياسياً وثقافياً بحيث تصبح دولة يهودية بين دويلات مختلفة (دولة درزية- دولة شيعية- دويلات سنية- دولة أمازيغية). والمخطط الآن أن تصبح إسرائيل عنصراً أساسياً باعتبار أنها الأعلى مستوى والأكثر تقدما والأقوى عسكريا، ثم لديها في نهاية الأمر الدعم العسكري والاقتصادي والسياسي الأمريكي.

كما لاحظ أصحاب هذا الفكر الإمبريالي أن تراجع الولايات المتحدة اقتصادياً، إلى جانب أنها لأول مرة تواجه قوة عظمى ضخمة، تساندها قوة عسكرية لا تقل ضخامة (الصين). في الماضي واجهت الولايات المتحدة قوة اقتصادية ليس لها قاعدة عسكرية (اليابان)، أو قوة عسكرية لا تساندها قاعدة اقتصادية (الاتحاد السوفيتي). لهذا تحاول الولايات المتحدة الاستيلاء على منابع البترول حتى يمكنها أن تجعل موازين القوى في صالحها.

كما لاحظ حملة هذا الفكر أنه مع انتهاء الحرب الباردة وظهور الولايات المتحدة كقطب أعظم واحد في العالم، تطلب استمرار إنتاج السلاح أن تستمر النخبة الحاكمة في تحريك الجيوش والدخول في مغامرات عسكرية. ولكن لابد من إعطاء مبررات جديدة للجماهير الأمريكية، التي سلبتها الإدارة الأمريكية أموالها من خلال الغش والخداع، كما اتضح في فضائح شركة إنرون وغيرها من الشركات. وبالطبع لم يكن هناك مبرر أفضل من وجود تهديد لأمن البلاد سواء كان

ذلك التهديد من أسامة بن لادن أو العراق ثم إيران الآن. ويبدو أن التفكير الإمبريالي الجديد في الولايات المتحدة كان قد وصل إلى قناعات عديدة أشرنا لها من قبل. ثم جاء ١١ سبتمبر (أيلول) وأعطاهم الذريعة التي كانوا يبحثون عنها، وبدأت أكذوبة أسلحة الدمار الشامل وعلاقة نظام صدام حسين بالقاعدة، وقد ثبت كذب الادعاءين، إذ لم يعثروا على أي أسلحة دمار شامل أو جزئي، وأنه لم يكن هناك أي علاقة بين النظام القائم آنذاك والقاعدة. وهذا ما يدفعني إلى التأكيد على أن السبب الحقيقي لغزو العراق يتمثل في رغبة المجمع الصناعي العسكري في الولايات المتحدة في توظيف الأسلحة المنتجة واستهلاكها المستمر حتى يمكن دفع عملية الإنتاج للاستمرار في الدوران.

وقد بيّن الأستاذ هيكل أن المصالح الرأسمالية الكبرى كانت هي دائما المهيمنة على صنع القرار في الولايات المتحدة، ولكن كان هناك دائما مسافة تفصل بين الإدارة الأمريكية واللوبي الذي يمثل هذه المصالح، أو على الأقل التأثير فيه. ولكن هذه المسافة ضاقت تماما في حالة إدارة بوش، فالإدارة الأمريكية الحالية تمثل هذه المصالح بشكل فظ ومباشر. ومن أهم القطاعات الاقتصادية في البلاد الرأسمالية المتقدمة قطاع صناعة السلاح، ولذا فهو يلعب دورا مهما يتناسب مع أهميته داخل الاقتصاد الأمريكي.

وهناك شيء لا يعرفه الكثيرون، ذلك أن تجارة السلاح في الولايات المتحدة هي الطريقة التي يتم بها نهب الشعب الأمريكي بلا تحفظ، لأن السلاح ليس سلعة تطرح في الأسواق وتدخل في منافسة مع مثيلاتها. فالسلاح الأمريكي يتم تحديد ثمنه، لا من خلال مناقصة، وإنما بالاتفاق مع النخب الحاكمة والتي يشكل جنرالات الجيش السابقين جزءا أساسيا منها. كما أن الجنرالات الحاليين سيصبحون عما قليل مدراء لشركات السلاح. وللتدليل على ما أقول سأشير إلى ما قرأته ذات يوم عن تكاليف طائرة الإيواكس: جهاز إعداد القهوة داخل الطائرة ثمنه ١٠٠٠ دولار أمريكي، وتوجد أربع قطع من البلاستيك أسفل مقعد قائد الطائرة ثمن الواحدة منها ٧٥٠ دولاراً!، والمعنى أن الثمن في هذه الحالة اعتباطي لأنه غير خاضع لآليات السوق، وبالتالي فإن تجارة السلاح هي الطريق الحقيقي لنهب الشعب الأمريكي. وإذا توقفت عجلة الإنتاج في قطاع إنتاج السلاح فإن كثيرا من أعضاء النخبة سيتضررون إلى أقصى درجة.

إن جاردنر الذي نصبته أمريكا حاكما عسكريا على العراق تاجر سلاح في الأصل، وكانت الشركة التي يمثلها هي المسئولة عن توريد صواريخ باتريوت للجيش الأمريكي. تشيني عضو

مجلس إدارة هاليبرتون التي قامت بنهب الملايين من خلال توريد سلع للجيش الأمريكي في العراق بأثمان مبالغ فيها. ودونالد رامزفيلد هو الآخر له علاقة بصناعة السلاح.

ولكن هل سيتحقق مشروع المحافظين الجدد على أرض الواقع؟ وهل ستذعن الدول العربية الواحدة تلو الأخرى؟ هل سينجحون في تدجين إيران؟ من الصعب الإجابة على هذا الأسئلة بالإيجاب، بل أعتقد أن هناك مشاكل كثيرة سوف تواجههم تماما مثلما حدث مع المشروع الصهيوني. فهو حين بدأ عام ١٩٤٨ كان من بين أهدافه أشياء محددة أهمها سقوط لبنان وتحوله إلى دويلات ثم القضاء على الفلسطينيين وتغيير النظام في العراق. لكن ما حدث كان عكس ذلك تماما، حيث لم ينجح المشروع الصهيوني في القضاء على الفلسطينيين، ولبنان الذي كان من المتوقع أن يكون أول دولة عربية تسقط أصبحت إحدى أهم قواعد المقاومة والصمود. وهذا ما أعتقد أنه سيحدث بالنسبة للمشروع الأمريكي الحالي، نعم هم يخططون ويتخيلون نجاحا في مخططهم، لكن الآية القرآنية (وَيَمْكُرُوْنَ ويُمْكِرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ المَاكِرِيْن) ستثبت صدقها في هذه المرحلة من التاريخ.

لقد تصورت الإدارة الأمريكية في عهد بوش أن الوضع في العراق سيستقر، ولكن بعد تصاعد المقاومة، وبعد أن وصل عدد القتلى من الجنود الأمريكيين ما يزيد عن عدة ألوف (وهو العدد الرسمي المعلن، والذي يقل كثيراً عن عدد القتلى الحقيقي، كما أنهم لا يظهرون عدد الجرحى) بعد كل هذا تغيرت رؤيتهم، ومن هنا إعلان دستور جديد للعراق وطلب تدخل الجامعة العربية بل والتفاوض مع جماعات المقاومة. كما يجب أن نلاحظ أن الجماهير الأمريكية لم تعد كما كانت في الماضي. ففي أثناء حرب فيتنام بدأ التململ بعد عشرات الألوف من الضحايا، أما الآن فقد بدأ التململ بعد الرقم سبعمائة وتراجعت شعبية بوش. وهذا يعود إلى أن ما يسمى "عتبة التحمل" قد تراجعت بسبب تزايد معدلات الفردية والتوجه نحو اللذة. وقد قام الإعلام الأمريكي بتفريغ المواطن الأمريكي تماما من أي مثاليات مثل الكرامة وحب الوطن وضرورة المشاركة في السياسة وصنع القرار. كل هذه الأمور جعلت المواطن يتململ بسرعة، خاصة بعد أن أعلن بوش منذ عامين، مرتديا زيا عسكرياً، انتهاء العمليات العسكرية في العراق!

والله أعلم.

<u>ملاحظة</u>: هذه المقالة نشرت بموقع الجزيرة نت بصفحة المعرفة- وجهات نظر بتاريخ ١ مارس ٢٠٠٨.

http://www.aljazeera.net/NR/exeres/1999C052-EA0D-4DD2-B80D-EA61CD465037.html

***

٢٨- اليهود والبكتيريا

جريدة الاتحاد الإماراتية 29-03-2008

ثمة جانب في الفكر الصهيوني لم يلق عليه الضوء بما فيه الكفاية، وهي أنه ينطلق من الإيمان بأن معاداة السامية (أي معادة اليهود واليهودية) هي إحدى ثوابت النفس البشرية، التي لا تتغير ولا تتحول مهما تغيرت الظروف والأزمة والأمكنة. وهذا أمر ليس بمستغرب. فالصهيونية ابنة عصرها، أي أوروبا في القرن التاسع عشر، وهو عصر الإمبريالية الذي أفرز الفكر العرقي العنصري والفكر النازي، والفكر الصهيوني هو إحدى الإفرازات الكريهة لهذا العصر. ولذا ليس من الغريب أن يتبنى الصهاينة كثيراً من مقولات المعادين لليهود في الغرب، وكثيراً من صورهم الإدراكية النمطية. وتزخر الكتابات الصهيونية بالحديث عن الشخصية اليهودية المريضة غير الطبيعية والهامشية وغير المنتجة التي لا تجيد إلا العمل في التجارة. بل إن ماكس نوردو، ومن بعده هتلر، طبَّق الصورة المجازية العضوية على أعضاء الجماعات اليهودية. والصورة العضوية ترى أن الظواهر الإنسانية تخضع للحتميات البيولوجية، ولذا لا سبيل لتجاوزها ولابد من قبولها باعتبارها أمراً حتمياً طبيعياً. وهذه رؤية داروينية لا تفرِّق بين الإنسان والحيوان، في إطار هذه الصورة الكريهة شبّه نواردو اليهود بالكائنات العضوية الدقيقة (أي مثل البكتيريا أو الفيروسات) التي تظل غير مؤذية على الإطلاق طالما أنها في الهواء الطلق، لكنها تُسبِّب أفظع الأمراض إذا حُرمت من الأكسجين، ثم يستطرد هذا العالم العنصري ليحذر الحكومات والشعوب من أن اليهود يمكن أن يصبحوا مصدراً لمثل هذا الخطر.

ويذهب الصهاينة، انطلاقاً من هذه الرؤية العنصرية، إلى أن معاداة اليهود ظاهرة طبيعية ورد فعل طبيعي لوجود اليهود كجسم غريب في المجتمعات المضيفة، فهي في واقع الأمر ظاهرة بيولوجية (ولنلاحظ تواتر الصورة البيولوجية العضوية التي تفترض الحتمية البيولوجية لمعاداة السامية). وقد ذكر يهودا جوردون أن تفوق اليهودي المستنير يكمن في أنه يعترف بالحقيقة، أي تقبل اتهامات المعادين لليهود. وقد نشأت صداقة عميقة بين حاييم وايزمان وريتشارد كروسمان (الزعيم العمالي البريطاني) حين اعترف هذا الأخير بأنه "معاد لليهود بالطبع" (أي بطبيعة الأشياء، وطبيعة اليهود، وطبيعة علاقتهم بالأغيار). وقد كان تعليق وايزمان على ذلك: لو قال كروسمان غير ذلك فإنه يكون إما كاذباً على نفسه أو كاذباً على الآخرين. وقد وصف المفكر الصهيوني جيكوب كلاتزكين العداء لليهود بأنه دفاع مشروع [طبيعي وحتمي] عن الذات. وقد عبَّر اسحق شامير، رئيس وزراء إسرائيل الأسبق، عن

معاداة البولنديين لليهود، فأشار إلى أنهم يرضعونها مع لبن أمهاتهم. ويعادل شامير بذلك بين الفعل الأخلاقي والفعل الغريزي البيولوجي. فقد وصف وايزمان معاداة اليهود بأنها مثل البكتيريا التي قد تكون ساكنة أحياناً، ولكنها حينما تسنح لها الفرصة فإنها تعود إليها الحياة. وهكذا لا يميِّز الصهاينة بين الأشكال المختلفة لمعادة اليهود وإنما يرونها كلاًّ عضوياً واحداً يتكرر في كل زمان ومكان، كما يرون عدم جدوى الحرب ضد هذه الظاهرة باعتبارها أحد الثوابت وإحدى الحتميات.

وقد طرحت الصهيونية رؤية للتاريخ تَصدُر عن تَصوُّر أن اليهود في حالة نفي قسرية فعلية منذ هَدْم الهيكل، وأنهم شخصيات مريضة منقسمة على نفسها موزعة الولاء طالما أنها تعيش خارج وطنها القومي، أي فلسطين المحتلة، وأنهم لو تُركوا وشأنهم لعادوا إلى فلسطين بدون تَردُّد ليُشفوا من كل الأمراض. بل إن التواريخ الصهيونية ترى أن ثمة نمطاً متكرراً فيما يُسمَّى «التاريخ اليهودي»: نفي من فلسطين ثم عودة إليها، ونفي إلى مصر ثم عودة إلى فلسطين، ونفي إلى بابل ثم عودة إلى فلسطين، وأخيراً نفي إلى أرجاء العالم بأسره ثم عودة نهائية إلى إسرائيل، أي فلسطين. هذا يعني أن النهاية السعيدة للميلو دراما التاريخية هي العودة إلى أرض الميعاد.

وهنا يطرح السؤال نفسه، وماذا عن هؤلاء الذين لا يريدون "العودة" ويبقون في أوطانهم. وقد لوحظ أنه بعد إنشاء إسرائيل، لم يهرْع اليهود إلى أرض الميعاد، ولم يتم تجميع المَنْفَيين كما كان يتوقع الصهاينة، وهو ما اضطر بن جوريون إلى ابتداع مصطلح «منفيُّو الروح» ليصف اليهود الذين يحيون حياة جسدية مريحة في المَنْفَى، ولكنهم بلا شك معذبو الروح. ولكن المُلاحَظ أن منفيِّي الروح هم الأغلبية العظمى بين يهود العالم، أي أن اليهودية حتى بعد إنشاء الدولة الصهيونية لا تزال يهودية الدياسبورا. ولذلك فالجالوت، وهي كلمة عبرية تعني «المَنْفَى القسري» أصبح يُسمَّى «تيفوتسوت»، وهي كلمة عبرية أخرى تعني «المَنْفَى الاختياري »، وهذا تَنَاقُض عميق في المصطلح.

ويبدو أن الولايات المتحدة تشكل تحدياً عميقاً لفكرة المَنْفَى، إذ أنها تشكل نقطة جذب هائلة للغالبية الساحقة من يهود العالم. وقد اتجهت لها الكتلة البشرية اليهودية من شرق أوربا (يهود اليديشية) وغيرها من أنحاء العالم. ولم تتجه سوى أقلية صغيرة إلى فلسطين، لأن أبواب الولايات المتحدة كانت مُوصَدة دونها. وقد بدأ يهود الولايات المتحدة ينظرون إلى إسرائيل لا باعتبارها وطناً قومياً، وإنما باعتبارها «الوطن الأصلي» أو «مسقط الرأس»، تماماً

كما ينظر الأمريكيون من أصل أيرلندي إلى أيرلندا. ولكن هذه النظرة تفترض أن الولايات المتحدة ليست بمَنْفَى وإنما البلد التي يهاجر إليها أعضاء الجماعات اليهودية بمحض إرادتهم، بحثاً عن فرص جديدة. وإن كانت الولايات المتحدة ليست هي أرض الميعاد التي تُحقِّق أحلامهم الدينية -وهي أحلام أصابها الضمور على أية حال- فهي على الأقل «جولدن مدينا»، وهي عبارة يديشية تعني «البلد الذهبي»، وكان يستخدمها المهاجرون اليهود من شرق أوربا (يهود اليديشية) للإشارة إلى الولايات المتحدة (شوارعها من فضة، وارصفتها من ذهب!). لا تزال الولايات المتحدة هي « الجولدن مدينا» أو البلد الذهبي التي يتجه إليها يهود العالم، ومنهم الإسرائيليون، بدلاً من أرض الميعاد، وهذا ما حدا بالبعض للإشارة إليها بأنها الـ «جولدن كاف golden calf»» أي «العجل الذهبي». والجولدن مدينا هي أرض الميعاد العلمانية، التي لا تَعد أحداً بالخلاص الروحي، ولكنها تَعد الجميع بخلاص الجسد من خلال السلع والترف والراحة. ولعل تَصاعُد معدلات العلمنة بين يهود العالم هو الذي يجعلهم يتجهون بهذه الصورة إلى الولايات المتحدة. وقد أثبت المهاجرون السوفييت أن ولاءهم الحقيقي يتجه نحو صهيون العلمانية هذه، وأن دولة إسرائيل إن هي إلا مبيت مؤقت ينتظرون فيه وصول الإشارة على هيئة تأشيرة هجرة إلى الولايات المتحدة.

بل ولوحظ أن المستوطنين الإسرائيليين (بما في ذلك جيل الصابرا، أي المستوطنون الذين وُلدوا ونشأوا في فلسطين) ينجذبون إلى "صهيون العلمانية"، أي البلد الذهبية، ويتركون صهيون الدينية". ويطلق على هؤلاء المستوطنين الذين يستقرون في صهيون العلمانية بأنهم "دياسبورا إسرائيلية"، وهذا سخف ما بعده سخف. فكلمة "دياسبورا" كلمة يونانية شأنها شأن كلمة "جالوت" العبرية تتضمن معنى التهجير والقسر، فبأي معنى تطلق على هؤلاء الذين لم يُهَجَّرُوا قسراً من أرض الميعاد بل فروا منها بمحض إرادتهم بأي معنى يمكن أن نسميهم دياسبورا. ولكن هذه هي إحدى سمات المصطلح الصهيوني، فهو مصطلح زئبقي اسفنجي يشير أحياناً إلى الشيء وعكسه.

ويبلغ عدد أعضاء ما يسمى بالدياسبورا الإسرائيلية في الولايات المتحدة حوالي ٥٠٠ ألف حسب التقديرات الرسمية. ويبلغ العدد ٧٥٠ ألفاً حسب التقديرات غير الرسمية، ولكنه يبلغ مليوناً إن حسبنا أبناء المهاجرين. وقد أشارت إحدى الصحف الإسرائيلية أن عدد سكان الدولة الصهيونية عند إنشائها في عام ١٩٤٨ كان لا يتجاوز ٧٠٠ ألف، أي أقل من عدد المهاجرين منها، وهو ما يُفقدها كثيراً من الشرعية. وقد سمّي هذا "الخروج الثاني second exodus" وكلمة "الخروج" كلمة يونانية تعني الخروج من مصر (بلد العبودية) إلى فلسطين (أرض

الميعاد والحرية)، والخروج الثاني يقف على طرف النقيض من الخروج الأول، فهو خروج من أرض الميعاد، التي تنشب فيها الصراعات وحولها والتي تصلها صواريخ القسّام، إلى أرض الميعاد العلمانية، إلى منفى العبودية اللذيذة، مكيفة الهواء والحياة الآمنة المستقرة.

والله أعلم.

ملاحظة: هذه المقالة نشرت بجريدة الاتحاد الإماراتية بصفحة وجهات نظر بتاريخ ٢٩ مارس ٢٠٠٨.

http://www.alittihad.ae/authorarchive.php?AuthorID=3

***

٢٩ـ أمريكا أفضل من القدس

جريدة الاتحاد الإماراتية: ٢٠٠٨ـ٠٤ـ١٢

اختفى مصطلح "مركزية الدياسبورا" من الأدبيات التي تتناول علاقة الجماعات اليهودية بالدولة الصهيونية وحل محله مصطلح «قومية الدياسبورا» الذي يشير إلى أن الجماعات اليهودية تشكل شعباً واحداً وقومية يهودية لها مركز واحد. ولكن هذا المركز لم يكن هو فلسطين في سائر اللحظات التاريخية، وإنما كان ينتقل بانتقال القيادة الفكرية لليهود. فهو مرة في بابل، وأخري في الأندلس، وثالثة في ألمانيا أو في روسيا، ولعله الآن في الولايات المتحدة أو إسرائيل.

ويتفق مفهوم قومية الدياسبورا مع الفكر الصهيوني في عدة نقاط، من أهمها أن اليهود يكوِّنون شعباً واحداً وأن له تراثاً واحداً. ولكن قومية الدياسبورا تختلف عن الصهيونية في قبولها تعددية المركز، وفي رفض فكرة مركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا، أي الجماعات اليهودية. وقد يبدو هذا الاختلاف سطحياً، ولكنه في الواقع اختلاف جوهري إذ أن تعددية المركز تعني أن الدولة الصهيونية ليست مسألة ضرورية أو حتمية، وأن اليهود يمكنهم التعبير عن هوياتهم أينما وُجدوا. كما أنه يعني أن تراث يهود العالم تراث يستحق الحفاظ عليه، وأن الشعار الصهيوني الداعي إلى تصفية الدياسبورا ونفيها شعار معاد لليهود. ويُعتبر كلٌّ من المؤرخ الروسي اليهودي سيمون دبنوف والكاتب الروسي اليديشي حاييم جيتلوسكي من أهم دعاة قومية الدياسبورا.

وعلي مستوي البنية الفكرية الكامنة، تعني قومية الدياسبورا بالنسبة إلى هذين الداعيين قومية يهود اليديشية أو القومية اليديشية باعتبارها قومية يهودية شرق أوربية يمكن التعبير عنها من خلال إطار الدولة متعددة القوميات (علي نمط الإمبراطورية الروسية والدولة السوفيتية والإمبراطورية النمساوية المجرية). وبالفعل، نجد أن قومية الدياسبورا أصبحت، علي مستوي الممارسة، هي حق يهود اليديشية في التعبير عن هويتهم الثقافية وفي الحفاظ علي تراثهم ولغتهم داخل إطار الدولة متعددة القوميات. ولذا، فإن مصطلح «قومية الدياسبورا» ليس دقيقاً البتة، وقد يكون من الأدق الإشارة إلى «القومية اليديشية الشرق أوربية» أو «القومية اليهودية الشرق أوربية»، وعلي كلٍّ فقد تهاوي هذا المفهوم بتزايد معدلات الاندماج بين يهود الاتحاد السوفيتي ويهود الولايات المتحدة.

أما المفكر الثالث الذي ينطلق من مفهوم قومية الدياسبورا فهو "جيكوب نيوزنر، عالم ومؤرخ أمريكي يهودي تلقَّي تعليمه في كلية اللاهوت اليهودية (المحافظة)، ودرس في جامعة كولومبيا وجامعة براون. من أهم مؤلفاته كتاب تاريخ اليهود في بابل (خمسة أجزاء، ١٩٦٥-١٩٧٠) والتقاليد الحاخامية عند الفريسيين (١٩٧١)، واليهودية في عصر علماني (١٩٧٠). وله دراسات مهمة في التلمود. ويُعَدُّ من أهم علماء التلمود في العصر الحديث.

ويُعَدُّ نيوزنر من أهم المفكرين الأمريكيين اليهود الذين يدافعون عن الوجود اليهودي خارج فلسطين (فيما يُسمَّي «قومية الدياسبورا»)، ولذا فهو يرفض المفهوم الصهيوني لإسرائيل باعتبارها المركز الروحي ليهود العالم. وينطلق نيوزنر من تعريفين للشعب اليهودي أحدهما ديني وثقافي والآخر سياسي وقومي. وهو يري أن الدولة اليهودية قد يكون لها مركزية في حياة اليهود (الزمنية التاريخية)، ولكنها لا مركزية لها في حياة اليهود المتعينة كأناس "يعيشون ويعانون، يولدون ويموتون، يفكرون ويشكون، يربون أطفالهم ويقلقون عليهم، يحيون ويعملون. فما دام اليهود بشراً يعيشون في ظل ظروف إنسانية مستقلة، فلا الصهيونية ولا دولة إسرائيل يمكنها أن تكون محور حياتهم". كما أكد الحاخام نيوزنر أن الصهيونية ليس لديها ما تقوله بالنسبة لقضايا الحياة الثابتة الخالدة، لأنها (أي الصهيونية) لم تثر قط مشكلة الوجود اليهودي كما عبَّرت عنها اليهودية.

ورفض الحاخام نيوزنر الصهيونية في كتابه المعنون اليهودية الأمريكية (١٩٧٢) وهو كتاب عميق للغاية إذ يري أن الصهيونية أخذت تصبح تدريجياً بديلاً زائفاً عن الدين اليهودي، فاستولت علي الخطاب الديني اليهودي وعلي رموز اليهودية الدينية، ولذا يعتقد الكثيرون أن الصهيونية واليهودية هما شيء واحد. ونتيجة هذا، يفشل كثير من يهود أمريكا في ممارسة أي نوع من أنواع التسامي الديني والتجاوز الروحي للعالم المادي، ذلك لأنهم يركزون كل اهتمامهم علي قطعة أرض لا يعيشون فيها.... وثمة فارق شاسع بين أن يحلم المرء بأرض توجد في السماء في نهاية الزمان وأن يحلم ببلد بعيدة كل ما فيها خير، ولكن، مع هذا، بإمكان الإنسان أن يذهب إليها إن أراد"، أي أن صهيون بالنسبة ليهود أمريكا لم تَعُد حلماً دينياً وإنما أصبحت تذكرة ذهاب وعودة إلى إسرائيل لمدة أسبوعين.

ويبدو أن حدة رفض نيوزنر للفكرة الصهيونية عن مركزية إسرائيل آخذة في التزايد كما يتضح في مقاله الغاضب المنشور في الواشنطن بوست في (١٠ مارس ١٩٨٧) بعد وقوع فضيحة بولارد، فقد أكد بلا مواربة أن الوقت قد حان للقول "إن أمريكا أفضل من القدس بالنسبة لليهود، وإن كانت هناك أرض ميعاد فإن اليهود الأمريكيين يعيشون فيها ويشعرون بالسلام والأمن علي نحو لا يمكن أن يُتاح لهم في إسرائيل. فاليهود في الولايات المتحدة طائفة مقبولة

تجري مع التيار الرئيسي للحياة الأمريكية، وينتمي سبعة أعضاء في مجلس الشيوخ الأمريكي، أي ٧% من أعضاء المجلس لطائفة تشكل ٢% من مجموع السكان". لكل ذلك، دعا نيوزنر الجميع لطي المسألة وتساءل: "أين يفضل أن يعيش اليهودي؟" والسؤال خطابي استنكاري. فالمقال يقرِّر بما لا يدع مجالاً للشك أن اليهودي الأمريكي يعيش حياة يهودية كاملة في الولايات المتحدة، وأن الدولة اليهودية لا تشكل مركزاً روحياً بالنسبة له.

ورغم هذا الموقف الحاد، فإن نيوزنر يُسمِّي نفسه "صهيونياً"، بل إنه يؤيد إسرائيل تأييدا أعمى. ولا ندري بأي معني من المعاني يمكن أن يهاجم مفكر المفاهيم الصهيونية الأساسية بهذه الحدة ويستمر في تسمية نفسه صهيونياً. ولكن رؤية قومية الدياسبورا أو ما نسميه نحن «الصهيونية التوطينية»، مثلها مثل الرؤية الاندماجية، قد تم استيعابها هي الأخري داخل إطار صهيونية الدياسبورا، وهذا ما كان يعنيه الحاخام نيوزنر نفسه حينما تحدَّث عن مركزية الدولة الصهيونية في الحياة السياسية لليهود وحسب، وهامشيتها في حياتهم الروحية أو الحقيقية، فهو بذلك قد قسَّم حياة اليهود والشتات إلى قسمين: قسم سطحي «صهيوني» يعبِّر عن نفسه من خلال دفع التبرعات والضغط السياسي. والقسم الآخر، وهو الكيان اليهودي الحقيقي، ويقع خارج نطاق الرؤية الصهيونية ويشمل حياة اليهودي في معظم أبعادها. كما أن هذا التقسيم يشير بأنه يرى أن تأييد يهود الولايات المتحدة للدولة الصهيونية هو تأييد سياسي وحسب، لا يختلف عن تأييد أي مواطن أمريكي يدور في إطار سياسة الولايات المتحدة الخارجية، والتي تؤيد إسرائيل تأييداً كاملاً.

ويمكن أن نعتبر أ. ف. ستون (١٩٠٧- ١٩٨٩) الكاتب والصحفي الأمريكي اليهودي من دعاة قومية الدياسبورا وقد عمل صحفياً ومراسلاً لعدد من المجلات والصحف الأمريكية منذ عام ١٩٢٢ ودرس الفلسفة في جامعة بنسلفانيا. ويُعَدُّ ستون من المؤمنين بأن الجماعات اليهودية خارج فلسطين لها تراثها وهويتها وإسهاماتها الحضارية وبوجوب الحفاظ علي هذا الوضع وتدعيمه. وهو ينظر نظرة قاتمة إلى ما يسميه قومية ليليبوت (بلاد الأقزام في رواية مغامرات جلفر) ويعني بها إسرائيل (أو الصهيونية)، وهي قومية ضيقة الأفق إذا ما قورنت بما يسميه «قومية الشتات» بنظرتها العالمية (و«قومية الشتات» في مصطلحنا هي عبارة عن الانتماءات الثقافية والإثنية المختلفة لأعضاء الجماعات اليهودية والتي تختلف باختلاف الزمان والمكان). ويؤكد ستون أن القومية الأولي ثمرة الاهتمام الضيق بالمصلحة القَبَلية، أما الثانية فتنبع من رؤية إنسانية. وقد ألقَي ستون نظرة شاملة علي منجزات الشتات (أي أعضاء الجماعات اليهودية في العالم)، فوجد أن الفترات التي ازدهرت فيها حياة اليهود مرتبطة بحضارات ذات رؤية تعددية، سواء في الفترة الهيلينية (في الإسكندرية)، أو الفترة التي سادت فيها

الحضـارة العـربية في الأندلـس (وشمال أفريقيا)، أو في العصر الحـديث في غـرب أوربـا والولايـات المتـحدة. وهـو يـري أن ازدهـار حياة اليهود في الشتات وإسهاماتهم الحضارية ظاهرة إيجابية جـديرة بالحـفاظ عليـها وتدعيمها. ولذلك، فبدلاً من المطالبة بتصفية الوجود اليهودي في الاتحاد السوفيتي أو تهجير اليهود إلى أرض الميعاد. وبدلاً من التهييج ضد الاتحاد السوفيتي، يقترح حث الاتحاد السوفيتي علي القضاء علي معاداة اليهود وعلي مَنْح اليهود السوفييت الحقوق الخاصة بالاستقلال وحرية التعبير التي يمنحها لغيرهم من الأقليات المختلفة. ويؤكد ستون أن الصهاينة لم يتفقوا معه في المنهج لأن الصهيونية تزدهر مع الكـوارث اليهودية، فبـدون هـذه الكوارث لن تقوم لها قائمة. ثم يهاجم ستون الدولة الصهيونية لاضطهادها الفلسطينيين وإنكارها حقوقهم. ومن أهم مؤلفات ستون كتاب محاكمة سقراط.

والله أعلم.

***

٣٠- بيان إلى الأمة في الذكرى الستين للنكبة

يوم: ٢٠٠٨-٠٥-١١

في ذكرى نكبة فلسطين وتأسيس الكيان الصهيوني تعلن الشعوب العربية أن ستين عاما من الاستعمار الاستيطاني الإحلالي العنصري وارتكاب أكبر جريمة في العصر الحديث: سرقة وطن كامل وتشريد أهله، لا تعني سقوط الجريمة أو السكوت عليها لأن الجرائم ضد الإنسانية لا تسقط بالتقادم. إن ذاكرة الشعوب أقوى من كل محاولات ومؤامرات المحو والتضليل، وستظل الشعوب العربية وشعوب العالم الحر تتذكر أن فلسطين ارض عربية تم اغتصابها بقوة السلاح الغربي وتحت مظلته، ولكنها لن تبقى كذلك لأننا لن ننسى ولن نسكت.

إن الاحتفالات الصاخبة التي يقيمها الكيان الصهيوني في الذكرى الستين للنكبة والتطهير العرقي بحضور رئيس الولايات المتحدة، رأس الإمبريالية ورئيس الدولة التي تعربد جيوشها في كل أنحاء التعالم العربي والإسلامي: أفغانستان والعراق والتي تمتد أصابعها في السودان والصومال ولبنان وشريك الصهيونية وحليفها الأول، نقول إن حضوره هذا الاحتفال لن تنجح في إضفاء شرعية على الاحتلال أو إخفاء جريمته، بل إنه سيلقي المزيد من الأضواء على جرائم التصفية العرقية للشعب الفلسطيني بعد اغتصاب أرضه، وعلى جريمة الإبادة الجماعية المتمثلة في حصار قطاع غزه وقطع كل الإمدادات الإنسانية عن أهله .

ولا يمكن أن نتعرض لذكرى النكبة دون إدانة الموقف المخزي للنظم العربية التي بدأت تدير ظهرها لهذا الصراع المصيري، وتفرط في كل المبادئ والثوابت الوطنية والعربية والإنسانية، وتتواطأ في جريمة إدانة المقاومة المشروعة باعتبارها إرهابا، بل وتفتح ذراعيها لاستقبال السفاح جورج بوش، الذي جاء إلى المنطقة للاحتفال بذكرى مشئومة وتأكيد تأييده فكرة يهودية الدولة العنصرية الذي يسقط حق العودة لمئات الألوف من الفلسطينيين، وفي مواجهة هذا الخنوع المهين للنظم العربية فإننا نؤكد جميعا تضامننا مع الشعب الفلسطيني، ورفضنا القاطع لزيارة بوش لمصر، وندعو كل الشعوب العربية و شعوب العالم إلى إحياء الذكرى الستين للنكبة بالتأكيد على حقوق الشعب الفلسطيني في دولته المستقلة وعاصمتها القدس، وعلى ضرورة فك كل المستوطنات الصهيونية وتصفيتها،وعلي أن حق العودة للفلسطينيين حق لا يمكن التصرف فيه أو التنازل عنه inalienableعنه كما ندعو كل الشعوب العربية والإسلامية وكل الشرفاء في العالم وكل جمعيات الدفاع عن حقوق الإنسان أن يقاطعوا الكيان الصهيوني وأن يفضحوا السياسات الإمبريالية التي تسانده.

وليكن الخامس عشر من مايو الذي شهد إعلان قيام دولة الاغتصاب والظلم على أرض فلسطين العربية منذ ستين عاما يوم غضب وحداد وتحد في كل البلدان العربية وكل دول العالم الحر للتنديد بالسياسات الإسرائيلية والأمريكية.كما نطالب كل الأحرار في كل مكان برفع أعلام فلسطين وإحراق الإعلام الصهيونية والأمريكية تعبيرا عن رفض الاستعمار والعدوان ورفع الرايات السوداء حدادا على العدالة الإنسانية التي تذبح كل يوم على أرض فلسطين، مع تجديد العهد والإصرار على مواصلة المقاومة حتى تُستعاد الحقوق وتتحرر الأرض والشعوب.

المجد للمقاومة العربية في فلسطين والعراق ولبنان.

***

٣١- بين العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة

موقع الجزيرة نت01-02-2007

ما هي العلمانية؟ هذا السؤال قد يبدو بسيطا، و الإجابة عليه أكثر بساطة، فالعلمانية هي فصل الدين عن الدولة ، أليس كذلك؟ قد يندهش القارئ إن أخبرته أن إجابتي على هذا السؤال بالنفي و ليس بالإيجاب. و لتوضيح وجهة نظري أري أنه من الضروري أن أطرح قضية منهجية خاصة بالتعريف. إذ أرى أن هناك نوعان من التعريفات تداخلا واختلطا وأديتا إلى نوع من الفوضى الفكرية. فهناك التعريفات" الوردية" التي تعبر عن الأمل والتوقعات من ناحية، ومن ناحية أخرى هناك ما تحقق بالفعل في الواقع. وكثيراً ما يكون البون بينهما شائع، ومع هذا يستمر كثير من الباحثين في استخدام التعريفات الوردية التي وردت في المعاجم حتى بعد أن اتضح أن ما تحقق على أرض الواقع جد مختلف .

تم تعريف العلمانية في أواخر القرن التاسع عشر باعتبارها" فصل الدين عن الدولة"، وكان التصور أن عملية الفصل هذه ستؤدي لا محالة إلى الحرية والديموقراطية وحل مشكلات المجتمع، فيَحل السلام في الأرض وتنتشر المحبة والأخوة والتسامح. ولكن كلمة" دولة" كما وردت في التعريف آنف الذكر لها مضمون تاريخي وحضاري محدد، فهي تعني بالدرجة الأولى المؤسسات والإجراءات السياسية والاقتصادية المباشرة. كما أن الدولة في القرن التاسع عشر حين وُضِعَ التعريف، كانت دولة صغيرة وكياناً ضعيفاً، لا يتبعها جهاز أمني وتربوي وإعلامي ضخم (كما هو الحال الآن)، ولا يمكنها الوصول إلى المواطن في أي مكان وزمان. وكانت كثير من مجالات الحياة لا تزال خارج سيطرة الدولة، فكانت تديرها الجماعات المحلية المختلفة، منطلقة من منظوماتها الدينية والأخلاقية المختلفة. فالنظام التعليمي على سبيل المثال لم يكن بعد خاضعاً للدولة، كما أن ما أسميه "قطاع اللذة" (السينما – وكالات السياحة – أشكال الترفيه المختلفة مثل التليفزيون) لمَ يكن قد ظهر بعد . والإعلام لم يكن يتمتع بالسطوة والهيمنة التي يتمتع بهما في الوقت الحاضر .والعمليات الاقتصادية لم تكن قد وصلت إلى الضخامة والشمول التي هي عليه الآن. كل هذا يعني في واقع الأمر أن رقعة الحياة الخاصة كانت واسعة للغاية، وظلت بمنأى عن عمليات العلمنة إلى حد كبير. ويلاحظ أن تعريف العلمانية باعتبارها فصل الدين عن الدولة يلزم الصمت بخصوص حياة الإنسان الخاصة و الأسئلة الكونية الكبرى مثل الهدف من الوجود و الميلاد و الموت، و لا يتوجه لمشكلة المرجعية ومنظومة القيم التي يمكن أن يحتكم إليها أعضاء مجتمع واحد.

ولكن حدثت تطورات همشت التعريف الوردي القديم منها تعملُق الدولة وتغوُّلها وتطويرها مؤسسات "أمنية وتربوية" مختلفة ذاتَ طابع أخطبوطي يمكنها أن تصل إلى كل الأفراد وكل مجالات الحياة. ثم تغوَّل الإعلام وتعملق هو الآخر وأصبح قادرا على الوصول إلى الفرد في أي مكان وزمان، والتدخل في تعريفه لنفسه وفي تشكيل صورته لنفسه، وفي التدخل في أخص خصوصيات حياته وحياة أطفاله، وفي صياغة أحلامهم ولا وعيهم. والإعلام بالمناسبة مؤسسة غير منتخبة ولا توجد أي مؤسسة لمراقبتها ومساءلتها. والسوق هي الأخرى لم تعد سوقاً، وإنما أصبحت كيانا أخطبوطيا يسيطر على الإعلام و على كل مجالات الحياة، وهو يوجه رؤى البشر ويعيد صياغة أحلامهم وتوقعاتهم. كل هذا نجم عنه تضييق وضمور – وأحياناً اختفاء – الحياة الخاصة. في هذا الإطار، كيف يمكن أن نتحدث عن فصل الدين عن الدولة؟! أليس من الأجدر أن نتحدث عن هيمنة الدولة والسوق و الإعلام، لا على الدين و حسب بل على حياة الإنسان العامة و الخاصة.

إن ما يتشكل على أرض الواقع أبعد ما يكون عن فصل الدين عن الدولة، وإنما هو أمر أكثر شمولا من ذلك. فآليات العلمنة لم تعد الدولة وحسب وإنما آليات أخرى كثيرة لم يضعها من وضعوا تعريف العلمانية في الحسبان، من أهمها الإعلام والسوق و الدولة المركزية القوية. ومع هذا كلِّه ظل التعريف القديم قائماً، ولذا حينما نستخدم لفظ "علماني" فهو لا يشير إلى الواقع وإنما للتعريف الوردي الذي تخطاه الواقع، ويدور الحوار بشأن العلمانية في ضوء التعريف الوردي القديم وليس في ضوء معطيات الواقع الذي تحقق.

لكل هذا وجدت أنه لامناص من إعادة تعريف العلمانية انطلاقا من دراسة ما تحقق في الواقع بالفعل و ليس من التعريف المعجمي، على أن يحيط التعريف الجديد بمعظم جوانب الواقع الذي تمت علمنته. فحاولت أن أقوم بتطوير نموذج تحليلي من خلال ما أطلق عليه "التعريف من خلال دراسة مجموعة من المصطلحات المتقاربة ذات الحقل الدلالي المشترك أو المتداخل". فجمعت معظم المصطلحات التي تُستخدم في وصف أو نقد المجتمعات العلمانية الحديثة مثل التسلع و التنميط و الإغتراب و إزاحة الإنسان عن المركز، ثم جردت النموذج الكامن وراءها جميعا. فلاحظت أن معظمها يشير إلى حالة إنسانية (مثالية) تتسم بالتكامل والتركيب والكلية والحرية والمقدرة على الاختيار والتجاوز، وهي حالة يكون فيها الإنسان مستقلا عن الطبيعة/ المادة، متميزا عنها، متجاوز لقوانينها لأنه يتحرك في حيزه الإنساني الذي له قوانينه الإنسانية (الاجتماعية والحضارية) الخاصة، ومن ثم فهذه الحالة هي ما يشكل إنسانية الإنسان وجوهره. ولكن هذه المصطلحات تشير أيضا إلى أن ثمة انتقال من هذه الحالة الإنسانية الجوهرية

المتجاوزة الافتراضية إلى حالة واقعية ومتحققة في المجتمعات العلمانية الحديثة تتسم بذوبان الإنساني في المادي. من كل هذا استخلصت نموذجا يمكن تلخيص ملامحه في صياغة بسيطة جدا: العلمانية التي تحققت في الواقع تعني أن ثمة انتقال من الإنساني إلى الطبيعي/ المادي، أي من التمركز حول الإنسان إلى التمركز حول الطبيعة، أي الانتقال من تأليه الإنسان وخضوع الطبيعة إلى تأليه الطبيعة وإذعان الإنسان لها ولقوانينها ولحتمياتها، أي أن هذه العلمانية تشكل سقوطا في الفلسفة المادية.

وانطلاقا من هذا قمت بالتفريق بين ما أسميه "العلمانية الجزئية" التي يمكن أن أطلق عليها "العلمانية الأخلاقية" أو "العلمانية الإنسانية"، وهي "فصل الدين عن الدولة" من ناحية، ومن ناحية أخرى ما أسميه "العلمانية الشاملة"، وهي رؤية شاملة للكون بكل مستوياته ومجالاته، لا تفصل الدين عن الدولة وعن بعض جوانب الحياة العامة وحسب، وإنما تفصل كل القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية عن كل جوانب الحياة العامة في بادئ الأمر، ثم عن كل جوانب الحياة الخاصة في نهايته، إلى أن يتم نزع القداسة تماماً عن العالم، بحيث يتحول العالم (الإنسان والطبيعة) إلى مادة استعمالية. وهي رؤية شاملة، لأنها تشمل كلاً من الحياة العامة والخاصة، بحيث تتساوى كل الظواهر الإنسانية والطبيعية وتصبح كل الأمور مادية. إن العالم، من منظور العلمانية الشاملة (شأنها في هذا شأن الفلسفة المادية)، خاضع لقوانين مادية كامنة فيه لا تفرق بين الإنسان و غيره من الكائنات. كل هذا يعني نزع القداسة عن الطبيعة والإنسان وتحويلهما إلى مادة استعمالية، يوظفها القوي لحسابه. والعلمانية الشاملة بطبيعة الحال لا تؤمن بأية معايير أو مطلقات أو كليات، فهي لا تؤمن إلا بالنسبية المطلقة. بل إنني أذهب إلى أن ثمة ترادف بين العلمانية الشاملة والرؤية الداروينية الصراعية، ولذا أسميها العلمانية المادية أو العلمانية المنفصلة عن القيمة أو العلمانية الداروينية، إذ إنه في غياب المعايير التي تتجاوز الذات الإنسانية تظهر آلية واحدة لحسم الصراع وهي القوة، ولذا نجد أن البقاء هو للأقوى، ولعل المنظومة الداروينية الصراعية هي أقرب المنظومات اقتراباً من نموذج العلمانية الشاملة.

و العلمانية ليست ظاهرة إجتماعية أو سياسية محددة واضحة المعالم تتم من خلال آليات واضحة (مثل إشاعة الإباحية)، يمكن تحديدها بدقة وبساطة .كما أنها ليست - كما يتصور البعض- أيديولوجية أو حتى مجموعة من الأفكار التي صاغها بعض المفكرين العلمانيين الغربيين، وأن هذه الأفكار نشأت في أوروبا بسبب طبيعة المسيحية، باعتبارها عقيدة تفصل الدين عن الدولة وتعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله، وأنه للتحقق من معدلات العلمنة في

مجتمع ما، فإن على الباحث أن يتناول عمليات العلمنة الواضحة وآلياتها المباشرة ومؤشراتها الظاهرة، فإن وجدها، صُنِّف المجتمع باعتباره مجتمعاً علمانياً، وإن لم يجدها فهو، بكل بساطة، مجتمع إيماني !وانطلاقا من هذا التصور الاختزالي تصبح مهمة من يود التصدي للعلمانية هي البحث عن هذه الأفكار العلمانية والممارسات العلمانية (الواضحة) وعن القنوات التي يتم من خلالها نقلها. ومهمة من يبغى الإصلاح هي ببساطة استئصال شأفة هذه الأفكار والممارسات، عن طريق إصدار تشريعات سياسية معينة وفرض رقابة صارمة على الصور والأفكار الواردة من الخارج.

إن مَن يدرس ظاهرة العلمانية باعتبارها مجموعة من الأفكار المحددة والممارسات الواضحة، يتجاهل الكثير من جوانبها وبالتالي يفشل في رصدها. إن مصطلح «علمانية» كما هو متداول لا يشير إلا إلى هذه الجوانب الواضحة و الظاهرة التي أشرنا إليها، فهو دال قاصر عن الإحاطة بمدلوله. فالعلمانية ثمرة عمليات كثيرة متداخلة بعضها ظاهر واضح والآخر بنيوي كامن، وتشمل كل جوانب الحياة، العامة والخاصة، الظاهرة والباطنة، وقد تتم هذه العمليات من خلال الدولة المركزية، بمؤسساتها الرسمية، أو من خلال قطاع اللذة من خلال مؤسساته الخاصة، أو من خلال عشرات المؤسسات الأخرى (ومنها المؤسسات الدينية)، أو من خلال أهم المنتجات الحضارية أو أتفهها .

ولذا فدائما ما أشير إلى ما أسميه" العلمنة البنيوية الكامنة "لوصف ما أتصور أنه أهم أشكال العلمنة وأكثرها ظهوراً وشيوعاً .والتي تتسرب لنا، وتتغلغل في وجداننا، دون أي شعور من جانبنا، من خلال منتجات حضارية يومية وأفكار شائعة وتحولات اجتماعية تبدو كلها بريئة أو لا علاقة لها بالعلمانية أو الإيمانية .خذ على سبيل المثال سلعة من أكثر السلع شيوعا و أبسطها، التِّيشيرت T-Shirt الذي يرتديه أي طفل أو رجل وقد كتب عليه مثلاً «اشرب كوكا كولا». إن الرداء الذي كان يُوظَّف في الماضي لستر عورة الإنسان ولوقايته من الحر والبرد، وربما للتعبير عن الهوية، قد وُظِّف في حالة التِّيشيرت بحيث أصبح الإنسان مساحة لا خصوصية لها غير متجاوزة لعالم الحواس والطبيعة/المادة .ثم تُوظف هذه المساحة في خدمة شركة الكوكاكولا (على سبيل المثال) وهي عملية توظيف تُفقد المرء هويته وتحيّده بحيث يصبح منتجاً بائعاً (الصدر كمساحة) ومستهلكاً للكوكاكولا (هذا مع العلم بأن الكوكاكولا ليست محرمة فهي حلال)، أي أن التِّيشيرت أصبح آلية كامنة من آليات العلمنة إذا حولت الإنسان إلى مادة إستعمالية، ومع هذا لا يمكن القول بأن الكثيرين يدركون ذلك.

وما قولكم في هذه النجمة السينمائية المغمورة (أو الساطعة) التي تحدثنا عن ذكريات طفولتها وفلسفتها في الحياة وعدد المرات التي تزوجت فيها وخبراتها المتنوعة مع أزواجها، ثم تتناقل الصحف هذه الأخبار وكأنها الحكمة كل الحكمة ! وقد تحدثت إحداهن مؤخرا عما سمته "الإغراء الراقي"، مما يدل على عمقها الفكري الذي لا يمكن أن تسبر أغواره .أليس هذا أيضاً علمنة للوجدان والأحلام إذ تحوَّلت النجمة إلى مصدر للقيمة وأصبح أسلوب حياتها هو القدوة التي تُحتذى، وأصبحت أقوالها المرجعية النهائية؟ وقد يكون وصف أقوال هذه النجمة بأنها منافية للأخلاق أو للذوق العام وصفاً دقيقاً، ولكنه مع هذا لا يُبيِّن الدور الذي تلعبه النجمة وأفكارها في إعادة صياغة رؤية الإنسان لنفسه وتَصوُّره لذاته وللكون بشكل غير واع- ربما من جانبها ومن جانب المتلقي معا.

أن بعض المنتجات الحضارية التي قد تبدو بريئة تماماً و مجرد تسلية مؤقتة تؤثر في وجداننا وتُعيد صياغة رؤيتنا لأنفسنا وللعالم. إذ إن أولئك الذين يرتدون التِّيشيرت، ويشاهدون الأفلام الأمريكية (إباحية كانت أم غير إباحية)، ويسمعون أخبار وفضائح النجوم ويتلقفونها، ويشاهدون كماً هائلاً من الإعلانات التي تغويهم بمزيد من الاستهلاك، ويهرعون بسياراتهم من عملهم لمحلات الطعام الجاهز وأماكن الشراء الشاسعة يجدون أنفسهم يسلكون سلوكاً ذا توجُّه علماني شامل ويستبطنون عن غير وعي مجموعة من الأحلام والأوهام والرغبات هي في جوهرها علمانية شاملة دون أية دعاية صريحة أو واضحة. وربما كان بعضهم لا يزال يقيم الصلاة في مواقيتها ويؤدي الزكاة .

ونظراً لعدم إدراك البعض لأشكال العلمنة البنيوية الكامنة هذه، فإنه لا يرصدها. ولذا، يُخفق هذا البعض في تحديد مستويات العلمنة الحقيقية. وعلى هذا، فقد يُصنَّف بلد باعتباره إسلامياً (مثلاً) لأن دستور هذا البلد هو الشريعة الإسلامية مع أن معدلات العلمنة فيه قد تكون أعلى من بلد دستوره ليس بالضرورة إسلامياً ولكن معظم سكانه لا يزالون بمنأى عن آليات العلمنة البنيوية الكامنة التي أشرنا إليها .

و الله أعلم.

***

٣٢- تآكل المقدرة القتالية لـ''العجل الذهبي''

جريدة الاتحاد الإماراتية: ٢٠٠٨-٠٦-١٤

يستند الوجود الصهيوني إلى العنف إذ انه يهدف إلى التخلص من أصحاب الأرض وإحلال آخرين محلهم ، وهي عملية لا يمكن أن تتم بالوسائل السلمية لأسباب إنسانية معروفة. والكيان الصهيوني غُرس غرسا في فلسطين ليلعب دورا قتاليا ضد المنطقة العربية. وعلى مستوى من المستويات يمكن القول إن المشروع الصهيوني كان يهدف إلى نقل الفائض البشرى اليهودي من أوروبا إلى فلسطين وتحويله إلى "مادة قتالية" تخدم المصالح الغربية. ولكل هذا تكتسب كل الظواهر الصهيوني ابتداء من الزراعة وانتهاء بالتلفزيون بعدا عسكريا. ولذا فالقوة العسكرية الصهيونية تشكل العمود الفقري للمشروع الصهيوني، فهو يكتسب شرعيته الصهيوني وشرعية وجوده منها. وكما قال ييجال آلون، نائب رئيس الوزراء الإسرائيلي، في مؤتمر القدس لأصحاب الملايين اليهود يوم ٢٩ يونيه ١٩٦٩: "لا يتحقق الأمن الإسرائيلي عن طريق المناطق المنزوعة السلاح ولا بالبوليس الدولي ولا بضمانات الدول أو الهيئات الدولية وإنما بالأرض". ثم يُعرّف هذه الأرض بأنها القنوات (أي قناة السويس) والممرات والأنهار (أي نهر الأردن) والمرتفعات (أي الجولان). ثم يلخص الموقف كله بقوله "إن الأمن يتحقق بالاستيطان بالمسلح". وقد أحرز الاستيطان المسلح في فلسطين قدرا لا باس به من النجاح وبالتالي حصل على قدر من الشرعية أمام يهود العالم وجماهير المستوطنين والعالم الغربي.

ولكن ابتداء من حرب عام ١٩٧٣ بدأ إيمان المستوطنين الصهاينة بالعجل الذهبي – أي الجيش الإسرائيلي– في الاهتزاز ثم في التآكل. ثم جاءت عملية غزو لبنان التي انتهت بانسحاب القوات الإسرائيلية دون أن تحقق ما كانت تهدف إليه، أي "القضاء بشكل نهائي على منظمة التحرير". ولم تتوقف العمليات الفدائية البتة وكان من أهمها وتاجها عملية قبية التي بينت بشكل لا يدع مجالا للشك أن الذراع القوية لجيش الدفاع (!) ليست قادرة بالضرورة على حماية المستوطنين الصهاينة، وتوفير الأمن المطلق لهم. ثم جاءت ثورة الحجارة لتبين مدي عجز جيش الدفاع عن القيام بالعمليات الجراحية والضربات الإجهاضية التي تُسكِت الآلام مرة واحدة. وتبعتها انتفاضة الأقصى المسلحة ثم الانسحاب من جنوب لبنان، ثم أخيراً الحرب السادسة، التي فضحت جيش الدفاع الذي ادعى أنه لا يُقهر أمام نفسه وأمام المستوطنين الصهاينة، بل وأمام راعيه الإمبريالي، أي الولايات المتحدة.

ويمكن القول إن استمرار الاحتلال في الضفة الغربية وغزة ما يزيد عن أربعين عاما كان من الصعب الدفاع عنه ، باعتباره دفاعا عن النفس . ولذا شهدت القوات العسكرية الإسرائيلية لأول مرة في تاريخها ظواهر احتجاجية مختلفة ، جديدة عليها كل الجدة مثل رفض الخدمة العسكرية تماما، أو رفض الخدمة في الضفة الغربية وغزة أو زيادة نزوح أبناء الكيبوتسات، العمود الفقري للمؤسسة العسكرية واحتياطيها الحقيقي ، بل زيادة نزوح أفراد من القوات المسلحة ذاتها.

وقد أخبرني اللواء حسن البدري –رحمه الله- مؤرخ الجيش المصري، أن الجيش الذي يقوم بقمع عصيان مدني يفقد مقدرته القتالية. ثم أضاف ضاحكاً: ما يحدث هو أن الجندي ينسى كيف يستخدم بندقيته، وإن استخدمها فهو يستخدمها بالمقلوب. ولا يختلف رأي اللواء حسن البدري عن أوري ساجوري (رئيس القوات البرية) حسبما جاء في الجيروساليم بوست (ملحق ٣٠ يناير١٩٨٨) الذي قال إن استمرار الانتفاضة سيؤدي إلى تزايد فقدان جيش الدفاع للمقدرة القتالية. كما أن الانتفاضة أدت إلى توقف أو تعطيل برامج التدريب، وقد اشتكي احد الضباط الإسرائيليين من أنه لا يقوم بأداء ما دُرِّب عليه ، ولا يقوم بتدريب الجنود ليقوموا بما ينبغي عليهم القيام به (تايم ١٥ فبراير ١٩٨٨).

وأعلن رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلي (عل همشمار ٣ يناير ١٩٨٨، في مقال لآربية بالجي "جنوب أفريقيا وصلت هنا بالفعل "): أن الجيش سيبدأ برنامجا لإعادة تدريب الجنود على طرق حفظ الأمن في المناطق ، ويقول كاتب المقال إن هذا يعني تحول إسرائيل إلى جنوب أفريقيا. والاستنتاج الأخير يهمنا كثيرا، فمن وجهة نظرنا لا يوجد فارق نوعي بين الجيبين الاستيطانيين، ولكن ما يهمنا هو أن الجيش الإسرائيلي سيفقد قدرا كبيرا من مقدرته القتالية بسبب قيامه بالعمليات الأمنية، وهذا أمر معروف لدي المفكرين العسكريين. وقد عبر الأستاذ اسحق غالنور، وهو أستاذ في العلوم السياسية بالجامعة العبرية وضابط احتياطي برتبة رائد في الجيش الإسرائيلي، على ما هو متوقع بقوله: "سيخرج الجنود الإسرائيليون من الأراضي المحتلة وقد نسوا كيفية استخدام البندقية وماسورتها إلى الأمام، بعد أن تعودوا على استخدامها بشكل معكوس في الضرب [نفس ملحوظة اللواء البدري] (وول ستريت جورنال عن القبس ٢٢ ابريل ١٩٨٨). وقد لاحظ دان راكين (في مقال بعنوان الجنود يلقون الحجارة وزجاجات الكولا " معاريف ٢٥ فبراير ١٩٨٨) أنه عندما تزداد كثافة الحجارة يستخدم الجنود نفس سلاح العرب: "يقومون برشق السكان بالحجارة والزجاجات الفارغة".

وقد لخص العقيد عمانوئيل فالد حالة المادة القتالية الصهيونية بعد الانتفاضة الأولى في تقرير له عن الجيش الإسرائيلي قدمه لمكتب وزير الدفاع، ولكنه قوبل بفتور بدعوى أن المقترحات

التي يقدمها ليست عملية ن وبعد أن وقع عقدا مع مركز الأبحاث الاستراتيجية في إسرائيل لإعداد البحث أُلغِي العقد، ولكنه نشر رأيه في نهاية الأمر في كتابه لعنة الأواني المكسورة – تقرير فالد. يقول فالد: "إنه ليس أمام إسرائيل من احتمال عسكري في المستقبل إذا استمر الجيش الإسرائيلي يسير في الطريق التي يسير فيها حالياً . ويؤكد أن دولة إسرائيل تعيش في "زمن مستعار" وان مؤسستها العسكرية "تسير نحو الضياع" ، وينتقل فالد من التعميم إلى التخصيص فيقول: "أن قادة الجيش يعانون من نقص واضح وظاهر في الاهتمام والفهم والتقنية في الحرب بصفة عامة وفي الاستراتيجية بصفة خاصة ، ويسود بينهم عداء لأي مبادرة في المجال الفكري. وهم يفتقرون إلى التفكير الاستراتيجي السياسي. فهذا جيل من أنصار حكومة التكنوقراط ، الذي تحول إلى أداة طيّعة في يد المؤسسة العسكرية".

ثم يشير فالد إلى بعض الظواهر السلبية التي نشأت في السنوات الأخيرة في الجيش الإسرائيلي. مثل "نمو القيادات واتساعها على حساب القوة المقاتلة. فالذي يحظى بأفضلية كبيرة في الجيش الإسرائيلية، فعلا، هو القيادات والخدمات والإدارات المختلفة، وليس المقاتلين، وذلك على حساب السلك المقاتل، الذي انخفضت نسبته في حجم القوات.

وهذا اتجاه عام ومتوقع في كل القوات المسلحة الغربية مع تزايد معدلات العلمنة والاستهلاكية التي تتطلب توفير معدلات عالية من الراحة للمقاتل، خاصة انه عادة ما يخوض حروبا غير أخلاقية الأمر الذي يؤدي إلى تزايد قطاع الخدمات داخل القوات المسلحة. وقد اتضحت هذه الظاهرة بشكل درامي أثناء الحملة الأمريكية على لبنان والتي تزامنت مع الحملة الأمريكية على جرانادا. وكلا الحملتين كانتا صغيرتين للغاية، ومع هذا اشتكت القيادة العسكرية الأمريكية من أن مصادرها الضخمة مرهقة لان كل جندي مقاتل يحتاج لكم هائل العسكرية الأمريكية من أن مصادرها الضخمة مرهقة لان كل جندي مقاتل يحتاج لكم هائل من الخدمات المساندة وعملية تغطية رهيبة. ولعل هذا هو عقب آخيل في آلات القمع القتالية المتقدمة : أن قمتها القتالية لابد أن تساندها قاعدة ضخمة مركبة يمكن إرهاقها بسرعة نظرا لضخامتها وتركيبيتها. ويتحدث فالد" عن التكايا الكبيرة في شعبة الطاقة البشرية، وشعبة المخازن والتموين، وحتى شعبة التخطيط.

والله أعلم.

***

٣٣- تكلفة حرب العراق: رؤية أميركية

جريدة الاتحاد الإماراتية: ٢٠٠٨-٠٦-٠٧

الإدارة الأمريكية الحالية التي يهيمن عليها المحافظون الجدد لا تكف عن نشر الأكاذيب عن أسلحة الدمار الشامل التي يمتلكها العراق وعن علاقته بتنظيم القاعدة. وهي تنشر هذه الأكاذيب حتى تُدخِل الرعب في قلب الشعب الأمريكي، فيعطي تأييده للإدارة الأمريكية فتدخل في مغامرات عسكرية لا يربح منها، في الواقع، سوى المؤسسة الصناعية العسكرية. ومن أهم الأكاذيب التي تحاول الترويج لها هي تكاليف حرب العراق. ففي مقال نشر في الواشنطن بوست (١٨ نوفمبر ٢٠٠٧) تحت عنوان "ما تتكلفه الحرب في العراق؟ أكثر مما تتصور" بقلم تايلر كوين، أستاذ الاقتصاد بجامعة جورج ماسون.

يشير الكاتب إلى أن جورج بوش طرد لورانس ليندسي، المستشار الاقتصادي للبيت الأبيض عام ٢٠٠٢، بعد أن صرّح أن الحرب على العراق تقدر تكلفتها بنحو ٢٠٠ مليار دولار. في ذلك الحين كان العاملون في البيت الأبيض يسخرون من ليندسي باعتباره يثير المخاوف بغير داع. وكانت بعض التقديرات التي شاع الاستشهاد بها لتكلفة الحرب على العراق -والذي يعتمد على تحليل أصدره في أغسطس مكتب ميزانية الكونجرس غير المتحيز- كان هو واحد تريليون دولار. ونشر أحد الأعضاء الجمهوريين في اللجنة الاقتصادية المشتركة بالكونجرس تقريرا في الأسبوع الماضي يقدر فاتورة تكاليف الحرب في الفترة من ٢٠٠٢ إلى ٢٠٠٨ بنحو ١.٣ تريليون دولار.

ولكن كل هذه الأرقام لا تقترب من التكلفة الحقيقية للعراق، كما يقول البروفيسور تايلر كوين. ولندعه يتحدث بنفسه: "لابد أن يوضع السؤال في إطاره الصحيح، إذ يجب حساب ما تخسره الولايات المتحدة بدلا من التركيز على ما دُفع وحسب. ففي مجال حساب تكلفة الحرب يتم التركيز على الدولارات التي تم إنفاقها، إلا أن التكلفة الحقيقية لاختيار ما -وهو ما يطلق عليه الاقتصاديون "تكلفة الفرصة"- تتكون من البدائل الضائعة، أي من الأشياء التي كان يمكننا فعلها بدلا مما فعلناه. فمثلا، تكلفة مشاهدة فيلم سينمائي ليست هي فقط الدولارات التي تدفعها ثمنا لتذكرة السينما، ولكنها أيضا التكلفة التي يصعب تحديدها على وجه الدقة لخسارة تناول العشاء في المنزل أو حضور حفلة كوكتيل في العمل. على الرغم من أن هذه الفكرة تبدو بسيطة إلا أنها قابلة للتطبيق دائما، وهو ما يتطلب إعادة التفكير وبعده سنعرف تكاليف حرب العراق الحقيقية.

فلندع جانبا مسألة ما كان بإمكاننا تحقيقه على أرض الوطن بالطاقة والموارد التي خصصناها للعراق ولنركز فقط على الأمن القومي. وهنا سنجد أن التكلفة الحقيقية للحرب –قبل أي شيء آخر- هي أن الولايات المتحدة فقدت الكثير من قدرتها على وقف الانتشار النووي. ودعنا الآن ننظر في بعض تكاليف الفرص الضائعة التي تكبدتها الولايات المتحدة إلى الآن.

١. نحن لم نؤمّن بعد موانينا ضد الإرهاب النووي. التريليون دولار التي ربما نكون أنفقناها على الحرب كان يمكن أن تمول الميزانية السنوية لوزارة الأمن القومي أكثر من ٢٨ مرة.

٢. الخسائر البشرية للحرب رهيبة: قتل أكثر من ٣٨٠٠ جندي وأصيب أكثر من ٢٨٠٠٠ بالإضافة إلى أكثر من ١٠٠٠ مقاول خاص [أي جندي مرتزق] قتلوا وأكثر منهم أصيبوا. ومن الصعب معرفة كم من العراقيين قتلوا، تدعي بعض التقديرات أن الحرب تسببت في موت مليون عراقي أو أكثر. وحتى إذا ما كانت هذه التقديرات مبالغ فيها، فستظل الخسائر البشرية العراقية كبيرة جدا. ولكن ليست أرواح الناس هي فقط التي خسرناها، وإنما خسرنا أيضا ما كان يمكن أن يقدمه هؤلاء الناس من إسهامات لعائلاتهم وللبشرية بوجه عام.

٣. تكلفة أخرى كبيرة خفية: الكثير من المصابين يعانون من إصابات شديدة في المخ أو إصابات أخرى ولن يعودوا أبدا لحياتهم الطبيعية. وعلاوة على ذلك، ستجد واشنطون صعوبة مستقبلا في توظيف جنود عالي الكفاءة وعناصر للحرس الوطني والإبقاء عليهم.

٤. لا تنس الإحصائيات الصغيرة التي كثيرا ما تكون هي الأكثر لفتا للأنظار. تبعا لجون بايك، رئيس فريق البحث في GlobalSecurity.org، هناك ما يقدر بنحو ٢٥٠ ألف رصاصة أطلقت لكل متمرد قتل في العراق. وهذا لا يعد خسارة في الذخيرة فحسب، وإنما يعكس مدى الدمار الذي حل بالعراق و إلى أي مدى كانت بعض المعارك عشوائية. وإليك إشارة صغيرة أخرى: ارتفعت تكلفة الكفن في بغداد إلى ٥٠-٧٠ دولار بعد أن كانت مجرد ٥-١٠ دولار قبل الحرب، وفقا لما نشر في مجلة الأمة (The Nation).

٥. وقبل كل شيء فإن حكم العراق كان –إلى الآن- استثمارا غير مجدي. وفقا لإحصائيات عام ٢٠٠٦، وصلت تكاليف الحرب الأمريكية إلى ٣.٧٤٩ مليون دولار لكل عراقي – وهو ما يساوي تقريبا متوسط دخل الفرد السنوي في مصر. وهذا المبلغ المذهل لم يتح لنا قيادة العراق، ولم يقدم نموذجا ديموقراطيا مقنعا لجيرانها العرب.

الحجج المبدئية المؤدية للحرب تقدم أفضل الطرق لفهم لماذا كان الصراع كارثة ألمت بمصالح الولايات المتحدة وبالأمن العالمي. لقد قال الداعون لشن الحرب على العراق أننا –في عالم ما بعد أحداث ١١ سبتمبر- في حاجة إلى التخلص من الأنظمة المارقة خشية أن تعطي أسلحة نووية أو بيولوجية للجماعات الإرهابية ذات الصلة بالقاعدة. إلا أنه في كل مرة تحاول الولايات

المتحدة أن تفعل هذا وتفشل في إستعادة النظام، فإنا نتكبد تكلفة عالية للفرصة الضائعة –وإن كانت خفية- في المستقبل. وهذا الفشل يجعل من الصعب التخلص من نظام خطر ما في المرة القادمة أو تهديده أو الضغط عليه.

وبطبيعة الحال، فإن الحكومات الأجنبية تتعلم الدرس من فشلنا الذريع، ومن اختيارنا للهدف. فقد قامت الولايات المتحدة بغزو العراق التعس ولم تشن الحرب على كوريا الشمالية المسلحة نوويا. بالنسبة للأنظمة المارقة الحقيقية، كان سقوط بغداد دليلا لكثير من الدول على أنه من المهم الآن الحصول على سلاح نووي أكثر من أي وقت مضى – خاصة بعد أن غرقت القوة العظمى الأخيرة في مستنقع العراق. لقد انسل أعداؤها نحو الحصول على القنبلة، لقد وعت إيران –من بين دول أخرى- هذا الدرس جيدا. المفارقة الساخرة للميراث الذي تركته الحرب التي قامت لإنهاء انتشار الأسلحة النووية هو المزيد من الانتشار لهذه الأسلحة.

والنتيجة الختامية أنه كلما ازداد قلق الإدارة الأمريكية من انتشار أسلحة نهاية العالم بلا ضابط ولا رابط ، كلما ازداد التفكير في المسألة تدعو إلى المزيد من الحرب والمعارك.

ومن المفارقات أن مؤيدي السلام غالبا هم من عليهم تقليل تقديرهم العقلي لتكاليف الحرب التي تستمر لفترة طويلة: فبخوض حرب الإصلاح الفاشلة اليوم، قللت الولايات المتحدة من فرصتها في خوض حرب وقائية أخرى في المستقبل القريب. والرأي العام الأمريكي ليست لديه القابلية لخوض حرب مكلفة عديمة الجدوى كل بضعة سنوات. كما فقد الناخبون الأمريكيون بالفعل صبرهم على وتيرة إعادة إعمار العراق، وخيبة الأمل هذه ستطول. إن الولايات المتحدة احتاجت إلى ١٥ عاما أو أكثر لـ"تتعافى" من فيتنام. إن رسم صورة القوة والنفوذ الأمريكي في المستقبل يتطلب أن يشعر الشعب الأمريكي الذي نفد صبره بالرضا عن استعراض العضلات الذي تم في الماضي [والذي كلفهم الكثير مادياً ومعنوياً]، وهو أمر صعب تصوره.

حتى لو كانت أعقل الطرق أمامنا هي الالتزام بأسلحتنا ألا أن ضغوط السياسة والرأي العام تعني أنه لا يمكننا دائما أن نقدم الدعم دائما لالتزامات الجيش الأمريكي. ولأن الهرب يلحق أذى شديد بمصداقيتنا ويخلف فوضى كبيرة وراءنا، لذا يجب علينا أن نكون شديدي الحذر فيما يتعلق بالتدخل العسكري في المقام الأول. الدعوة للسلوك المؤيد للحرب غالبا ما تفترض أن الشعب لديه إرادة سياسية أكثر مما لديه بالفعل، ومن ثم فإننا نحتاج إلى ادخار هذا الإصرار للقضايا التي تكون مهمة بحق.

لقد ذهب لورانس ليندسي، ولكن سينتهي به الأمر مطرودا؟

والله أعلم.

***

٣٤ـ ثمن الاحتلال

جريدة الاتحاد الإماراتية: ٢٠٠٨-٠٦-٢٨

بالتزامن مع ذكرى مرور ٦٠ عاماً على قيام الدولة الصهيونية، وذكرى مرور ٤١ عاماً على حرب عام ١٩٦٧، صدر تقرير بعنوان "ثمن الاحتلال.. عبء النزاع الإسرائيلي الفلسطيني: صورة ومعطيات شاملة، ٢٠٠٨"، عن "مركز المعلومات عن المساواة والعدالة الاجتماعية" (أدفا)، وهو أحد المراكز البحثية المرموقة في إسرائيل. ويرصد التقرير، الذي أشرف على وضعه عالم الاجتماع الإسرائيلي شلومو سبيرسكي، جوانب مختلفة من الآثار التي تعانيها الدولة الصهيونية من جراء استمرار احتلال الأراضي العربية منذ عام ١٩٦٧، ويقدم في سياق هذا الرصد صورة قاتمة تتناقض تماماً مع الأجواء الاحتفالية التي صاحبت الذكرى الستين ومع المقولات التي تُجتر عادةً في مثل هذه المناسبات عن "الانتصارات والإنجازات" التي حققتها الدولة الصهيونية بالرغم من التحديات الهائلة التي تواجهها داخلياً وخارجياً.

ويبين التقرير، من خلال بيانات وإحصائيات موثقة، أن التجمع الاستيطاني الإسرائيلي دفع وما زال يدفع "ثمناً باهظاً" للاحتلال المستمر، وهو ما ينعكس بشكل جلي على جميع مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والعسكرية والسياسية. فعلى المستوى الاقتصادي والاجتماعي، مثلاً، يرى التقرير أن استمرار الاحتلال يستلزم تخصيص الجانب الأعظم من الموارد للأغراض العسكرية والأمنية، مما يؤثر سلباً على التنمية الاقتصادية وبرامج الرعاية الاجتماعية، ويؤدي بالتالي إلى تفاقم الفجوات الاجتماعية بين السكان وتزايد حدة الأزمات المعيشية لدى الشرائح الدنيا. ويشير التقرير إلى أن عائلة واحدة من بين كل خمس عائلات إسرائيلية تعيش حالياً تحت خطر الفقر، بينما كانت النسبة في عام ١٩٧٠ هي عائلة واحدة من بين كل ١٠ عائلات.

ولا تقتصر الآثار الاقتصادية، التي يرصدها التقرير، على تلك الفجوات فيما بين فئات السكان والقطاعات المختلفة داخل الكيان الصهيوني بل تمتد لتخلق فجوةً بين الدولة الصهيونية ودول أخرى في المحيط الإقليمي والعالمي. ففي الفترة من عام ١٩٩٧ إلى عام ٢٠٠٦، بلغت نسبة النمو الاقتصادي في الدولة الصهيونية حوالي ٤٣ بالمئة، وهي نسبة متدنية إذا ما قُورنت بمعدلات النمو في بلدان أخرى في أوروبا وآسيا، حيث بلغت النسبة في بلدان الاتحاد الأوروبي حوالي ٦٨ بالمائة، وفي الهند ١٣٩ بالمائة، بينما وصلت في دول الخليج إلى ١٧٤ بالمائة وفي الصين إلى ١٩٣ بالمائة.

ويسلط التقرير الضوء على الآثار التي خلفتها الانتفاضة الفلسطينية الأولى (١٩٨٧) والانتفاضة الثانية (٢٠٠٠) على اقتصاد الدولة الصهيونية، موضحاً المشاكل التي عانت منها القطاعات الاجتماعية والتعليمية والصحية من جراء تزايد الأعباء العسكرية والأمنية. ففي غضون الفترة من عام ١٩٨٧ إلى عام ٢٠٠٨، تزايدت المبالغ المخصصة لإحكام السيطرة على الأراضي الفلسطينية المحتلة في الضفة الغربية وقطاع غزة ومواجهة المقاومة الفلسطينية المتصاعدة، حتى وصلت إلى ٣٥ مليار شيكل (أي ما يعادل حوالي ١٠ مليارات دولار)، كما بلغت الميزانية المخصصة لتنفيذ خطة "فك الارتباط" عن قطاع غزة في عام ٢٠٠٥ نحو تسعة مليارات شيكل، بالإضافة إلى نحو ١٣ مليار شيكل لبناء الجدار العازل. وكان من الطبيعي أن تؤدي زيادة المخصصات العسكرية والأمنية إلى تقليص الميزانية المخصصة لقطاعات أخرى حيوية. فخلال الفترة من عام ٢٠٠١ إلى عام ٢٠٠٥، تقلصت الميزانية المخصصة لرعاية الأطفال بنسبة ٤٥ بالمئة، وميزانية رعاية المسنين بنسبة ٢٥ بالمئة، وميزانية التعليم العالي بنسبة ١٩ بالمئة، كما خُفضت الميزانية المخصصة لمواجهة البطالة ورعاية العاطلين عن العمل بنسبة ٤٧ بالمئة. ويرى التقرير أن هذا الخلل المتمثل في زيادة المتطلبات الأمنية على حساب المتطلبات الاجتماعية أدى باقتصاد الدولة الصهيونية إلى الوقوع تحت وطأة "ركود ثقيل" من المتوقع أن يستمر لسنوات أخرى قادمة.

ويكتسب هذا القسم من التقرير أهمية قصوى على وجه الخصوص بالنظر إلى الأصوات التي تتعالى من حين لآخر في الدوائر الرسمية ووسائل الإعلام العربية، مشككةً في جدوى المقاومة وداعيةً الشعب الفلسطيني إلى الانضمام إلى قوى "الاعتدال" و"التعقل"، وهو ما يعني في نهاية المطاف القبول بالأمر الواقع والرضوخ لهيمنة الاحتلال الصهيوني والتخلي عن الحقوق المشروعة في الحرية والسيادة.

وينتقل التقرير إلى استعراض جانب آخر من آثار الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية منذ عام ١٩٦٧، ويتمثل في الأضرار التي لحقت بالجيش الإسرائيلي وبمكانته وبثقة الرأي العام فيه. ويرى التقرير أن المهمة الرئيسية لهذا الجيش أصبحت تنحصر في إحكام السيطرة على الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة، بما ينطوي عليه ذلك من استخدام أبشع أساليب التنكيل والقمع والتدمير والقتل، وهو الأمر الذي أدى إلى زعزعة مكانة الجيش باعتباره كياناً يُفترض أن يحظى بإجماع عام يتجاوز الاعتبارات السياسية والتباينات الفكرية. ويرصد التقرير تنامي الحركات الرافضة لممارسات الجيش الإسرائيلي، من قبيل الاعتراض على الخدمة العسكرية في الضفة الغربية وقطاع غزة، وحركة "نساء في السواد" المناهضة للاحتلال، وحركة "السلام الآن" وغيرها.

ويخلص التقرير إلى أن "النزاع مع الفلسطينيين أشبه بحجر الرحى على عنق إسرائيل... فهو يقوّض نموها الاقتصادي، ويثقل كاهل ميزانيتها، ويحد من تطورها الاجتماعي، ويشوّش رؤيتها، ويضر بمكانتها الدولية، ويستنزف جيشها، ويفتت ساحتها السياسية، ويهدد مستقبل وجودها كدولة قومية يهودية، بالإضافة إلى أن يؤدي إلى مقتل وإصابة آلاف الفلسطينيين. ومن ثم، فإن إسرائيل تدفع ثمناً باهظاً من جراء استمرار النزاع والتلكؤ في تطبيق حل يستند إلى تسوية عادلة ومتفق عليها".

وتعيد هذه النتيجة إلى الأذهان ما رواه القائد العسكري الفرنسي بوفر، الذي قاد العدوان الثلاثي على مصر في عام ١٩٥٦، من أنه ذهب يهنئ إسحاق رابين بانتصاره العسكري في يونيو ١٩٦٧، وذلك بعد بضعة أيام من انتهاء المعارك، وكانت القوات الإسرائيلية لا تزال في طريق العودة إلى قواعدها، ولكن القائد الفرنسي دُهش حين وجد رابين يبادره بالسؤال وهو في قمة انتصاره: "ولكن، ماذا سيتبقى من كل هذا؟"

لم تنجح الدولة الصهيونية، إذن، في ترسيخ وجودها في المنطقة وفي إخضاع الشعب الفلسطيني والشعوب العربية لمشيئتها رغم ما حققته من توسع بقوة السلاح وما قدمته بعض الأطراف العربية من تنازلات في سياق الركض وراء أوهام التسوية. وإذا كانت هذه هي النتيجة التي يسوقها باحثون إسرائيليون بعد ستين عاماً من قيام الدولة، فالأجدر بالعرب المعجبين بالنموذج الإسرائيلي أو الداعين إلى قبوله وعدم التصدي له أن يعيدوا النظر في صحة مقولاتهم، إن لم يكن بدافع من الاعتبارات الوطنية ومصالح الشعوب العربية فعلى الأقل بدافع الخجل في مواجهة الحقائق الساطعة التي لا ينكرها الصهاينة أنفسهم.

والله أعلم.

***

٣٥- جنود نازيون يهود؟

موقع الجزيرة نت: ٢٠٠٧-١-٠١-٠١

من الحيل الأساسية فى الخطاب التحليلى الغربى أنه ينزع الظاهرة من سياقها الحضارى والإنسانى فتتحول الظاهرة إلى مجرد حادثة أو معلومة يفرض عليها العالم الغربى ما يشاء من معانى. فحين يتعامل مع ظاهرة مثل الفساد فى حكومات العالم الثالث، خاصة فى أفريقيا والعالم العربى، فإنه يفصلها عن عناصر أخرى مثل دعم حكومات العالم الغربى لمعظم هذه الحكومات، وعن الرشا الذى يقدمه العالم الغربى وشركاته لأعضاء النخب الحاكمة فى العالم الثالث. ومن ثم يتحول الفساد من كونه ظاهرة اجتماعية سياسية ساهم الغرب فى صنعها إلى حد كبير، إلى أمر لصيق بالعالم الثالث الذى لم تصله بعد قيم الديموقراطية الغربية!

ونفس الشىء ينطبق على ما يسمى "الإرهاب الإسلامى"، إذ يتم فصل هذه الظاهرة عن التدخل الغربى فى المنطقة وعربدة الجيوش الأمريكية فى العراق وأفغانستان ودعمها لبعض الحكومات العربية الفاسدة، وعن الاحتلال الصهيونى وبطشه اليومى المستمر بالشعب الفلسطينى. وبالتالى تظهر بعض العمليات التخريبية (مثل تلك التى حدثت فى أسبانيا وانجلترا) وكأنها نتاج عقل بشرى شرير، وكأن الإرهاب أمر لصيق بالإسلام ذاته. ثم يسحب هذا التعميم على المقاومة الشرعية ككل سواء كانت فى فلسطين أم العراق أم أفغانستان مما يسبغ شرعية على التدخل الاستعمارى الأمريكى فى الشئون العربية وعلى تحالفها مع النظم العربية الفاسدة، بحجة التصدى للإرهاب!

وهذا أيضا ما فعله العالم الغربى مع ظاهرة الإبادة النازية ليهود اوروبا والتى يطلق عليها "الهولوكوست". فقد نزعها تماما من سياقها الحضارى الغربى وقام بأيقنتها، أى جعلها مثل الأيقونة، التى يظن العابد أن الإله قد حل فيها، وبالتالى لا يمكن للمؤمن بها أن يشكك فيها أو أن يتساءل عن معناها أو دلالتها، فالأيقونة لا تشير إلى شىء خارج عنها، فهى مرجعية ذاتها ولا تشير إلا إلى ذاتها. ولذا بدلا من أن ينظر العالم الغربى إلى الإبادة النازية لليهود باعتبارها جزءا من نمط أوسع، وهو قيام الحضارة الغربية بإبادة الملايين (إبادة السكان الأصليين فى أمريكا الشمالية واستراليا ونيوزلنده – ملايين الأفارقة الذين تم إبادتهم إبان عملية استرقاق الملايين – إبادة سكان الكونغو الأصليين على يد الاستعمار البلجيكى – إبادة مليون فى الجزائر على يد الاستعمار الفرنسى)، أصبحت الإبادة النازية فعلاً إجرامياً قامت به ألمانيا النازية ضد اليهود، واليهود وحدهم. وبالتالى تتحول المسألة إلى لونين: أبيض وأسود، النازيون

الجزارون واليهود الضحية. وتحاط الإبادة بالقداسة، وكأنها الحق المطلق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذى لا يمكن مقارنته بأى ظاهرة أخرى، وكأن الإبادة ليس كمثلها شىء. ومن هنا ظهرت قوانين تجرم من يشكك فى الإبادة (فى الوقت الذى لا توجد قوانين مماثلة تجرم من يشكك فى وجود الله أو حتى القيم الأخلاقية الثابتة المطلقة). وأعتقد أنه من الواجب تحدى هذه الرؤية الاختزالية عن طريق وضع الإبادة فى إطارها الحضارى والسياسى الغربى فننزع القداسة عنها ونبين أنها ظاهرة إنسانية تاريخية لا تختلف عن ظواهر مماثلة، وأنه لا يمكن رؤية الإبادة من خلال لونين اثنين. ومن أهم الاستراتيجيات فى هذا المجال هو توضيح مدى تعاون الصهاينة مع النازيين، وهو تعاون تم على جميع المستويات الشخصية والمؤسسية، و السرية والعلنية.

وقد نشرت جريدة الديلي تليجراف البريطانية في عددها الصادر فى ديسمبر ١٩٩٦ مقالا بعنوان " كشف السر الخاص بجنود هتلر اليهود!" وعبارة "جنود هتلر اليهود" تهدم الخطاب الغربي من أساسه، إذ تبين مدي التداخل بين النازيين من جهة، و الصهاينة واليهود من جهة أخري، وأن مسألة الأبيض و الأسود هذه ليست لها أي أساس من الصحة. والمعلومات المذهلة الواردة فى المقال ليست من قبيل الإثارة الصحفية، وإنما هي ثمرة بحث قام به طالب تاريخ في جامعة أكسفورد يسمي برايان ريجز.

يبين المقال أن القانون الألماني، إبان الحكم النازي، اي منذ عام ١٩٣٥ كان يرفض منح الجنسية لذوي الأصول المختلطة واليهود، هذا هو الأبيض والأسود الذي يروجه الخطاب التحليلي الصهيوني والغربي. ولكن الواقع يتحدي هذه الصيغ الإختزالية، إذ يشير المقال إلى أن اليهود وأنصاف اليهود الذين انخرطوا فى الجيش تم السماح لهم بالاستمرار فى الخدمة على ألا يصلوا إلى رتبة ضابط. ولكن حتى هذا لم يتم الالتزام به، فمكتب شئون العاملين في الجيش الألماني كان علي دراية بوجود ٧٧ ضابطا من الرتب العالية من أصول يهودية مختلطة أو متزوجين من يهود ويخدمون في الجيش النازي (الفيرماخت). كما بيّن التقرير أن الآلاف من اليهود من ذوي الأصل المختلط (أي أنصاف يهود) خدموا فى الجيش النازي. وتوضح الدراسات التى قام بها ريجز حالات متنوعة. كان بعضها من اليهود المتدينين، والبعض الآخر ممن لا يعتبرون أنفسهم من اليهود بصرف النظر عن نظرة القوانين لهم. وكان البعض يخفى نسبه الأصلى والبعض الآخر لم يستطع أن يفعل ذلك. ويوضح البحث مدى فظاعة الرفض النازى أثناء الحرب لمن ينتمون إلى أعراق مختلطة. وقد اكتشف ريجز أنه بينما كانت الجنود اليهود يؤدون الخدمة العسكرية، كان ذويهم من اليهود يقتلون فى معسكرات الاعتقال. وكان ما يقرب من ٢٣٠٠ يهودى أقارب من الدرجة الأولى لمجموعة تقرب من ١٠٠٠ جندى ممن

التقى بهم ريجز من ضحايا الهولوكوست. وقد تمكن ريجز من توثيق ١٢٠٠ حالة و استطاع أن يجمع ما يقرب من ٣٠ألف وثيقة عن أصول يهودية لـ ٢ من المارشالات الميدانيين و ١٠ جنرالات و ١٤ كولونيل و ٣٠ ميجور.

وتكشف الوثائق عن حالات كثيرة بعضها فى غاية الغرابة، مثل حالة أحد كبار الضباط النازيين اليهود الذي قام بزيارة والده في إحدي معسكرت الإعتقال وهو يرتدي زيه الرسمي وأوسمة المعارك. التي خاضها، والصليب الحديدى الذى تسلمه تكريما لإدائه فى إحدى المعارك وقد يبدو الأمر بالنسبة لنا غريبا، ولكن يبدو أن هذا الأمر كان مألوفا في ألمانيا النازية. إذ تشير الوثائق إلى معرفة القيادة الألمانية معرفة كاملة بأصول الضباط النازيين اليهود، كما هو الحال مع المارشال الميداني إرهارد ميلش الذي ولد عام ١٨٩٢ لأب يهودى وكان صديقا شخصيا لهيرمان جورنج، قائد القوات الجوية الألمانية و أحد المرشحين لخلافة هتلر. كان ميلش رئيس شركة لوفتهانزا التي قام بتطويرها، ورئيس جهاز وزارة الطيران، وحسب التعريف النازى كان يعد نصف يهودي. ولكن هتلر وجورنج قررا أن يتجاوزا هذا العائق العرقى بأن "قررا" أن خال والدة المارشال المذكور هو في واقع الأمر والده الحقيقي (وكأن الجماع بالمحارم ليس جريمة، وأن انتماء المارشال اليهودي هو الجريمة الحقيقية) وبالتالي فهو من ذوي الدم الألماني الطاهر. وقد ظل المارشال النازى نصف اليهودي في منصبه، وظل علي ولائه للنظام النازي إلى أن حوكم بعد انتهاء الحرب فى محاكمات نورمبرج، بإعتباره مجرم حرب، وسجن لمدة عشر سنوات، من عام ١٩٤٥-١٩٥٥، ومات عام ١٩٧٢.

والبحث ملئ بحالات أخرى:

* إدجار جاكوبسن الذى طلب إخفاء اسمه الحقيقى لأنه حسب التعريف النازى يعد يهوديا خالصا رغم انه لا يمارس العبادة اليهودية، ورغم أنه تزوج من فتاة غير يهودية ولاتزال حية حتى اليوم. عمل إدجار مخرج أفلام ثم فى المكتب الإعلامى (النازى) فى باريس فى ١٩٤١ وحصل على الصليب الحديدى من الطبقة الأولى. وفى عام ١٩٤١ حاولت أخته التى كانت ترتدى نجمة يهودية حضور مؤتمر نازى، إلا انها منعت من الدخول، وقد احتجت بالقول أن أخاها ميجور فى الجيش النازى. وقبض على إدجار وحوكم أمام محكمة عسكرية لتزييف هويته ثم أرسل إلى إحدى معسكرات الاعتقال.

* هلموت ويلبرج مهندس مفهوم "البليتزكريج" (Blitzkrieg) العدوانى النازى، والذى إستخدم الطائرات فى الحرب العالمية الأولى لتدعيم المدفعية الألمانية. والدته كانت يهودية، إلا أن وثيقة فى ملفه بتاريخ ٣٠ أبريل ١٩٤٠ تقول أن ويلبرج قام ببحث مضنى، ثم اكتشف أنه ليس يهوديا، و قد توفى عام ١٩٤١ حين تحطمت طائرته.

* كول والتر هولاندير التحق بجيش جمهورية فيمر Weimar Republic عام ١٩٢٢. وكانت أمه يهودية، وكان ملفه فى مكتب شئون أفراد الجيش يشير إلى أن مركز قيادة الضباط فى برلين قد بعث برسالة عام ١٩٣٤ تقول أنه "ليس آريا". ولكنه من حسن حظه، كان قد حارب ضد الشيوعيين فى عامى ١٩٢٣ و ١٩٢٤، ولذا أوصى مكتب شئون الأفراد أنه ينبغى أن يبقى فى الجيش لكن أصله اليهودى سبب متاعب لزملاءه فى الكلية العسكرية التى عين فيها، ولذا نقل إلى الصين. وقد منحه هتلر ميدالية الخدمة الشرفية عام ١٩٣٦ ثم فى عام ١٩٣٩. ثم منحه تصريحا بأنه آرى بعد أن اطلع على صور فوتوغرافية له وعلى ملفه وأوراقه وشهاداته. وكان أداء هولاندير فى الخدمة العسكرية أداءا متميزا، حيث منح الصليب الحديدى بعد أن قاد فرقة grenadethrower فرقة إلقاء القنابل فى بولندا. كما منح صليب الفارس فى مايو ١٩٤٣ تكريما لقيامه بتدمير ٢١ دبابة روسية فى معركة كيرسك. بيد أنه فى نهاية ذلك العام حالت أصوله اليهودية دون ترقيته إلى رتبة جنرال. ووقع هولاندير أسيرا فى قبضة القوات الروسية فى أكتوبر عام ١٩٤٤ وأمضى ١٢ سنة فى السجون الروسية.

* هيلموت فيلبرج، استخدم الطائرات فى الحرب العالمية الأولى لدعم كتائب المشاة الألمانية، وكان يتولى سرب الطائراب الألمانية التى ذهبت إلى أسبانيا عام ١٩٣٦ لدعم فرانكو، ومنح صليب الفارس. كما تولى إدارة كلية طيران وترقى فى المناصب حتى وصل إلى رتبة جنرال. وقد كانت أمه يهودية، لكن تم العثور على وثيقة داخل ملفه العسكرى يقول فيها " بعد بحث طويل عن أصولى وأجدادى، اكتشفت أننى لست يهوديا".

كما التقى ريجز أيضا برجل آخر عمره ٧٦ عاما ويعيش فى ألمانيا، وكان الرجل يهوديا لكنه سافر إلى فرنسا التى احتلتها ألمانيا آنذاك وانضم إلى فرق الإس إس تحت اسم جديد.

وكان كثير من "أنصاف اليهود" half-jews الذين اشتركوا فى الحرب يعملون لحساب منظمة تودت Organization Todot وهى المؤسسة المسؤلة عن برنامج التعمير النازى فى معسكرات الاعتقال السخرة التى كان يرسل لها اليهود المنتجين القادرين على العمل.

ولقد منحت السلطة النازية أرفع وسام عسكرى (صليب الفارس Ritterreuz or Knight's Cross the) لجنود من أب وأم يهوديين وهى تعلم ذلك. فعلى سبيل المثال طرد الرائد بورخاردت من منصبه العسكرى عام ١٩٣٤ لأنه كان "نصف يهودى"، لكنه عاد فى نفس العام بعد أن تسلم صك الدم الألمانى من هتلر، وأرسل إلى الصين كى يساعد جيش شيانج كاى شيك Chiang Kai –shek . وفى عام ١٩٤١ أصبح يقود فرقة الدبابات، وفى أغسطس من نفس العام منح صليب الفارس تكريما لأدائه فى روسيا. وبعدها تم نقله إلى وحدة روميل ووقع أسيرا فى معركة العلمين.وفى نهاية عام ١٩٤٤ عندما أصبح من أسرى الحرب، ارتمى فى

أحضان أبيه اليهودى الذى فر من ألمانيا قبل الحرب. وفى عام ١٩٤٦، عاد إلى ألمانيا لأنه كان لابد، كما تقول زوجته، أن يعود شخص ما لإعادة بناء البلاد. وفى عام ١٩٨٣، قبيل وفاته، قال لبعض الطلاب فى مسقط رأسه "لقد كان يؤمن الكثير من اليهود الألمان وأنصاف اليهود الذين اشتركوا فى الحرب العالمية الأولى، وحتى الحرب العالمية الثانية أيضا، بأن عليهم أن يكرموا ويشرفوا موطن آبائهم من خلال المشاركة فى الحرب"، أى انه ظل مؤمناً تماماً بالتزامه الوطنى لألمانيا.

إن الأمثلة السابقة التى أوردناها تبين مدى التداخل بين كثير من العناصر التى تصر التواريخ الصهيونية والغربية على فصلها. وقد بلور هذه القضية أحد اليهود الذين خدموا فى الجيش النازى إذ قال: "لو كنت ضمن القوات الألمانية وفقدت أمى فى المحرقة النازية، هل أكون بذلك أحد الضحايا أم أحد الجناة". ويتساءل ريجز لماذا لم يكتب عن هؤلاء؟ ولماذا لم أن يسردوا حكاياتهم؟ ولماذا لم يهتم أحد بالأمر؟ ويفسر ريجز تجاهل كل من الألمان واليهود، على حد سواء لهذه المجموعة من اليهود، بقوله "إن الألمان الذين شعروابالذنب يرغبون عن الحديث عنهم، أما المجتمع اليهودى فيرغب عن الاعتراف بهم، لأن ذلك يتعارض مع كل ما تعلموه عن الهولوكوست".

إن تقرير ريجز يجعل واقع الدولة النازية أكثر تركيبا، ولذا سيوسع من حدود النقاش الدائر حول الدوافع النازية فى عملية الإبادة ودور هتلر فى تنفيذ المحرقة النازية، وأعداد الذين تم حرقهم فى مقابل هؤلاء الذين تخفوا أو تم التغاضى عن هويتهم!

والله أعلم.

***

٣٦- جيش له شعب

جريدة الاتحاد الإماراتية: ٢٠٠٨-٠٣-٠١

المجتمعات الاستيطانية (سواء في أمريكا الشمالية أو في جنوب أفريقيا) مجتمعات ذات طابع عسكري بسبب رفض السكان الأصليين لها. وإسرائيل لا تشكِّل أيَّ استثناء من هذه القاعدة، فهي مجرد تحقُّق جزئي لنمط متكرر عام. وقد ظهرت منظمات ومؤسسات وميليشيات عسكرية قبل عام ١٩٤٨ دُمجت كلها في مؤسسة واحدة، هي المؤسسة العسكرية الإسرائيلية التي أصبحت العمود الفقري للتجمُّع الاستيطاني الصهيوني.

ويتميَّز المجتمع الإسرائيلي بصبغة عسكرية شاملة نظراً لأن جميع أفراده يؤدون الخدمة العسكرية الإلزامية، فمعظم أفراد الجيش من جنود الاحتياط، ولذا يصف الإسرائيليون أنفسهم بـ «الأمة المسلحة»، وكما قال أحد المعلقين: "كل الشعوب لها جيش، أما نحن فجيش له شعب".

كل هذا يجعل تعيين الحدود بين المؤسسة العسكرية الإسرائيلية والحياة المدنية أمر بالغ الصعوبة، ويجعل من الصعب التمييز بين المدنيين والعسكريين، ويصبح في حكم المستحيل العثور على حدود فاصلة بين النخبة السياسية والنخبة العسكرية، إذ يتبادل أفراد النخبتين الأدوار ويقيمون التحالفات في الأحزاب والهستدروت والكنيست وغيرها من المنظمات.

وتُشكِّل وزارة الدفاع الإسرائيلية مركزاً لقوة سياسية واقتصادية واجتماعية لا مثيل لها في العالم – فيما عدا استثناءات قليلة – ، ويرجع هذا للدور التاريخي للوظيفة العسكرية التي صاحبت نشأة الكيان الاستيطاني الصهيوني، وهو ما جعل عسكرة المجتمع الإسرائيلي في جميع المجالات مسألة حتمية.

وتتاول الصحافة الإسرائيلية بين الحين والآخر هذه العلاقة الشائكة، ففي مقال بعنوان "إسرائيل دولة مدنية أم دولة عسكرية" (يديعوت أحرونوت ٣١ ديسمبر ٢٠٠٧) يؤكد يونتان يفين أن إسرائيل ليست دولة مدنية، بل دولة عسكرية ، وهذا وضع لا يستحق العيب عليه ولا الرثاء البطولي، فهو الوضع [القائم] ببساطة، من الممكن والموصي به محاولة نسيانه أحياناً عند شرب القهوة أو مشاهدة فيلم في السينما، لكن لا يحل إدمان الكبت، بحيث نسأل بعد ذلك ماذا تستطيع الدولة ان تفعل من أجلنا وبقدر أقل ما الذي نستطيع فعله من اجل الدولة".

ويقول الكاتب أوري أفنيري، عضو الكنيست السابق، في مقال له بعنوان "كلّل حديثك بالورود" (الموقع الإلكتروني ليوري أفنيري ٣ نوفمبر٢٠٠٧) إن ديفيد بن جوريون منذ تأسيس الدولة، قد رسم الخطوط التي تدار بموجبها الدولة ليومنا هذا. فحتى يومه الأخير في

الحكم كان يؤدي وظيفة رئيس الحكومة ووزير الأمن كذلك، ولم يكلف نفسه عناء إخفاء ازدراءه لوزارة الخارجية. وتماشى ذلك مع قوله المعروف: "ليس من المهم ما يقوله غير اليهود، بل المهم ما يفعله اليهود"!. وقد شاركه الجيل الأول بأكمله في ذاك الازدراء. وظهر تقسيم للأدوار، فالرجال الحقيقيون، الناطقون باللهجة المحلية، تم تجنيدهم في الجيش، وتحولوا إلى أبطال وعملوا في وزارة الأمن. أما الرجال "النواعم" أصحاب اللكنة الإنجليزية أو الألمانية فقد عملوا في وزارة الخارجية، ومن ثم تحولوا إلى سفراء أو موظفين.

ولموازنة المؤسسة العسكرية بمؤسسة مدنية تساويها في القوة، حتى يتسنى للتجمع الصهيوني أن يخرج من ورطة العسكرة الدائمة، يقترح أفنيري فكرة إنشاء "رئاسة أركان بيضاء" لشنّ حملات للسلام في مقابل رئاسة الأركان الكاكيّة، التي تشن الحملات الحربية. ف " كما أن رئاسة الأركان الكاكية من وظيفتها تخطيط برامج مستقبلية، لأي احتمال حربي، يجب أن تخطط رئاسة الأركان البيضاء برامج مستقبلية لأي احتمال سلمي. يجب أن تشمل رئاسة الأركان هذه، خبراء في الشؤون العربية، دبلوماسيين، علماء نفس، علماء اقتصاد، رجال استخبارات وما شابه".

وهو ما أكده عكيفا الدار المراسل السياسي لصحيفة (هآرتس ٨ يناير٢٠٠٧) في مقال بعنوان "المشكلة لا تكمن في بيرتس وحده وإنما في المرض المزمن المتمثل بسيطرة المستوي العسكري والأمني علي السياسي مهما بلغت قوته". فبعد أشهر طويلة كان فيها أمن الدولة مهدوراً بيد رئيس حكومة تاجر (أولمرت) ووزير دفاع مبتدئ (بيريتس)، سيجلس في مقر وزارة الدفاع في تل ابيب قائد عسكري متفوق وصاحب خبرة في المعارك (باراك).

ورغم تفاؤل الكاتب بمجيء إيهود باراك لمنصب وزير الدفاع إلا أنه حذر من "أن الماضي غير البعيد يشير الي أن الخلاص لن يأتي من استبدال عمير بيرتس بجنرال أو بأدميرال، طالما بقيت العلاقات غير السليمة التي كانت سائدة بين المستوي السياسي وقيادة الجيش". "فأولمرت وبيرتس سقطا ضحية لنفس المرض المزمن الذي عاني منه رئيس الوزراء ووزير الدفاع باراك، شأنه في هذا شأن أغلبية من سبقوه، ومن أتوا بعده. التجربة العسكرية لم تُحصن حتي بطل اسرائيل آرييل شارون ووزير الدفاع في حكومته العميد المتقاعد بنيامين بن اليعيزر من متلازمة الذيل العسكري الذي يضرب مؤخرة الكلب السياسي". واختتم الكاتب مقاله بقول معبر " كلنا ندفع ثمن فقدان السيطرة علي هيئة الأركان".

ورغم عسكرة المجتمع الإسرائيلي على المستويين السياسي والاقتصادي إلا أن مكانة المؤسسة العسكرية قد اهتزت كثيراً في الآونة الأخيرة بعد هزيمتها على يد حزب الله في لبنان، وهذا ما أكده تقرير فينوجراد. إلا أن تراجع مكانة المؤسسة العسكرية حدث قبل ذلك بكثير.

فرغم أن هذه المؤسسة تدّعي أنها تشكّل وحدة متماسكة إلا أن العنصر الإشكنازي هو العنصر المهيمن فيها، هيمنته على الدولة الصهيونية ككل. فالسفارد واليهود الشرقيون وضعهم متردٍ، رغم تصعيد أنفار قليلة منهم للمناصب القيادية . وهي مسألة تطرح إشكالية هوية الدولة والمجتم الاستيطاني بقوة عبّر عنها مؤخراً الكاتب يونتان يفين في المقال الذي أشرنا له سابقاً. يشرح يفين حالة الانقسام التي تعتري المجتمع الإسرائيلي فيقول: "لسنا جيدين في أمور كثيرة (علي رغم انه يخيل الينا أننا الافضل)، لكن لا يوجد منافسون لنا بين أمم العالم في شيء واحد، وهو الانقسام. فنحن منقسمون إلى يمينيين ويساريين، وعلمانيين ومتدينين، وإلى يهود غربيين ويهود شرقيين، ومهاجرين جدد ومهاجرين قدامى، وعرب ويهو،د ومواطنين وغير مواطنين. وفي الطبقات الرمادية، الخفية عن العين، يوجد انقسام آخر، خفي منسي ولكنه جوهري ومحسوس: انقسام بين الإسرائيليين الذين يعيشون سيناريو التهديد الوجودي من جهة ومن جهة أخرى، أولئك الذين يعيشون سيناريو الزبون صادق دائما، بين الأمنيين [الذين يرون أنه يمكن حل كل المشاكل حلاً أمنياً عسكرياً] والمدنيين [الذين يودون أن يحيوا حياة عادية طبيعية]. فالأولون مشغولون بالتهديد الايراني، والآخِرون يشكون من ميزانية الثقافة والتربية، والقتل في الشوارع وما أشبه".

"فمع مرور الوقت تزيد الصعاب، ويزداد التهديد الامني وتهديد النظام الداخلي، ويتعمق الشقاق بين المعسكرات. يريد المدني التمكين من العيش في هذه البلاد. ويقول الأمني: لنتنفس أولاً، ثم نفحص بعد ذلك هل يمكن أن نعيش أيضا".

والله أعلم.

ملاحظة: هذه المقالة نشرت بجريدة الاتحاد الإماراتية بصفحة وجهات نظر بتاريخ ١ مارس ٢٠٠٨

http://www.alittihad.ae/authorarchive.php?AuthorID=3 .

***

٣٧- جيـش نصف الشعـب

جريدة الاتحاد الإماراتية: ٢٠٠٨-٢-٢٠١٦

تشهد إسرائيل نقاشا حامي الوطيس يتعلق بظاهرة التهرب من الخدمة العسكرية ، والتي تصاعدت معدلاتها بين الشباب الإسرائيلي بمعدل غير مسبوق. وقد تراوحت الآراء حول هذه الظاهرة بين منتقد ينعي تفكك الهوية الجماعية ونهاية روح الريادة التي عرف بها المستوطنون الأوائل، وبين من يعتبرها حيلة ومناورة جديدة من المؤسسة العسكرية تحاول بواسطته زيادة المخصصات العسكرية من الميزانية العامة . فرئيس هيئة الأركان العامة الجنرال غابي أشكنازي في خطاب ألقاه في يوم ٢٠٠٧/٧/٣١ (المشهد الإسرائيلي ٢٠٠٧/٨/١٥) في مقرّ سلاح الجو في هرتسليا، شجب ظاهرة التهرّب من الخدمة في الجيش الإسرائيلي ، ووصفها بأنها "تنهش المجتمع والجيش في إسرائيل". وأضاف أن " المتهربين فقدوا الشعور بالخجل، ومهمتنا جميعًا الآن هي أن نعيد الخجل إلى سحنات المتهربين، وأن نعيد شعور الاعتزاز إلى الجنود في الخدمة". أما وزير الدفاع إيهود باراك فقد تحدث في ندوة خاصة عقدت في ٢٠٠٧/٧/٣٠ في جامعة تل أبيب بدعوة من معهد دراسات الأمن القومي (المشهد الإسرائيلي ٢٠٠٧/٨/١٥)، بيّن فيها أن الجيش الإسرائيلي يتحوّل من "جيش الشعب" إلى "جيش نصف الشعب فقط".

وانتقل هذا النقاش إلى الصحف الإسرائيلية ، فالكاتب يوسف تومي لبي في مقال بعنوان "ماذا بشأن آلاف الشابات اللواتي يصرحن بأنهن متدينات كي لا يخدمن في الجيش؟" (معاريف ٢٠٠٧/١٢/١٢) يعلق على قطاعات الشباب التي تتهرب من الخدمة العسكرية.فهم معفيون من الحكومة :

١- آلاف من الشباب الأصوليين الذين يُعفون من الخدمة في الجيش الاسرائيلي ، ويصف هذا الوضع بأنه " فضيحة بحد ذاتها، ولكنها قانونية، طالما هم يتعلمون في المدرسة الدينية. الجمهور العلماني لا يعلم علي الاطلاق أن القانون يستوجب تجنيد الشبان الأصوليين الذين لا يتعلمون. يوجد عدد لا حصر له من الشباب الأصولي الذين يتلقون الاعفاء من الخدمة العسكرية، مسجلين في المدارس الدينية، ولكن بدلا من التعلم يرتزقون في الخفاء. وليس فقط الجمهور الأصولي وحده الذي يعرف ذلك، بل إن الجيش الإسرائيلى هو الآخر يعرف ذلك تمام المعرفة.

٢- ثمة آلاف من المواطنين الذين يتظاهرون بأنهم مرضي كي لا يخرجوا إلى الخدمة الاحتياط. فهل أُرسل احد ذات مرة كي يفحص حرارة من لا يتم تجنيده لأنه مريض؟ أي نوع من الفيروس ينتشر مع أوامر التجنيد للاحتياط؟"

٣- هناك آلاف من الشابات يزعمن الانتساب لمدارس دينية تهرباً من الخدمة العسكرية ، رغم أن الكثيرات منهن يتشمسنَ بلباس السباحة ذي القطعتين علي شاطئ البحر ويشاركن في حفلات الكيف. ولكن لا يوجد لهن أي كيف للتجند. والجيش يرقص علي نغمات عزفهن.

ويضيف الكاتب أنه صار " من الأمور الشهيرة أن العديد من الجنود يكذبون علي ضباط الأمن كي يتسرحوا من الخدمة في الجيش الاسرائيلي. و في دوائر معينة يتباهى المتملصون من الخدمة بأنهم خدعوا الجيش. فلتهدأ نفوسهم. فهم لم يخدعوا أحداً، والجيش الإسرائيلى علي علم بأنهم يتظاهرون، ولكن ينقص الجيش الاسرائيلي قوة الرجولة كي يعالج أمرهم. من يحتاج الي ضابط الأمن هو الجيش".

ويشير الكاتب شلومي برزيل في مقال بعنوان " تهرب الفنانين في إسرائيل من الخدمة العسكرية ظاهرة طبيعية في دولة ديموقراطية" (هآرتس ٢٠٠٧/٨/٢٠) إلى أن ظاهرة تهرب الفنانين من الخدمة العسكرية يجب أن تُقلق المجتمع. ولكن ليس من الواضح لماذا عُرّفت جماعة صغيرة من الفنانين علي إنها وباء يجب اقتلاعه أولا". مع أن الدولة

كما تثار مسألة قانون الخدمة الوطنية كبديل للخدمة العسكرية ، وفي هذا الشأن يرى موشيه آرنس ، وزير الدفاع السابق في مقال بعنوان "تطبيق قانون الخدمة الوطنية المقترح سيؤدي لفقدان جيش الشعب وإضفاء الشرعية علي التهرب منه" (هآرتس ٢٠٠٧/٨/٢٩) أن "الخدمة الوطنية ليست مخصصة لمن لا يستطيعون الخدمة في الجيش بسبب الاعاقة، وانما هي مُتاحة فقط لمن لا يريدون الخدمة في الجيش". وأن " الحكومة التي تواصل هذا الخط ستحول الخدمة الالزامية الي مهزلة، وتحول من يخدمون في الجيش الي مُغفلين . هناك في المجتمع مطلب بالمساواة بين مواطني الدولة في الحقوق والفرص. ولكن عندما يتعلق الامر بالمساواة في واجبات المواطن تجاه الدولة - يتغير كل شيء. علي سبيل المثال، في قضية الخدمة العسكرية نجد أن كل الشبان الدروز ملزمون بالخدمة، بينما هناك إعفاء للشبان المسلمين اذا كانوا من الشركس، كما أن كل الشبان اليهود ملزمون بالخدمة باستثناء الاصوليين. وكل الشبان المسيحيين معفيون من الخدمة. هذا الخليط العجيب من الالزام والواجبات والاعفاءات لن يكون مقبولا في أية دولة ديمقراطية. ليست هناك مساواة في هذه الحالة"، و"عما قريب سنسير باتجاه جيش المتطوعين الذي سيكون بداية النهاية للجيش

الاسرائيلي كجيش للشعب. هذه ستكون ضربة ليس فقط لقدرات اسرائيل العسكرية وانما فقط لقيمها الوطنية العليا".

وأخيراً رأت الوزيرة السابقة شولاميت ألوني ("ميرتس") في تصريح لها على (موقع "واينت" الإلكتروني، ٢٠٠٧/٨/٧) أن هذه الحملة تنطوي على مظاهر فاشية، فـ" المقصودون من ورائها هم رافضو الخدمة العسكرية لأسباب ضميرية، أو الأشخاص الذين ليس في وسعهم تأديتها لأسباب صحية أو نفسانية، منوهةً بأن الكنيست أقرّ قبل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع "إعفاء خمسين ألف شاب من الحريديم (اليهود المتدينين المتشددين) من الخدمة العسكرية لمدة خمسة أعوام". كما أقرّ إعفاءهم من دفع القسط الدراسي ومنحهم مخصصات ضمان الدخل. وشجبت ألوني طرد المغني أفيف غيفن من الإذاعة العسكرية لأنه لم يخدم في الجيش والحملة التي يجري شنّها ضد بعض نجوم الفنّ والرياضة على هذه الخلفية".

وأضافت أن "تبجّح إيهود باراك واستعلاءه قد تسببا بالكثير من الأضرار في السابق، وعلى ما يبدو فسيلحقان المزيد من الأضرار في المستقبل". وأوضحت أن "التساوق الشعبي مع تصريحات باراك في هذا الشأن هي التي ينبغي أن تثير القلق، إذا ما كنا راغبين بعد في أن نكون مجتمعًا ديمقراطيًا يحترم حقوق الإنسان وحريته، والمقصود كل إنسان حتى لو لم يكن جنديًا بطلاً أو طالبًا في مدرسة دينية أو عضوًا في منظمة غوش إيمونيم (الاستيطانية المتطرفة) أو قناصًا محترفًا في وحدة عسكرية مختارة".

والله أعلم.

ملاحظة: هذه المقالة نشرت بجريدة الاتحاد الإماراتية بصفحة وجهات نظر بتاريخ ١٦ فبراير ٢٠٠٨.

http://www.alittihad.ae/authorarchive.php?AuthorID=3

***

٣٨- دير ياسين ونموذج التطهير العرقي

جريدة الاتحاد الإماراتية: ٢٠٠٨-٠٥-٣١

مذبحة دير ياسين وغيرها من أعمال الإرهاب والتنكيل، إحدى الوسائل التي انتهجتها المنظمات الصهيونية المسلحة من أجل السيطرة على الأوضاع في فلسطين وتطهيرها عرقياً تمهيداً لإقامة الدولة اليهودية الخالصة حسب الخطة داليت.

تقع قرية دير ياسين على بُعد بضعة كيلو مترات من القدس على تل يربط بينها وبين تل أبيب. وكانت القدس آنذاك تتعرض لضربات متلاحقة، وكان العرب، بزعامة البطل الفلسطيني عبد القادر الحسيني، يحرزون الانتصارات في مواقعهم. لذلك كان اليهود في حاجة إلى انتصار حسب قول أحد ضباطها "من أجل كسر الروح المعنوية لدى العرب، ورفع الروح المعنوية لدى اليهود"، فكانت دير ياسين فريسة سهلة لقوات الإرجون. كما أن المنظمات العسكرية الصهيونية كانت في حاجة إلى مطار يخدم سكان القدس. كما أن الهجوم وعمليات الذبح والإعلان عن المذبحة هي جزء من نمط صهيوني عام يهدف إلى تفريغ فلسطين من سكانها عن طريق الإبادة والطرد. كان يقطن القرية العربية الصغيرة ٤٠٠ شخص، يتعاملون تجارياً مع المستوطنات المجاورة، ولا يملكون إلا أسلحة قديمة يرجع تاريخها إلى الحرب العالمية الأولى.

في فجر ٩ أبريل عام ١٩٤٨ دخلت قوات الإرجون من شرق القرية وجنوبها، ودخلت قوات شتيرن من الشمال ليحاصروا القرية من كل جانب ما عدا الطريق الغربي، حتى يفاجئوا السكان وهم نائمون. وقد قوبل الهجوم بالمقاومة في بادئ الأمر، وهو ما أدَّى إلى مصرع ٤ وجرح ٤٠ من المهاجمين الصهاينة. وكما يقول الكاتب الفرنسي باتريك ميرسييون: "إن المهاجمين لم يخوضوا مثل تلك المعارك من قبل، فقد كان من الأيسر لهم إلقاء القنابل في وسط الأسواق المزدحمة عن مهاجمة قرية تدافع عن نفسها.. لذلك لم يستطيعوا التقدم أمام هذا القتال العنيف".

ولمواجهة صمود أهل القرية، استعان المهاجمون بدعم من قوات البالماخ (الاشتراكية اليسارية!) في أحد المعسكرات بالقرب من القدس، حيث قامت من جانبها بقصف القرية بمدافع الهاون لتسهيل مهمة المهاجمين. ومع حلول الظهيرة أصبحت القرية خالية تماماً من أية مقاومة، فقررت قوات الإرجون وشتيرن (والحديث لميرسييون) "استخدام الأسلوب الوحيد الذي يعرفونه جيداً، وهو الديناميت. وهكذا استولوا على القرية عن طريق تفجيرها بيتاً بيتاً.

وبعد أن انتهت المتفجرات لديهم قاموا "بتنظيف" المكان من آخر عناصر المقاومة عن طريق القنابل والمدافع الرشاشة، حيث كانوا يطلقون النيران على كل ما يتحرك داخل المنزل من رجال، ونساء، وأطفال، وشيوخ". وأوقفوا العشرات من أهل القرية إلى الحوائط وأطلقوا النار عليهم. واستمرت أعمال القتل على مدى يومين. وقامت القوات الصهيونية بعمليات تشويه سادية (تعذيب ـ اعتداء ـ بتر أعضاء ـ ذبح الحوامل والمراهنة على نوع الأجنة)، وأُلقي بـ ٥٣ من الأطفال الأحياء وراء سور المدينة القديمة، واقتيد ٢٥ من الرجال الأحياء في حافلات ليطوفوا بهم داخل القدس طواف النصر على غرار الجيوش الرومانية القديمة، ثم تم إعدامهم رمياً بالرصاص. وألقيت الجثث في بئر القرية وأُغلق بابه بإحكام لإخفاء معالم الجريمة. وكما يقول ميرسييون: "وخلال دقائق، وفي مواجهة مقاومة غير مسبوقة، تحوَّل رجال وفتيات الإرجون وشتيرن، إلى "جزارين"، يقتلون بقسوة وبرودة ونظام مثلما كان جنود قوات النازية يفعلون". ومنعت المنظمات العسكرية الصهيونية مبعوث الصليب الأحمر جاك دي رينييه من دخول القرية لأكثر من يوم. بينما قام أفراد الهاجاناه الذين احتلوا القرية بجمع جثث أخرى في عناية وفجروها لتضليل مندوبي الهيئات الدولية وللإيحاء بأن الضحايا لقوا حتفهم خلال صدامات مسلحة (عثر مبعوث الصليب الأحمر على الجثث التي أُلقيت في البئر فيما بعد).

وقد تباينت ردود أفعال المنظمات الصهيونية المختلفة بعد المذبحة، فقد أرسل مناحم بيجين برقية تهنئة إلى رعنان قائد الإرجون المحلي قال فيها: "تهنئتي لكم لهذا الانتصار العظيم، وقل لجنودك إنهم صنعوا التاريخ في إسرائيل". وفي كتابه المعنون الثورة كتب بيجين يقول: "إن مذبحة دير ياسين أسهمت مع غيرها من المجازر الأخرى في تفريغ البلاد من ٦٥٠ ألف عربي". وأضاف قائلاً: "لولا دير ياسين لما قامت إسرائيل". وقد حاولت بعض القيادات الصهيونية التنصل من مسئوليتها عن وقوع المذبحة. فوصفها ديفيد شالتيل، قائد قوات الهاجاناه في القدس آنذاك، بأنها "إهانة للسلام العبري". وهاجمها حاييم وايزمان ووصفها بأنها عمل إرهابي لا يليق بالصهاينة. كما ندَّدت الوكالة اليهودية بالمذبحة. وقد قامت الدعاية الصهيونية على أساس أن مذبحة دير ياسين مجرد استثناء، وليست القاعدة، وأن هذه المذبحة تمت دون أي تدخُّل من جانب القيادات الصهيونية بل ضد رغبتها. إلا أن السنوات التالية كشفت النقاب عن أدلة دامغة تثبت أن جميع التنظيمات الصهيونية كانت ضالعة في ارتكاب تلك المذبحة وغيرها، سواء بالاشتراك الفعلي في التنفيذ أو بالتواطؤ أو بتقديم الدعم السياسي والمعنوي.

وقد ذكر مناحم بيجين في كتابه الثورة أن الاستيلاء على دير ياسين كان جزءاً من خطة أكبر وأن العملية تمت بكامل علْم الهاجاناه "وبموافقة قائدها" (بن جوريون)، وأن الاستيلاء

على دير ياسين والتمسك بها يُعَد إحدى مراحل المخطط العام رغم الغضب العلني الذي عبَّر عنه المسئولون في الوكالة اليهودية والمتحدثون الصهاينة.

وقد ذكرت موسوعة الصهيونية وإسرائيل (التي حررها العالم الإسرائيلي روفائيل باتاي) أن لجنة العمل الصهيونية (اللجنة التنفيذية الصهيونية) وافقت في مارس من عام ١٩٤٨ على "ترتيبات مؤقتة، يتأكد بمقتضاها الوجود المستقل للإرجون، ولكنها جعلت كل خطط الإرجون خاضعة للموافقة المسبقة من جانب قيادة الهاجاناه".

وقد أقر الصهيوني العمالي مائير بعيل في السبعينيات بأن مذبحة دير ياسين كانت جزءاً من مخطط عام (الخطة داليت)، اتفقت عليه جميع التنظيمات الصهيونية في مارس ١٩٤٨، وكان يهدف إلى طَرْد الفلسطينيين من المدن والقرى العربية قبيل انسحاب القوات البريطانية، عن طريق التدمير والقتل وإشاعة جو من الرعب والهلع بين السكان الفلسطينين وهو ما يدفعهم إلى الفرار من ديارهم. ولهذا لا غرو أنه بعد ثلاثة أيام من المذبحة، تم تسليم قرية دير ياسين للهاجاناه لاستخدامها مطاراً.

وأياً ما كان الأمر، فالثابت أن مذبحة دير ياسين والمذابح الأخرى المماثلة لم تكن مجرد حوادث فردية أو استثنائية طائشة، بل كانت جزءاً أصيلاً من نمط ثابت ومتواتر ومتصل، يعكس الرؤية الصهيونية للواقع والتاريخ والآخر، حيث يصبح العنف بأشكاله المختلفة وسيلة لإعادة صياغة الشخصية اليهودية وتنقيتها من السمات الطفيلية والهامشية التي ترسخت لديها نتيجة القيام بدور الجماعة الوظيفية. كما أنه أداة تفريغ فلسطين من سكانها وإحلال المستوطنين الصهاينة محلهم وتثبيت دعائم الدولة اليهودية الخالصة وفَرْض واقع جديد في فلسطين يستبعد العناصر الأخرى غير اليهودية المكوِّنة لهويتها وتاريخها. ولذا من الخلل بمكان أن نتحدث عن النكبة وكأن ما حدث في دير ياسين كان مجرد "حوادث" وقعت بسبب الحرب بين طرفين. يجب أن نسمي الأشياء بأسمائها، وما حدث لم يكن نكبة بل كان تطهيراً عرقياً تم حسب خطة منظمة مبيتة.

والله أعلم.

***

٣٩- 11سبتمبر الأخرى!

جريدة الاتحاد الإماراتية 22-03-2008

إن تقسيم العمل بين النخبة الحاكمة والشعب الأمريكي أدت إلى أن الإنسان الأمريكي أصبح يهتم بشؤونه المباشرة ولا يكترث كثيراً بالسياسة الخارجية لبلده، والتي تنزفها بشرياً ومالياً. من ناحية ثانية ينبغي ألا ننسى أن الإنسان في الإطار العلماني المادي يصبح إنسانا اقتصاديا وجسمانيا، أي إنسانا يؤمن بالقضايا المباشرة التي تخصه بشكل مباشر، أما "الإطار الجامع" و "الكلي" لهذه القضايا كالسياسة الخارجية التي تؤثر في الشعب الأمريكي بدرجة كبيرة، وإن كان بشكل غير مباشر، فهو لا يفهمها ولا يكترث بها! وظاهرة عدم الاهتمام بالسياسة الخارجية وعدم إدراك تضميناتها ظاهرة حديثة وعالمية ولكنها توجد بشكل أقل في بلد مثل إنجلترا وفرنسا، إلى أن نصل إلى بلد مثل روسيا حيث نجد أن الناس هناك عندهم درجة أعلى من الوعي السياسي. ومع هذا أجري استطلاع للرأي في إنجلترا فظهر أن غالبية من شملهم الاستطلاع يظنون أن الإسرائيليين هم أصحاب الأرض وأن الفلسطينيين يحاولون اغتصابها منهم!

ومع هذا إحقاقاً للحق، يجب أن نشير إلى أن الشعب الأمريكي عادةً ما يدرك حقائق الأمور بالتدريج، ويحاول إيقاف عربدة جيوش الأمريكية، كما حدث في حرب فيتنام، وكما يحدث الآن (عام ٢٠٠٨) في انتخابات الرئاسة الأمريكية، إذ بدأ المرشحون الديموقراطيون يتحدثون عن ضرورة التغيير والانسحاب من العراق، وذلك حتى يكسبوا الأصوات. ومع هذا يجب أن نطرح السؤال التالي: هل سينجح المرشح الديموقراطي، إن وصل إلى البيت الأبيض، في تنفيذ وعوده الانتخابية، أم أنه سيخضع لضغوط شركات السلاح الكبرى والمؤسسة العسكرية وشركات البترول؟

ويلاحظ أن هناك فارقاً بين أمريكا منذ أكثر من 30 سنة وأمريكا حاليا، ولكنها ليست فروقاً جوهرية، لأني أعتقد أن الذي يسيطر على الولايات المتحدة هي الرؤية "الاستهلاكية المادية" حيث ينظر للإنسان باعتباره مجموعة من الاحتياجات المادية أو الجسدية. حدثت بعض التغيرات في السياسة لكن في الرؤية العامة لم يحدث أي تغيير. كل ما في الأمر أن حلقات المتتالية العلمانية أخذت في التحقق. خد على سبيل المثال مسألة الشذوذ الجنسي، حينما تركت أمريكا عام 1969 كان الشذوذ موجودا، كما هو الحال في كل المجتمعات الإنسانية، لكننا كنا

نهمس حين نتحدث عنه. ثم بدأت قضية الشذاذ تتحرك من الهامش إلى أن وصلت إلى المركز. ولكن بعد ذلك مع تصاعد معدلات التوجه نحو اللذة والاستهلاك ومع اتساع رقعة النسبية الأخلاقية، بدلا من المطالبة بالتسامح مع الشذاذ تحولت القضية إلى ضرورة تطبيع الشذوذ أي المساواة الكاملة بين الإنسان العادي والإنسان الشاذ. ثم تطور الأمر وتزايدت المطالبة بأن يكون الزواج المثلي زواج شرعي، وأن يحصل أعضاء الزواج المثلي على نفس الحقوق التي يحصل عليها الأزواج العاديون، بما في ذلك حق تبني الأطفال. ولنتخيل طفلا ينشأ في أسرة مكونة من رجلين أو امرأتين، أليس هذا إجهاضا لحقه في أن تكون حياته عادية مثل حياة معظم البشر عبر التاريخ. ما أود أن أؤكده أن ما يحدث في المجتمع الأمريكي لم يحدث فجأة ولم يأت من القمر، وإنما كان كامناً في منظومة العلمانية الشاملة ومن ثم يجب ألا نتوقع أي تغير حقيقي في الوجدان السياسي للشعب الأمريكي إلا مع حدوث زلزال قوي.

وقد بدأت إدارة بوش تطرح نفسها على أنها إدارة تبغي الإصلاح وتريد نشر الديموقراطية والدفاع عن حقوق الإنسان، وفي تصوري أن مقولة "الإصلاح" في المنظور الأمريكي لا تختلف عن مقولات أخرى، مثل مقولة "حقوق الإنسان" و"المرأة" و"الديمقراطية"... ومؤخرا مقولة "معاداة السامية"، كلها مقولات استعملتها الولايات المتحدة كـ"آليات" للهيمنة على العالم، وعلى العالم العربي بشكل خاص! فـ"ليبيا"، على سبيل المثال، كانت إلى حد قريب تصنف على أنها جزء من "محور الشر" في العالم. ولكن حينما استسلمت لأمريكا وألقت بـ"أسلحتها" جانبا، غضت أمريكا الطرف عنها وخرص لسانها عن مطالبتها بالإصلاح، بل لم يقف الأمر عند حالة " السكوت" بل تقدمت العلاقات الليبية الأمريكية خطوات إلى الأمام في مجال التبادل الدبلوماسي والتجاري بينهما، وفي مجالات أخرى.

المسألة في رأيي ليست إصلاحا حقيقيا، إنما هي محاولة للهيمنة عن طريق مقولة "الإصلاح"، تماما مثل الطريقة الانتقائية التي كانت الولايات المتحدة تتعامل بها مع مسألة "حقوق الإنسان" في العالم. حيث كان تقديم المصالح الأمريكية الاستراتيجية الثابت الأساسي في تعاطيهم لـ"حقوق الإنسان" في العالم كله، أليست- على سبيل المثال لا الحصر- الإدارة الأمريكية هي التي أسقطت مصدق الديمقراطي الليبرالي وناصرت الشاه ممثل الاستبداد الشرقي، كما يقولون ومن الذي قتل سلفادور الليندي في تشيلي في ١١ سبتمبر ١٩٧٤. هم يتحدثون دائما عن ١١/ ٩/ ٢٠٠٠ ولا يذكرون قط ١١/ ٩ الأخرى أو الأولى التي اعتلى بها الدكتاتور والجزار بينوشيه سدة الحكم بمساعدة الولايات المتحدة، وظل معتليا عرش الإرهاب والذبح أكثر من عشر سنوات. ولننظر ماذا يفعلون الآن في العراق في أبو غريب والحديثة

وغيرها من الأماكن التي تم اكتشافها والإعلان عنها. هل كانت كل هذه الحوادث الإجرامية يمكن أن تتم دون نور أخضر من القيادة السياسية الأمريكية الداعية للإصلاح الديموقراطي والمدافعة عن حقوق الإنسان؟

لا يوجد التزام أمريكي مبدئي وأخلاقي بالمقولات الديموقراطية أو الأخلاقية، فكل شيء يوظف في خدمة المصالح الأمريكية حتى لو كان فيها مس بكرامة الإنسان وانتهاك لحقوق الشعوب الأخرى! ولتنظري إلى جوانتنامو وأبو غريب، والأهم من هذا انظري إلى تاريخ الولايات المتحدة الإمبريالي.

وتاريخ الاستعمار يبيّن بجلاء وقوفه في مواجهة أي محاولة لتحديث وتطوير البلاد التي يستعمرها، وقد ظهر ذلك بشكل واضح وجلي في الجيب الاستيطاني في الجزائر، إذ إنه ظهر بعد أن رحل المستعمر الفرنسي أنه لم يكن في الجزائر إلا بضعة أطباء ومهندسين.

أثناء حرب الخليج الأولى كانت الولايات المتحدة تردد دوما بأنها ستضرب العراق إلى أن تعود به إلى حالة ما قبل الثورة الصناعية، وهناك الكثير من الأمثلة التاريخية التي تدل على أن سلوك الولايات المتحدة ليس استثناءً للقاعدة، وإنما جزء من نمط غربي عام. ولنتذكر ماذا فعل التحالف الغربي ضد محمد علي الذي كان يحاول تحديث مصر والدولة العثمانية. ومن أهم الأمثلة الأخرى وقوف القوات البريطانية ضد أحمد عرابي الذي كان يمثل الرؤية الديموقراطية الحديثة ووقفوا إلى جانب الخديوي ممثل الرؤية الشمولية. لكن يبدو أن الغرب في الوقت الحاضر وجد أن عملية التحديث والديمقراطية "المحكومة" قد تؤدي إلى بروز نخب حاكمة مرنة يمكن التفاهم معها، ويمكن أن تحول الشعب العربي إلى شعب ينسى كل القيم مثل الكرامة والعزة والقومية بحيث يطبق عليه السقف المادي ويصبح ذي توجهات اقتصادية وجسدية ومادية تجعله أكثر استعدادا للتعاون مع إسرائيل، وعندها تصبح القضية متعلقة بالأسواق وليست قضية قومية أو قضية أمن عربي. وقد يكون في تصور القوى الغربية في سعيها للهيمنة أن الديمقراطية من شأنها أن تخلق حالة من الفوضى تسمح بتقسيم العالم العربي كما يحدث في العراق. وهي الآن وبعد فوز حماس في انتخابات المجلس التشريعي في حالة إعادة النظر لرسم سياسات جديدة لتحقيق نفس الأهداف الاستراتيجية بعيداً عن المفهوم المتعارف عليه للديموقراطية المتمثل في الأغلبية وفي أن لكل إنسان صوت. فالديموقراطية في المفهوم الغربي تعطي الحقوق السياسية لمن يخدم المصالح والرؤية الأمريكية والغربية ولا يقاوم الهيمنة الأمريكية والغربية.

والله أعلم.

ملاحظة: هذه المقالة نشرت بجريدة الاتحاد الإماراتية بصفحة وجهات نظر بتاريخ ٢٢ مارس ٢٠٠٨.

http://www.alittihad.ae/authorarchive.php?AuthorID=3

***

٤٠- عن الحداثة إلى ما بعد الحداثة.... عصر النهايات!!

لا يمكن كتابة تاريخ بدون نموذج (في الواقع لا يمكن كتابة أي شيء، سوي قائمة المشتريات من البقال، بدون نموذج). فلو نظر الدارس إلى وقائع التاريخ بشكل موضوعي مادي متلقي كوقائع مستقلة الواحدة عن الأخري، لرأي أحداثًا متناثرة لا معني لها علي الإطلاق ولأمكنه أن يفرض عليها أي معني يشاء. فلننظر علي سبيل المثال إلى معلومة تاريخية مثل إن إنجلترا إبان الثورة الصناعية قد زادت إنتاجها بمعدلات «غير مسبوقة في تاريخ البشرية» رغم فقر إنجلترا من ناحية الموارد الطبيعية. يمكن أن نستنتج من هذه «المعلومة التاريخية» أن الشعب الإنجليزي شعب موهوب، وأنه قادر علي زيادة إنتاجيته من خلال التكنولوجيا وإدارة مجتمعه بطريقة حديثة، وأنه من خلال كل هذا حقق ما يسمي بالتراكم الرأسمالي. ولكن لو وضعنا هذه المعلومة في سياق أوسع لاختلفت الصورة تمامًا. فمثلاً إذا وضعنا الثورة الصناعية في سياقها الاجتماعي ونظرنا إلى عمليات الاستغلال غير الإنسانية التي لحقت بالطبقة العاملة البريطانية والظروف القاسية التي كان يعمل فيها الأطفال والنساء الحوامل والمدن الصناعية القبيحة التي كانت تحول الإنسان إلى مجرد طاقة إنتاجية، وكمية التلوث الذي سببته الثورة الصناعية، فإن رؤيتنا ستختلف قليلاً. وإذا وضعنا الثورة الصناعية في سياقها العالمي لاختلفت الصورة تمامًا. فنحن نعرف من كتب التاريخ أن مجموع ما نهبته إنجلترا من الهند وحدها يفوق كل ما أنتجته إبان الثورة الصناعية! أي أن التراكم الذي حدث في إنجلترا لم يكن تراكمًا رأسماليا وإنما كان تراكمًا إمبرياليا. وهكذا حين وضعنا المعلومة في سياقات مختلفة، محلية ودولية، فإنها اكتسبت أبعادًا كثيرة ومعني مركبًا محددًا. والنموذج التحليلي المركب هو الآلية التي يقوم الدارس من خلالها بالربط بين المعلومة والسياقات والأبعاد المختلفة.

والنموذج المركب يساعدنا علي إدراك الفارق بين المتتالية المثالية التحديثية المُفترضة (التي يروجها دعاة التحديث) والمتتالية الفعلية المتحققة. والمتتالية المثالية العلمانية التحديثية كان من المفروض أن تؤدي حلقاتها إلى نهاية سعيدة: سيطرة الإنسان علي الطبيعة وعلي نفسه وتأكيد مركزيته المطلقة في الكون (الاستنارة المضيئة والعقلانية المادية). ولكن هذه المتتالية كانت تحوي داخلها تناقضات النظم الواحدية المادية (تأليه الإنسان وتأليه الطبيعة في الوقت نفسه الذات الإنسانية مقابل الموضوع الطبيعي المادي الكل مقابل الجزء التجاوز مقابل الإذعان والتكيف المعني والثبات مقابل الحركة التي لا معني لها). ولذا نجد أنه أثناء عملية التحقق التاريخي، عبَّرت هذه التناقضات تدريجيا عن نفسها، وأدركها الإنسان الغربي ثم حُسمت، في

نهاية الأمر وفي التحليل الأخير، لصالح العنصر الثاني في الثنائية، وبدلاً من انتصار الإنسان، تم تفكيكه ورَدُّه إلى المبدأ المادي الواحد (الاستنارة المظلمة واللاعقلانية المادية). وتم الانتقال من رؤي التحديث (البطولية) إلى واقع الحداثة (العبثي)، ثم استقر المطاف عند عالم ما بعد الحداثة (النسبي البرجماتي). أي أن المتتالية المثالية المُفترضة مختلفة تمامًا عن المتتالية الفعلية المتحققة.

وعملية التحقق تمت تدريجيا عبر ثلاث حلقات هي:

١ -التحديث: في هذه المرحلة كان الإنسان الغربي لا يزال يتحرك في إطار المتتالية المثالية المفترضة، ولذا كان يحدوه الأمل في السيطرة علي ذاته وعلي الطبيعة. ولذا فهو كان يري أن العالم له مركز محدد هو الإنسان والمادة، فهو عالم لوجو سنتريك **Logo-centric**، عالم متمركز حول اللوجوس، أي متمركز حول مطلق ما، ونحن نري أن العالم الذي له مركز هو عالم صلب. ومن الناحية التاريخية تقع حقبة التحديث منذ عصر النهضة في الغرب وما يسمي «عصر الاكتشافات» حتي الحرب العالمية الأولي، والتي يمكن أن نشير إليها بأنها مرحلة التراكم الإمبريالي.

٢ - الحداثة: في هذه المرحلة أدرك الإنسان الغربي أن عصر التحديث البطولي قد ولي وانقضي، وأن سيطرة الإنسان علي الطبيعة وعلي نفسه لم تعد ممكنة، وبالتالي بدأ العالم المتمركز حول اللوجوس يتآكل. وهذه هي مرحلة الحداثة العبثية وبداية ظهور اللاعقلانية المادية والمادية الجديدة، والتي تتسم بالاحتجاج والغضب علي إخفاق المشروع التحديثي، وتاريخيا هذه المرحلة تمتد من بعد نهاية الحرب العالمية الأولي حتي منتصف ستينيات القرن العشرين.

٣ - ما بعد الحداثة: في هذه المرحلة يرضخ الإنسان الغربي تمامًا لإدراكه إخفاق مشروع التحديث ولكنه بدلاً من أن يحتج ويتمرد فإنه يقبل بل ويرحب. وهو موقف ترجم نفسه إلى عالم لا مركز له (أو متعدد المراكز **non-logo-centric**)، أي غير متمركز حول أي مطلق. وهذا العالم يتسم بالسيولة. وفي هذه المرحلة لا تزال في بدايتها ولم تتحد ملامحها بعد. ونحن نري أنها بدأت في الستينيات.

ولابد من التنبيه علي أن المرحلة الثانية كامنة تمامًا في المرحلة الأولي، فالتقشف العاجل كان يتم باسم الاستهلاك الآجل، والقمع كان يتم باسم اللذة الموعودة في المستقبل، أي أن الانفتاح الاستهلاكي كان حتمية كامنة في كل النظم المادية مهما بلغت من تقشف، وثمة حتمية للسيولة الفردوسية بعد مرحلة الصلابة البطولية (التحديث) أو العبثية (الحداثة).

وقد تم اختيار عام ١٩٦٥ لا لأن شيئًا محددًا ملموسًا حدث فيه، وإنما لأنه في منتصف الستينيات. ولا يمكن تحديد تاريخ الظواهر الحضارية بالإشارة إلى يوم بعينه أو عام بعينه فهي تتطور بشكل يتجاوز مثل هذا التحديد الدقيق. ومع هذا يظل عام ١٩٦٥ اختيارًا مناسبًا في تصورنا، نقطة تركُّز تقع داخل مُتَصَل طويل.

ورغم إدراكنا وجود ثلاثة مراحل إلا أننا آثرنا أن نتحدث عن مرحلتين اثنتين لأن مرحلة الحداثة الاحتجاجية كانت مرحلة قصيرة للغاية ولم تكن سوي مرحلة انتقالية بين الأولي والثانية، كما أن نموذج الحداثة الاحتجاجي ظل هامشيا. لذا ألحقنا مرحلة الحداثة بمرحلة التحديث، رغم أن لها استقلالها النسبي، وفرادتها الأكيدة.

وسنحاول في هذه الدراسة أن نستخدم نموذجًا تحليليا واحدًا مركبًا، يضم الأبعاد الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفلسفية، لنبين الاستمرار والانقطاع في تاريخ الحضارة الغربية الحديثة، وأن ثمة وحدة فضفاضة وراء كل الظواهر المتنوعة، أي أنها وحدة لا تَجُبُّ التنوع، واستمرارية لا تَجُبُّ الانقطاع والتحولات النوعية. كما قمنا بتحليل الصور المجازية الأساسية وعقد مقارنة بينها لنبين دلالة كل منها وطبيعة المرحلة التي تعبر عنها هذه الصور.

***

٤١ـ غضب الفيل: إسرائيل في لبنان

موقع الجزيرة نت: ٢٠٠٦-١٠-٠١

كنت فى زيارة لجنوب أفريقيا لحضور مؤتمر عن الصراع العربى الاسرائيلى. وقد راجت إشاعة أنه مؤتمر تطبيعى، وكنت على وشك الاعتذار، ولكن تصادف أن الصديق وضاح خنفر كان بجوارى فطلبت منه أن يتحقق لى من الأمر فله كثير من الأصدقاء فى جنوب أفريقيا، فأجرى بعض الاتصالات وفى اليوم التالى أخبرنى أن الأمر أبعد ما يكون عن فكرة التطبيع والاستسلام. وبالفعل حينما حضرت المؤتمر فوجئت بأن معظم المثقفين والمسئولين فى جنوب أفريقيا يناصبون الدولة الصهيونية العداء، وأن من بينهم وزير الزراعة السابق ووزير المخابرات الحالى، رونى كاسريلز، وهو يهودى معادى للصهيونية، وعضو نشط فى جماعة Not in my name "ليس بإسمى" وهى جماعة تضم اليهود المعادين للصهيونية على مستوى العالم، وأعتقد أن مركزها فى لندن، ولها فروع عديدة فى أنحاء العالم. وعداء أعضاء النخبة الثقافية والسياسية فى جنوب أفريقيا يعود إلى تجربتهم مع نظام الفصل العنصرى الذى يشبه فى كثير من النواحى النظام العنصرى الصهيونى فى فلسطين. ومن المعروف أن التعاون الوثيق بين النظامين العنصريين فى اسرائيل وجنوب أفريقيا استمر حتى أواخر الستينيات: فقد زودت اسرائيل نظام الفصل العنصرى بمستشارين عسكريين متخصصين فى حرب العصابات ليشرفوا على الحملة العسكرية التى قام بها هذا النظام ضد قوى التحرر الوطنى بقيادة نلسون مانديلا. كما أن اسرائيل تعاونت مع جنوب أفريقيا فى المجال النووى، فكانت اسرائيل تجرى تجاربها النووية فى جنوب أفريقيا التى كانت تزود الدولة الصهيونية باليورانيوم نظير أن تحصل على المعومات اللازمة لتطوير سلاحها النووى. وقد كتب كاسريلز مقالاً بعنوان "غضب الفيل: إسرائيل فى لبنان" يتناول الحرب السادسة. وقد وجدت المقال متميزاً فقمت بترجمته إلى العربية، حتى نفهم ما حدث، وحتى نتنبه إلى أهمية جنوب أفريقيا فى حربنا ضد الدولة الصهيونية وفيما يلى نص المقال:

قال المتحدث الرسمي السابق لأريبل شارون، أثناء زيارته في جنوب إفريقيا، إن إسرائيل أصبحت مثل أفيال حديقة كروجر الوطنية (كروجر ناشونال پارك) [وهى محمية طبيعية يُمنع الصيد فيها وتسير الحيوانات خارج الأقفاص بكامل حريتها]. وتحدث رعنان جيسين بصفته ضيف الاتحاد الفيدرالي الصهيوني بالبلاد وقال: "نحن نريد أن يتركونا وحدنا. إننا نبدو لطفاء، لكننا إذا جُرحنا نثور ثورة عارمة لأننا فصيلة مهددة بالانقراض."

لقد شاهد العالم بأكمله لبنان، التي تبلغ مساحتها نصف مساحة إسرائيل، وقد عانت من غضب الأفيال: شعب لبنان وعاصمتها ومدنها وقراها والطرق والكباري ومرافق المياه والكهرباء سويت جميعها بالأرض. وكان السبب الظاهري وراء هذا الغضب هو أن حزب الله ألقى القبض على اثنين من الجنود الإسرائيليين.

قبل ذلك بأسبوعين، أُزهقت أرواح مائتي مواطن من قطاع غزة ودُمرت البنية التحتية بسبب هجوم حماس على موقع للجيش الإسرائيلي والذي أسفر عن أسر جندي إسرائيلي. لقد وصل عدد القتلى في لبنان إلى حوالي ١٢٠٠ قتيل مقابل ١٥٠ قتيل إسرائيلي منهم ١٢٠ جندي. بينما كان ثلث القتلى اللبنانيين من الأطفال. وآلاف اللبنانيين شُوهوا وفقدوا منازلهم، فقد شُرد ربع سكان لبنان. وظلت لبنان تحت الحصار.

يقول الكاتب النرويجي چوستين جاردر: "نحن لم نعد نعترف بدولة إسرائيل ولا يمكننا أن نعترف بنظام العزل العنصري. ولابد أن نسمى قتلة الأطفال 'قتلة الأطفال'. ولا نعترف بمبدأ العين الإسرائيلية بألف عين من أعين العرب."

لقد حاول العالم جاهدًا أن يفهم سبب هذا الصراع. إن الموقف الصهيوني المألوف، وفقًا لما يقوله الإسرائيليون، هو أنهم فصيلة مهددة بالانقراض. وقد بدأ اليهود في العودة إلى فلسطين منذ أواخر القرن التاسع عشر ليستعيدوا وطنهم المذكور في الكتاب المقدس. ولدى حصولهم على الأرض، لقوا مقاومة عنيفة متصاعدة من قِبل العرب. فكان على المستوطنين أن يدافعوا عن أنفسهم.

في حقيقة الأمر، كان هدف الصهيونية منذ البداية هو طرد المواطنين الأصليين حتى تصبح الدولة دولة يهودية خالصة. وعندما أدرك الفلسطينيون هذا بدأو في المقاومة. وفي عام ١٩٤٨ لدى استقلال إسرائيل، وفقًا لخطة الأمم المتحدة للتقسيم، كان نصيب اليهود من الأرض ٥٦%، بينما كان نصيب الفلسطينيين هو ٤٤%. لكن إسرائيل زادت نصيبها بعد ذلك إلى ٧٨% بعد أن حصلت على القوة والمساعدات والموارد اللازمين لهذه العملية، فطردت الفلسطينيين، ثم أصبحت إسرائيل هي القوة الإقليمية العظمى بمساندة أمريكا.

ثم تم حصر من تبقى من الفلسطينيين في ١٢% من الأرض من خلال إقامة المستوطنات اليهودية غير الشرعية وشبكة الطرق الآمنة وبناء الجدار العازل الضخم حول الضفة الغربية المحتلة. وهذا الطرد والعزل أشبه بنظام الفصل العنصرى وعزل المواطنين الأفارقة في جيوب محددة (بانتوستان) لا تزيد مساحتها عن ١٣% من جنوب أفريقيا. هذا هو السبب الرئيسي للصراع، من وجهة نظر الكثيرين.

وكانت لبنان أيضًا جزءًا من خطة الضم الصهيونية، إذ اعتبرت إسرائيل أن نهر الليطاني في شمالها هو من حدودها الطبيعية. وكانت تتطلع دائمًا إلى أن تجعل لبنان درعًا مسيحياً ضد المسلمين. فغزت لبنان عام ١٩٤٨ و١٩٧٨ و١٩٨٢ وبقيت في الجنوب حتى عام ٢٠٠٠، قبل أن يطردهم حزب الله. في خلال هذه الفترة، أثارت إسرائيل الحرب الأهلية، وارتكبت المجازر، وأقامت جيشًا عميلاً في الجنوب، وظلت متمسكة بمزارع شبعا الاستراتيجية. لا عجب أن الجنود الإسرائيليين المنسحبين كانوا يشعرون أن لبنان حكاية بلا نهاية.

ماذا وراء العدوان الإسرائيلي الأخير؟ هل من الممكن أن يكون كل هذه الاستجابة غير المتكافئة رداً على اختطاف جنديين إسرائيليين؟ كانت هناك طوال الوقت مناوشات بين الطرفين على الحدود. كان من الممكن أن يكون رد إسرائيل أبسط من ذلك بكثير أو أن توافق على تبادل الأسرى الذي اقترحه حزب الله. لكن بدلاً من ذلك اشتعلت أتون الحرب. ومما لا شك فيه أن رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت وراء اندلاع هذه الحرب، فهو يختلف عمن سبقوه بأنه لم يكن قائداً عسكرياً. ولكونه فيل جديد كان عليه أن يثبت جدارته ويلقن العرب درسًا. لكن مازال هناك ما هو أسوأ في جعبة الإسرائيليين.

وقد حذر ناشطو السلام الإسرائيليون من قبل من أن القوات العسكرية تنتظر أي استفزاز لإطلاق "مزيج من إرهاب الدولة المكثف والمجازر" ضد سكان غزة لتأمين سياسة "الفصل الأحادي" لشارون وبأي ثمن.

كذلك، اتخذت اسرائيل لنفسها موقعاً فى استراتيجية الحرب على الإرهاب التى يرفع لوءها المحافظون الجدد فى واشنطن عقب أحداث ١١ سبتمبر. وقد صرح الكثير من المعلقين بأن الهدف الرئيسي بالنسبة للولايات المتحدة هو خنق محور حزب الله وحماس وسوريا وإيران، الذى تعتقد حكومة بوش بأنه يعبىء الموارد لتغيير الأوضاع الاستراتيجية في الشرق الأوسط. وأوضح مسئول إسرائيلي رفيع أن عملية حزب الله كانت "لحظة مثالية لتلاقى المصالح" الأمريكية والإسرائيلية. وقد رحبت إسرائيل بهذا الصراع الجديد الذي يحول أعين العالم عن الصراع العربي الإسرائيلي الذي هو السبب الرئيسي للمشكلة. ويعتقد البعض أن هذا "التلاقى" أعطى حافزًا للصقور الإسرائيلية للانقضاض العنيف على لبنان. بينما يشير البعض الآخر إلى مخاطر ربط مصير الشعب الإسرائيلى بمثل هذا البرنامج.

إنه من الصعب قمع مقاومة شعب من أجل قضية عادلة. وكان من أسباب زيارة جيسين إلى جنوب إفريقيا هو أن يؤكد للصهاينة المحليين أن إسرائيل لم تخسر الحرب مع حزب الله. بل خسرت الحرب الإعلامية فقط، لكنها مازالت منتصرة على الأرض. لكن إسرائيل، في حقيقة الأمر، خسرت الحرب إعلامياً وعلى الأرض. فقد لقن حزب الله الإسرائيليين، الذين اعتقدوا أن

بامكانهم ابادته، درسًا عند وادي الليطاني. وأسقط بذلك أسطورة إسرائيل التي لا تقهر. فالاضطهاد والظلم يزيد من قوة وعزم المقاومة – في كل من لبنان وفلسطين.

ويرى الرأي العام أن إسرائيل قد خسرت الحرب لأن العالم كله شاهد جثث الأطفال العرب تخرج من تحت حطام المباني. ألم يقل الناس "ها قد تصرف اليهود الآن تمامًا مثل النازيين". كانت هذه هى نفسها كلمات أهارون سيزلانج، أول وزير زراعة إسرائيلي. فى مايو / أيار ١٩٤٨ بعد وقوع مجزرة دير ياسين صرّحَ قائلاً: "لقد هُز كياني بأكمله".

إلى متى سيسمح العالم لإسرائيل بالاستيلاء على الأراضي وقتل الأطفال وفرض كل هذا الحصار ونقط التفتيش والعقوبات الجماعية والاغتيالات المنظمة وهدم المنازل والتطهير العرقي واختطاف أعضاء البرلمان المنتخبين ووزراء الحكومة. عندما أمر دان حالوتس القائد العسكري الإسرائيلي الجديد بقصف منزل في غزة للقضاء على أحد قادة حماس، قال أنه شعر بخبطة (ارتطام) فى الطائرة لدى إلقاء القنبلة التي تزن طنًا على هذا المنزل. ولم يشعر للحظة بالندم على موت النساء والأطفال الذين تحولوا إلى أشلاء هم وقائد حماس المستهدف. وأضاف حالوتس قائلاً إنه نام نومًا هانئًا تلك الليلة.

لقد صدمنا جميعًا مثل أهارون سيزلانج. نحن نشعر بالأسى تجاه هؤلاء الذين لقوا حتفهم تحت الصواريخ الإسرائيلية. ولم نعد نلوم حزب الله أو المقاومة الفلسطينية كما نلوم قوات التحرير في جنوب إفريقيا على موت المدنيين. فنحن نلوم السياسة العنصرية التي تمارسها الحكومة الفاسدة التي عرضت مواطنيها للخطر.

وحينما قام القادة الإسرائيليون بقصف بيروت كانوا يعلمون أنه سيكون هناك انتقام، تمامًا مثلما يدبرون اغتيالات مدبرة لإثارة رد الفعل والإطاحة بمفاوضات لم يرغبوا فيها. فبالنسبة لهم، ذعر مواطنيهم وهروبهم إلى الجنوب أو اللجوء إلى مخابيء تحت الأرض هو جزء مقبول من حساباتهم. وقالت ناشطة السلام الإسرائيلية تانيا رينهارت: "إن اللبنانيين والفلسطينيين، بل والإسرائيليين، ما هم إلا قطع شطرنج بالنسبة للقوات العسكرية الإسرائيلية." وهذا لأنه عندما قُصفت حيفا كان من بين القتلى عرب إسرائيل والذين لا تبالى حكومتهم بتوفير المخابيء لهم!

ونحن، مثلما قال جوستين جاردر، يجب أن نسمى قتلة الأطفال 'قتلة الأطفال' ونعلن لهؤلاء الذين يستخدمون وسائل النازيين أنهم يتصرفون كالنازيين. فربما يستيقظ الإسرائيليون يوماً ويعودون إلى صوابهم، مثلما حدث في جنوب إفريقيا، ويفاوضون لتحقيق السلام. وفي النهاية دعونا نتعلم من الذي أيقظ ضمائر البيض في جنوب إفريقيا: اتحاد النضال العادل مع التضامن الدولي وتوظيف سلاح المقاطعة وفرض العقوبات.

هذا هو نص المقال ويمكننا أن نلاحظ ما يلى:

١- أن تشبيه المتحدثين الإسرائيليين الدولة الصهيونية بحديقة كروجر ينم عن جانب أساسى فى الوجدان الصهيونى وهو إنكار الصهاينة للتاريخ والزمان وتركيزهم على المكان، فكأن إسرائيل أسست فى جزيرة نائيه أو ربما على القمر. وهذه الصورة المجازية تجعل من يقوم بالمقاومة شخص غير عقلانى مصاب بالجنون. ومن الطريف أن حاييم وايزمان، أول رئيس للدولة الصهيونية، زار نفس الحديقة فى الأربعينات، وشبه المستوطنين الصهاينة بحيوانات هذه الحديقة، مما ينم عن شيئين: عدم إدراك للتاريخ، وغياب أى حس جمالى.

٢- يلاحظ أن كاتب المقال شبه الأفعال الصهيونية بسلوك النازيين، وأن كثيرين من قبله فعلوا ذلك، رغم أن الإعلام الغربى قد جعل من ذلك جريمة كبرى!

٣- كاتب المقال وزير يهودى، وهو شأنه شأن الكثير من اليهود الثوريين الإنسانيين يرفض الظلم أينما كان ومهما كان مصدره. وهذا يدعونا إلى ضرورة التمييز بين اليهودية والصهيونية وبين اليهود الصهاينة، حتى لا تسقط فى أى عنصرية، ولا نلقى بأصدقائنا فى أحضان أعدائنا.

٤- أخيراً، يجب أن ندرك أن هذا التأييد للحق العربى يجب ألا يكون مجرد معطى نتقبله بشكل سلبى، بل يجب أن نرعاه ونغذيه وننميه ونبنى عليه بأن نقوى علاقتنا بجنوب أفريقيا الدولة، وبالقوى المعادية للصهيونية والمؤيدة للسلام العادل الشامل فى المنطقة. فهذه العلاقة إن لم ننميها ونرعاها ذبلت، فتظهر عناصر من دعاة العولمة والتجارة الحرة وكل آليات الهيمنة الأمريكية وتقوم بتوجيه الرأى العام فى جنوب أفريقيا ثم سياسة الدولة بما لا يخدم مصالحنا ومصالح قضية العدل والسلام فى المنطقة.

والله أعلم

***

٤٢ـ فكر يهودي يهاجم اليهود واليهودية

موقع الجزيرة نت: ٢٠٠٧ـ١٠م-٠١

تحديد المصطلحات والمفاهيم الكامنة وراءها مسألة ضرورية لضبط وتنظيم العملية الفكرية. والاصطلاح فى العلم هو إتقان جماعة من المتخصصين فى مجال واحد على مدلول كلمة أو رقم أو إشارة أو مفهوم، أي أن ثمة عنصر ذاتي فى صياغة المصطلح ومن ثم فى مدلوله، (وقد سُمي علم المصطلح علم التواطؤ). ولذا لابد من الحذر فى استخدام المصطلحات. ويمكن أن نضرب مثلاً بمصطلح "فكر يهودي". هل الفكر اليهودي هو الفكر الذى له مضمون يهودي؟ أم الفكر الذى خطه قلم مفكر يهودي؟ ولكن ما القول فى فكر له مضمون يهودي، وخطة مفكر يهودي، ومعادٍ بشكل عنصري لليهود واليهودية، أي معادي للسامية؟

ولنأخذ على سبيل المثال الشاعر الألماني اليهودي الشهير هاينريش هايني (١٧٩٧-١٨٥٦). كان هايني يعبر عن عدائه لكل الأديان بما في ذلك اليهودية، فقد كان يكرهها جميعاً بعمق ولكنه كان يخص اليهودية بازدرائه. وقد كتب مرة يقول إنه يوجد أمراض ثلاثة شريرة: الفقر والألم واليهودية. بل كان يعتبر اليهودية قوة معادية للإنسانية، فهي « مصيبة وليست ديناً»، على حد قوله.

ويعبر ميخا بيرديشفسكي (١٨٦٥-١٩٢١)، الكاتب والمفكر الروسي الصهيوني، الذى كان يكتب البيديشية والعبرية، عن نفس الرؤية والعنصرية المعادية لليهود. كان بيرديشفسكي صهيوني رومانتيكي، كوني النزعة، حلولي الرؤية (أي يرى أن الخالق قد حل فى مخلوقاته وتوحد بها وتماهى معها)، وعلى الرغم من أن بيرديشفسكي وُلد في عائلة عريقة في التدين، وعلى الرغم من أنه في سن السابعة عشرة كان قد تلقَّى تعليماً تلمودياً كاملاً وألم بكل تعاليم القبَّالاه والحسيدية، إلا أنه بعد ذلك رفض كلا من العقيدة اليهودية وما يسمى "التراث اليهودي" (أي تراث يهود شرق أوروبا) كما رفض ما يسمى "الشخصية اليهودية". يعيد بيرديشفسكي تقييم اليهودية ويذهب إلى أن اليهودية القديمة لم تكن ذات نزعة سلبية سلمية (كما هو الحال مع اليهودية الحاخامية) وإنما كانت في واقع الأمر العبادة اليسرائيلية القربانية الوثنية، التي تدور حول عبادة الطبيعة والكون والأصنام ولا تلتزم بأي قيم أخلاقية، فهى ترى أن شعب إسرائيل شعب مقدس يمكنه أن يفعل ما يشاء. ويذهب بيرديشفسكي إلى أن الطبقة التوحيدية (التوراتية) دخيلة على هذه العقيدة. وفي كتابه سيناء وجيرزيم، يذهب بيرديشفسكي إلى أن الجبل المقدَّس ليس جبل سيناء، وأن مؤسس العقيدة اليسرائيلية ليس موسى (الذى

تلقى الوصايا العشر من الإله) وإنما هو يوشع بن نون الذى غزا كنعان -كما جاء فى العهد القديم- وأباد سكانها بقسوة بالغة وبلا أخلاقية منقطعة النظير. فكأن بيرديشفسكي يطالب بالعودة إلى الوثنية الحلولية القديمة كطريقة للتحرر من اليهودية الحاخامية. فالبعث القومي بعث كوني وثني حلولي، وعلى اليهود أن يرفضوا عبوديتهم الظاهرة التي حوَّلتهم إلى أمة من الرجال الذين نضبت قواهم الطبيعية واستوُعبوا في يهودية مجردة خالية من الحياة. عليهم العودة إلى يهودية جديدة: يهودية تضع اليهودي قبل اليهودية وإسرائيل قبل التوراة، وتعيش في وئام مع الطبيعة، وتتغنى بنشيد الإنشاد الذي يحتفي بالجسد وبنشيد داود الذي يتغنى بالطبيعة السامية التي لا حدود لها، الطبيعة التي هي منبع كل شيء، منبع كل ما يحيا وروحه. هذه الوثنية الجديدة ترى أن جوهر الحياة هو السيف، بل هو تجسيدها في أعرض خطوطها المادية والجوهرية إذ حل السيف محل التوراة. وهذه العودة للطبيعة هي برنامج بيرديشفسكي لإصلاح اليهود واليهودية، وعلى حد قوله فإن الشعب اليهودي الذى تحول إلى مجموعة من البشر تشبه الموتى سيصبح الشعب الحيّ.

أما جوزيف برينر (١٨٨١-١٩٢١)، وهو مؤلف روسي يهودي يكتب بالعبرية واليديشية، فقد هاجم آحاد هعام المفكر الصهيوني الذى كان يشير إلى الجماعات اليهودية باعتبارها "أمة الروح"، وكان ينادي بما يسميه "الصهيونية الثقافية أو الروحية"، التى تذهب إلى أن مهمة الصهيونية هى الحفاظ على ما يسمى الهوية اليهودية وتطويرها، أما تأسيس وطن قومي لليهود _كما تنادي الصهيونية العمالية، فيأتي فى المرتبة الثانية. ولذا فآحاد هعام لم يجد أي غضاضة فى بقاء اليهود فى "الشتات" خارج فلسطين، طالما أنهم يحافظون على هويتهم الإثنية اليهودية. هذه النقطة كانت محور الصراع بينهما. فبرينر كان يعبِّر عن وجهة النظر الصهيونية الاستيطانية العمالية بكل شراستها وتبلورها وتطرفها، ذاهباً إلى أن يهود العالم كيان لابد من تصفيته وتأسيس الدولة الصهيونية. ولإنجاز هذا -يرى برينر- أنه على اليهود الاعتراف بوضاعتهم منذ بدء التاريخ حتى يومنا هذا وبكل نقائص شخصيتهم. فاليهود -حسب رأي برينر- يحيون بأية طريقة، حتى كالنمل أو الكلاب، فكل يهودي يحب ذاته ويتكيف مع الأوضاع المحيطة به، ويذل نفسه من أجل البقاء، والتاريخ اليهودي إن هو إلا تاريخ طويل من الذل والمهانة. ثم يعبر برينر عن استنكاره لما ينادي به آحاد هعام، المتحدث باسم الإثنية اليهودية (إثنية يهود المنفى)، الذى يكيل الثناء للتاريخ المليء بالشهداء والوضعاء، ذلك التاريخ الذي تشكلت فيه الهوية اليهودية من خلال الاضطهاد والطرد، إلى أن ظهر في آخر الأمر شعب يحيا بدون مجتمع، خارج أي مجتمع على الإطلاق، «شعب هائم شاذ معذب، لا هدف لحياته، ولا استقلال لها». إن برينر يختزل أعضاء الجماعات فى عدة صور عنصرية

نمطية، مستقاة من أدبيات معاداة السامية فى هجومه على اليهود، فبأي معنى يمكن اعتبار كتاباته الفكرية فكراً يهودياً؟

وينتمي زلمان شنياؤور (١٨٨٧-١٩٥٩) لهؤلاء المؤلفين الصهاينة الذين ينم أدبهم عن كره عميق لليهودية وليهود المنفى (أي كل اليهود في كل أنحاء العالم) ويطرحون بدلاً من ذلك رؤية علمانية مبنية على قيم القوة والبطش، أي قيم الداروينية الاجتماعية. ففي رواية نواه باندري (باليديشية) يُقدِّم شنياؤور شخصية نواه (نوح) باعتباره نموذجاً لليهودي الجديد الذي لم يتلق تعليماً دينياً، فهو ليس حزمة أعصاب يخاف من ورقة الشجر التي تحملها الريح. وهو يهودي بالعرْق والوراثة (لا العقيدة)، قوي لا يهاب، يداه هي يدا عيسو تكسب له احترام الأغيار الذين كانوا يظنون أن اليهودي جبان بطبعه يعيش حياة روحية محضة.

وفى هذا السياق يمكن الإشارة إلى أوسيب ماندلستام (١٨٩١-١٩٣٨)، الشاعر الروسي اليهودي، الذى وُلد في روسيا لأسرة متدينة، ولكنه تلقى تعليماً علمانياً ثم سافر إلى فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا. ويُعتبَر ماندلستام مثلاً لليهودي الذي يكره اليهود، ويظهر هذا بشكل واضح في مجموعة مقالاته المسماة ضوضاء الزمان حيث يسخر من اليهود الذين يصفهم بأنهم يستخدمون اللغة الروسية بدقة مبالغ فيها وبتصنع شديد حتى أنهم يزهقون روحها. ويُعبِّر ماندلستام عن كرهه للرطانة التي يتحدث بها يهود شرق أوربا (اليديشية) ولأبجديتهم (العبرية) وللخطوط السوداء والصفراء على شال الصلاة (شال الصلاة الطاليت)، بل ولرائحتهم الكريهة. ويرى ماندلستام أن المسيحية تُشكِّل الإطار الحقيقي لشعره.

ومن أهم الكتاب اليهود الذين هاجموا اليهود واليهودية المفكر وعالم النفس النمساوي أوتو فينيجر (١٨٨٠-١٩٣٣)، الذى درس علم النفس وعلوم الأحياء والطبيعة والرياضة، إلى جانب دراسته الفلسفة في جامعة فيينا. وتبنَّى في بداية حياته الفلسفة الوضعية والمذهب العقلي، إلا أنه تخلى عنهما متأثراً بمثالية كانط وأفلاطون وصوفية سانت أوغسطين وفاجنر، كما تأثر بفيلسوف العنصرية هيوستون تشامبرلين. وقد ساعد ذلك على اعتناقه المسيحية البروتستانتية، وذلك في اليوم نفسه الذي نال فيه درجة الدكتوراه عام ١٩٠٢.

وفي عام ١٩٠٣، كتب فينينجر عمله الكبير الجنس والشخصية الذي تضمن رؤية فلسفية معادية لكل من اليهود والمرأة وتتلخص نظريته في أن هناك علاقة أساسية بين الجنس والشخصية، فيذهب إلى أن الرجل يضم العناصر الإيجابية والأخلاقية والروحية والفكرية القادرة على الخلق والإبداع، أما المرأة فتضم العناصر الإدراكية (المادية والحسية واللا أخلاقية) وهي غير قادرة على أية فضيلة أو إبداع. واعتبر أن مأساة البشر تكمن في أنهم يجمعون بين عناصر الذكورة الطيبة والعناصر الأنثوية الشريرة. كما رأى أن علاقة الرجل

بالمرأة تؤدي إلى تدهوره وإذلاله، واعتبر أن التحرر الحقيقي للمرأة لا يكمن في التحرر السياسي بل في تخليها عن ذلك الجانب من طبيعتها الذي تسيطر عليه الرغبات الحسية، وبالتالي اعتبر أن الامتناع الجنسي هو السبيل الوحيد للنمو الروحي للرجل ولتحرُّر المرأة. وفي تناوله لليهودية ولليهود، اعتبر فينينجر أن اليهودية تمثل العنصر الأنثوي اللاأخلاقي وغير المقدَّس وهي أيضاً العدم، في حين أن المسيحية تمثل الذكورة الأسمى وهي الوجود وهي العنصر الآري. واعتبر فينينجر أن اليهودي أسوأ من المرأة لأنه لا يؤمن بشيء، وبالتالي فإنه ينجذب نحو الفكر الشيوعي والفوضوي والإلحادي والتجريبي. كما رأى أن خلاص اليهودي لا يأتي إلا من خلال تخلصه من يهوديته، ورأى أن الصهيونية أو القومية اليهودية هي نقيض العقيدة اليهودية، إلا أنها لن يُكتَب لها النجاح لأن اليهود لا يدركون مفهوم الأمة. وقد أعلن فينينجر أن هناك المخلِّص الحقيقي الذي سيخلص العالم من اليهودية والأنوثة معاً (هل هو هتلر؟).

ويعد آرثر تريبتش (١٨٨٠-١٩٢٧)، الكاتب النمساوي اليهودي، من تلاميذ أوتو فينينجر وهيوستون تشامبرلين، وقد تنصَّر وأصبح من أعدى أعداء اليهود (هل تنصره أم عداؤه لليهود واليهودية يخرجه من زمرة المفكرين اليهود؟). كتب تريبتس كتاباً بعنوان الروح واليهودية (١٩١٩) ألقى فيه اللوم على اليهود لهزيمة الألمان وسقوط الأسرة الحاكمة في ألمانيا والنمسا. وفي كتابه الروح الألمانية واليهودية (١٩٢١)، استخدم تريبتش بروتوكولات حكماء صهيون ليثبت وجود مؤامرة يهودية لإفساد العالم والهيمنة عليه. وطوَّر تريبتش النظرية العرْقية الغربية المعادية لليهود وعرض خدماته على النازيين في النمسا. وكتابات تريبتش تنقع كرهاً لليهود قد يفوق، من بعض النواحي، أدبيات معاداة السامية.

ثم يأتي تيودور لسنج (١٨٧٢ - ١٩٣٣) المفكر الألماني اليهودي الذى كتب عدة دراسات عن تاريخ الأفكار من ضمنها شوبنهاور وفاجنر ونيتشه، كما كتب دراسة عن انحطاط العالم: أوربا وآسيا. كان لسنج مهتماً بدراسة ما يُسمَّى «مبادئ الشخصية القومية»، وهي دراسة كانت مشبعة آنذاك (في ألمانيا وأوربا على وجه العموم) بالقيم المادية العنصرية التي تحاول تعريف الشخصية بالعودة لبعض مكوناتها المادية (حجم الجمجمة - التراب والدم... إلخ). وكانت مثل هذه الدراسات تقسم البشر بشكل صارم وحاد إلى أقسام منفصلة فمنهم الأدنى ومنهم الأعلى. وهذا هو الإطار الفلسفي لفكرة الشعب العضوي (فولك). وقد هاجم لسنج فرويد باعتباره يهودياً، وهاجم التحليل النفسي باعتباره علماً يهودياً منحلاً، كما هاجم الحياة في الشتتل في سلسلة من المقالات.

قدَّم لسنج في كتابه كُره اليهودي لنفسه دراسة طبية لليهود الذين يتسمون بكُرههم لذواتهم. واليهود (حسب تصوُّر لسنج) هو شعب آسيوي لا ينتمي إلى أوربا، جذوره في آسيا (فلسطين). وتعود قوة اليهود إلى قربهم من الطبيعة والجذور الطبيعية الأولية الكونية (أي أنه تبنَّى رؤية حلولية كمونية تتسم بالواحدية الكونية المادية). وتكمن مأساة اليهود في أنهم نُزعوا من جذورهم وانفصلوا عن غرائزهم الطبيعية المرتبطة بالأرض بحيث تحوَّل اليهود من كونهم شعباً من الرعاة والفلاحين يعيش في الطبيعة إلى شعب منحل يتسم بالرومانسية الزائدة (يؤمن بأخلاق الضعفاء بدلاً من أخلاق الأقوياء على حد قول نيتشه). وقد وجد لسنج أن ثمة أقلية من اليهود (المستوطنين الصهاينة) بدأت تعود لتربة فلسطين وأنهم هم الذين يمكنهم أن يبعثوا أمجاد اليهود الغابرة ويمكنهم أن يلعبوا دور الوسيط بين آسيا الروحية وأوربا التكنولوجية. وفكر لسنج في جوهره فكر نازي/صهيوني يُعبِّر بشكل متبلور عن الرفض الكامل والجذري لكل ما هو يهودي. ومع هذا، هاجمه المعادون لليهود بضراوة، وهو ما يدل على غبائهم واختزاليتهم. وقد أُغتيل لسنج على يد النازيين.

وفكر لسنج فكر عنصري معادي لليهود، ولكنه فى الوقت ذاته صهيوني. فالصهيونية هى ذاتها معاداة السامية، فأعداء اليهود واليهودية هم الذين يهيجون ضد أعضاء الجماعات اليهودية ويطالبون بحرمانهم من حقوقهم بل وطردهم إلى فلسطين! أي أنهم يطالبون بتحويل أعضاء الجماعات اليهودية من مواطنين فى أوطانهم الأصلية إلى مستوطنين فى بلادنا، أليس هذا ما تطالب به الصهيونية الاستيطانية؟ لكل هذا أذهب إلى أن الصهيونية حركة لتخليص أوربا من فائضها البشري اليهودي، وأنها تنبع من كره عميق ليهود المنفى (أي الغالبية الساحقة ليهود العالم). ولذا فهى تعيش على الكوارث التى تحيق بأعضاء الجماعات اليهودية، كما قال أحد المفكرين اليهود المعادين للصهيونية. وللسبب نفسه تَعاون الصهاينة عبر تاريخهم مع المعادين للسامية.

والله أعلم.

***

٤٣- فلسطين المحتلة والعقل الأمريكي

موقع الجزيرة نت2008-05-01

"قد يظن البعض أن عرض الخرائط التي تبيّن - بما لا يدع مجالا للشك- أن المنطقة المخصصة للدولة الصهيونية مبتورة وأنها غير قابلة للحياة. وقد يظن البعض أن عرض الصور التي توضح طبيعة احتلال إسرائيل للمناطق الفلسطينية سيكون له نوع من التأثير على القراء من الأمريكيين الفطنين حتى وإن كانوا غير ملمين بالموضوع عموما .ولكن يبدو أن الواقع غير ذلك". فالإنسان لا يستجيب للواقع المادي مباشرة (مثير يتبعه استجابة بطريقة مباشرة) وإنما يستجيب له من خلال إدراكه له، أو ما نسميه الخريطة الإدراكية، وهي مجموعة الأساطير والذكريات والرؤى والصور والمقولات القَبْلية (التي تسبق عملية الاستجابة للواقع المادي) التي تحدد ما يمكن أن يراه الإنسان في واقعه المادي المباشر. ويبدو أن الخريطة الإدراكية الكامنة في العقل الأمريكي (بخصوص فلسطين المحتلة) تحدد حدود الرؤية من القوة بحيث أنها تجعل من الصعب، بل من المستحيل على المثقفين الأمريكيين، بل والمتخصصين، أن يدركوا الواقع في كل أبعاده، فما بالك بالإنسان الأمريكي العادي الذي يقوم الإعلام الأمريكي بمحو ذاكرته. وقد ظهر في ١٤ فبراير ٢٠٠٨ مقال في الموقع الإلكتروني www.counterpunch.comبقلم كاثيلين وبيل كريستيسون (وكانت كاثلين محللة سياسية سابقة في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ومؤلفة. أما بيل فكان مديرمكتب المخابرات المركزية الأمريكية للتحليل الإقليمي والسياسي). وعنوان مقالهما "التحدث مع الجدار: فلسطين في الفكر الأمريكي"، وهما يلقيان بعض الضوء على الإدراك الأمريكي للصراع العربي الإسرائيلي. يقول المؤلفان: "تحدثنا في الآونة الأخيرة مع مجموعة صغيرة بخصوص السياسة الخارجية [الأمريكية] وكرسنا جزءاً كبير من العرض الذي قدمناه لصور الظلم [الذي يلحق بالفلسطينيين] –صور لا تظهر إطلاقا في الإعلام الأمريكي] .وكان يراودنا] أمل ساذج في إحداث نوع من التأثير ولو ضئيل على الموقف الأمريكي اللامبالي تجاه الأربعين عاما من الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية .

"إلا أن توقعاتنا بأن هؤلاء الناس قد يستمعون وربما يتعلمون شيئا كانت للأسف في غير محلها. كان يبدو أن الكثيرين من أعضاء مجموعة المناقشة [من أعضاء النخبة السياسية والثقافية والمختصين] التي عقدت لمناقشة ما يحدث على أرض الواقع في فلسطين/إسرائيل، كانوا يشعرون بالقلق، وكان الموقف بمثابة مثال صارخ على اللامبالاة الأمريكية إزاء النظام

الإسرائيلي القمعي في الأراضي المحتلة والذي تسمح به الولايات المتحدة، بل وتشجعه بفعالية في الكثير من الحالات.

"تصور الخرائط التي عرضناها للضفة الغربية –والتي أعدتها الأمم المتحدة وجماعات حقوق الإنسان الإسرائيلية- بوضوح تشتت قطع الأراضي المنفصلة غير المترابطة التي سوف تشكل الدولة الفلسطينية في أكثر السيناريوهات تفاؤلا- مناطق فلسطينية يفصلها الجدار العازل الذي يقتحم عمق الضفة الغربية، والمستوطنات الإسرائيلية المنتشرة في كل الأنحاء والتي تشغل نحو ١٠ بالمائة من الأراضي، وشبكة الطرق التي تربط المستوطنات المتاحة فقط للسائقين الإسرائيليين وحدهم، وغور الأردن المحظور حاليا على أي فلسطيني لا يعيش هناك بالفعل والذي يمثل نحو ربع الضفة الغربية كاملة، والذي قررت إسرائيل مؤخرا ضمه إليها.

"تشير الخرائط بوضوح إلى أن أكثر الخطط الإسرائيلية كرما ستترك دولة فلسطينية مكونة من ٥٠-٦٠ في المائة فقط من الضفة الغربية (والتي تمثل ١١-١٢ في المائة من فلسطين الأصلية)، مقسمة إلى العديد من الأجزاء المنفصلة ولا تتضمن أي جزء من القدس .تصور الصور التي إلتقطناها أثناء رحلاتنا العديدة لفلسطين في السنوات الأخيرة: الجدار العازل، ونقاط التفتيش، والحواجز التي تشبه الأقفاص، وبيوت الفلسطينيين المهدمة، والمباني الرسمية المدمرة، والمستوطنات الإسرائيلية الواسعة المبنية على الأراضي الفلسطينية المصادرة، وبساتين الزيتون الفلسطينية المدمرة، والأنشطة التجارية في المدن الفلسطينية المتوقفة بسبب إغارات المستوطنين أو الجنود الإسرائيليين.

عرضنا خرائط وصوراً مثل هذه مرارا وتكرارا، ولكنها لم تقابل أبدا بمثل هذه اللامبالاة .هنا كانت مجموعة معظمها من المسئولين الحكوميين الأمريكيين والأكاديميين والصحفيين والتنفيذيين، وكذلك عدد قليل من المتخصصين، وكلهم يتراوحون في إنتمائهم السياسي من يمين الوسط إلى يساره، وهم صفوة أمريكا المتعلمين والمطلعين، أي أنهم يمثلون رأي النخبة السائد في الولايات المتحدة .إلا أن فقدانهم للاهتمام بشأن ما تفعله إسرائيل –وما تفعله الولايات المتحدة بفضل دورها المساند- لتدمير شعب كامل وتطلعاته القومية، لا يمكن أن يكون أكثر وضوحا من هذا .

"قالت أول من قامت بالتعليق عندما انتهى العرض الذي قدمناه –والتي قدمت نفسها على أنها يهودية- أنها "لم تسمع من قبل أبدا عرضا أحادي الجانب مثل هذا"، ووصفتنا بمصطلح "ما

وراء المعاداة للسامية– "beyond anti-Semitic والذي يفترض أنه شيء أسوأ من معاداة السامية البسيطة الواضحة .وهذه دائما تهمة مزعجة إلى حد ما، على الرغم من أنها شائعة ومتوقعة لدرجة أنها صارت غير ذات أهمية .وما كان جديرا بالملاحظة هو رد الفعل - أو عدم وجوده- بين باقي المجتمعين الذين لم يجادلوا أبدا في التهمة التي وجهتها إلينا، ولكنهم قضوا معظم وقت المناقشة إما في وصف العرض الذي قدمناه، أو في محاولة إيجاد طرق لتخفيف "الآلام اليهودية."

تطورت محادثتنا الموجزة مع هذه السيدة بطريقة مثيرة للإهتمام .حاولنا الدخول معها في مناقشة حول ما الذي كان "أحادي الجانب" تحديدا في تصويرنا للوضع على أرض الواقع؟ وما الذي كانت تود أن تراه ليكون عرضنا "ثنائي الجانب"؟ لم تجب لكنها أشارت إلى أنها تعتقد أن أيا ما فعلته إسرائيل لابد وأن له ما يبرره من الأفعال الفلسطينية. وقالت: "لابد وأن أحدهم هو من بدأ هذا الأمر".[وهذه مقولة قبلية تسبق عملية الفهم]. شرحنا لها بعض التفاصيل التاريخية، مشيرين إلى أن الفعل الأول، الجزء الخاص بـ"من بدأ الأمر "يمكن أن نتتبعه تاريخيا إلى إعلان بريطانيا لوعد بلفور في عام ١٩١٧ للترويج لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، في وقت كان فيه اليهود لا يمثلون أكثر من ١٠ بالمائة من عدد سكان فلسطين .ثم نأتي إلى قرار التقسيم للأمم المتحدة في عام ١٩٤٧ والذي خصص ٥٥ بالمائة من فلسطين للدولة اليهودية في وقت كان فيه اليهود يملكون ٧ في المائة من الأرض ويمثلون أقل قليلا من ثلث عدد السكان.

"كانت إجابتها هي: "لكن لم يكن اليهود هم من فعلوا هذا ."حررناها من هذا الوهم وشرحنا لها بإيجاز البرنامج الصهيوني المتعمد للتطهير العرقي ضد السكان الفلسطينيين الذي تم أثناء حرب ١٩٤٧-٤٨، كما وصفه العديد من المؤرخين الإسرائيليين –ومنهم بصفة خاصة إيلان بابيه –والذي استند في كتابه "التطهير العرقي لفلسطين" إلى سجلات عسكرية إسرائيلية .انتفخت أوداجها واحمرت عيناها لكنها أمسكت لسانها .وقررت فيما يبدو أنه لا سبيل أمامها لدحض هذه الحقائق، فقررت أخيرا أنه ما من فائدة تذكر في العودة للتاريخ –وهو أسلوب مراوغة صهيوني شهير-– وأن إسرائيل لم تؤسس على أي حال لتكون دولة ديموقراطية وإنما كانت ملاذا لليهود المضطهدين ومن ثم فإن لها كل الحق في تنظيم نفسها على النحو الذي تراه مناسبا .وأخيرا دعا منظم المناقشة الباقين ممن يريدون التحدث، لتستمر المناقشة.

''ولكن لم يبتعد الأمر كثيرا عن هذا، فالحديث يدور الآن لأكثر من ساعة حول ما قد يكون مناقشة مهمة: حول تعليقات غريبة من أحدهم عن'' روح العصر''Zeitgeist'' ''، وإصرار شخص آخر إصرارا لا يقل غرابة بأن ''هناك شيء ما يدور هناك لا يمكن لأحد التحدث عنه'' وأن هذا الشيء يؤثر على الوضع، وبضعة تعليقات حول الفلسطينيين بصفتهم إرهابيين وكيف أنه حتى إذا ما أقامت إسرائيل السلام مع الفلسطينيين فإن حماس ستحاول تدمير هذا السلام، والكثير من الكلام حول كيفية تخفيف الألم اليهودي. ومن هذا المنطلق حاولت طبيبة نفسية من بين الحاضرين أن تعقد مقارنة بين اليهود الذين يعيشون في خوف من الاضطهاد، وضحايا الاغتصاب الذين عالجتهم والذين يعيشون في خوف مستمر من أن يغتصبوا مرة أخرى أو أن يحدث لهم ما هو أسوأ.

''سأل القليل من الناس أسئلة مهمة عن الموقف على أرض الواقع والخصائص المختلفة للسياسية الإسرائيلية .وبعد تركز النقاش لفترة طويلة حول الألم اليهودي، أشار أحدهم إلى أن الفلسطينيين أيضا يشعرون بالألم ويعيشون في خوف، إلا أن أحدا لم يعلق على هذا .لم يعترض أحد على تهمة معاداة السامية التي وجهتها إلينا المتحدثة الأولى، وفي النهاية لك يكن هناك أي ذكر تقريبا للممارسات الإسرائيلية التي كانت هي موضوع العرض الذي قدمناه.

''أتيحت لنا الفرصة في اليوم التالي لمراسلة العديد من المشاركين عن طريق البريد الإليكتروني .في واحدة من الرسائل، قدمنا شكوى لبقة لمنظمي العرض الثلاثة بشأن حقيقة أنهم سمحوا لتهمة معاداة السامية التي وجهت لنا، ليس فقط لأن تثبت علينا ولكن أيضا لأن تحدد لهجة الكثير من الكلام الذي دار في المناقشة، مع عدم تفنيد أي شخص لجوهر التهمة فيما عدانا .وفي رسالة أخرى أرسلناها إلى رجل كان قد عبر عن تعجبه من أن أصوات اليهود ينظر إليها باعتبارها مهمة في الانتخابات الأمريكية .أرسلنا إليه بدون تعليق مقالة من مجلة ''موذر جونز'' عن الصعوبات التي يواجهها باراك أوباما مع المجتمع اليهودي وجهوده المنسقة لإظهار حسن نواياه بتعهده بالولاء لإسرائيل وبتبريره لحصار إسرائيل لغزة.

''وأخيرا، أرسلنا رسالة إلى الطبيبة النفسية، كتبنا فيها تعليقا على مقارنتها بين اليهود وضحايا الاغتصاب، أشرنا فيها إلى أنها بلا شك- باعتبارها طبيبة نفسية- لا تشجع ضحايا الاغتصاب على الإبقاء على خوفهم أو اتخاذ موقف عدواني تجاه الناس الآخرين، ولكنها في الغالب تقدم لهم الأدوات التي تساعدهم على استعادة الثقة وتجاوز المخاوف على سلامته الشخصية .وأشرنا إلى أن هذا النوع من العلاج النفسي التصالحي لم يستخدمه أحد أبدا من

قبل مع اليهود، ولكن على العكس من ذلك نجد قادة إسرائيل وقادة الجماعات اليهودية الأمريكية يشجعون المخاوف اليهودية، ويشجعون مع السياسة العدوانية العسكرية الإسرائيلية تجاه جيرانها.

"كانت كل هذه المفاتحات بلا مسوغ من جانبنا، ولكنها لم تكن غير لائقة ولا غير متحضرة .إلا أن أحدا من هؤلاء الناس لم ير أنه من المناسب الرد على رسائلنا أو حتى يشكرنا على استلامها – وهو ما يوضح –كما لا يسعنا إلا أن نفترض- المستوى العام لعدم الاكتراث بين الأمريكيين فيما يتعلق بالفظائع التي ترتكب ضد الفلسطينيين، بما فيها الحصار والتجويع المفروضين على سكان قطاع غزة .ومن ثم أيضا، فإن عدم الرد ربما يعكس شعورا من جانب معظم الحاضرين بأننا مسئولين إلى حد ما عن إشراكهم في مناقشة انتهت بأن كانت مكدرة إلى حد ما بالنسبة لهم.

"هذه المناقشة المستفيضة التي تمت مع مجموعة صغيرة من الأمريكيين الأذكياء المفكرين، مثيرة للقلق، فهي مؤشر على مدى سطحية وتحيز وإدراك قطاع واسع من الرأي العام الأمريكي للصراع العربي الإسرائيلي، ومستوى لامبالاتهم بتبعات السياسات الأمريكية .كل هذا الميل للانهماك في الشئون الداخلية الذي بدا واضحا في هذا الاجتماع، وموقف عدم الرغبة في تغيير الوضع الحالي، والافتقار الصارخ للاهتمام بِشأن ضحايا القوة الإسرائيلية والأمريكية، يتصاعد كل هذا ليصل إلى تصريح بالقتل يقدم للولايات المتحدة وحلفائها .وقد سمحت هذه اللامبالاة للولايات المتحدة بأن تفلت بقتلها لملايين الفيتناميين منذ عقود مضت، وها هي تعطي تصريحا للولايات المتحدة بالقتل الجماعي في إيران وأفغانستان، وهي ذاتها السبب في أن الديموقراطيين لا يزالون -بعد سبع سنوات من قيام إدارة بوش بعمليات التعذيب والقتل حول العالم- غير قادرين على فصل أنفسهم كلية من النزعة العسكرية التي يتسم بها الجمهوريون .كما أن هذه اللامبالاة تعطي لإسرائيل تصريحا بقتل شعب فلسطين بأسره وتطهيره عرقيا.

انتهى المقال، وهي لا تحتاج لأي تعليق، فهي تعطينا صورة واضحة متبلورة كيف يدرك معظم أعضاء النخبة الأمريكية الثقافية والحاكمة الصراع العربي الإسرائيلي. وقد تكون الصورة قاتمة وكئيبة، ولكننا لابد وأن نأخذها في الاعتبار حتى ندير الصراع مع العدو بكفاءة. وعلى كلٍ الخريطة الإدراكية ليس أمراً ثابتاً ونهائياً، إذ يمكن تغييرها من خلال المقاومة المستمرة.

والله أعلم .

***

٤٤- فلنفاوض ولنقاوم

جريدة الاتحاد الإماراتية 15-03-2008

لا يزال البعض يعتقد أنه يمكن القيام بحملة إعلامية بحيث يمكن إيجاد أصدقاء في الغرب، وفي أمريكا بشكل خاص، من أجل الوقوف إلى جانب قضايانا العربية والإسلامية والإنسانية العادلة. وأعتقد أن هذا رهان صعب. وابتداءً يجب أن نشير إلى أن إيجاد تفاعل وتعاطف في أوروبا أسهل منه في الولايات المتحدة الأمريكية، لأن الإنسان الأوروبي يتميز بقدر كبير من الثقافة والوعي. والصحف الأوروبية تنشر أخبارا عن العالم وتطوراته بشكل أكبر مما تنشره نظيراتها في الولايات المتحدة إلى حد ما، إلى جانب وجود اختلافات سياسية حقيقية بين الأحزاب التي تقوم بتوعية المواطنين. لكن مهمة خلق التفاعل والتعاطف، حتى داخل الولايات المتحدة، ليست مستحيلة. خذ على سبيل المثال ما حدث في الحرب الأمريكية على فيتنام، حيث كانت الأغلبية الساحقة من الشعب الأمريكي تؤيد في البداية التدخل الأمريكي في فيتنام، تحت ذريعة وقف ما سموه آنذاك بـ "الخطر الشيوعي"! وبالتدريج، ومع وصول جثامين من الجنود الأمريكيين إلى التراب الأمريكي، ومع تزايد الخسائر الأمريكية المادية، بدأت الجماهير الأمريكية تتراجع عن موقفها السابق وتخرج إلى الشوارع مطالبة الإدارة الأمريكية بسحب قواتها من فيتنام، إلى أن اضطرت الولايات المتحدة لسحب جيوشها وقوتها العسكرية من فيتنام وأن تنسحب صاغرة! ولنلاحظ أن الفيتناميين كانوا يقاتلون ويتفاوضون في ذات الوقت، وكانت الحركات المعادية للحرب في الولايات المتحدة تقوم بعملية توعية بما يحدث من خلال الإعلام. وقد طورت مصطلح "الحوار المسلح" الذي ينطلق من تصور أن الشعوب التي تدور في إطار علماني مادي استهلاكي لا تدرك العالم إلا بحواسها الخمس، ولذا فهي شعوب وثنية لا عقلانية لا يمكن إيقاظها من خلال الإعلام وحده، كما يتصور البعض، وإنما من خلال سياسة متكاملة فنبعث لهم رسائل مسلحة عن طريق المقاومة المسلحة المستمرة، ورسائل شبه مسلحة مثل التلويح بقطع البترول ونقل رؤس الأموال العربية. وتفعيل اتفاقية الدفاع العربي المشترك، ومنع مرور السفن الحربية من قناة السويس. لكن لابد وأن يواكب هذا رسائل توضح وجهة نظرنا، مضمونها أنه يمكن للشعب الأمريكي التعايش معنا إذ لا يوجد مبرر للصراع أو للمواجهة المسلحة، إذ يمكن توظيف رؤوس الأموال الأمريكية في العالم العربي واستيراد السلع من الولايات المتحدة على أن يتم ذلك في إطار من التبادل العادل، كما يجب أن نؤكد أن المواجهة المسلحة لن تفيد إلا الاحتكارات والشركات الكبرى ومصانع السلاح والدولة الصهيونية.

وكما أسلفت المواجهة مع الولايات المتحدة أصبحت صعبة، ولكنها ليست مستحيلة، بمعنى أن العرب لو قرروا ضرب مجموعة من السلع الأمريكية بعدم شرائها فإن أصحاب المصانع المنتجة لهذه السلع سيتحولون إلى "لوبي" يعمل لصالحنا. ويمكن استبدال هذه السلع بسلع يتم استيرادها من فرنسا أو ألمانيا أو اليابان أو الصين أو الهند، أو ربما تشجيع بعض رؤوس الأموال العربية على تصنيعها محليا. أما الثروات العربية في المصارف الأمريكية والتي تقدر حسب ما سمعت بـ ٧٠٠ بليون دولار، مما يمثل دعما قويا للدولار الأمريكي، فيمكن سحب ١٠% من هذه الأموال في إشارة واضحة للغضب العربي والإسلامي، كما يمكن الاكتفاء بالتلويح بذلك، هذه كلها رسائل للشعب الأمريكي أن يعيد النظر في مواقف حكومته المتحيزة ضد العرب.

والمواجهة لابد أن تتم على مستوى شعبي أو حكومي، فإذا كانت الحكومات غير قادرة على المواجهة، فيمكن أن تقوم بها الجمعيات المدنية. ولكن يجب أن نتذكر وأن نذكِّر أنفسنا أن انسحاب أمريكا من العراق سيكون له أعمق الأثر عليها، فالحلم الإمبراطوري سوف ينتهي وسيؤثر هذا على إسرائيل التي عاشت دوما في داخل إطار الحرب: الحرب الباردة، ثم الحرب ضد الشيوعية، ثم الحرب ضد القومية العربية، ثم الحرب على الإرهاب، فإذا انكمشت الولايات المتحدة الأمريكية وطورت سياسة خارجية جديدة غير مبنية على التدخل في شئون الآخرين ولا تحاول الهيمنة على العالم، فإن إسرائيل سوف تجد نفسها في أزمة حقيقية، فمقومات وجودها ستتلاشى. أقول إنها مسألة صعبة للغاية ولكنها مع هذا ليست مستحيلة. ويجب أن نتذكر أنه بوسع الولايات المتحدة أن تحاول الهيمنة عن طريق توقيع اتفاقيات مع بعض الحكومات "الصديقة" وإنشاء قواعد عسكرية فيها، أي أن التغيير لن يكون حقيقياً، فهو تغيير في الآلية وليس في الهدف النهائي.

وعادة ما يميز الخطاب العربي (وحتى الإسلامي) بين الشعب الأمريكي والإدارة الأمريكية، بل ويقال بأننا مع الشعب الأمريكي وضد حكومته وآلته العسكرية. لكن هذا الشعب" الطيب" و"الفطري"، لا تستفزه ما تقترفه حكومته من جرائم في حق شعوب العالم، ولا يثور عليها، ولا يستعمل الآليات الديمقراطية كوسيلة لتنحية هذه الإدارة المعادية للإنسان، وهذا وضع غريب يحتاج للتفسير.

وأذهب إلى أنه قد حدث تقسيم للعمل في الولايات المتحدة بحيث تخصصت النخبة الحاكمة والحكومة الفيدرالية في مسائل الدفاع ومسائل الأمن والسياسة الخارجية، وتركت للجماهير كل

الأمور الأخرى مثل المطافي والبريد والتعليم والرعاية الصحية ومدى نقاء مياه الشرب وبعض قضايا الأمن الداخلي مثل المرور وتزايد معدلات الحرارة، وكل ما يتخذ في هذا المجال يتم من خلال إجراءات ديموقراطية صارمة. أما القرارات السياسية الكبرى (السياسة الخارجية- ميزانية الدفاع- ميزانية المخابرات) التي تحدد مصير الأمة، فقد تُركت للنخبة الحاكمة (التي تسيطر عليها المصالح الصناعية والعسكرية) تفعل فيها ما تشاء حسب أولوياتها وحسب ما تمليه مصالحها وليس مصالح الشعب الأمريكي.

وتعكس الصحافة الأمريكية هذا التقسيم للعمل، فالأخبار العالمية والتحليلات السياسية تنشر أساسا في جرائد ومجلات النخبة مثل النيويورك تايمز والواشنطن بوست. أما الجرائد الشعبية والمحلية والـ tabloids التي تقرأها الجماهير، فهي تشير إلى "العالم" في نصف عمود، أما بقية الجرائد فهي تنشر الفضائح والأخبار الخاصة بالجماعة المحلية، والجزء الأكبر مخصص لأخبار النجوم وفضائحهم وللإعلانات والأوكازيونات وكوبونات الخصم وهكذا. (لا أنسى يوم ٦ يونيه سنة ١٩٦٧ حين نشرت الصحيفة المحلية في المدينة التي كنت أقطن فيها في الولايات المتحدة خبر اندلاع الحرب في بضعة سطور، أما الصفحة الأولى فكانت تحمل أخبارا عن افتتاح طريق جديد!). وجاء في إحصائية طريفة أن ٢٤% فقط من الأمريكيين نجحوا في أن يذكروا اسم رئيسي جمهورية سابقين، بينما بلغ عدد الذين يعرفون أسماء الأقزام السبعة في قصة سنووايت ٧٧%. ولذا من النادر أن تقابل أمريكياً يعرف آليات صنع القرار السياسي في بلاده، أو الهدف من القرارات التي اتخذت في مجال السياسة الخارجية. وفي غياب أحزاب سياسية لها برامج مختلفة توعي المواطن وتثقفه سياسيا، يقع هذا المواطن الأمريكي العادي فريسة سهلة للإعلام ولتقسيم العمل الذي فُرض عليه وجعله غير قادر على فهم سياسة بلده الخارجية وتدخلها العسكري في كل أرجاء المعمورة، خاصة وأنه يتم تبرير عمليات الغزو العسكري والتدخل السياسي في شئون الدول الأخرى من خلال خطاب عالي النبرة ممتزج بلون قومي أمريكي فاقع له أبعاد أخلاقية، فيتحدثون عن "القيم الأمريكية" مثل الديموقراطية وحقوق الإنسان وحماية الأمن القومي الأمريكي. كما أنهم يلجأون لتخويف المواطن الأمريكي، من عدو ما، كان في مرحلة من المراحل هو الشيوعية وأصبح الآن الإرهاب الإسلامي! ورسّخوا في وجدانه أن هذا العدو يكره الديموقراطية ويحقد على الأمريكيين بسبب أسلوب حياتهم ومعدلات الاستهلاك العالية التي يتمتعون بها، ولذلك عادة ما تبدأ الاحتجاجات على سياسة أمريكا الخارجية في الجامعات بين المثقفين الذين يدركون طبيعة الأكاذيب التي تطلقها النخبة الحاكمة. وتنتقل بعد فترة ليست بالقصيرة إلى الشوارع بين الجماهير العادية.

والله أعلم.

ملاحظة: هذه المقالة نشرت بجريدة الاتحاد الإماراتية بصفحة وجهات نظر بتاريخ ١٥ مارس ٢٠٠٨.

http://www.alittihad.ae/authorarchive.php?AuthorID=3

***

٤٥ـ في الأيديولوجيا والقول

موقع الجزيرة نت 01-04-2008

كلمة "أيديولوجية" التي شاعت في الخطاب السياسي العربي مصطلح ينتمي للغات الهندية الأوروبية مكون من مقطعين أصلهما إغريقي ("أيديا" وتعني فكرة، "ولوجوس logos" وتعنى حرفيا "كلمة" ولكنها تعني "دراسة أو "علم"). وكلمة أيديولوجية منبتة الصلة بنسقنا اللغوي وبالتالي الفكري، وهي إلى فضل ذلك كلمة مختلطة الدلالة في لغتها الأصلية فهي تعني الشيء وعكسه، فهي تعني فيما تعني "نسق من المعتقدات يفسر الواقع بعد تبسيطه تبسيطا ضروريا"، كما تعني أيضا "نسق يعكس الواقع، وكذا "نسق يفسر بعض جوانب الواقع بعد تبسيطه تبسيطا مخلا"، وكذا "نسق يشوه الواقع"، بل و "نسق يزيف الواقع للإنسان ويعميه عن رؤية واقعه". ولذا فالأيديولوجية تصلح أحيانا كدليل للسلوك الإنساني، ولكنها لا تصلح أحيانا أخرى (ومن هنا معارضة "الفكر الأيديولوجي" بالفكر "الموضوعي والعلمي"). بل إن الأيديولوجية شبهت بالصورة الشعرية أو بالصورة المجازية الأساسية التي يمكن عن طريقها إدراك الواقع السياسي. وبالتالي فهي أداة تعبيرية لتوصيل رسالة، بل هي قد تفلح عندما تخيب، أي عندما تشوه الواقع فتطمس بعض الحقائق وتعكس وتؤكد بعض الحقائق الأخرى، فتوصل رسالة مجردة للمؤمنين بها فتجندهم حولها. ومن هنا نجاح النظريات الفاشية (أي الصهيونية والنازية)، فهي تبسط الواقع بدرجة مريحة فتزداد مقدرتها التعبوية وكذا الأمر بالنسبة للنظريات التآمرية. والأيديولوجية في بعض المعاني تنبع من الماضي وتحن إليه، وفي البعض الآخر تعكس الحاضر والأمر الواقع، وفي معنى ثالث تبشر بالمستقبل والمثل الأعلى، وفي معنى رابع تربط الماضي بالحاضر بالمستقبل فيتحول الماضي إلى المستقبل أو العصر الذهبي أداة لتغيير الحاضر، وهكذا دواليك. والأيديولوجية لها فعالية حسب رأي ما لأنها تعزل الجماهير عن الواقع، وهي لها فعالية حسب رأي آخر لأنها تبسط لهم الواقع وتفهمهم إياه. لكل هذا فالأيديولوجية تعني كل شيء وعكسه، وبوسع كلمة "أيديولوجية" أن تؤدي معاني مختلفة حسب منظور المتكلم، فالماركسي حينما يتحدث عن "أيديولوجية الطبقة العاملة" يشير في غالب الأمر إلى نسق فكري يعبر عن رؤية هذه الطبقة الصاعدة التي ترفض الأمر الواقع (المنحل) وتعبر عن الحركة التاريخية الكامنة التي ستتحقق من خلالها. أما إن استخدم مفكر يميني نفس المصطلح فلعله يعني بأنه فكر الغوغاء التي لا يمكنها إدراك التاريخ، وبالتالي تصدر أحكاما مباشرة هوجاء نابعة من استجابتها المباشرة للواقع المادي وتعبيرا عن

مصالحها المادية الضيقة. وعبارة مثل "إن هذه النخبة الحاكمة تفتقد الرؤية الإيديولوجية "تعني أن هذه النخبة ليس عندها "أيديولوجية متكاملة"، أي أنها ليس عندها رؤية متكاملة للواقع. وفي عبارة مثل "إن هذه مجرد رؤية إيديولوجية" تعني أنها رؤية مجتزئة للواقع تلوي عنقه حتى يمكن أن يتناسب الواقع مع الإيديولوجية لا العكس (مثلما حدث حينما صرحت رئيسة الوفد السوفيتي لمؤتمر العنصرية الصهيونية في بغداد عام ١٩٧٧ "بأن الصهيونية قد قامت بطرد العمال والفلاحين العرب". وهي بتصريحها هذا كانت تحاول أن ترد حركة التاريخ بأسرها لمقولة طبقية. وحينما ذكّرتها بأن الصهيونية طردت العمال والفلاحين والرأسماليين والإقطاعيين العرب بل والبروليتاريا الرثة العربية، وأن الجميع طُرد لا لأنهم عمال وبروليتاريا رثة وإنما لأنهم عرب، وأن علينا أن نتعامل مع هذه الحقيقة التاريخية الصلبة حتى لو لم تعجبنا أو تتفق مع آرائنا، اتهمتني العالمة الفاضلة بأنني ميتافيزيقي وأنني أدّعي أن الصهيونية نزلت علينا من السماء ولم تكلف خاطرها بالرد على مقولتي واكتفت بالرد الاختزالي الذي شوّه مقولتي تماماً. ومن الواضح أنني كنت موضوعيا أكثر منها بمراحل في محاولتي التفسيرية، ولكنها كانت تعني في واقع الأمر أنني لست على استعداد للانصياع لتبسيطاتها النظرية الموضوعية العلمية!.

المصطلح إذن مختلط الدلالة ولكنه أيضا غريب على اللغة العربية، ولذا نظرا لغرابته يصبح نحت فعلا منه مسألة صعبة للغاية. وقد استخدم عبد الله العروي (وآخرون) فعل "يؤدلج" وهو فعل جرسه قبيح لا يستدعي أي شيء للعقل، يكاد يكون دالا دون مدلول (إن أردنا استخدام مصطلح التفكيكيين)، أو مجرد حروف متتالية تشبه في رنينها مصطلح "أيديولوجية"، ولكن لا يمكن للمرء بأية حال أن يتخيل النشاط الذهني الذي يقوم به هذا الإنسان الذي "يؤدلج". إن كلمة "أيديولوجية" اسم أعجمي يصعب نحت فعل منه، وهذا يعود إلى عبقرية اللغات الهندية الأوروبية، فهي لغات يحتل فيها الاسم مكان الصدارة على عكس اللغات السامية التي يشكل الفعل فيها الوحدة الأساسية التي تولد منها الأسماء والدلالات والصفات. وفي تصوري أن العلوم الإنسانية العربية يمكنها أن تصل إلى مستوى إبداعي مستقل لو ابتعدت قليلا عن التفكير بالاسم وبدأت بالتفكير بالفعل (ومشتقاته). فالفعل يتسم بأنه يعكس السكون والحركة، والشيء والنشاط، ويمكنه أن يعبر عن الذات والموضوع في ذات الوقت (في محاضراتي في النقد الأدبي الغربي أجد نفسي أعود دائما للصيغة العربية "يستنطق النص" لحل إشكالية الذات والموضوع، فالكلمة تعني أن النص كلمات متراصة صامتة لا تفصح عن شيء إلا من خلال الناقد. ولكن هذا لا يعني أن الناقد يملي عليه ما يريد وإنما يتفاعل معه ويستبطنه ويتكشف

قواعده حتى ينطق النص فيفضي بأسراره ويكشف سره، أي أن الاستنطاق هو حديث الموضوع من خلال الذات وحديث الذات من خلال الموضوع دون أن يفنى الواحد في الآخر، إذ يبقى النص نصا والناقد ناقدا، وبدلاً من الحديث عن موت النص وموت المؤلف (وكلها نابعة من عبارة نيتشه "موت الإله" والتي تعني في واقع الأمر موت للكليات والمطلقات والمعنى) فإننا نتحدث عن التفاعل بين النص والناقد. وأعتقد أنه من المستحيل العثور على صيغة مماثلة بصيغة يستفعل في اللغات الأوروبية، فمن الواضح أن الفعل يتفق مع نموذجنا المعرفي الذي اقترحه أكثر من الاسم). والتفكير بالفعل سيعود بنا إلى صلب لغتنا العربية وامتدادنا التاريخي وسيعيد علاقتنا بالجماهير التي لا أعتقد أنها ستكن احتراما كبيرا لمثقف عربي يقوم "بالأدلجة".

والعودة للتراث وللمعجم العربي ليس الهدف منه هو تضخيم الذات القومية أو جمع الأنتيكة (أو حتى التقرب من الجماهير). فنحن لا نرفض الاستفادة من حضارة الآخرين ومن استعارة مفاهيم ومصطلحات منها. وقد فعل العرب القدامى ذلك بشجاعة وإبداع، ولكنهم استعاروا حينما بحثوا في معجمهم ولم يجدوا كلمة تفي بالحاجة، فلم يكونوا كسالى ولم يكونوا من الخانعين (ربما لأنهم كانوا من المنتصرين بينما انكسرنا نحن عسكريا في بداية القرن الماضي). إن الهدف من العودة للمعجم العربي هو العثور على أدوات ومصطلحات لها مقدرات تعبيرية مستقلة ترصد جوانب في الواقع لا يمكن للكلمات الغربية أن ترصدها أو إن رصدتها فترصدها بطريقة مغايرة لأن النسق اللغوي مرتبط بالنسق المعرفي (أقول مرتبط به وحسب، ولكنه مع هذا لا يرد إليه كلية، بمعنى أنني لست من دعاة النسبية العدمية التي ترى أن كل إنسان حبيس لغته ونسقه المعرفي، أو أن التواصل بين البشر مستحيل. كل ما أقوله أن ثمة طرق مختلفة للوصول إلى الإنسانية المشتركة، وأنني كعربي وكمسلم يجب أن أصل إلى هذه الرقعة المشتركة من خلال لغتي، فأنا أكثر اطمئنانا وإبداعا، وفي نهاية الأمر، إنسانية داخلها).

وأنا أزعم أن اصطلاح "أيديولوجية" ـ نظرا لمواطن القصور التي أشرنا إليها ـ يمكننا الاستغناء عنه حتى لا نكبل العربية به. وسأقترح كلمة "قال" ومشتقاتها ومجموعة من الكلمات الأخرى المرتبطة بها كمصطلح لا ليحل محل "أيديولوجية" ولا كترجمة له وإنما كنقطة بدء مغايرة، تشير إلى رقعة واسعة من النشاط الإنساني تحتاج إلى تسمية. وقد سُميت جوانب من هذا النشاط "بأيديولوجية" في النسق المعرفي الغربي وإن كان من الصعب استخدام اصطلاح "أيديولوجية" للإشارة إلى "نشاط". فالاسم هنا يشير إلى "ثمرة النشاط" أكثر من النشاط ذاته، ولذا يضطرون في لغة مثل الإنجليزية إلى إضافة كلمة **process** التي

نترجمها نحن بكلمة "عملية". أما فعل Ideologize، فهو فعل نادر الاستخدام، غريب في الإنجليزية غربته في العربية.

وقد جاء في المعاجم العربية أن القول هو "الكلام" ولكنه أيضا "الرأي والمعتقد"، فيقال: ما قولك؟ أي "ما رأيك". ويحمل معنى الظن فينصب بعده المبتدأ والخبر عند بعض العرب مثل "أتقول مسافر قادما اليوم". ويقال "القول الفصل" أي الفاصل بين الحقوق والباطل، في مقابل "القول الباطل" أي الزائف الكاذب. ويرتبط بهذه الكلمة عدة كلمات هامة تثري من معنى المصطلح الذي نود استخدامه، فهناك كلمة "القال" وهي "فضول القول مما يوقع الخصومة بين الناس". وقد نهى الرسول عليه الصلاة والسلام عن "القيل والقال". وهناك أيضا "المقال" (لكل مقام مقال) و"المقالة" (المقالة الافتتاحية) و"المقولة" (الفلسفية أو المعرفية). أما فعل "قال" وهو الجذر الأساسي فإمكاناته متعددة، وعلى سبيل المثال لا الحصر هناك "يقول له" بمعنى "خاطبه"، و"يقول عليه" بمعنى "اجتهد" و"يقول به" بمعنى رآه رأيا". وميزان الصرف العربي يمكنه أن يولد العديد من الكلمات مثل "أقوله" ما لم يقل و"تقول عليه قولا" و"قاوله" في الأمر وغيرها من الكلمات. وفعل "قال" ومشتقاته يشير إلى نشاط إنساني عريض يمكن أن نعرفه بأنه كلا من عملية التفكير والإفصاح أي ثمرة التفكير. فالكلمة العربية لا تفصل بين الفكر والإفصاح عنه وإن كانت تراهما على أنهما نفس الشيء أيضا (أي أن ثمة وحدة بين الفكر والإفصاح ولكنها وحدة غير عضوية، وحدة داخلها ثغرات تتسم بالاستمرار وعدم الاستمرار).

إن جعلنا جذر "قال" وكلمة "القول" نقطة البدء فإننا يمكننا أن نشير إلى أنه لا يوجد في اللغات الأوروبية ما يؤدي معناهما على وجه الدقة بل هناك عدة كلمات منها Ideology أيديولوجية وكلمة discourse (التي تترجم بكلمة "خطاب") وكلمة sayings التي تترجم بكلمة "أقوال" بمعنى ما قاله شخص ما وحسب. وأعتقد أن ما يحدث الآن في الحضارة العربية هو أننا نترجم عن اللغات الأوروبية حتى حينما نفكر، فنحدد المجال الدلالي لكلمة "قول" بالمجال الدلالي لكلمة sayings، مع أن المجال الدلالي للكلمة العربية مختلف تماما عن المجال الدلالي للكلمة الإنجليزية، ثم نحكم على كلمة "قول" بأنها سطحية ولا تؤدي المعاني التي نود أن نفصح عنها. ثم نلقي بالكلمة العربية في سلة المهملات أو نقصر استخدامها على مدلولها السطحي الذي اكتسبته من الكلمة الغربية. ونبدأ في الاستعارة من المعجم الغربي وندخل في الطريق المسدود الذي يؤدي "للأدلجة" والعياذ بالله، حيث لا يفهم

القول الأعمى سوى القائل نفسه! وهذه العملية ستحكم علينا بتبعية أزلية للغرب وتقف سدا منيعا ضد أي إبداع عربي حقيقي في مجال العلوم الإنسانية.

لكل هذا فأنا أقترح أن ننسى الآن كلمة "أيديولوجية" دون أن ننسى بالضرورة القضايا الفلسفية التي تثار بخصوص علاقة الفكر بالواقع والوعي بالفكر، فهي قضايا أساسية لا يمكن إسقاطها. بل أنني أزعم أن إسقاط مصطلح "أيديولوجيا" هذا سيمكننا أن ندرك الطبيعة الفلسفية الإنسانية العامة لهذه القضايا وسنحررها من أي خصوصية غربية (بسبب ارتباطها بالمصطلح الغربي) فنحن لا نريد أن نترجم عن الغرب وإنما نود أن نفكر ونبدع من خلال حوارنا مع كل الحضارات – تماما مثلما فعل العرب القدامى في كثير من القضايا الفكرية التي طرحت عليهم نتيجة احتكاكهم بالحضارات الأخرى غير العربية ثم غير الإسلامية فقد أداروا الحوار بخصوص هذه القضايا داخل إطارهم المعرفي اللغوي، ولم يتوقفوا ليروا هل كلمة "بويسيس" poesis عند أرسطو (وهي تعني الصنع والشعر) مرادفة لكلمة "الشعر" العربية وأنها تغطي المجال الدلالي للكلمة اليونانية. وإنما جعلوا نقطة البدء الكلمة العربية والمجال الدلالي العربي وجعلوا إطارهم المعرفي الحضارة العربية ثم قرؤوا أرسطو وتأثروا به واستوعبوا منه ما استوعبوا ورفضوا ما رفضوا وأثروا تراثنا الفكري ووجداننا الشعري العربي والفكر الإنساني عامة وظلوا يتحدثون عن الشعر لا عن "البويسيس". ويمكنني القول – بلا حياء ولا فخر- بأنني ما كان من الممكن أن أصل إلى أطروحاتي ومصطلحي وموقعي الجديد إلا من داخل التراث العربي الإسلامي وحده، وما كان يمكنني أن أطرح هذه القضية لو لم أتفاعل مع التراث الفكري الغربي والفكر الماركسي على وجه الخصوص، الذي يشكل واحدة من أكثر المحاولات الفكرية الغربية إبداعا في نقد الحضارة الغربية (وإن كان نقده يظل نقدا من الداخل من خلال النموذج المعرفي الغربي). ولكن تفاعلي مع التراث الغربي وطرحي أسئلة جديدة لا يعني أن انتقل من "هنا" إلى "هناك"، بل إنه يجب أن نطل عليهم ونفهم ما يقولون جيدا ثم نطرح على أنفسنا الأسئلة التي تثيرها هذه الإطلالة، وهي عملية لابد وأن تزيد من الإبداع العربي طالما أننا لا نتخلى عن هويتنا أو نماذجنا المعرفية ولغتنا، وطالما أن الأسئلة التي نطرحها هي أسئلتنا نحن نطرحها بلغتنا العربية على أنفسنا ونحاول أن نصوغ إجابتنا من الداخل، مستفيدين من الحوار مع الآخر، دون أن نرضخ له وقولي هذا لا يزيد ولا ينقص من قدر محاولتي.

والله أعلم.

***

<u>ملاحظة</u>: هذه المقالة نشرت بموقع الجزيرة نت بصفحة المعرفة- وجهات نظر بتاريخ ١ أبريل ٢٠٠٨.

***

٤٦- في الدفاع عن الهوية

موقع الجزيرة نت 01-09-2007

يرى البعض أن هناك استهدافاً للهوية العربية بحد ذاتها أو بشكل خاص، ولكنني أذهب إلى القول أن هذا صحيحاً وغير صحيح في الوقت ذاته، فهناك ما يهدد الهوية على الصعيد العالمي، حيث أفرزت الحضارة الغربية ظواهر تهدد ظاهرة الإنسان نفسه، من أهمها ما أسميه الاستهلاكية العالمية التي تضرب صميم ثوابت الإنسان وأخلاقياته. لقد ظهر في القرن التاسع عشر في الولايات المتحدة حضارة جديدة تتميز بالبرجماتية بمعنى أنها تفضل السهل على الخيّر والجميل. هذه الحضارة حققت انتشاراً غير عادي وأصبح يطلق عليها اسم النظام العالمي الجديد، وهى ترجمة لنظرية أن الناس هم مجموعة من البشر ليست لها هويات محددة، وما يهم هو الوفاء باحتياجاتهم المادية المباشرة، وبذلك اختفى المشروع الخاص وحلت محلة حضارة الكوكاكولا والهامبورجر! ومع تآكل الهوية، يزداد التراخي الإنساني، وتزداد النزعات الذرية في المجتمع، وتصبح الهجرة إلى الخارج أو السطو على بنك أو شراء ورقة يا نصيب هو الحل، وأصبح من الصعب أن نطلب من الجماهير أن تستيقظ مبكرة وأن تضحي بنفسها وأن تؤدي عملها في غياب مثل أعلى!! لابد أن يدرك الناس أن الهوية ليست مجرد فولكلور ولكنها في واقع الأمر تعبير عن رؤية كاملة للكون. فالناس تستيقظ كل يوم لأداء عملها لتحقيق هدف ما، ولكن بدون وجود هدف تصبح عملية الاستيقاظ عملية بيولوجية خالية من المعنى. بينما أعتقد أنه في ظل وجود مشروع حضاري يعبر عن الهوية وعن رؤية الكون يصبح الاستيقاظ فعل إنساني يسهم في بناء الوطن.

ومع هذا هناك عوامل تهدد الهوية العربية على وجه الخصوص منها أن حضارة الصورة بدأت تحل محل اللغة المكتوبة أو الشفهية، والعرب لم يتملكوا بعد ناصية هذه اللغة الجديدة، ولذا فإن الأفلام الأمريكية والفيديو كليبات (التي تعبر عن رؤية للكون لا تكترث كثيراً بالهوية أو بمجموعة القيم المرتبطة به) تكتسح الإنسان الغربي وتقوضه.

كما أن أكبر تهديد للهوية العربية هو الدولة الصهيونية لأن مشروعها هو بعث ما يسمى "الهوية اليهودية"، وهذا يتطلب تفتيت الهوية العربية ومحوها. ومن هذا المنظور الصهيوني لابد من العودة إلى ما قبل الإسلام، حيث كانت هناك هوية آشورية وفرعونية وفينيقية، ومن هنا الدعوة للعودة إلى الحضارة الفرعونية، وإلى الحضارة الفينيقية في لبنان والحضارة الآشورية البابلية في العراق! وهذه كلها حضارات متحفية جميلة لكنها ليس لها امتداد في

الحاضر. ولكن الدولة الصهيونية تريد أن يصبح الشرق الأوسط مقسم إلى دويلات أثنية ودينية وعرقية، ومن ثم تصبح الدولة العبرية مسألة طبيعية للغاية، لأنه داخل التشكيل الحضاري العربي فإن مثل هذه الدولة تصبح كيانا دخيلا شاذا! وقد ترجم المخطط الصهيوني نفسه في الآونة الأخيرة إلى فكرة السوق شرق الأوسطية ثم مشروع الشرق الأوسط الكبير، حيث يتم تفتيت الهويات، لتظهر الهوية العبرية وتقوم بقيادة المنطقة وتوظفها لصالح الغرب.

هناك كذلك محاولة لضرب الفصحى، وعاء الذاكرة التاريخية، وبدون هذه الذاكرة التاريخية وبدون الفصحى يتحول الإنسان العربي إلى الإنسان ذي البعد الواحد الذي يمكن التنبؤ بسلوكه ويمكن توجيهه ليستهلك السلع التي تنتجها له الشركات عابرة القوميات والحدود والهويات. أما الإنسان الذي لا يدخل ضمن هذه المنظومة فإنه إنسان غير استهلاكي وبالتالي فهو بوسعه مقاومة هذه المنظومة.

لكل هذا لابد أن نتصدى للجهود المبذولة لتفتيت الهوية، فلابد أن نبين لجماهيرنا أن الهجوم على الهويات هو إحدى السمات الأساسية للنظام العالمي الجديد، وأن الهجوم على الهوية العربية هو إحدى البنود الأساسية في المخطط الاستعماري بالنسبة لعالمنا العربي، وأن نبيّن لهم ضرورة التمسك بالهوية، وأنها ليست مجرد زخرف جميل، وإنما مكون أساسي من شخصيتنا القومية، وأن التنمية بدون تفعيل الهوية أمر مستحيل. وحيث أن منتجات الحضارة الغربية (الأفلام- الفاست فوود- الاستهلاكية) هي التي تهدد هويتنا، يصبح من الضروري أن نبيّن الجوانب المظلمة للحضارة الغربية ولمنتجاتها التي تُصدّر لنا والتي نبتلعها ونهضمها بسهولة بالغة. ومن هنا ضرورة قيام وكالة أنباء عربية متخصصة تعمد إلى رصد هذه الحضارة، بعيدا عن تأثير الإعلام الغربي، وتبيّن الثمن الفادح الذى يدفعه المواطن الأمريكي بسبب سياسات الحكومة الأمريكية. كما يجب أن نطرح مفهوماً للوحدة غير العضوية فيما أسميه "الوحدة الفضفاضة" التي تفسح المجال أمام كل الجماعات الإثنية والدينية أن تعبر عن هويتها، طالما أن هذا التعبير لا يفت في عضد سيادة هذه الدولة. فالنظام التعليمي - مثلا- ينبغي أن يقبل بالتعددية. والوحدة الفضفاضة هذه تسمح لكل دولة أن تدخل في إطار الوحدة العربية دون أن تفقد ما يميزها. فالمغرب -على سبيل المثال- بلد عربي إسلامي، يتسع لجماعات أخرى مثل الجماعات الأمازيغية. والعراق بلد عربي إسلامي يتسع للسُنَّة والشيعة والأكراد والتركمان.

وأعتقد أن نموذج مصر نموذج جيد لهذه الوحدة الفضفاضة، فرغم كل الأحداث (الأخيرة)، يظل أقباط مصر لهم عقيدتهم وهويتهم، ويظلون جزءاً من المجتمع المصري. إن فرض مفهوم الوحدة العضوية يؤدي إلى العنف والصراع، أما مفهوم الوحدة الفضفاضة فسيخلق لكل جماعة فضاءها الحضاري الخاص بها، وسيندرج الجميع داخل إطار التشكيل الحضاري العربي. ولعل ما حققته الدول الأوربية من خلال الاتحاد الأوربي قد يكون نموذجا نسترشد به.

وقد فشلت مشاريع النهضة العربية في العصر الحديث لأنه، مع الأسف، لا يزال البعض يرى أن جوهر المشروع النهضوي العربي هو التخلي عن هويتنا وتراثنا ثم اللحاق بالغرب. وقد أدى هذا إلى إسكات حاستنا النقدية في علاقتنا بالغرب، ونكتفي بنقل ما يأتينا من أفكار. لننظر مثلا موقفنا من الحداثة؟ هناك من السلفيين من يرى ضرورة رفض كل ما يأتينا من الغرب، وهناك الأصوليين العلمانيون الذين يرون ضرورة (وأحياناً حتمية) تبني منظومة الحداثة الغربية، بخيرها وشرها، وحلوها ومرها، وكأننا كائنات متلقية تستوعب كل ما يأتينا من الغرب دون أن نعمل ملكتنا النقدية؟ ألا يمكن أن نُخضِع هذه الحداثة الغربية لعملية نقد وتقييم صارمة، فنبيّن جوانبها المظلمة، ثم نطرح رؤيتنا لحداثة إنسانية إسلامية تضم الجميع، ولا تجعل من تصاعد معدلات الاستهلاك مؤشراً يتيماً على التقدم؟

بل فلننظر إلى ما فعلنا مع مدرستين فكريتين مثل البنيوية والتفكيكية. لم يسأل أحد لماذا أصبح الغرب بنيويا معاديا للإنسان؟ لقد تعلمنا قديما الإنسانية الهيومانية من الغرب، فلماذا قرر الغرب فجأة في الستينيات أن يعادي الفكر الإنساني الهيوماني، ويرى أنه ملوث بالميتافيزيقا؟ ماذا حدث لتأتي التفكيكية وتعلن انتهاء المعنى وفشل اللغة، وموت المؤلف؟ لقد تحولنا إلى ناقلين، وعندما ينظر أحدنا إلى كتاب نقد أدبي غربي فإنه ينقل ما فيه بأمانة شديدة، ولا يسأل: إلى ماذا سيؤدي هذا المفهوم، وما مغزاه، وما هي المفاهيم الكامنة فيه؟

وقد لوحظ في الآونة الأخيرة استقطاباً واسعاً في الساحة المصرية حول طبيعة هوية مصر، إذ ظهر مرة أخرى دعاة العودة إلى الفرعونية، والذين ينادون بأن "مصر أولاً". وفي تصوري أن هؤلاء لا يفهمون لا حقائق الجغرافيا ولا حقائق التاريخ. ولعلهم لو قرؤوا جمال حمدان لفهموا بعض هذه الحقائق، ولعرفوا أن هم الاستعمار الغربي هو فصل مصر عن الجسد العربي، فيتهاوى الجميع سويا. وهذا كان هو هدف معاهدة كامب ديفيد. ألا يتم تقسيم العراق والسودان ولبنان ومحاصرة فلسطين، و "مصر أولاً" جالسة تراقب، وتلعب دوراً ذيلياً غير مؤثر غير مدركة أن كل هذا يهدد أمنها القومي؟ إن مصر (وفلسطين) من أهم البلاد في العالم

من الناحية الاستراتيجية، ولكن بنيتهما التحتية السكانية والاقتصادية لا تمكنهما من الدفاع عن نفسيهما. ولذا حين كانت تحدث نهضة في مصر كان لابد وأن تدافع عن جناحها الشرقي وتوطد صلتها ببقية العالم العربي، حتى يتحدث الجميع بصوت واحد أو تتحدث مصر باسمهم. هذا ما فعله الفراعنة، وهذا ما فعله إبراهيم باشا في العصر الحديث، ثم جمال عبد الناصر. ولذا كانت مواجهته مع الاستعمار مواجهة شرسة، انتهت بضربة ٦٧. ثم أطلت الفرعونية و"مصر أولاً" برؤوسها تعبيراً عن هذه الهزيمة، ووصلنا إلى ما وصلنا إليه.

ويسأل البعض متى تستعيد مصر دورها الثقافي، وهل هذا له علاقة بقضية الهوية؟ وللإجابة على هذا السؤال لابد أن أوضح أمرين: أولاً يجب علينا أن ندرك أن العالم العربي لم يعد كما كان في منتصف القرن الماضي. ففي الخمسينيات كان يوجد مركز قوي وكثيف للثقافة العربية هو القاهرة، وكانت الأطراف ضعيفة. أما الآن فالأطراف لم تعد ضعيفة إذ يوجد مراكز ثقافية عديدة في العالم العربي من أهمها المغرب وسوريا والعراق قبل الاحتلال ولبنان والسعودية. لقد أقمت في السعودية عدة أعوام وتعرفت على النشاط الثقافي الثري فيها وعلى مجموعة من المثقفين الذين يتمتعون بمستوى عالٍ من المعرفة والإبداع. كما أننا نعرف جميعاً الإبداعات الفكرية التي تأتينا من المغرب وتؤثر في كثير من الشباب المصري. كما أنني على علاقة طيبة بكثير من المثقفين والناشرين السوريين وأعرف إسهاماتهم الثرية الكثيرة.

ثانيا يجب أن ندرك أن مصر لن يمكنها أن تستعيد دورها القيادي الثقافي داخل هذا الوضع الجديد في العالم العربي، حيث لا مركز ولا أطراف، أو أطراف قادرة على الإبداع والإسهام، إلا بعد أن تعرِّف هويتها، ونحن إن عرفّنا هويتنا سيكون بوسعنا أن نعرّف أولوياتنا وأن نقرأ ماضينا وحاضرنا، ومن ثم يمكن أن نتحرك نحو المستقبل.كما أنه إن عرفّنا الهوية فيمكن أن نجند الجماهير لتحقيق مشاريعنا نحو التطوير والتنمية والتحديث. فالإنسان لا يستجيب للقانون العام، وإنما يستجيب لما هو متعين وخاص، إذ بوسعه أن يستوعبه ويستبطنه ثم يتحرك في إطاره. إن أي مشروع للتنمية يتطلب قدرا من الإرجاء لإشباع الرغبات حتى يتحقق قدرا من التراكم. هذا الإرجاء ممكن في إطار مشروع قومي يتجاوز الفرد واحتياجاته المادية المباشرة وهمومه اليومية الخاصة. فبوسع الإنسان أن يحرم نفسه من الإشباع المباشر والفوري في إطار مثل أعلى سيحقق له، ولأولاده من بعده، قدرا من السعادة الآجلة. لكي تقود مصر المنطقة العربية لابد أن تحدد هويتها.

وأنا أتساءل هل مصر بمكوناتها الحالية مرشحة لهذا الدور، أم أننا على مشارف تآكل هذه الهوية؟ وسوف أجيب على كل هذه التساؤلات بصراحة فأقول "أنا متشائم!!" لأن التوجه الآن في مصر هو توجه برجماتي عملي، فنحن نحاول أن نجد حلولا لبعض المشاكل الملحة مثل مشكلة الغلاء، أو المواصلات، أو المساكن، أو الميزان التجاري أو العطش دون أن نضع استراتيجية عامة، ولا يمكن وضع مثل هذه الاستراتيجية إلا بعد أن نعرّف هويتنا ومرجعيتنا النهائية. وأنا أزعم أن هذا المشروع الحضاري الذي يستند إلى تعريف للهوية غائب عن مصر. فالهوية المصرية على المستوى المصري أو العربي أو الإسلامي ستزداد ترهلا وميوعة!!

والله أعلم.

***

٤٧- كنيس يهودي أم غواصة حربية؟

جريدة الاتحاد الإماراتية: ٢٠٠٨-٠٥-٠٣

في مقال بعنوان "الاتجاه هو الدياسبورا والمنفى" نُشر في الطبعة الإلكترونية لمجلة جيروساليم ربورت.كوم (٢٥ فبراير ٢٠٠٢)، تشير الكاتبة دارين جاميك إلى مقال نشر في البوسطن جلوب الأمريكية بقلم كاتب يُدعى تاي Tye يقول فيه: "ثمة حقيقة يهودية إيجابية جديدة، وهي أن عشرات الجماعات اليهودية في العالم تمارس نهضة دينية وثقافية". ولكن ما هي هذه "النهضة"؟ يخبرنا الكاتب أن دعاء "العام القادم في أورشليم" قد أصبحت صورة مجازية قديمة لا تصلح للعصر الحديث. فإسرائيل -حسبما يقول الكاتب- لم تعد الوطن القومي لليهود، بل هي مجرد وطن لليهود مثل أوطان كثيرة أخرى، يقيم فيها اليهود ولا ينوون مغادرتها. ولم يعد من الممكن تصور أن الدياسبورا محطة مؤقتة [كما يتصور الصهاينة] في الطريق إلى إسرائيل، فالاتجاه هو الدياسبورا.

ومع هذا لا يزال المتحدثون باسم الوكالة اليهودية يرددون بحكم وظيفتهم (ومرتباتهم العالية) المقولات الصهيونية القديمة، رغم إدراكهم أن هذه المقولات لا علاقة لها بواقع يهود العالم، فهؤلاء المتحدثون أعضاء في بيروقراطية تحاول البقاء بأي ثمن، بغض النظر عن مصلحة الجماعة التي عينتها أو انتخبتها لتمثلها ولتدافع عن مصالحها، وهي في هذا لا تختلف عن أي بيروقراطية أخرى.

ويثير أنشيل باير قضية هامة، تقع خارج نطاق المقولات الصهيونية، فيقول في مقال بعنوان "قدرة الدولة علي توفير الحماية ليهود الشتات محدودة" (هآرتس ١٨ فبراير ٢٠٠٨) "فلنفترض أن إسرائيل هي بالفعل التي كانت وراء قتل ضابط العمليات في حزب الله عماد مغنية (رغم نفيها لذلك). فهل عُقدت جلسة "وربما سلسلة من الجلسات علي أعلي المستويات تم خلالها البحث في الأمور المترتبة على هذه العملية، مع طرح الافتراض شبه المؤكد بأن حزب الله سينتقم وليس بالضرورة من خلال الهجمات على الأراضي الإسرائيلية"، لا بل من خلال ضرب أهداف يهودية تقع خارج حدود الدولة الصهيونية في العالم". "هل كانت إمكانية شن هجمة دموية علي يهود الشتات ضمن الاعتبارات التي وقفت وراء قرار القيادة الإسرائيلية التي قررت تصفية مغنية؟ وهل كان من الواجب أن يكون هذا الاعتبار قائما؟"

ويبيّن الكاتب أن يهود العالم "سواء رغبوا أم لم يرغبوا محسوبون تلقائياً على دولة اليهود. الهجمة علي مبني الجالية اليهودية في بوينس ايريس في عام ١٩٩٤ والانفجارات في الكنيس

في اسطنبول في السنوات الأخيرة برهنت على أن الشتات هو النقطة الأضعف لدولة إسرائيل".
لقد أصبح الدخول الي كنيس يهودي في بعض الدول –حسب تصور الكاتب- يشبه الولوج إلى غواصه حربية. مباني الجاليات اليهودية في أنحاء العالم موجودة في أماكن حصينة ومحروسة من قبل كتائب من عناصر الشرطة. وفي دول أخرى مثل الولايات المتحدة تتراوح الحراسة بين البسيطة والغائبة تماماً. علي أية حال ليس هناك نقص في الأهداف. من الناحية الأمنية، هناك حدود لقدرة إسرائيل علي توفير الحماية ليهود العالم الذين يقطنون في دول سيادية وتحت مظلة حكومات ملزمة بالدفاع عنهم.

والسؤال الذي يثيره الكاتب هو ما يلي: إسرائيل أقيمت قبل كل شيء حتى تكون مكاناً آمنا وملجأ لكل يهودي كائناً من كان. ضمن هذا المفهوم يفترض أن تخدم العمليات التي ترمي إلى تحسين أمن إسرائيل تخدم في نفس الوقت أمن اليهود الموجودين خارجها كذلك. إلا أن أولئك اليهود معرضون في نفس الوقت لخطر محدق جسيم جداً: [بسبب دفاع دولة اليهود عن مصالحها دون أخذ مصلحة يهود العالم في الاعتبار]. ثم يضيف الكاتب قائلاً: "أليس واجبنا الأخلاقي تجاه إخواننا في الشتات الذين ساعدونا بأموالهم ومساعيهم في بناء قوتنا العسكرية، أن نأخذ هذه المسألة ضمن اعتباراتنا. يهود العالم لسوء حظهم جزء من الحرب الطويلة بين إسرائيل وحزب الله وباقي التنظيمات الأخرى، ولكن من الصعب التيقن من كون مخاوفهم قد أخذت بالحسبان مع تنفيذ كل عملية هامة".

ويحاول البروفيسور يحزقيل درور حل هذه الإشكالية في مقال بعنوان "مسألة للشعب اليهودي" (هآرتس ٩ أكتوبر ٢٠٠٨) يقترح فيه اشتراك ممثلي يهود العالم بصورة تدريجية ومدروسة في عملية صنع القرارات السياسية الحاسمة بالنسبة لإسرائيل، خصوصا ما يتعلق بقضية الحدود وإخلاء تجمعات سكانية ومستقبل القدس.

ويرفض شلومو أفنيري، عالم السياسة الإسرائيلي المشهور والمستشار السابق لوزارة الخارجية، هذا الرأي في مقال بعنوان "اقتراحات ضم يهود الشتات لعملية صنع القرارات الحاسمة بالنسبة لدولة إسرائيل مسألة مرفوضة ومستحيلة التطبيق" (هآرتس ١١ أكتوبر ٢٠٠٧) فيقول: إن اقتراح البروفيسور درور مختل من أساسه وغير قابل للتنفيذ. ثم يتساءل: "من الذين سيتم إشراكهم بالضبط في العملية؟ ذلك لأنه ليست لدي يهود الشتات مؤسسات تمثيلية معتمدة. لنأخذ مثلا الجالية الأكبر في أمريكا. لا يعرف أحد ما هو عدد يهود الولايات المتحدة الأمريكية (التقديرات تتراوح بين ٤-٦ ملايين)، هناك عشرات إن لم نقل مئات من الهيئات والمنظمات اليهودية التي تتفاخر كل واحدة منها بعدد أعضائها، والتي هي في بعض الأحيان مريبة وغريبة. من الذي سيكون من حقه أن يصوت؟ ماذا عن مئات آلاف أبناء

الزيجات المختلطة؟ من الذي سيحدد في الولايات المتحدة أو في أية دولة أخرى، مَن مِن حقه أن يشارك في هذه الانتخابات، ووفق أي العيار؟ ذلك لأنه من الواضح أن مؤسسات مثل الكونغرس اليهودي العالمي وعشرات المنظمات الأخرى لا تمثل إلا نفسها. من الواضح أننا أمام مهمة مستحيلة. من يعرف السياسة اليهودية الدولية يعرف أنها أسيرة في يد نشطاء سياسيين أو أصحاب رؤوس الأموال الذين ينجحون بفضل تبرعاتهم في ترؤس هذه المنظمات أو غيرها. هل سيكون هؤلاء شركاء في العملية الديمقراطية الإسرائيلية؟" والبروفيسور شلومو أفنيري يشير إلى أمرين دون أن يسميهما، الأول هو عدم التجانس اليهودي، والثاني هو عدم اكتراث يهود العالم بالمنظمة الصهيونية ومن ثم بالدولة الصهيونية. ثم يشير البروفيسور أفنيري إلى مسألة أخرى لا يمكن تجاهلها، وهي حقيقة أن منح مكانة الحسم في شؤون إسرائيل ليهود الشتات سيشجع الادعاءات بصدد الولاء المزدوج. لهذا السبب سترفض منظمات يهودية كثيرة بما فيها تلك التي تؤيد إسرائيل المساهمة في هذه العملية لان أعضاءها يرون أنفسهم، وعن حق، مواطنين أوفياء لبلادهم، بل إنهم من خلال صفتهم هذه يمارسون حقهم في التأثير علي حكوماتهم لتبني سياسة مؤيدة لإسرائيل.

وآخر القول: من الصعب التحرر من الانطباع بأن أحد الأسباب وراء هذه الاقتراحات هو محاولة الالتفاف أو تحييد قوة مواطني إسرائيل العرب الانتخابية. ليس هناك شك أن مواطني إسرائيل العرب يشكلون تحديا غير بسيط لدولة إسرائيل كدولة يهودية خالصة لليهود، ولكن ما يُقترح هنا هو أن يكون ليهود الشتات في المسائل الحاسمة تأثير علي سياسة دولة إسرائيل من دون أن يكون لمواطني إسرائيل العرب إسهام في ذلك.

وربما هناك أيضا مكان للتساؤل عما سيحدث إذا اتخذ الكنيست قراراً في قضية هامة وحيوية للكيان الصهيوني مثل القدس، وقرر مجلس الشعب اليهودي قرارا مختلفاً حول نفس المسألة؟.

والله أعلم.

***

٤٨ـ كيف نـأكل ونلبـس ونمـارس الجنس؟

نحـو حداثة إنسانية

عُرِّفَت الحداثة بأنها منظومة تذهب إلى أن الإنسان لا يحتاج إلا إلى عقله سواء في دراسة الواقع أو إدارة المجتمع أو للتمييز بين الصالح والطالح، فهو الآلية الوحيدة للوصول إلى المعرفة، وأن العلم والتكنولوجيا هما الآلية الأساسية وربما الوحيدة في محاولة تسخير الطبيعة وإعادة صياغتها ليحقق الإنسان سعادته ومنفعته.

<u>الحداثة المنفصلة عن القيمة</u>

هذا التعريف قد يبدو للبعض تعريفاً جامعاً مانعاً أو علي الأقل كافياً، ولكننا لو فحصنا الأمر بدقة أكبر لوجدنا أن الحداثة ليست مجرد استخدام العقل والعلم والتكنولوجيا، بل هي استخدام العقل والعلم والتكنولوجيا المنفصلة عن القيمة، أو كما يقولون بالإنجليزية: «فاليـو ـ فري Value - free »، وهذا البعد هو بعد مهم لمنظومة الحداثة الغربية، فالعالم المتجرد من القيمة المنفصل عنها هو عالم منفصل عن الإنسان، عالم الصيرورة المادية، حيث يخضع الإنسان لقوانين المادة. ولعله لهذا السبب عُرِّف الإنسان الحديث أنه الإنسان القادر علي تغيير قيمة أولوياته بعد إشعار قصير وأنه في عالم منفصل عن القيمة تصبح كل الأمور متساوية، ومن ثم تصبح كل الأمور نسبية. وحين يحدث ذلك فإنه يصعب الحكم علي أي شيء، ويصبح من المستحيل التمييز بين الخير والشر، والعدل والظلم، بل وبين الجوهري والنسبي، وأخيراً بين الإنسان والطبيعة أو الإنسان والمادة. وهنا يطرح السؤال نفسه كيف يمكن أن تحسم النزاعات والصراعات، وكيف يمكن أن نسوي الخلافات، وهي كلها من صميم الوجود الإنساني؟ في غياب قيم مطلقة، يمكن الاحتكـام إليهـا، يصبح الإنسان الفرد أو الجماعة العرقية مرجعية ذاتها، ويصبح ما تراه في صالحها هـو الصالح والخير كل الخير، وما ليس في صالحها هو الطالح والشر كل الشر. وقد أدي هذا إلى ظهور القوة والإرادة الفردية آليةً واحدة لحسم الصراعات وحل الخلافات.

هذه هي الحداثة التي تبناها العالم الغربي والتي تجعله ينظر إلى نفسه علي اعتبار أنه هو (وليس الإنسان أو الإنسانية) مركز العالم، وأن ينظر إلى العالم علي أنه مادة استعمالية يوظفها لصالحه باعتباره الأكثر تقدماً وقوة، ولذا فإن منظومة الحداثة الغربية هي في واقع الأمر

منظومة إمبريالية داروينية. هذا هو التعريف الحقيقي للحداثة كما تحققت تاريخياً، وليس كما عُرفت معجمياً، وهذا هو التعريف الذي يمكننا من قراءة كثير من الظواهر الحديثة.

كانت الظاهرة الغربية الحديثة تؤكد أنها حضارة إنسانية (هيومانية) جعلت من الإنسان مركز الكون، وكانت المجتمعات الغربية مجتمعات لا تزال متماسكة من الناحية الاجتماعية والأسرية، ولم يكن كثير من الظواهر السلبية التي نلاحظها بأنفسنا، ونقرأ عنها في صحفهم ومجلاتهم، والتي أصبحت نمطاً ثابتاً وظاهرة محددة قد تأصلت، بل كانت مجرد حوادث متفرقة لا ظواهر دالة، ومن ثم كان من السهل تهميشها. ومن هنا كان دعاة الإصلاح (من الليبراليين والماركسيين والإسلاميين) كلهم ينادون بضرورة اللحاق بالغرب (أي أن نتبني منظومة الحداثة الغربية). ولم يكن هناك أي أصوات تعارض الحداثة الغربية أو تنتقدها، بل كان الجميع يسبّح بحمدها، وقد كانوا محقين إلى حد كبير في هذا، فشكل الحداثة الذي أدركوه آنذاك كان أمراً يثلج القلوب.

ولكن تدريجياً تكشف الوجه الدارويني حين أرسلت الحداثة الغربية لنا جيوشها الاستعمارية لتهلك الأخضر واليابس، وتحول بلادنا إلى مادة استعمالية، ومصدر للمواد الخام، والعمالة الرخيصة، وسوق مفتوحة بشكل دائم للسلع الغربية. ويبدو أن المفكرين الإصلاحيين الأول لم يربطوا بين الحداثة والإمبريالية الغربية، فقد ذهبوا إلى العواصم الغربية ولم يروا سوي النور والاستنارة، في الوقت الذي كانت المدافع الغربية تدك بلادنا دكاً، أما هؤلاء الذين بقوا في بلادهم في آسيا وأفريقيا فقد رأوا ألسنة النيران المندلعة، وسمعوا قعقعة القنابل، وشموا رائحة البارود. يقول أحد كتب التاريخ: إنه قيل لأحد الشيوخ الجزائريين: إن القوات الفرنسية إنما جاءت لنشر الحضارة الغربية الحديثة في ربوع الجزائر، فجاء رده جافاً ومقتضباً ودالاً، إذ قال: لم أحضروا كل هذا البارود إذن؟

ويمكن القول أن المشروع التحديثي الغربي مشروع عقلاني مادي، فكان هناك الأمل المادي البطولي في أن تقوم الذات الإنسانية (الغربية) بالاستقلال عن الإله وتغيير الواقع والهيمنة علي الطبيعة، وهو أمل يفترض أسبقية الإنسان علي الطبيعة أو توازيها معه. وحاولت الفلسفة الغربية في عصر التحديث قصاري جهدها لتأسيس نظم معرفية وأخلاقية تحتفظ بهذا التوازن بين الذات الإنسانية والموضوع الطبيعي/ المادي. وكان التصور أن العقل المادي قادر علي استخلاص الكليات من التفاصيل المادية المتناثرة، وأن هذه الكليات تتسم بقدر كبير من الثبات ولذا فهي غير خاضعة للصيرورة المادية، متجاوزة لها، علي الرغم من أنها مستخلصة من التفاصيل المادية ولا تشير إلى أي شيء متجاوز للمادة، ولذا فنحن نشير إليها بأنها «الكل

المادي المتجاوز». هذا التصور أصبح نقطة ثبات وارتكاز ومركزا للمنظومة المادية في عصر التحديث.

ولكن إذا كان الإنسان الحديث إنسانا عقلانيا ماديا، أليس عليه أن يتبني رؤية علمية موضوعية مادية؟ وهنا تبدأ عملية تفكيك الإنسان، فالمعرفة العلمية المادية معرفة موضوعية ترفض الغائيات الإنسانية والخلقية، والحقيقة العلمية المادية منفصلة تماماً عن القيمة، والعقل المادي الذي يقوم بعملية مراكمة المعلومات لا يحترم الخصوصيات والأسرار ولا يهتم إلا بالتشابه والتجانس والنفع. وهذه المعرفة العلمية المادية (رغم تجاوزها للإنسان وعدم اكتراثها به) ستطبق علي الإنسان لترشيده وترشيد حياته. وهذا يعني أمرين:

١- صياغة حياته وبيئته المادية والاجتماعية في ضوء قيم وأنماط علمية غير شخصية ولا إنسانية.

٢- تسيير حياة الإنسان في إطار مكوناته المادية.

كل هذا يعني في واقع الأمر اختفاء الحدود بين الإنسان والطبيعة/ المادة، وإزاحة الإنسان من مركز الكون، ونزع القداسة عنه تماماً. وبدلاً من ثنائية الطبيعة/ الإنسان، يظهر الإنسان الطبيعي الذي هو الإنسـان الطبيعي/ المادي، أي جزءا لا يتجزأ من عالم الطبيعة / المادة، وهو أيضـاً الإنسان الوظيفي الذي يعرَّف في إطار وظائفه البيولوجية التي تحكم وجوده ووظيفته الاجتماعيـة الموكولة إلـيه. كما تظهر التنويعات المختلفة عليه (الإنسان الاقتصادي - الإنسان الجسماني.)

***

٤٩- ليبرمان والإجماع الصهيونى

موقع الجزيرة نت: ٢٠٠٦-١٢-٠١

ظهر أفيجدور ليبرمان كلاعب رئيسى على مسرح السياسه الإسرائيلية بعد أن إعتبره رئيس الوزراء الإسرائيلى إيهود أولمرت طوق نجاته. فمن هو ليبرمان هذا؟ وما رؤيته، و ما هو برنامجه السياسى؟

ولد ليبرمان فى مولودوفا (التى تقع بين رومانيا وروسيا). ولا تتوافر معلومات كافية عن الفترة التى قضاها هناك، ولكن من المعروف أنه هاجر إلى إسرائيل عام ١٩٧٨، وهو بعد فى العشرين. ظهر ليبرمان فى الساحة السياسية الإسرائيلية إبان حكومة الليكود عام ١٩٩٦ حين شغل منصب مدير عام مكتب رئيس الوزراء، بنيامين نتنياهو، بعد أن كان قد أمضى عدة سنوات فى صفوف حزب الليكود. وقد عُرف ليبرمان فى تلك الفترة بأنه رجل المهمات القذرة والشخصية المثيرة للجدل والأزمات. وقد يعود اختياره لهذا المنصب إلى محاولة إجتذاب الجمهور الروسى الذى كان يعانى صعوبات فى الاندماج فى المجتمع ومؤسسات الدولة. واضطر ليبرمان إلى الاستقالة بعد سنة واحده فقط، بسبب ملف جنائى يتعلق بالتهجم على طفل وضربه ضربا مبرحا. (فراس حماد، وكالة الأخبار العراقية، ٢٤ أكتوبر٢٠٠٦).

و فى أعقاب خلاف بين رئيس حزب الليكود، بنيامين نتنياهو، ونتان شيرانسكى، رئيس حزب يسرائيل بعليا (الحزب الروسى)، أشار نتنياهو على ليبرمان بتشكيل حزب روسى جديد موال لليكود. وبالفعل أنشىء ليبرمان عام ١٩٩٩ حزب يسرائيل بيتينو (إسرائيل بيتنا) نسبة إلى حزب روسى كان بزعامة الرئيس الروسى السابق يلتسن يدعى "روسيا بيتنا"، و هى محاولة من ليبرمان لكسب تعاطف المهاجرين الروس (Patrick Seale, The Daily (Star, 27 Oct. 2006. خاض حزب إسرائيل بيتنا الإنتخابات، و طرح برنامجا سياسيا اجتماعياً اقتصادياً دعا فيه إلى إستيعاب المهاجرين بشكل كامل، و العمل على صهرهم داخل المجتمع، من أجل إيجاد مجتمع يهودى متكامل. وقد قام الحزب بالتحريض على فلسطينيى الداخل و فلسطينيى ٦٧ و العرب عامة. و حصل حزبه فى انتخابات الكنيست الخامسة عشر عام ١٩٩٩ على ٤ مقاعد، وفى عام ٢٠٠٣ خاض الانتخابات فى قائمة مشتركة مع حزب موليدت تحت إسم "إيحود ليئومى" على ١١ مقعد، وأصبح هذا التحالف بذلك القوة الرابعة فى الكنيست من حيث عدد المقاعد. (فراس حماد، وكالة الأخبار العراقية ٢٤ أكتوبر٢٠٠٦).

ولكى نعرف ليبرمان حق المعرفة لابد من استعراض مواقفه السياسية، وبرنامجه الحزبى، ورؤيته. ابتداءاً يجب الإشارة إلى أن ليبرمان سياسى صبيانى على المستوى الشخصى، طفولى على المستوى الجماهيرى. يعيش فى الدولة الصهيونية منذ ٢٨ عاما إلا أنه لا يزال يتسم بعقلية المهاجر، فهو يحزم حقائبه بسهولة و لا يتمسك بفكرة أو بشخص أو بكرسى، فليس عنده أى صبر على الحلول الجزئية التى سمحت لإسرائيل بالبقاء ٥٨ سنه فى منطقة معادية (ناحوم برنباع، يديعوت أحرونوت، ٢٣ أكتوبر ٢٠٠٦). وليبرمان من أشد المعجبين بجابوتنسكى، الذى يرى أنه يجب على المرء أن يكون عبقريا وقاسيا فى ذات الوقت، "إذا حاول أعداؤك زعزعة الوضع، عليك أن تهاجمهم بصورة شمولية وشديدة جدا. لا توجود حدود أو قيود، عليك تحطيمهم تماماً إلى ان يبكوا متوسلين قائلين [أى الأعداء] "كفى" (القدس، ٣٠ مايو ٢٠٠٤). والحزب الذى أسسه ليبرمان حزباً فاشياً متأثراً بأفكار جابوتنسكى، ومن هنا دعوته لإقامة نظام رئاسى فى إسرائيل. فأساس النظم الفاشية هو خلق نموذج "الزعيم" الذى يفعل كل ما يرغب بمعزل عن السلطتين التشريعيه والقضائيه (ميساء أسعد، خاص، ٢ نوفمبر ٢٠٠٦). دخول ليبرمان الحكومة يعنى تقبل أجندة اليمين وتحولها لجزء مركزى فى الخارطة السياسية. إن التحالف الفاشى بين اليمين الإستيطانى واليمين الليبرمانى يعتبر مسألة بديهية وطبيعيه، فقد نجح اليمين فى وضع معادلة قياسية لمن يكون وطنيا، فجعلت درجة الولاء للوطن تقاس بدرجة معاداة العرب، وهذه بلا شك أصداء فكر جابوتنسكى ("الفاشى" على حد قول موسولينى) (تسفى برئيل، هآرتس، ٢٩ أكتوبر٢٠٠٦).

وقد دعا ليبرمان من على منصة الكنيست إلى قصف السد العالى بقنبلة نووية بهدف إغراق الشعب المصرى، بحجة أن اتفاقية السلام التى وقعها النظام المصرى مع الكيان الصهيونى لم تكن حقيقية، لأن مصر لازالت تدعم المطالب المشروعة للشعب الفلسطينى، كما طالب كذلك بتدمير طهران. وكان يرى أن بقاء عرفات حيا يعتبر من اكبر المؤشرات على ضعف و عجز إسرائيل، ولذا اقترح أن تقوم طائرة بإسقاط قنبلة وزنها طنين على المنطقة التى يعيش فيها عرفات لتهدمها على رأس من فيها وبذلك يتم تدمير مسيرة السلام. وطالب ليبرمان كذلك بتخريب أحياء سكنية فى غزة، وترحيل ٩٠% من عرب إسرائيل، و ذلك عن طريق طرد الفلسطينيين العرب من منطقة المثلث داخل أراضى ١٩٤٨ إلى الضفة الغربية وتعزيز عمليات الإستيطان (طارق حسن، الأهرام، ٢٨ أكتوبر ٢٠٠٦- القدس، ٣٠ مايو ٢٠٠٤- ناحوم برنباع، يديعوت أحرونوت، ٢٣ أكتوبر ٢٠٠٦).

ورغم كل هذا الضجيج الإعلامى فإن ليبرمان حسب قول الصحفى إيتان هابر فى إفتتاحية يديعوت أحرونوت لا يقصد فعلا ما يقول وأنه يثرثر وحسب. ويتفق معه فى هذا الرأى ناحوم

برنباع الذى يعتبر تصريحات ليبرمان شكل من أشكال الهذيان اللفظى (المشهد الإسرائيلى، ١ نوفمبر٢٠٠٦).

ولكن بغض النظر عن كون ليبرمان ثرثارا أم لا، فانه يظل تعبيراً متبلوراً عن التيار العنصرى اليمينى المتطرف، فهو كما وصفه يتسحاق ليئور (هآرتس،١ نوفمبر٢٠٠٦) دودة ضخمة نبتت وترعرت فى حقل القثاء هذا ["أى فى الساحه السياسيه الإسرائيلية"]. إن ليبرمان شأنه شأن غيره من الزعامات الصهيونية العنصرية مثل مائير كهانا و رحبعام زئيف وكتلة المستوطنين فى الكنيست، يقومون بدفع السياسة العنصرية الصريحة (ترانسفير) أو الضمنية (حق إسرائيل فى المناطق) تحت مظلة الديموقراطية الإسرائيلية. كهانا اعتاد توظيف الهولوكوست لإقناع الناس ببرنامجه ، كما انه رسخ دعايته العنصريه على أساس النصوص الدينية.

وقد قضت حماقة لبنان على العقيدة المشتركة بين اليسار واليمين على حد السواء، أى قضية الأمن القومى. فقد أصبح واضحا خلال عدة عقود انه ليس هناك حلاً عسكرياً لمشكلة إسرائيل الأمنية. هنا يظهر الخطاب الكهانى-الليبرمانى الذى يتسم بالمزج بين العنف والوعد الإلهى: نطرد العرب و نحل كل المشاكل من خلال ضربة واحدة ساحقة إلهيه، وهكذا تطرح رؤيه جديده لحل العقدة الأمنيه. ومن الملاحظ انه رغم أن أغلب أعضاء الكينست فى قائمة إسرائيل بيتنا من المهاجرين، إلا أن بينهم أيضا ممثلين عن الأمن (نائب رئيس الشاباك السابق، إسرائيل حسون، ونائب المفتش العام للشرطة، يتسحاق أهرونوفيتش).

ويتصور ليبرمان أن الإحتكاك القائم بين الشعبين الإسرائيلى والفلسطينى هو أساس المشكلة، ولمنع حدوث الصراع يجب الحؤول دون الإحتكاك بينهما. ومن هنا يدعو إلى تبنى النموذج القبرصى، حيث تم فصل الجزء اليونانى عن الجزيرة عن الجزء التركي، ويذهب ليبرمان إلى أن العقبة الأساسية هى مشكلة عرب إسرائيل ولكن مع هذا يمكن تجاوزها عن طريق عزل الفلسطينيين فى الضفة والقطاع فى كانتونات مفصولة عن بعضها البعض، ومحاطة بالمستعمرات الصهيونية من كل الجهات، على غرار الكانتونات التى أقامها نظام الفصل العنصرى فى جنوب أفريقيا للمواطنين السود. كما يمكن تجميع العرب بصورة تتيح فصلهم عن الدولة، وبما أن الجليل هو مكان أغلبية عرب إسرائيل، لابد من ترحيلهم شمالا، ويتم ضم منطقة المثلث فى الجليل الأدنى إلى الضفة الغربية المحتلة، أما يهود كريات شمونة (مع باقى يهود الجليل) فسيحلون محلهم فى الجنوب الواسع. وسيتولى أركادى غايدماك –رفيق ليبرمان- بناء كريات شمونة الجنوبيه متيحا المجال أمام يهود الشمال للفرار نهائيا من نقمة صواريخ حسن نصر الله. وبهذه الطريقة يتم تطبيق النموذج القبرصى على إسرائيل، حيث تكون إسرائيل

الشمالية للعرب، وإسرائيل الجنوبية ستكون كلها لليهود، ويتم تطهير الدولة من الشوائب العرقية (ألون ليئال، هآرتس، ٦ نوفمبر٢٠٠٦).

ما هو سر دخول مثل هذا التيار الفاشى العنصرى الواضح إلى تحالف وزارى يضم أكبر حزبين فى إسرائيل؟ يمكن أن ندرج الأسباب التالية:

١- إن إنضمام ليبرمان إلى الحكومة الإسرائيلية لا يعد أكثر من تسديد فواتير داخليه و تلاقى مصالح بين أطراف الساحة السياسيه الإسرائيليه، فقد وعد ليبرمان أولمرت بدعم إستقراره فى الحكم مقابل ضمه للحكومة،و هذا يأتى بعد أن أصبحت الساحة السياسيه الإسرائيلية أحزابا وأشخاصا ضعيفة وعاجزة عن تقديم الحلول الواضحة لجمهورها بدرجة كبيرة، وتحاول مداراة هذا العجز بأصحاب الدعوة الصريحة إلى الحرب والكراهية والعنصرية (طارق حسن، الأهرام، ٢٨ أكتوبر ٢٠٠٦).

٢- الديموقراطية قادرة على التغلب على كل المصاعب، مثل الحرب والأزمات الاقتصادية، ولكنها لا يمكنها ان تتغلب على عائق واحد هو فقدان ثقة المواطن. ومصدر الأزمة التى علق فيها المجتمع الإسرائيلى ليست مجرد الفشل فى الحرب، بل رفض أصحاب السلطة الاعتراف بأن الهزيمة كانت من فعل أيديهم، ليس النظام هو المذنب، ولكن الأشخاص الذين سقطت منظومة السلطة فى أيديهم.

٣- يستغل ليبرمان الفراغ الناشئ فى أعقاب الانهيار المعنوى للوسط. و بالفعل مع توجه أولمرت إلى ليبرمان فإنه يعلن بأن ليس فى وسعه قيادة الدولة بنفسه. أما عمير بيرتس، فقد اعترف بأنه ليست لديه القدرة على رد الحرب بالحرب. أولمرت وبيرتس يعرفان أنهما فقدا ثقة الجمهور، كما يعرفان أن حرب لبنان الثانية أديرت بشكل متسيب، ولكن القيادة السلطاوية ترفض الاعتراف بمسؤليتها، ولذا يتردد الحديث عن قدرة ليبرمان فى أن يجند، إحباطات ومخاوف الطبقة الوسطى الدنيا ويوظفها (زئيف شتيرنهال، هآرتس، ٢٧ أكتوبر ٢٠٠٦).

٤- التوافق بين أولمرت وبين ليبرمان يعكس إلتقاء قاتل للمصالح ، فما حدث فى إسرائيل ان الطغاة الماليين بنوا أنفسهم من خلال نهب ممتلكات الجمهور وأصبحوا محرك السلطة فى المجتمع الإسرائيلى، ثم وصل الطغاة إلى مرحلة الصدام مع القيم الديموقراطية، ولذا كان لابد من تفويض "رجل قوى" يحيد الديموقراطية ويحدد أصول اللعبة الجديدة لصالح أصحاب رأس المال. هذا الدور كان من نصيب اريئل شارون وحزب كديما، وحين فشل أولمرت فى تحقيق الأمر فإن هذا ألزمه بضم ليبرمان بزعم أنه الشخص الصحيح ليستمر أولمرت فى منصبه.

وما يلفت النظر فى قضية ضم ليبرمان و حزبه لحكومة أولمرت، أن الشارع فى الكيان الصهيونى لا يعارض هذه الخطوة بل يرحب بها، رغم ادراكه للطبيعة العنصرية لحزب

ليبرمان، فالحقيقة التى تمخضت عنها الحرب الأخيرة على لبنان، هى أن المجتمع الصهيونى يتجه بصورة ثابته و مطردة نحو الفاشية، و أن الأحداث الكبرى بما فيها الهزائم العسكرية تسرع من التوجهات الفاشية فى هذا المجتمع المصطنع.

أولمرت يعلم أن الوسيلة الوحيدة للخروج من مأزق الحرب على لبنان هو توسيع القاعدة البرلمانية لحكومته بضم أحزاب جديدة اليها، فلم يكن ما تمخضت عنه الحرب الأخيرة مجرد هزيمة عسكرية للكيان الصهيونى، بل هزيمة شاملة تجلت مظاهرها فى كافة البنى الأمنية و الإقتصادية و السياسية و الأجتماعية.لقد كشف إستطلاع للرأى العام، أجرته صحيفة يديعوت أحرونوت (١٣ أكتوبر٢٠٠٦) أن المجتمع الصهيونى أصبح أكثر يمينيه بعد الحرب على لبنان، القضية هنا لا تتعلق بانضمام حزب يمينى ذى نزعة فاشية إلى حكومة أولمرت، بل هى تتعلق أساسا بتجمع إستيطانى يرحب بهذه النزعة. يقول جدعون ليفى (هآرتس ١٥أكتوبر٢٠٠٦) إن ليبرمان يبدو متطرفا بالنسبة للذين يتصنعون البراءة، ولكنه فى واقع الأمر يقوم بما تقوم حكومة إسرائيل بفعله. ولذا فإنه سيزيل القناع عن حكومة إسرائيل وسيظهر أولمرت للفلسطينيين وللعالم أين تتوجه الحكومة الحالية (ميساء أسعد، خاص، ٢ نوفمبر٢٠٠٦).

ثمة سؤال هام يطرح نفسه: هل أفغيدور ليبرمان رئيس خزب إسرائيل بيتنا خارج الإجماع الصهيونى المهيمن؟ و هل هو فعلا خارج فلك حزب كديما الحاكم و الذى مزج بين نهج حزب العمل و نهج الليكود؟ و هل ليبرمان و نهجه أكثر عنصريه من نهج حزب كديما أو حزب العمل الذى يستند إلى الرؤية الصهيونية للأمن القومى الإسرائيلى وبالهاجس الديموجرافى ورفض أية تسوية؟ هل ليبرمان أكثر عنصرية من النظام الحاكم و الدولة، أم أنه وليدهما و تعبير عن إعادة انتاج عنصريتهما؟ (المشهد الإسرائيلى، ٢١ ابريل٢٠٠٦). كل الأسئلة السابقة هى أسئلة خطابية، فالإجابة معروفة لكل من يرصد المشهد السياسى الإسرائيلى، وكل ما فعله ليبرمان هو أنه أوضح ما كان متخفياً، وأبرز ما كان كامناً.

والله أعلم.

***

٥٠ـ مركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا وغزو الجماعات اليهودية وتصفيتها

جريدة الاتحاد الإماراتية: ٢٠٠٨ـ٠٤ـ٠٥

يذهب الصهاينة إلى أن مركز الحياة اليهودية في العالم بأسره هو إسرائيل (فلسطين). ويعبرون عن موقفهم هذا من خلال مصطلح "مركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا". وهذه الرؤية لها جذور في الطبقة الحلولية في العقيدة اليهودية إذ يحل الإله في الشعب والأرض ويربطهما برباط عضوي ويخلع عليهما القداسة ويضفي على إرتس يسرائيل محورية خاصة. وقد قام الصهاينة بعلمنة هذه العقيدة فنادوا بضرورة أن تصبح الدولة الصهيونية مركز الجماعات اليهودية في العالم، وأن تكون الدولة الصهيونية الملجأ الوحيد لليهود، وبأن تقوم وحدها بالدفاع عنهم، وأن تتحدث باسمهم، وقالوا إن الحروب التي يخوضها المستوطنون الصهاينة إنما تهدف إلى الدفاع عن كل يهود العالم. ويرى الصهاينة أن الدولة الصهيونية هي التي تساعد يهود العالم في الحرب ضد خطر الاندماج وفي الحفاظ على الهوية اليهودية، وأنها هي التي تضمن استمرار التراث اليهودي وتطوُّره، وتحسن صورة اليهود أمام الأغيار، فبدلاً من صورة اليهودي التاجر والمرابي والجبان تأكدت صورة اليهودي باعتباره المقاتل الشرس، وبذا يستعيد اليهودي احترامه لنفسه بعد أن فقده بسبب آلاف السنين من النفي. وتقوم المنظمة الصهيونية بإشاعة هذه الرؤية فتبيِّن مدى مشاركة الجماعات اليهودية في بناء إسرائيل ودعمها والالتفاف حولها، ومدى تَحمُّسهم أثناء الحروب الإسرائيلية المتتالية، وذلك حتى يشعروا بأنهم جزء من إسرائيل وحتى يتعمق لديهم الإحساس بازدواج الولاء.

والصهيونية تفترض أن أعضاء الجماعات اليهودية لا يحيون حياة يهودية كاملة لأنهم يعيشون خارج وطنهم القومي، كما أنهم يعانون من شذوذ الشخصية وهامشية الحياة إذ لا جذور لهم في الحضارات المختلفة لأنهم شعب عضوي لا تستطيع حضارة الآخر أن تعبِّر عن جوهره المتميِّز. والسبيل الوحيد إلى التعبير عن هذا الجوهر هو الوطن القومي والتربية القومية. فالصهيونية، بحسب تصوُّر كلاتزكين، هي «رفض الدياسبورا» لأنها "لا تستحق البقاء". وهذه النغمة الصهيونية من أكثر النغمات تكراراً؛ فالحاخام موردخاي بيرون، كبير حاخامات الجيش الإسرائيلي، وصف الشتات بأنه «لعنة إلى الأبد.. لعنة دائمة»، ولم يستثن من ذلك حتى العصور الذهبية المختلفة ليهود الشتات. كما أشار بن جوريون إلى الشتات على أنه «غبار إنساني متناثر»، ووصفه كلاتزكين بأنه «دمار وانحلال وضعف أبدي».

إن موروثات أعضاء الجماعات اليهودية، في التصور الصهيوني، لا تستحق الحفاظ عليها، بل تجب تصفيتها لأنها تجسِّد هامشية اليهود وشذوذهم وقيمهم غير القومية التي يجب التخلص منها. ووجود اليهود على هيئة جماعات في أنحاء العالم هو حالة مؤقتة لا قيمة لها، في التصور الصهيوني. ولذا يجب اعتبار وجودها مجرد جسر يعبر عليه الشعب اليهودي إلى فلسطين. بل إن يهودا جوردون اقترح أن تقوم علاقة كولونيالية بين الوطن القومي اليهودي والدياسبورا التي تصبح مجرد لبنات يُبنى بها الوطن القومي.

وقد طرح الصهاينة فكرة "مركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا" وبذلك تصبح الدولة الصهيونية هي الغاية وتصبح الجماعات اليهودية في العالم هي الوسيلة. ثم طرح الصهاينة مفهوماً أكثر راديكالية وهو "نفي الدياسبورا **negation of the diaspora**" والتي تعني تصفية الجماعات اليهودية في العالم وتهجير أعضائها إلى الدولة الصهيونية.

وقد ظلت الدعوة إلى استغلال الدياسبورا ونفيها قائمة حتى عام ١٩٤٨. ولكن بعد إنشاء الدولة وتزايد اعتمادها على الولايات المتحدة وعلى يهود العالم للدفاع السياسي والعسكري عنها ولدعمها مالياً تخلَّى الصهاينة عن الصيغة المتطرفة وتم تبنِّي صيغة معدَّلة مقلَّصة، ومن ثم أصبحت الدولة الصهيونية لا تهدف إلى نفي الجماعات وتصفيتها وإنما تنظر إليها باعتبارها مصدر دعم مادي وسياسي ومعنوي، أي قبلت ما نسميه «الصهيونية التوطينية». ولذا، فإن الآلة الصهيونية تركز كل همها على جمع التبرعات. وقد زوَّد أعضاء الجماعات اليهودية الدولة الصهيونية بنحو ٢٥% من كل مواردها المالية في السنين الأولى. ولكن، مع زيادة حجم الميزانية الإسرائيلية، ومع التضخم، نجد أن أعضاء الجماعات لا يزودونها إلا بـ ٣% من مواردها. كما أن جمع الأموال أصبح يسبب نوعاً من الجفاء تجاه الصهيونية ونوعاً من الضيق بالكيان الصهيوني. بل إن المنظمات الصهيونية في الخارج تحتفظ بقدر كبير من الأموال التي تجمعها لتمويل نشاطاتها هي. كما أن أعضاء الجماعات بدأوا يثيرون قضايا مثل كيفية إنفاق هذه التبرعات، فيصر كثير منهم على إنفاقها في الرفاه الاجتماعي وليس في الحرب، على حين أن فريقاً منهم يرفض أن تُنفَق أية تبرعات على المُستوطَنات في الضفة الغربية.

وقد طُرِحَت مؤخراً صيغة جديدة للتعاون بين الصهيونية وأعضاء الجماعات اليهودية، تشكل تراجعاً صهيونياً. فهذا المشروع يركز على القدرات المهنية والفكرية لأعضاء الجماعات انطلاقاً من القول بأن العقول هي رأسمال عصر العلم، تماماً كما كانت النقود رأسمال عصر الصناعة. ولذا، فإن هذا المشروع يهدف إلى أن تكون إسرائيل أول المجتمعات في عصر الفضاء وأكثرها تركيباً من الناحية التكنولوجية والعلمية والثقافية، وتتحول بذلك إلى قوة

عظمى صغيرة تُنتج التكنولوجيا وتُصدِّرها، فتحل مشكلة ميزان المدفوعات وترفع مستوى مواطنيها، وتسد الهوة الاجتماعية الإثنية داخل المجتمع الصهيوني، ثم تضمن في النهاية استمرار وجود الهوة الكيفية بينها وبين جيرانها.

ولذا، لن يُطلَب من أعضاء الجماعات اليهودية أن يهاجروا وإنما سيُطلَب منهم إقامة مشاريع ذات طابع كيفي متميِّز في إسرائيل. وسيكون بوسع المساهمين في هذه المشاريع قضاء أوقات أطول في إسرائيل والمساهمة بكفاءتهم العلمية والتكنولوجية دون أن يهاجروا بالفعل. كما يمكنهم أيضاً المساهمة في استيراد وتسويق السلع الإسرائيلية. بل يمكن أن يتحولوا إلى وكلاء يتقاضون عمولة كبيرة تستخدم لتمويل المشاريع المختلفة. وحيث إن كل هذه النشاطات يمكن أن تتم من خلال البريد الإلكتروني، فإنه يطلق عليها "الدياسبورا الإلكترونية". وغني عن القول أن هذه مهمة يمكن أن يقوم بها أيضاً أي إنسان يطمع في تحقيق الربح، فهي لا تتصل بالضرورة بالهوية اليهودية أو بوحدة الشعب اليهودي كما لا تتصل بالعلاقة الخاصة بين دياسبورا يهودية في المنفى ومركز يهودي في فلسطين!

والله أعلم.

ملاحظة: هذه المقالة نشرت بجريدة الاتحاد الإماراتية بصفحة وجهات نظر بتاريخ ٥ أبريل ٢٠٠٨.

http://www.alittihad.ae/authorarchive.php?AuthorID=3

***

٥١- نكبة أم تطهير عرقي؟

جريدة الاتحاد الإماراتية: ٢٠٠٨-٠٥-١٧

من أهم الكتب التي أصدرها المؤرخون الجدد في إسرائيل، و الذي تعتمد كتاباتهم علي الوثائق الصهيونية التي تم نزع السرية عنها(declassified) يكشف كتاب إيلان بابيه التطهير العرقي في فلسطين. و إيلان بابيه من أهم المؤرخين الجدد بل لعله أهمهم، نظرا لأنه أخذ أطروحاتهم الأساسية و دفع بها إلى نهايتها المنطقية، و لعله لهذا السبب أصبح رافضا للإيديولوجية الصهيونية و لكل منطلقاتها و تبدياتها. يري بابيه أن الدولة الصهيونية أطلقت اسم «حرب الاستقلال» علي حرب ١٩٤٨ بينما سماها العرب « نكبة» فلسطين. و في تصوره أن تعبير النكبة مراوغ لأنه يحيل إلى الكارثة نفسها أكثر مما يحيل إلى من أوقعها، ولماذا فعل ذلك. و هو يذهب إلى أنه جرى تبني مصطلح «النكبة» لأسباب مفهومة، كمحاولة لمواجهة الثقل المعنوي للهولوكست النازية. لكن تجاهل من أوقع النكبة قد ساهم، إلى حد ما، في استمرار العالم في إنكار أن ما جرى في فلسطين سنة ١٩٤٨، وبعد ذلك التاريخ ،كان تطهيراً عرقياً. فما هو التطهير العرقي؟

تعرّف موسوعة «هاتشينسون» Hutchinson «التطهير العرقي» بأنه طرد بالقوة من أجل إيجاد تجانس عرقي في إقليم أو أرض يقطن فيها سكان من أعراق متعددة. وهدف الطرد هو ترحيل أكبر عدد ممكن من السكان، بكل الوسائل المتاحة لمرتكب الترحيل، بما في ذلك وسائل غير عنيفة، كما حدث بالنسبة إلى المسلمين في كرواتيا، الذين طردوا بعد اتفاقية ديتون في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٥.

ويحظى هذا التعريف أيضاً بقبول وزارة الخارجية الأميركية، التي تفحصت ما حدث في أيار (مايو) ١٩٩٩ في مدينة بيك في كوسوفو الغربية. فقد تم إخلاء هذه المدينة في غضون ٢٤ ساعة، وهذا ما لم يكن ممكناً إنجازه إلاّ من خلال تخطيط مسبق أعقبه تنفيذ منهجي. وقد حدثت أيضاً مجازر متفرقة من أجل تسريع العملية. وما حدث في بيك في سنة ١٩٩٩ حدث بالطريقة نفسها تقريباً في مئات من القرى الفلسطينية في سنة ١٩٤٨.

و يدافع بابيه عن نموذج التطهير العرق cleansing Paradigm of ethnic بدلاً من نموذج الحرب paradigm of war كنقطه إنطلاق و إطار للبحث العلمي والنقاش العام في شأن أحداث ١٩٤٨. ويري أن غياب نموذج التطهير العرقي يفسر جزئياً لماذا أمكن أن يستمر

إنكار النكبة طوال هذه الفترة المديدة من الزمن. فعندما أنشأت الحركة الصهيونية دولتها القومية لم تخض حرباً نجم عنها بصورة مأساوية طرد «أجزاء» من السكان الفلسطينيين، بل بالعكس: كان الهدف الرئيسي للحركة تطهير فلسطين بأسرها تطهيراً عرقياً شاملاً، باعتبارها البلد الذي أرادت أن تقيم دولتها فيه. وقد أرسلت الدول المجاورة جيشاً صغيراً ـ بالمقارنة مع قوتها العسكرية الإجمالية ـ في محاولة فاشلة لمنع التطهير العرقي، لكن ذلك حدث بعد أسابيع من بدء التطهير العرقي، ولم يؤد إلى وقف العمليات التي كانت جارية، والتي استمرت إلى أن أُكملت بنجاح (جزئي) في خريف سنة ١٩٤٨. إن الجرائم التي ارتكبتها إسرائيل لا تعود إلى عوامل زئبقية مثل ظروف الحرب، أو كما يقول المؤرخ الصهيوني (الجديد) بني موريس: «في الحرب تجري الأمور كما في الحرب» ، وما شابه ذلك من تعابير غامضة تسمح للدول ذات السيادة بالإفلات من تبعات ما ترتكبه من جرائم، وللأفراد بالإفلات من قبضة العدالة، فنية التطهير العرقي كانت مبيتة.

ويقوم بابيه بدحض الأفكار الرائجة عن نزوح للفلسطينيين من أرضهم بشكل طوعي أو بسبب وعود الجيوش العربية بأن النازحين سيعودون لديارهم حالما تنتهي الحرب مع ما سمي آنذاك «العصابات الصهيونية». فبابيه يري أن ما جرى عام ١٩٤٨ هو عملية تطهير عرقي لفلسطين من سكانها الأصليين، وهي جريمة ضد الإنسانية أرادت إسرائيل إنكارها ودفع العالم إلى نسيانها. والكتاب هو محاولة لاسترداد المذابح التي إرتكبها الصهاينة ضد الشعب الفلسطيني من غياهب النسيان.

و يشير بابيه في كتابه إلى مصطلح«الميزان الديموغرافي» بين العرب واليهود في فلسطين. فيبين أن الصهاينة كانوا يرون أنه إذا مال هذا الميزان في غير صالح اليهود فإنه سيقوض إمكانية السيطرة اليهودية الحصرية على فلسطين، و لذا وصف الصهاينة مثل هذا الوضع بأنه كارثي. وكان الميزان الديموغرافي، سواء داخل حدود الدولة التي عرضتها الأمم المتحدة على اليهود، أو داخل الحدود التي عينتها القيادة الصهيونية نفسها، كان في نظر القيادة اليهودية كارثة وشيكة الوقوع.

تجاه هذا المأزق الديموغرافي كان رد فعل القيادة الصهيونية من نوعين: نوع للاستهلاك العام، ونوع للحلقة الضيقة من المقربين الذين جمعهم بن-غوريون حوله. فالسياسة العلنية التي شرع هو وزملاؤه في الإفصاح عنها في هيئات مثل «مجلس الشعب» المحلي («البرلمان» اليهودي في فلسطين) كان محورها الحاجة إلى تشجيع هجرة يهودية كثيفة إلى البلد. أمّا في الأطر الضيقة، فقد كان القادة يعترفون بأن الهجرة مهما تعاظم شأنها فإنها لن تكون أبداً كافية لموازنة الغالبية الفلسطينية، وأن هناك حاجة إلى وسائل أُخرى إضافة إلى

الهجرة. وقد وصف بن-غوريون هذه الوسائل عام ١٩٣٧ عندما ناقش مع أصدقاء له مسألة فقدان غالبية يهودية صلبة في دولة مستقبلية، فأخبرهم أن «واقعاً» كهذا -غالبية فلسطينية في البلد- سيرغم المستوطنين اليهود على استخدام القوة لتحقيق «الحلم»: فلسطين يهودية محضة.

وبعد عشرة أعوام، في ٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٧، في خطاب له أمام كبار أعضاء حزب مباي (حزب عمال أرض إسرائيل)، لخص بصورة أوضح كيف يجب التعامل مع حقائق لا يمكن قبولها، مثل قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة: هناك ٤٠ في المئة من غير اليهود في المناطق المخصصة للدولة اليهودية. إن هذه التركيبة ليست أساساً متيناً لدولة يهودية، ويجب أن نواجه هذا الواقع الجديد بكل قسوته ووضوحه. إن ميزاناً ديموغرافياً كهذا يطرح علامة استفهام في شأن قدرتنا على المحافظة على سيادة يهودية... إن دولة ٨٠ في المئة من سكانها على الأقل يهود هي وحدها يمكن أن تكون قابلة للحياة ومستقرة.

في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر)، أي قبل شهر تقريباً من تبني الجمعية العامة للأمم المتحدة قرار التقسيم، وأمام هيئة مختلفة هي اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية، صرح بن-غوريون للمرة الأولى بمنتهى الوضوح أن التطهير العرقي يشكل وسيلة بديلة، أو متممة، لضمان أن تكون الدولة الجديدة يهودية محضة.

بين بابيه أنه في عصر يوم الأربعاء ١٠ آذار (مارس) ١٩٤٨، وضعت مجموعة من أحد عشر رجلاً، مكونة من قادة صهيونيين قدامى وضابطين عسكريين شابين، اللمسات الأخيرة على خطة لتطهير فلسطين عرقياً. و ذلك عن طريق الاستعداد للقيام بطرد منهجي للفلسطينيين من مناطق واسعة في البلد عن طريق خطة، تسمى الخطة دالت، و هي خطة مفصلة تشمل إثارة الرعب ومحاصرة وقصف القرى والمراكز السكانية وحرق المنازل والأملاك والبضائع وزرع ألغام وسط الأنقاض، و الهدف من الخطة هو رحيل الفلسطينيين و منعهم من العودة إلى منازلهم. هذه الخطة، كانت النتيجة الحتمية للنزعة الأيديولوجية الصهيونية التي تطلعت إلى أن تكون فلسطين لليهود حصراً. و قد تم تنفيذ الخطة قبل حرب ١٩٤٨ و أثناءها و بعدها.

والله أعلم.

***

٥٢- نهاية إسرائيل

موقع الجزيرة نت: ٢٠٠٦-٠٩-٠١

فى ١٧ أغسطس ٢٠٠٦، أى أثناء الحرب العربية الإسرائيلية السادسة، وبينما كانت الطائرات الإسرائيلية تدك المدن والقرى والبنية التحتية اللبنانية وتُسيل دم المدنيين، نشرت صحيفة معاريف مقالاً كتبه الصحفى يونتان شيم بعنوان "أسست تل أبيب فى عام ١٩٠٩ وفى عام ٢٠٠٩ ستصبح أنقاضاً ". جاء فى المقال "أنه قبل مائة عام أقاموا أولى المدن العبرية، وبعد مائة عام من العزلة قضى أمرها". ما الذى يدعو مثل هذا الكاتب للحديث عن النهاية، نهاية إسرائيل، فى وقت بلغت فيه القوة العسكرية الإسرائيلية ذروتها، وتجاوز الدعم الأمريكى، السياسى والمالى والعسكرى، لها كل الحدود والخطوط الحمراء؟ كيف يمكن تفسير هذا الموقف؟

ابتداء لابد وأن نذكر حقيقة تاهت عن الكثيرين فى العالم العربى وهو أن موضوع نهاية إسرائيل متجذر فى الوجدان الصهيونى. فحتى قبل إنشاء الدولة أدرك كثير من الصهاينة أن المشروع الصهيونى مشروع مستحيل وأن الحلم الصهيونى سيتحول إلى كابوس. وبعد إنشاء الدولة، وبعد أن حقق المستوطنون الصهاينة "النصر" على الجيوش العربية تصاعد هاجس النهاية. ففى عام ١٩٥٤ قال موشيه ديان، وزير الدفاع والخارجية الإسرائيلى، فى جنازة صديق له قتله الفدائيون الفلسطينيون: "علينا أن نكون مستعدين ومسلحين، أن نكون أقوياء وقساة، حتى لا يسقط السيف من قبضتنا وتنتهي الحياة". النهاية، ماثلة دائما فى العقول، فالضحايا الذين طردوا من ديارهم تحولوا هم وأبناؤهم إلى فدائيين يقرعون الأبواب يطالبون بالأرض التى سلبت منهم. ولذا فإن الشاعر الإسرائيلي حاييم جوري يرى أن كل إسرائيلي يُولَد "وفي داخله السكين الذي سيذبحه"، فهذا التراب (أي إسرائيل) لا يرتوي"،فهو يطالب دائماً "بالمزيد من المدافن وصناديق دفن الموتى". فى الميلاد يوجد الموت وفى البداية توجد النهاية.

وتتناول قصة "في مواجهة الغابة" التي كتبها الروائي الإسرائيلي أبراهام يهوشوا فى النصف الأول من الستينيات الحالة النفسية لطالب اسرائيلى عُيِّن حارساً لغابة غرسها الصندوق القومي اليهودي في موقع قرية عربية أزالها الصهاينة مع ما أزالوه من قرى ومدن. ورغم أن هذا الحارس ينشد الوحدة، إلا أنه يقابل عربياً عجوزاً أبكم من أهل القرية يقوم هو وابنته برعاية الغابة، وتنشأ علاقة حب وكره بين العربي والإسرائيلي، فالإسرائيلي يخشى انتقام

العربي الذى أصيب بعاهته أثناء عملية التنظيف العرقى التى قام بها الصهاينة عام ١٩٤٨. ولكن وعلى الرغم من هذا يجد نفسه منجذباً إلى العجوز العربى بصورة غير عادية، بل يكتشف أنه يحاول، بلا وعي، مساعدته في إشعال النار فى الغابة. وفي النهاية، عندما ينجح العربي في أن يضرم النار في الغابة، يتخلص الحارس من كل مشاعره المكبوتة، ويشعر براحة غريبة بعد احتراق الغابة، أى بعد نهاية اسرائيل!

وفى اجتماع مغلق فى مركز الدراسات السياسة والاستراتيجية فى الأهرام أخبرنا الجنرال الفرنسي أندريه بوفر، الذي قاد القوات الفرنسية في العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، بواقعة غريبة، كان هو شاهدها الوحيد. فقد ذهب لزيارة إسحق رابين في منتصف يونية ١٩٦٧ أى بعد انتهاء الحرب بعدة أيام، وبينما كانا يحلقان فى سماء سيناء والقوات الإسرائيلية المنتصرة فى طريق عودتها إلى إسرائيل بعد أن أنجزت مهمتها، قام الجنرال بوفر بتهنئة رابين على نصره العسكرى، ففوجىء به يقول: "ولكن ماذا سيتبقى من كل هذا؟" "what will remain of it?" all". فى الذروة أدرك الجنرال المنتصر حتمية الهوه والنهاية.

إن موضوع النهاية لا يحب أحد فى إسرائيل مناقشته، ولكنه مع هذا يُطل برأسه فى الأزمات. ففى أثناء انتفاضة ١٩٨٧، حين بدأ الإجماع الصهيونى بخصوص الاستيطان يتساقط، حذر إسرائيل هاريل المتحدث باسم المستوطنين من أنه إذا حدث أى شكل من أشكال الانسحاب والتنازل (أى الانسحاب من طرف واحد). فإن هذا لن يتوقف عند الخط الأخضر (حدود ١٩٤٨) إذ سيكون هناك انسحاب روحى يمكن أن يتهدد وجود الدولة ذاتها (الجيروساليم بوست ٣٠يناير١٩٨٨). وأخبر رئيس مجلس السامرة الإقليمى شارون (فى مشادة كلامية معه) "إن هذا الطريق الدبلوماسى هو نهاية المستوطنات، إنه نهاية اسرائيل" (هآرتس١٧يناير٢٠٠٢). ويردد المستوطنون أن الانسحاب من نابلس يعنى الانسحاب من تل أبيب.

ومع انتفاضة الأقصى تحدثت الصحف الإسرائيلية عدة مرات عن موضوع نهاية إسرائيل. فقد نشرت جريدة يديعوت أحرونوت (٢٧ يناير ٢٠٠٢) مقالا بعنوان "يشترون شققاً فى الخارج تحسباً لليوم الأسود"، اليوم الذى لا يحب الإسرائيليون أن يفكروا فيه، أى نهاية اسرائيل!. والموضوع نفسه يظهر فى مقال ياعيل باز ميلماد (معاريف ٢٧ديسمبر٢٠٠١) الذى يبدأ بالعبارة التالية: "أحاول دائماً أن أبعد عنى هذه الفكرة المزعجة، ولكنها تطل فى كل مرة وتظهر من جديد: هل يمكن أن تكون نهاية الدولة كنهاية الحركة الكيبوتسية؟ ثمة أوجه شبه كثيرة بين المجريات التى مرت على الكيبوتسات قبل أن تحتضر أو تموت، وبين ما يجرى فى

الآونة الأخيرة مع الدولة". وقد لخص جدعون عيست الموقف فى عبارة درامية "ثمة ما يمكن البكاء عليه: اسرائيل"(يديعوت أحرونوت ٢٩ يناير٢٠٠٢) .
بل إن مجلة نيوزويك (٢إبريل٢٠٠٢) صدرت وقد حمل غلافها صورة نجمة اسرائيل، وفى داخلها السؤال التالى: "مستقبل اسرائيل: كيف سيتسنى لها البقاء؟". وقد زادت المجلة الأمور إيضاحاً حين قالت: "هل ستبقى الدولة اليهودية على قيد الحياة؟ وبأى ثمن؟ وبأية هوية؟". ولكن ما يهمنا فى هذا السياق ما قاله الكاتب الإسرائيلى عاموس إيلون: الذى أكد أنه فى حالة يأس لأنه يخشى أن يكون الأمر قد فات". ثم أضاف "لقد قلت لكم مجرد نصف ما أخشاه" (النصف الثانى أن الوقت قد فات بالفعل). ويتكرر الحديث عن نهاية اسرائيل فى مقال إيتان هابر بعنوان "ليلة سعيدة أيها اليأس.. والكآبة تكتنف اسرائيل" (يديعوت أحرونوت ١١ نوفمبر٢٠٠١). يشير الكاتب إلى أن الجيش الأمريكى كان مسلحاً بأحدث المعدات العسكرية، ومع هذا يتذكر الجميع صورة المروحيات الأمريكية تحوم فوق مقر السفارة فى سايجون، محاولة إنقاذ الأمريكيين وعملائهم المحليين فى ظل حالة من الهلع والخوف حتى الموت. إن الطائرة المروحية هى رمز الهزيمة والاستسلام والهروب الجبان فى الوقت المناسب. ثم يستمر الكاتب نفسه فى تفصيل الموقف: "إن جيش الحفاة فى فيتنام الشمالية قد هزم المسلحين بأحدث الوسائل القتالية. ويكمن السر فى أن الروح هى التى دفعت المقاتلين وقادتهم إلى الانتصار. الروح تعنى المعنويات والتصميم والوعى بعدالة النهج والإحساس بعدم وجود خيار آخر. وهو ما تفتقده إسرائيل التى يكتنفها اليأس".
أما أبراهام بورج فيقول في مقال له (يديعوت أحرونوت، ٢٩ أغسطس ٢٠٠٣) إن "نهاية المشروع الصهيوني على عتبات أبوابنا. وهناك فرصة حقيقية لأن يكون جيلنا آخر جيل صهيوني. قد تظل هناك دولة يهودية، ولكنها ستكون شيئا مختلفاً، غريبة وقبيحة... فدولة تفتقد للعدالة لا يمكن أن يُكتب لها البقاء... إن بنية الصهيونية التحتية آخذة في التداعي... تماماً مثل دار مناسبات رخيصة في القدس، حيث يستمر بعض المجانين في الرقص في الطابق العلوي بينما تتهاوى الأعمدة في الطابق الأرضي". ثم، أطل الموضوع برأسه مجدداً في مقال ليرون لندن (يديعوت أحرونوت ٢٧ نوفمبر ٢٠٠٣) بعنوان: "عقارب الساعة تقترب من الصفر لدولة إسرائيل"، وجاء فيه "في مؤتمر المناعة الاجتماعية الذي عُقد هذا الأسبوع، عُلم أن معدلاً كبيراً جداً من الإسرائيليين يشكون فيما إذا كانت الدولة ستبقى بعد ٣٠ سنة. وهذه المعطيات المقلقة تدل على أن عقارب الساعة تقترب من الساعة ١٢، (أى لحظة النهاية) وهذا هو السبب في كثرة الخطط السياسية التي تولد خارج الرحم العاقر للسلطة". وحينما

أصدرت محكمة العدل الدولية حكمها بخصوص الجدار العازل وعدم شرعيته بدأ الحديث على الفور عن أن هذه هى بداية النهاية.

والسؤال الذى يطرح نفسه: لماذا هاجس النهاية الذى يطارد الإسرائيليين؟ سنجد أن الأسباب كثيرة، ولكن أهمها إدراك المستوطنين الصهاينة أن ثمة قانوناً يسري على كل الجيوب الاستيطانية، وهو أن الجيوب التي أبادت السكان الأصليين (مثل أمريكا الشمالية واستراليا) كُتب لها البقاء، أما تلك التي أخفقت في إبادة السكان الأصليين (مثل ممالك الفرنجة التى يقال لها الصليبية والجزائر وجنوب أفريقيا) فكان مصيرها الزوال. ويدرك المستوطنون الصهاينة جيداً أن جيبهم الاستيطانى ينتمى لهذا النمط الثانى وأنه لا يشكل أي استثناء لهذا القانون. إن الصهاينة يدركون أنهم يعيشون فى نفس الأرض التى أقيمت فيها ممالك الفرنجة وتحيط بهم خرائب قلاع الفرنجة. التى تذكرهم بهذه التجربة الاستيطانية التى أخفقت وزالت. ومما يعمق من هاجس النهاية أن الوجدان الغربى والصهيونى يوحد من البداية بين المشروع الصليبى والمشروع الصهيونى ويقرن بينهما، فلويد جورج رئيس الوزارة البريطانية التي أصدرت وعد بلفور، صرح أن الجنرال اللنبي الذي قاد القوات الإنجليزية التي احتلت فلسطين شن وربح آخر الحملات الصليبية وأعظمها انتصاراً. ويمكننا أن نقول إن المشروع الصهيوني هو نفسه المشروع الفرنجي بعد أن تمت علمنته، وبعد أن تم إحلال المادة البشرية اليهودية التي تم تحديثها وتطبيعها وتغريبها وعلمنتها محل المادة البشرية المسيحية.

لكل هذا يدرس العلماء الإسرائيليون المقومات البشرية والاقتصادية والعسكرية للكيان الفرنجى، والعلاقة بين هذا الكيان والوطن الأصلي المساند له. وقد وجَّه كثير من الباحثين الصهاينة اهتمامهم لدراسة مشكلات الاستيطان والهجرة التي واجهها الكيان الفرنجى ومحاولة فهم عوامل الإخفاق والفشل التي أودت به.

ولكن الاهتمام لا يقتصر على الدوائر الأكاديمية، فنجد أن شخصيات سياسية عامة مثل إسحق رابين وموشيه ديان يهتمون بمشاكل الاستيطان والهجرة. ففي سبتمبر ١٩٧٠، عقد إسحق رابين مقارنة بين ممالك الفرنجة والدولة الصهيونية حيث توصَّل إلى أن الخطر الأساسي الذي يهدد إسرائيل هو تجميد الهجرة، وأن هذا هو الذي سيؤدي إلى اضمحلال الدولة بسبب عدم سريان دم جديد فيها.

ويورى أفنيرى، الكاتب الصحفى الإسرائيلى، وعضو الكنيست السابق، كان من المستوطنين الصهاينة الذين أدركوا منذ البداية استحالة تحقيق المشروع أو الحلم الصهيونى. ولذا كان ينشر منذ الخمسينات مجلة هاعولام هزه (هذا العالم) والتى تخصصت فى توجيه النقد للسياسات الصهيونية. وكان أفنيرى يحذر الصهاينة من مصير ممالك الفرنجة التى لم يبق منها

سوى بعض الخرائب. وقد صدر له كتاب بعنوان إسرائيل بدون صهيونية (١٩٦٨) عقد فيه مقارنة مستفيضة بين ممالك الفرنجة والدولة الصهيونية، فإسرائيل مثل ممالك الفرنجة مُحاصَرة عسكرياً لأنها تجاهلت الوجود الفلسطيني ورفضت الاعتراف بأن أرض الميعاد يقطنها العرب منذ مئات السنين. ثم عاد أفنيري إلى الموضوع، عام ١٩٨٣، بعد الغزو الصهيوني للبنان، في مقال نشر في هاعولام هزه بعنوان "ماذا ستكون النهاية"، فأشار إلى أن ممالك الفرنجة احتلت رقعة من الأرض أوسع من تلك التي احتلتها الدولة الصهيونية، وأن الفرنجة كانوا قادرين على كل شيء إلا العيش في سلام، لأن الحلول الوسط والتعايش السلمي كانا غريبين على التكوين الأساسي للحركة. وحينما كان جيل جديد يطالب بالسلام كانت مجهوداتهم تضيع سدى مع قدوم تيارات جديدة من المستوطنين، الأمر الذي يعني أن ممالك الفرنجة لم تفقد قط طابعها الاستيطاني. كما أن المؤسسة العسكرية الاقتصادية للفرنجة قامت بدور فعال في القضاء على محاولات السلام، فاستمر التوسع الفرنجي على مدى جيل أو جيلين. ثم بدأ الإرهاق يحل بهم، وزاد التوتر بين المسيحيين الفرنجة من جهة وأبناء الطوائف المسيحية الشرقية من جهة أخرى، الأمر الذي أضعف مجتمع الفرنجة الاستيطاني، كما ضعف الدعم المالي والسكاني من الغرب. وفي الوقت نفســه، بدأ بعث إسلامي جديد، وبدأت الحركة للإجهاز على ممالك الفرنجة، فأوجد المسلمون طرقاً تجارية بديلة عن تلك التي استولى عليها الفرنجة. وبعد موت الأجيال الأولى من أعضاء النخبة في الممالك، حل محلهم ورثة ضعفاء في وقت ظهرت فيه سلسلة من القادة المسلمين العظماء ابتداءً من صلاح الدين ذي الشخصية الأسطورية حتى الظاهر بيبرس. وظل ميزان القوى يميل لغير صالح الفرنجة، ولذا لم يكن هناك ما يوقف هزيمتهم ونهايتهم ونهاية الممالك الصليبية!

لكل هذا عاد هاجس النهاية مرة أخرى بعد الحرب السادسة وبعد الصمود اللبنانى العظيم فى وجه الهمجية الأسرائيلية، وبعد إبداع المقاومة اللبنانية. فقد اكتشف الصهاينة حدود القوة ووصلوا إلى مشارف النهاية، وكما قال المثقف الإسرائيلى شلومو رايخ: "إن اسرائيل تركض من نصر إلى نصر حتى تصل إلى نهايتها المحتومة". فالانتصارات العسكرية لم تحقق شيئاً، لأن المقاومة مستمرة مما يؤدى إلى ما سماه المؤرخ الاسرائيلى يعقوب تالمون (نقلاً عن هيجل) "عقم الانتصار".

والله أعلم

***

٥٣- هل الصهيونية حركة رومانسية؟

أصبحت كلمة «موضوعية» مصطلحاً أساسياً في خطابنا التحليلي، العلمي واليومي، وأصبحت عبارة «فلتكن موضوعياً» من أكثر العبارات شيوعاً، وهي تعني أن علي المرء أن يتحلي بالحياد والتجرد من الذاتية ومن قيمه المعرفية والأخلاقية وانتماءاته القومية والأيديولوجية حين يقوم بدراسة ظاهرة ما، فلا يقحم رغباته أو أهواءه أو انتماءاته أو القومية، وهذه أمور ولا شك إيجابية. ولكن أصبحت الموضوعية تعني عند البعض تلقي المعلومات بشكل سلبي ورصدها رصداً تراكمياً وتدوينها دون أن يري علاقاتها بعضها بالبعض («ويرص كلاماً / فوق كلام / تحت كلام» علي حد قول صلاح الدين عبد الصبور)، وكأن المعرفة الحقة هي حشد المعلومات، وكأنه لا يوجد فرق بين الرؤية ونشرة الأخبار وبين التفسير والتدوين. إن الموضوعية في تصور هؤلاء هي التجرد من الذاكرة والهوية والقيم والعواطف والأحاسيس، وهذا أمر بطبيعة الحال مستحيل، فهل يمكن للإنسان أن يرصد سقوط حجر من علٍ مثلما يرصد سقوط طفل؟ وهل يمكن أن ندرس سلوك اسرة من الدجاج مثلما ندرس سلوك أسرة من البشر؟ وهل يمكن أن نرصد مذبحة تقع في فلسطين أو حادثة سقوط طائرة تحمل مائتي راكب في المحيط مثلما نرصد زلزالاً وقع في جزيرة غير مأهولة بالسكان؟

النموذج الإدراكي والتحليلي

لكل هذا أذهب إلى أنه من الضروري أن نميز بين الموضوعية المتلقية السلبية من جهة، والموضوعية الاجتهادية الإيجابية من جهة أخري. والموضوعية المتلقية هي التلقي المادي السلبي للمعلومات الذي يؤدي إلى تراكم المعلومات الصماء، المعلومة فوق الأخري. ولكن المعلومة في حد ذاتها لا تقول شيئاً،بل إنها قد تخبئ كثيراً من الرؤي والتضمينات الفلسفية والمعرفية المتحيزة. ولكن هل هذا يعني أن نلجأ للذاتية المحضة؟ بالطبع لا، فالمعرفة النابعة من ذات الباحث وحدها دون العودة للواقع الموضوعي لا تفيد كثيراً بل إنها قد تضلله. كيف يمكن إذاً فك هذه العقدة التي يواجهها الباحث في كل العلوم الإنسانية، بل وأحياناً في العلوم التطبيقية؟ أذهب إلى أن ما أسميه التفسيرية قد يساعدنا علي حل هذه الإشكالية عن طريق المزج بين القطبين (الذات والموضوع). فالتفسيرية ترفض كلاً من الموضوعية المادية المتلقية والذاتية المغلقة علي نفسها، فهي تنطلق من تقبُّل ثنائية الإنسان والطبيعة/المادة وبالتالي ثنائية الذات والموضوع ولا تحاول إلغاءهما، وإنما تحاول الوصول إلى المنطقة التي

تلتقي فيها الذات بالموضوع، فهي تستعيد الفاعل الإنساني في كل تركيبيته ككائن يعيش في عالم الطبيعة والمادة رغم أنه متجاوز لهما. إن المنهج التفسيري لا يهدف إلى حشد أكبر قدر ممكن من المعلومات ورصدها في حد ذاتها بطريقة موضوعية سلبية متلقية (فالحاسوب يقوم بهذا علي أكمل وجه). كما أنها ترفض أن يحلق الباحث في فضائه الأيديولوجي أو الأخلاقي (الذاتي) الخاص. تذهب التفسيرية إلى أن الحقائق غير الحقيقة. فالحقائق بطبيعة الحال هي نقطة البدء في أي بحث ولكنها مجرد معطي مادي ومادة أرشيفية. أما الحقيقة فهي ثمرة عملية إبداعية يقوم بها العقل الإنساني فيقوم بالربط بين المعلومات واستخلاص أنماط متكررة منها من خلال عملية تجريد إبداعية. إن التفسيرية تنطلق من إدراك أن ما يرصده الباحث بشكل مباشر هو مجرد مادة خام أولية، وبالتالي فالأرقام والإحصائيات والمعلومات والحقائق ليست نهائية. ولذا فالمنهج التفسيري يحاول تجاوز المضمون الواضح المباشر والمعلومات المتراكمة ويهدف إلى تصنيف المعلومات وتنظيمها وتحديد الجوهري والهامشي منها ثم وضعها داخل نمط متكرر، وأن يرصد العوامل المكونة للظاهرة الإنسانية في تفاعلها. كل هذا يتم بهدف اكتشاف العلاقات المتشابكة التي تكوِّن الظاهرة حتي يمكن تفسيرها (وهذا ما لا يمكن للحاسوب أن يقوم به)، وصولاً إلى بنية الفكر أو الظاهرة وأبعادهما المعرفية والعلاقات الكامنة التي تشكل هويتهما ومنحناهما الخاص. إن هدف العملية البحثية من منظور المنهج التفسيري ليس حشد المعلومات وإنما تفسيرها، أي أن مركز العملية البحثية ينتقل من عالم الأشياء والمعلومات إلى العقل الإنساني الفعال، بما فطره الله فيه من مقدرات وأفكار أولية.

والمنهج التفسيري -كما أسلفنا- يهدف إلى وضع الحقائق داخل نمط متكرر. وهو ما نشير إليه بأنه النموذج. وأعرّف النموذج بأنه بنية تصورية يجردها الباحث من كمٍّ هائل من العلاقات والتفاصيل والوقائع والأحداث، فيستبعد بعضها لعدم دلالتها (من وجهة نظر صاحب النموذج) ويستبقي البعض الآخر، ثم يرتبها ترتيباً خاصاً وينسقها تنسيقاً خاصاً بحيث تصبح (من وجهة نظره) مترابطة بشكل يماثل العلاقات الموجودة بالفعل بين عناصر الواقع. حينئذ تتكون صورة في ذهنه يمكن أن نسميها خريطة إدراكية أو نموذجا إدراكيا. والنموذج ليس له وجود إمبريقي محسوس فهو كامن في كل تفاصيل الظاهرة أو النص وفي أجزائهما، وهو بلا شك يتجاوزهما، ولكنه في الوقت ذاته يمنح النص أو الظاهرة وحدتهما الأساسية ويربط بين عناصرهما المختلفة.

ومن يستخدم النموذج كأداة تحليلية لا يتلقي الحقائق في سلبية وإنما سيقوم برصدها في دقة بالغة ثم يقوم بعد ذلك بتفكيكها والربط بينها وتجريدها وتركيبها ووضعها داخل إطار ينتظم الظواهر المتشابهة (فإن كان الرصد عملاً موضوعياً، فالتجريد والتركيب عمل ذاتي اجتهادي

توليدي). ومن خلال الأنماط المتكررة يمكن إدراك المعلومات لا كذرات متناثرة وإنما كشبكة علاقات ذات دلالة.

والنموذج لابد أن يكون له بُعد معرفي، ونحن نتحدث عن «النموذج المعرفي» أي النموذج الذي يحاول أن يصل إلى الصيغ الكلية والنهائية للوجود الإنساني (وكلمة «كلي» تفيد الشمول والعموم، بينما تعني «نهاية الشيء» غايته وآخره وأقصي ما يمكن أن يبلغه الشيء). وتدور النماذج المعرفية حول ثلاثة عناصر أساسية: الإله - الطبيعة - الإنسان. ونحن نركز علي الإنسان (الموضوع الأساسي للعلوم الإنسانية)، ولكن من خلال دراسته يمكن أن نحدد موقف النموذج من العنصرين الآخرين (الإله والطبيعة).

وبعد تجريد النموذج الإدراكي المعرفي يمكن تحويله إلى نموذج تفسيري تحليلي، يستخدمه الباحث في قراءة النصوص والظواهر المختلفة قراءة تحليلية نقدية.

***

٥٤- هل لإسرائيل جيش حقيقي؟!

جريدة الاتحاد الإماراتية: ٢٠٠٨-٠٤-٢٦

تفاقمت أزمة المؤسسة العسكرية الإسرائيلية عقب حرب لبنان الأخيرة، وقد امتد الجدل حول شرعية الدور الذي يقوم به الجيش في المجتمع ومدى سلامة المقولات وشرعية الآمال والأساطير المتعلقة به والتي تحطمت في الحرب الأخيرة، أولى الحروب في مرحلة ما بعد الصهيونية. ويذهب الكاتب رؤوبين بدهتسور (هآرتس ٢٦ أغسطس ٢٠٠٧) إلى أن "الجيش الإسرائيلي يزداد دلالا رغم إخفاقه في الحرب الأخيرة"، فبدلا من تقديم فاتورة الحساب يُعطونه المزيد من الميزانيات والألعاب الحربية". "لقد اختار قادة الجيش الحل الأسهل بعد الفشل في الحرب، وهو المزيد من التسلح وتوسيع صفوف الجيش". (ويقصد به الخطة الخماسية التي تبناها رئيس الأركان عقب الحرب). ويستنكر الكاتب التفكير التقليدي للقيادة العسكرية الإسرائيلية الذي انحصر في زيادة كميات الأسلحة فيقول: "ليس العتاد هو ما يحتاجه الجيش الاسرائيلي أو زيادة الميزانية... إن مطلب شراء دبابات ميركافا اضافية يُجسّد الجمود الفكري الذي أُصيب به قادة الجيش... فاحتمالية تحقق سيناريوهات القتال التي تُستخدم فيها آلاف الدبابات شبه معدومة، وفي تلك الحالات التي ستكون فيها حاجة لاستخدام المدرعات يمتلك الجيش كميات كافية من الدبابات". ويصل الكاتب إلى أن "عهد الحروب المباشرة في منطقتنا قد ولّي. حرب المستقبل سترتكز علي استخدام الجو والصواريخ البالستية والصواريخ قصيرة المدي وأطر القتال البرية الصغيرة. هذه هي العبرة من حرب لبنان الثانية". وأعتقد أن وتشخيص الكاتب للقضية في تصوري ليس دقيقاً، فالإشكالية الكبرى التي تواجهها إسرائيل هي كيفية القضاء على المقاومة، فهل "استخدام الجو والصواريخ البالستية والصورايخ قصيرة المدى...إلخ" يقضي على المقاومة؟

ويذهب أمير أورن مراسل صحيفة هآرتس للشؤون الجيش (٥ سبتمبر ٢٠٠٧)، إلى أن الخطة الخمسية التي وضعها رئيس هيئة الأركان لن تنجح في إنهاض الجيش الإسرائيلي من وضعه المتردي، فالجهاز العسكري يحتاج الي خطة كإطار للتفكير والعمل. وينتقد الكاتب أيضا الاهتمام المفرط بالتطويرالكمي الذي يتجه له واضعو الخطة على حساب التطوير الكيفي، فيقول: "في خطة إشكنازي [قائد الجيش] عدد كبير من الدبابات والطائرات والتهديدات والتحديات والانعطافات، وهي خطة تفتقد تماما الي البُعد القيمي الذي ينفخ الروح في الجسم".

ثم يعطي الكاتب وصفاً لجيش الدفاع الإسرائيلي، الجيش الذي كان يدّعي أنه لا يُهزم! "إنه جيش لم يتمكن من اعادة بناء جهاز المناعة لديه، جيش مليئ بالدسائس والنمائم وضرب الخناجر". ويثير الكاتب شكوكاً بمقدرات إشكنازي على أن يعيد للجيش ليقاته القتالية فيصفه بأنه مجرد "مدير عمل لا يمكنه التسامي إلى مستوى القائد. فهو يقوم بإلزام الواحدات الميدانية بالعمل المرهق، فيعطي الجنود عملاً [منهكاً] حتى يسقطوا على الأرض تعباً ولا يشغلون القيادة بأمور أخرى".

ويرى عوفر شيلح، وهو كاتب رئيسي في صحفية معاريف (٤ سبتمبر ٢٠٠٧)، أن ثمة حالة من فقدان الأمل تسيطر على الوجدان الإسرائيلي، فيذهب إلى أن القيادة السياسية والعسكرية في اسرائيل تزرع اليأس في الشعب"، وأن "كلمة "الأمل" في السنين السبع الاخيرة أصبحت كلمة نابية تقريبا لا يرغب فيها أحد..لم يعد هناك "غد" في السنين الاخيرة. فالدولة الأقوي في الشرق الاوسط وخارجه، وقادة الجيش الذي يملك قوة تقارب القوي العظمي، وربابين الدولة التي يقترب مستوي الحياة فيها من مستوي أوروبا، كل أولئك لا يشعرون حتي بالحاجة إلى رؤيا بعيدة ليوم آخر. لقد حل إحساس قوي بالتضحية والمسكنة [أي أن الجنود الإسرائيليين يشعرون أنهم يضحون بأنفسهم، ولكنهم بدلا من أن يروا ذلك واجبهم، فإنهم يمنون على الجمهور به] حلت هذه الرؤية محل رؤية ديان المتشائمة للعالم. كانت الحرب عنده في تأبينه لروي روتبيرج "قدَر جيلنا" ومن هنا ظهرت عبارة إين بريرا لا خيار، ولكن حينما كان يقولها ديان فإنه كان يطرح رؤية ترى أن الاستمرار في الجاهزية العسكرية وفي البطش بالفلسطسنيين ستقنعهم في نهاية الأمر بتقبل إسرائيل. ولكن الوضع أصبح مختلفاً تماماً، حسب تصور الصحيفة، فالحياة في الدولة الصهيونية "ستظل تجري على نفس المنوال صادرة عن اليأس والغضب. لكن لا يعجبن أحد اذا سأل أناس شبان انفسهم لماذا يُجندون او يتطوعون من اجل أفق أسود" [وطريق مسدود]؟

وتعلق أسرة تحرير هآرتس (١٨ سبتمبر ٢٠٠٧) على النتائج غير العملية التي خرجت بها لجنة تحقيق فينوغراد، فتقول إن "الردع لا يرمم في لحظة". "فالردع هو كلمة جميلة ومشجعة ولكن من الصعب قياسها، وأن من الاسهل قياس وتشخيص الغرور والرضي المبالغ فيه الذي أصيبت به القيادة السياسية. وأن قدرة الردع الاسرائيلية تقاس كل يوم أيضا في غربي النقب، حيث تسقط مئات صواريخ القسام في الشهر ولا تنجح اسرائيل في ايجاد رد رادع لها. من الصعب أن ننسي أيضا هشاشة الجبهة الداخلية الاسرائيلية عندما تبينت هذه [الجبهة] قبل سنة فقط القدرة الكامنة لدي الانتحاريين ممن لا يردعهم شيء".

من زاوية مختلفة يمكننا تلمس رؤى اليمين الإسرائيلي وردود أفعالهم تجاه أزمة المؤسسة العسكرية، حيث يرى يسرائيل هرئيل ، وهو واحدا من أكبر المنظرين للاستيطان في الكيان الصهيوني، أن الاحتواء أخصى الجيش الإسرائيلي (هآرتس ٣ يناير ٢٠٠٨)، فيقول: "من يريد أن يعرف سبب فشل الجيش الاسرائيلي في الحرب سيجد في تقرير فينوغراد، بالإضافة إلى استخلاصاته الهامة والمؤلمة حول إخفاقات الجيش، رداً مركزيا: سياسة الاحتواء في الشمال أوصلت الجيش إلى الشلل والوهم... الاحتواء الذي يعتبر تسمية ملطفة لسياسة ضبط النفس والامتصاص. وبسبب الفشل في لبنان حاول أولمرت الانتقال من الاحتواء إلى الحسم، ولكنه عاد سريعاً بعد فشل لبنان الي ضبط النفس في مواجهة صواريخ القسام في النقب. هنالك افتراض بأنه لم يكن ليستخدم هذه السياسة لولا اكتشافه ان الجمهور يعارضها. رئيس الوزراء يعرف نفسية جمهوره، وهو الجمهور الوحيد في العالم ربما الذين يعتبرون ضبط النفس وتحمل الآلام والضحايا سواء في كريات شمونة أو سديروت سياسة صحيحة يتوجب الاستمرار فيها". عمّ يتحدث هذا الصحفي؟ هل يعني أن إسرائيل تمارس "ضبط النفس وتتحمل الآلام من أجل الضحايا" ولا تمارس البطش بما يكفي ضد الفلسطينيين؟ ألا يسمع هذا الرجل شيئاً عن المحرقة وعن تجويع الفلسطينيين شهوراً وشهوراً، وعن الطوابير الطويلة أمام الحواجز التي يقيمها الصهاينة والتي يموت أمامها المرضى والعجائز والحوامل؟ عمّ يتحدث هذا الرجل؟!

وقد دفعت الأزمة الراهنة العديد من الكتابات للرجوع إلى التاريخ لمحاولة تفسيرها وسبر أغوارها. فكتب أماتسيا حين العقيد في قوات الاحتياط، مقالا بعنوان "الجيش الإسرائيلي بدأ بالانزلاق في منحدر أملس منذ حرب الأيام الستة" (يديعوت احرونوت ١٧ سبتمبر ٢٠٠٧)، يقول فيه: "اذا كنتم تريدون فهم سبب ضعف الجيش الاسرائيلي في حرب لبنان الثانية فعليكم أن تعودوا بنظركم إلى أربعة عقود الي الوراء، وصولا الي حرب الأيام الستة. لقد بدأ الجيش الاسرائيلي منذ ذلك التاريخ بالانزلاق في منحدر أملس". "فالانتصار في حرب حزيران (يونيو) شوش عقل الأمة بأكملها، وأثّر في نشاط الجيش المتواصل حتي يومنا هذا. لهذا لم يكن عبثا ان أحداثا خطيرة قد جرت بعد الحرب، مثل فشل القوات المسلحة في معركة الكرامة، قد اعتبرت مجرد أمر عابر". ثم تُختم المقالة بجملة في غاية الدلالة: "أنا أُوصي المواطنين بأن يعترفوا بحقيقية أنه لم يكن لإسرائيل أبداً جيش حقيقي".

هذه هي الصورة العامة لجيش الدفاع الإسرائيلي، وما أصابه من تآكل بسبب استمرار المقاومة العربية سواء في فلسطين أم لبنان. وقد أخبرني اللواء حسن البدري، مؤرخ الجيش المصري - رحمه الله- أن الجيش النظامي الذي يستخدم في قمع عصيان مدني لمدة أكثر من ستة أشهر،

يفقد مقدرته القتالية، فما بالكم بجيش انغمس في هذه العملية غير العسكرية ما يزيد عن عشرة سنين؟!

هذا الكلام موجّه للنخب العربية التي تتصوّر أن المقاومة جهد لا طائل من ورائه، وأنه لا حل إلا من خلال المفاوضات مع الدولة الصهيونية ومن خلال الضغوط الأمريكية التي يمكن أن تمارسها على الدولة الصهيونية.

والله أعلم .

***

٥٥- الأناشيد الوطنية

موقع الجزيرة نت ٣٠-٥-٢٠٠٥م

النشيد الوطني لأي بلد يعبر عن أيديولوجية كاملة نابعة من رؤية للكون، وهي عادة ما تكون رؤية النخبة الحاكمة. وتكون مهمة النشيد تجنيد الجماهير في خدمة هذه الأيديولوجية. ومن ثم فالنشيد الوطني شأنه شأن الأيديولوجية قد يكون أداة لخدمة الجماهير (إن كانت النخبة الحاكمة تعمل لصالح الجماهير) وقد يكون أداة لتضليلها.

ولنبدأ بالنشيد الوطني الياباني الذي يسمى "كيمى جايو" أي "حكم إمبراطورنا" وهو له مذاقه الياباني الخاص، وفيما يلي نصه:

فليمتد حكمك السعيد عشرة آلاف عام

فلتحكم يا مولاي حتى تصبح الحصى الصغيرة

صخورا ضخمة من خلال توحدها عبر الزمان

تغطي جوانبها الموقرة الطحالب

ولا يمكن فهم هذا النشيد إلا في سياقه الياباني. ولنبدأ بشرح واحد من أهم التفاصيل في النشيد وهو الإشارة إلى الحصى الصغيرة التي تتحول إلى صخور ضخمة. فقد تصور اليابانيون القدماء أن الصخور الضخمة كانت في الأصل حصى صغيرة، توحدت تدريجيا عبر الزمان إلى أن أصبحت صخورا ضخمة تعلوها الطحالب.

الإشارة هنا هي في واقع الأمر إشارة للزمن أو ربما إلغاء له، وهذا موضوع أساسي في النشيد. ويلاحظ أن النشيد لا يذكر الوطن ولكنه يركز على الإمبراطور.

ولكن الإمبراطور هنا ليس شخصا أو فردا، فهو يعيش عبر الزمان، بل إن الزمان نفسه يختفي والتاريخ يغدو لا وجود له، وهذا أمر مفهوم في إطار الرؤية الحلولية اليابانية حيث يتوحد الإله بالإمبراطور بالأرض بالشعب فيصبح الإمبراطور تجسدا للإله على الأرض التي تتقدس بسبب هذا التجسد، ومن ثم فعبادة الإمبراطور هي عبادة الوطن وهي في نهاية الأمر عبادة الشعب لنفسه.

ومثل هذه الرؤية انغلاقية تماما، إذ تقسم العالم إلى المقدس والمدنس، والأنا والآخر. ولعل هذا هو سر انغلاق اليابان الإقطاعية على نفسها، ومحاولة اليابان الحديثة أن تحتفظ بخصوصيتها (أو قداستها) اليابانية.

ويبدو أنها قد أخفقت تماما في ذلك، فالأمركة قد اخترقت جنبات المجتمع الياباني، والأجيال الجديدة غير مهتمة كثيرا بتراثها، أو حولته إلى مجرد زخارف جميلة ليس لها مضمون حقيقي. وهذه هي إحدى مفارقات الرؤية الحلولية التي تتسم بالتأرجح بين الانغلاق الكامل والانفتاح الكامل، وبالتشرنق والذوبان.

ويمكننا الآن أن نتحدث عن "الهاتيكفاه" النشيد القومى الإسرائيلي. و"هاتيكفاه" كلمة عبرية معناها "الأمل". والنشيد في الأصل كان نشيد الحركة الصهيونية قبل إعلان الدولة، وفيما يلي مقطوعتان من النشيد:

ما دامت روح اليهودي

في أعماق القلب تتوق

ونحو الشرق

تتطلع العيون لصهيون

أملنا لم يُفقد بعد

أمل ألفي عام:

أن نصبح شعبا حرا في أرضنا

أرض صهيون وأورشليم

والنشيد يشبه من بعض الوجوه الخطاب الصهيوني؛ فهو يتحدث عن التطلع إلى صهيون، وعن أمل لم يُفقد بعد، وعن شعب واحد، وعن أرض صهيون، كما يؤكد كل الثوابت والمنطلقات الصهيونية من أن يهود العالم إنما هم شعب واحد بغض النظر عن انتمائهم الطبقي أو الإثني، أي أنه يؤكد مفاهيم الوحدة والخصوصية اليهودية بطريقة غير مباشرة.

وكما أنه يلزم عن عمد الصمت تجاه أغلبية اليهود الساحقة التي ترفض العودة إلى أرض المعاد وليست لديها أي رغبة في ذلك، كما يلزم الصمت تجاه آلية العودة إلى هذه الأرض، وهي

الإمبريالية العالمية التي منحته وعد بلفور ونصبت حكومة الانتداب لتؤمن له موطئ قدم ثم زودته بالدعم المالي والعسكري والنفسي بعد إنشاء الدولة، وهي عملية وصلت إلى ذروتها مع توقيع الاتفاق الإستراتيجي بين الولايات المتحدة وإسرائيل.

ويلزم النشيد الصمت أيضا تجاه آلية إفراغ الأرض من سكانها الأصليين. وغني عن الذكر القول إن هذه الآلية هي العنف والإرهاب المستمران، واللذان أصبحا حدثا يوميا بعد اندلاع انتفاضة الأقصى.

وهو لا يذكر أي شيء عن أي قيم مطلقة، دينية كانت أم أخلاقية، فالشعب هو مرجعية ذاته، ونقطة الجذب ومصدر التماسك هو أرض صهيون.

ونشيد الهاتيكفاه لا يختلف في هذا عن الأناشيد الوطنية العلمانية المختلفة التي عادة ما تجعل تراب الوطن هو الأرض المقدسة وتجعل الذات القومية هي العبد والمعبود والمعبد، والوطن فوق الجميع، وتظهر قيم مثل التربة والتراب والدم والعرق، باعتبارها مطلقات مرجعية.

ولكن على الرغم من الادعاءات القومية العلمانية لنشيد هاتيكفاه وحديثه عن الشعب الواحد والقومية اليهودية، فإن واقع النشيد ذاته يتحدى الأسطورة الصهيونية. فمؤلف النشيد وملحنه وكلمات النشيد وألحانه تبين عدم تجانس الجماعات اليهودية، وعدم وجود أية وحدة ثقافية أو قومية بينهم.

فمؤلف النشيد تنصَّر بعض الوقت وانتقل من شرق أوربا إلى غربها، ولم يطق العيش في فلسطين إلا لفترة قصيرة انتقل بعدها إلى الولايات المتحدة (حيث استقر مع الملايين من المهاجرين اليهود). وكلمات النشيد متأثرة بأنشودة وطنية بولندية أصبحت النشيد القومى لبولندا "بولندا لم تضع بعد، ما دمنا على قيد الحياة". وموسيقى النشيد مقتبسة من أغنية شعبية رومانية من مولدافيا (مسقط رأسه) تُسمى "العربة والثور".

وقام الصهاينة بمحاولات عدة لإعداد نشيد قومي ليست له أصول غربية (غير يهودية)، فأعلنوا عدة مسابقات، ولكن النتيجة جاءت دائما مخيبة للآمال. وقد أثيرت مؤخرا في إسرائيل قضية بشأن مضمون النشيد القومي، فإذا كان نشيد هاتيكفاه يتحدث عن أحلام اليهود، فكيف يمكن أن يعتبره مواطنو الدولة الصهيونية العرب نشيدهم الوطني؟!

ولأن الأناشيد الوطنية تعبر عن رؤية أيديولوجية للذات وللآخر فإنها نادرا ما تلجأ للمجاز، إذ يتم التعبير عن الأفكار بشكل بسيط ومباشر. ولكن النشيد القومي الشيشاني مختلف تماما عن

معظم الأناشيد الوطنية التي أعرفها، فهو يستخدم مجموعة من الصور الشعرية المؤثرة إلى جانب التقرير المباشر:

في ليلة مولد الذئب خرجنا إلى الدنيا، وعند زئير الأسد في الصباح سمونا بأسمائنا

وفي أعشاش النسور أرضعتنا أمهاتنا ومنذ طفولتنا علمنا آباؤنا فنون الفروسية والتنقل بخفة الطير في جبال بلادنا الوعرة

لا إله إلا الله

لهذه الأمة الإسلامية ولهذا الوطن ولدتنا أمهاتنا

ووقفنا دائما شجعانا نلبي نداء الأمة والوطن

لا إله إلا الله

جبالنا المكسوة بحجر الصوان عندما يدوي في أرجائها رصاص الحرب

نقف بكرامة وشرف وعلى مر السنين نتحدى الأعداء مهما كانت الصعاب

وبلادنا عندما تتفجر بالبارود من المحال أن نُدفن فيها إلا بشرف وكرامة

لا إله إلا الله

لن نستكين أو نخضع لأحد إلا الله فإنها إحدى الحسنيين نفوز بها: الشهادة أو النصر

لا إله إلا الله

جراحنا تضمدها أمهاتنا وأخواتنا بذكر الله

ونظرات الفخر في عيونهن تثير فينا مشاعر القوة والتحدي

لا إله إلا الله

إذا حاولوا تجويعنا سنأكل جذور الأشجار وإذا منع عنا الماء سنشرب ندى النبات

فنحن في ليلة مولد الذئب خرجنا للدنيا

ونحن دائما سنبقى مطيعين لله وللوطن وهذه الأمة

لا إله إلا الله.

يبدأ النشيد بمجموعة من الصور مأخوذة من الطبيعة، ولا أعرف بالتحديد دلالتها في التراث الشعبي الشيشاني، ولكن سياق النشيد يقرِّب لنا الدلالة.

فمن الواضح أن مولد الذئب ليلة يولد فيها المقاتلون الشجعان، تماما مثل ذلك الصباح الذي يزأر فيه الأسد، ثم تتوالى الصور الأخرى، فأمهم أرضعتهم في أعشاش النسور وعلمهم آباؤهم فنون الفروسية والتنقل بخفة الطير في الجبال.

وكل الصور أخذت من الطبيعة، ولكن مؤلف النشيد اختار منها عناصر غير عادية سواء كان مولد الذئب أم التنقل بخفة الطير. وهذه العناصر الطبيعية لم تستوعب الإنسان، وإنما وظفت لتبين أبعاد الإنسان الشيشاني الجهادية البطولية، فإنه جزء من جماعة إنسانية مترابطة، فالحديث عن الأمهات والآباء يبين الاستمرارية والترابط، ولذا حينما يلجأ المؤلف للتقرير المباشر في اللازمة المتكررة، فإن هذا لا يفاجئنا:

لا إله إلا الله

لهذه الأمة الإسلامية ولهذا الوطن ولدتنا أمهاتنا

ووقفنا دائما شجعانا نلبي نداء الأمة والوطن

لا إله إلا الله

في هذه اللازمة المتكررة يحدد مؤلف النشيد معنى كل الصور، فهي تبدأ بالنصف الأول للشهادة الإسلامية الذي يشكل الإطار العام ورؤيته للكون. فانتماء هؤلاء المقاتلين الشجعان هو -منذ لحظة الميلاد- إلى الأمة الإسلامية وإلى وطنهم، أي أن لحظة الميلاد التي أكدت الانتماء إلى العائلة تمتد الآن لتصبح انتماء إلى الوطن والدين والإنسانية جمعاء.

ثم تنتقل العدسة من الحديث عن الأصول والجذور إلى الحديث عن الثمرة، أي المجاهد الذي يحمي بلاده وشرفه وكرامته.

ونلاحظ هنا أن المجاز يختفي تقريبا، ويلجأ مؤلف النشيد إلى التقرير المباشر، ويستمر التقرير المباشر، ثم يعود المجاز تدريجيا إلى أن نصل إلى المقطع الأخير لنعود مرة أخرى إلى الطبيعة، بعد أن تمت أنسنتها تماما، فجذور الشجر هي طعام المجاهد إن جوعه العدو، وندى النبات شرابه إذا منعوا عنه الماء، فالمجاهدون قد خرجوا إلى الدنيا "في ليلة مولد الذئب".

والذئب هنا ليس ذئب داروين الذي يفترس الضعيف، بل هو رمز الشرف والكرامة وكل ما هو نبيل في الإنسان. ولذا فلا مجال للغرور والخيلاء والظلم، ونحن دائما سنبقى مطيعين لله وللوطن وهذه الأمة، لا إله إلا الله. فالتوحيد هنا يعنى ألا يخضع الإنسان لظالم أو لبشر مثله، فهناك قيم تتجاوز الجميع، يحكم بها على الجميع.

وبما أن الأناشيد الوطنية تعبر عن رؤية أيديولوجية فلابد وأنها تعكس التطورات التاريخية التي تؤدي بدورها إلى تغيير توجه المجتمع، ومن ثم أيديولوجيته.

وهذا يظهر في تطور النشيد الوطني المصري، فالنشيد الوطني المصري قبل عام ١٩٥٢ كان يمجد الملك وكان مجرد صدى للأغنية البريطانية **God Save the King**، مع الفارق أن الملك في إنجلترا كان يملك ولا يحكم، أما في بلادنا فالملك يملك ويحكم ويشكل وزارات ويسقطها ويتآمر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وبعد قيام الثورة قامت عدة محاولات للوصول إلى نشيد وطني مصري، كان أولها:

"على الإله القوى الاعتماد

بالنظام والعمل والاتحاد"

ويتسم هذا النشيد بأنه لم يكن مباشرا وحسب وإنما بكونه عاما للغاية، ولعل هذه الصفة الأخيرة مردها أن الثورة لم تكن قد تحددت رؤيتها الثورية الإصلاحية بعد، كما أن طبيعة المواجهة مع إسرائيل والاستعمار الغربي ومدى حدتها لم تكن قد تحددت بعد.

والنزعة التعبوية واضحة تماما في نشيد "والله زمان يا سلاحي" الذي أصبح نشيد مصر الوطني بعد العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦:

والله زمان يا سلاحي اشتقت لك في كفاحي

انطق وقول أنا صاحي يا حرب والله زمان

لكن مشكلة هذا النشيد أنه مرتبط بلحظة محددة، لحظة العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ لا يتجاوزها، والنشيد الوطني يجب أن يتوجه للماضي والحاضر والمستقبل. ولا يذكر النشيد شيئا عن العروبة أو الإسلام، وهو مكتوب بالعامية المصرية مما يجعله محصورا بحدود تاريخية (اللحظة) وجغرافية (مصر).

ويلاحظ غياب نشيد وطني للعالم العربي ككل، رغم أن أغنية "الحلم العربي" نالت شعبية كبيرة خاصة بين الشباب، مما يبين أن الحلم العربي لم يمت بعد، وما أحوجنا في عصر التكتلات الاقتصادية السياسية الكبرى، أن تظهر كتلة عربية، تربط دولها وحدة ما، مهما كانت واهية، حتى يمكننا البقاء في مركز التاريخ وليس على هامشه، ولا نكون كاليتامى على مأدبة اللئام.

تصوروا كيف يمكن أن تكون علاقة البحرين، أو حتى تونس أو مصر، كل على حدة مع الاتحاد الأوروبي، أو مع الصين؟ وتخيلوا العكس، لو كل البلاد العربية مجتمعة دخلت في علاقة سياسية أو تجارية مع كل كتلة من هذه الكتل الكبرى، ألن يكون الوضع مختلفا تماما، وألن يكون موقفنا التفاوضي أقوى، بدل أن نهرول نحو الكويز، ظنا منا -بسبب ضعفنا- أن إسرائيل هي الطريق إلى الجنة والسوق الأميركي؟

ولعل النشيد الوطني العربي (الذي يمكن أن يتكون من عدة بيوت شعرية قصيرة تلحن وتنشد في دقيقتين، قبل النشيد الوطني لكل دولة، حتى نحتفظ بالحلم العربي لضمائرنا وللأجيال القادمة) لعل هذا النشيد يكون بداية للوحدة التي لم نخترها طواعية فإن الواقع الدولي سيفرضها علينا فرضا.

والله أعلم.

***

ملاحظة : نشر المقال في موقع الجزيرة يوم ٣٠ مايو ٢٠٠٥م

http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/2005/5/30/%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%86%D8%A7%D8%B4%D9%8A%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D9%88%D8%B7%D9%86%D9%8A%D8%A9

***

٥٦- الإسلام والغرب

موقع الجزيرة نت ٢٦-١٢-٢٠٠٤م

من الموضوعات التي طرحت نفسها وبحدة خاصة بعد ١١ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١، موضوع علاقة الغرب بالعالم الإسلامي. ففي الغرب يسألون لماذا يكرهنا المسلمون؟ وفي محاولة الإجابة عن هذا السؤال يقولون إن المسلمين يحقدون على الغرب بسبب الاستقرار السياسي والتقدم التكنولوجي والاقتصادي اللذين يتمتع بهما، وإنهم وقعوا أسرى الماضي بدلاً من بذل الجهد اللازم ليلحقوا بركب الحداثة والتقدم، ولذا أخفقوا في تحديث مجتمعاتهم، الأمر الذي يزيد من عدائهم للغرب.

وفي المقابل يحاول بعض المسلمين تفسير العداء الغربي بالقول إن اللوبي الصهيوني -وأحيانا اليهودية العالمية- هي التي تحرض الغرب ضدنا. وهناك من يرى أن الغرب لا يزال صليبياً يحاول تحطيم الإسلام وإذلال المسلمين وربما تنصيرهم.

وقد يكون هناك شيء من الصحة في كل هذه العناصر، ولكنها قاصرة عن تفسير ظاهرة في شمول وعمق التوتر المتصاعد في العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي.

ويمكن القول إن ثمة عناصر يمكن أن تؤدي إلى توتر العلاقة بين الإسلام والغرب، لكنها في الوقت ذاته يمكن أن تشكل أساساً للتفاهم والتعاون.

فالتشكيل الحضاري الإسلامي مجاور للتشكيل الحضاري الغربي (المسيحي)، وعبر التاريخ كان اتساع رقعة العالم الإسلامي يتم على حساب التشكيل الحضاري الغربي المسيحي، والعكس صحيح. فقد اتسعت رقعت العالم الغربي (ابتداءً من القرن السادس عشر) على حساب العالم الإسلامي.

ويُلاحظ تشابه العقيدتين الإسلامية والمسيحية في كثير من الوجوه. فالعقيدتان تشتركان في الإيمان بإله متجاوز للطبيعة والتاريخ، وليس مقصوراً على شعب بعينه أو أرض بعينها.

وقد أرسل لنا كتباً سماوية تهدينا سواء السبيل وتحوي منظومات أخلاقية متشابهة في كثير من الوجوه.

ولكن من المفارقات أن نقاط التشابه هذه قد تشكل مصدر توتر، لأن البعض في العالم الغربي يجد صعوبة في تصنيف الإسلام كعقيدة مستقلة لها رؤيتها المستقلة للكون، ويصنفه على أنه

مجرد هرطقة مسيحية وانحراف عن الجوهر الديني الصحيح، أي المسيحية! ويفعل بعض المسلمين الشيء نفسه، إذ يصنفون الإنجيل على أنه كتاب مقدس محرف، وأن الإسلام هو الدين الصحيح.

ومن مصادر التوتر الجديدة وجود أقليات إسلامية كبيرة في العالم الغربي لأول مرة في التاريخ، وهي أقليات يتزايد عدد أفرادها (في الوقت الذي تتراجع فيه أعداد الشعوب الغربية بسبب الإحجام عن الإنجاب)، كما أنها أقليات تتسم بقدر معقول من التماسك الإثني والديني، ويصر كثير من أعضائها على ممارسة شعائر دينهم والتعبير عن هويتهم الإثنية بشكل واضح، مما يزيد من حدة التوتر.

ومن العوامل الأخرى التي تولد قدراً من التوتر أن الإنسان عادةً ما يحدد هويته في مقابل الآخر، وهذا أمر عادي في معظم الأحوال، ما دامت الهوية تتحرك داخل حدودها ولا تحاول إلغاء الآخر رغم اختلافه.

ولكن يمكن لمسألة تعريف الهوية أن تأخذ شكلاً عدوانياً، وهذا ما حدث في الغرب، ففي منتصف القرن التاسع عشر كان هناك حديث عن الخطر الأصفر (الصين)، وبعد ذلك بدأ الحديث عن الخطر الأحمر (الدول الشيوعية). ومع اختفاء الخطرين بدأ الحديث الآن عن الخطر الأخضر (الإسلام). ويزيد وجود الأقليات الإسلامية في الغرب من هذه المخاوف ومن الإحساس بعدم الأمان.

غير أن كل العناصر السابقة التي تسبب التوتر قد تشكل أيضاً أساساً للتعاون والتفاهم، فتجاور الحضارتين الإسلامية والغربية يمكن أن يشكل إطاراً للتفاعل وتبادل الأفكار والخبرات والسلع.

والتشابه في الرؤية والمنظومات الأخلاقية يمكن أن يؤدي إلى اكتشاف رقعة المشترك وتوسيعها، كما يمكن أن يشكل أساساً لإبرام عقد اجتماعي دولي يتم بمقتضاه تنظيم العلاقة بين العالمين الغربي والإسلامي على أساس من الاحترام المتبادل والمساواة والعدل.

وجود الأقليات الإسلامية في العالم الغربي كان يمكن أن يشكل فرصة للتفاعل بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية كما حدث في الأندلس، على سبيل المثال. ولكن رغم كل هذا لم تتحقق إمكانية التفاهم، بل ازدادت حدة التوتر، ومن هنا تأتي أهمية دراسة هذه الظاهرة وفهمها حق الفهم، حتى يتسنى التعامل معها، وربما التقليل من حدة التوتر.

ولإنجاز هذا الهدف ينبغي التعرف على رؤية الإنسان الغربي للعالم، فهي التي تحدد اختياراته وأولوياته، وفي نهاية الأمر سلوكه.

ويمكن القول إن الحداثة الغربية تشكل الإطار الذي يدور داخله الإنسان الغربي، وهي تقدم رؤية مادية ترى العالم باعتباره مادة. وقد عرَّفت هذه الرؤية الهدف من وجود الإنسان في الكون بأنه تعظيم المنفعة واللذة، وعرَّفت التقدم بأنه تصاعد معدلات الإنتاج والاستهلاك، مما ولد شراهة استهلاكية عند الإنسان الغربي ليس لها نظير في التاريخ.

وهذه الحداثة المادية لا تعني مجرد استخدام العقل والعلم والتكنولوجيا، بل هي استخدام العقل والعلم والتكنولوجيا المنفصلة عن القيمة (أو كما يقولون بالإنجليزية **value-free**).

وفي عالم متجرد من القيمة تصبح كل الأمور متساوية، ومن ثم نسبية، وعندئذ يصعب الحكم على أي شيء، ويصبح من المستحيل التمييز بين الخير والشر وبين العدل والظلم، بل بين الجوهري والعرضي، وأخيراً بين الإنسان والطبيعة أو بين الإنسان والمادة.

وفي غياب قيم مطلقة يمكن الاحتكام إليها، تظهر آلية مادية واحدة ووحيدة لحل النزاعات والخلافات -التي هي من صميم الوجود الإنساني- ألا وهي القوة والإرادة.

وفي هذا الإطار تمركز الغرب حول ذاته، وجعل من نفسه مرجعية نهائية ومعياراً يحكم به على كل الظواهر والحضارات، ونظر إلى العالم لا باعتباره كيانات مستقلة لكل منها طموحاته المشروعة وأهدافه المختلفة، وإنما باعتباره مادة استعمالية من حقه أن يوظفها لحسابه باعتباره الأقوى. وهذا هو جوهر الرؤية الاستهلاكية الإمبريالية.

وفي هذا الإطار تحركت جيوش أوروبا وقسمت العالم فيما بينها، ونهبت ثرواته وحولته إلى مصادر للمواد الخام والعمالة الرخيصة وأسواق لسلعها. وبالفعل جاءت الجيوش الغربية إلى العالم العربي والإسلامي وأخضعت شعوبه لكل أنماط الاستعمار: استعمار عسكري في مصر وسوريا ولبنان والمغرب والسودان والعراق وليبيا، واستعمار استيطاني في الجزائر، واستعمار استيطاني إحلالي في فلسطين.

ولا يقبل الاستعمار الغربي بطبيعة الحال قيام تكتلات عربية أو إسلامية تتصدى لمحاولته نهب ثروات الشعوب، ولهذا فهو يصر على تفتيتها وتجزئتها، وعلى سحق أي قوى مقاومة. وفي هذا السياق يمكن فهم العداء الغربي للإسلام.

فقد بدأت حركة مقاومة الاستعمار تحت ألوية القومية العربية، فتصدى لها الاستعمار بكل ضراوة، بل تعاون في بعض الأحيان مع الحركات الإسلامية خاصة ذات التوجه الصوفي، لأنه وجد أنها يمكن أن تصرف الجماهير عن العمل السياسي وعن المقاومة، بتركيزها على العبادات والخلاص الفردي.

كما تعاون الغرب أثناء الحرب الباردة مع الحركات (والحكومات) الإسلامية لتقف ضد المعسكر الشيوعي، ووصل هذا التيار إلى قمته في أفغانستان أثناء الاحتلال السوفياتي له.

ولكن مع انتهاء الحرب الباردة ومع تراجع القومية العربية ومع تزايد النضج السياسي للحركات الإسلامية ودخولها معترك الحياة السياسية، بدأت هذه الحركات في قيادة المقاومة للاستعمار الغربي.

وهنا بدأ يظهر العداء الغربي للإسلام، وبدأ الحديث عن الإرهاب الإسلامي وضرورة إصلاح الخطاب الديني الإسلامي. ومما له دلالته أن العالم الغربي الذي يحارب الإسلام، يشجع الحركات الصوفية. ومن أكثر الكتب انتشاراً الآن في الغرب مؤلفات محيي الدين بن عربي وأشعار جلال الدين الرومي.

وقد أوصت لجنة الكونغرس الخاصة بالحريات الدينية بأن تقوم الدول العربية بتشجيع الحركات الصوفية. فالزهد في الدنيا والانصراف عنها وعن عالم السياسة يضعف ولا شك صلابة مقاومة الاستعمار الغربي. ومن ثم فعداء الغرب للإسلام ليس عداء في المطلق، وإنما هو عداء للإسلام المقاوم، ولأي شكل من أشكال المقاومة تتصدى لمحاولة الغرب تحويل العالم إلى مادة استعمالية.

ومع هذا تظل إمكانية الحوار والتفاهم قائمة، وإن كان ثمة عائق أساسي وهو أن الرؤية الغربية الإمبريالية الداروينية غير عقلانية. فمن يجعل القوة معياراً واحداً ووحيداً ولا يقبل الاحتكام إلى منظومة قيمية خارجة، إنسان غير عقلاني، لأن العقلانية تفترض وجود معايير إنسانية وأخلاقية مطلقة خارج الإنسان يمكن الاحتكام إليها. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف نتحاور في غياب معايير أخلاقية وإنسانية يمكن الاحتكام إليها والإهابة بها؟

وأرى أن هناك ثلاثة مستويات للحوار:

١- الحوار بين الأنداد: وهو حوار بين طرفين يعترف كل منهما بإنسانية الآخر وبحقوقه وسيادته. والهدف من الحوار هنا هو تسوية بعض الخلافات التفصيلية الجزئية التي لا تنصرف إلى الكليات أو المنطلقات.

٢- الحوار النقدي: إذا كان أحد الأطراف لا يعترف بإنسانية الآخر وحقوقه وسيادته، فمن واجب الطرف الثاني أن يوجه النقد للطرف الأول ويبين له خلل موقفه، ويدعم نقده بالحجج والبراهين، كما يحدث مثلاً حينما نحاور الدول الأوروبية التي نختلف معها في بعض الأمور المبدئية، والتي تقبل الحوار ولا تلجأ إلى العنف.

٣- الحوار المسلح: إن استمر الطرف الأول في إنكار إنسانية الطرف الثاني وحقوقه وسيادته، وحوَّل إنكاره هذا إلى فعل ظالم باطش كأن يستولي على أرض الطرف الثاني أو يعتدي عليه، فإن من واجب الطرف المعتدى عليه أن يصده ويقاوم ظلمه وبطشه بأن يرسل للظالم رسائل نقدية مسلحة ليؤكد إنسانيته وسيادته ويحصل على حقوقه المغتصبة.

وهذا ما يحدث في فلسطين المحتلة، فالإسرائيليون ينكرون وجود الفلسطينيين، فيقوم الفلسطينيون بإرسال رسائل مسلحة لهم تأخذ شكل انتفاضات شبه سلمية (مثل انتفاضة ١٩٨٧) وانتفاضات مسلحة (مثل انتفاضة الأقصى)، وهي رسائل تؤكد للإسرائيليين أن الشعب الفلسطيني -صاحب الأرض- موجود وحي ويقاوم لاستعادة أرضه.

ولابد أن يتم الحوار على جميع المستويات، فالحوار الودي بمفرده مع من يؤمن بالقوة معياراً يتيماً لا يجدي فتيلاً، والحوار المسلح بمفرده يدخلنا في طريق مسدود. وهذا ما فعله الفيتناميون، فكانوا يجلسون على مائدة المفاوضات ويقومون بحملات إعلامية يتوجهون بها إلى أنصار السلام في العالم بما في ذلك الولايات المتحدة، ويوجهون النقد إلى المؤسسة العسكرية الأميركية التي بطشت بالشعب الفيتنامي دون وجه حق، ويقاتلون -في الوقت ذاته- في ميدان الحرب بعزم وإصرار، وبذلك تم تحويل المكاسب الميدانية إلى مكاسب سياسية.

وبالمثل، يمكن أن يأخذ الحوار مع الغرب أشكالاً كثيرة، فلا يكفي السعي لتجميل صورتنا وتوضيح مشروعية موقفنا، إذ لابد من توجيه رسائل نقدية إلى الغرب (من خلال حملات إعلامية وحوارات مكثفة) تبين له أن دعمه لإسرائيل وهجومه على العالم العربي لا يمكن أن يظل أمراً مجانياً.

ويجب تحويل الحوار النقدي إلى حوار مسلح إذا استلزم الأمر من خلال عمليات المقاطعة والتهديد بسحب الاستثمارات وكل أشكال المقاومة المتاحة. أي يجب أن يدرك الآخر المعتدي أن هناك ثمناً لابد أن يدفع، وهم يفهمون تماماً مسألة الثمن هذه، فكما قال رئيس الوزراء البريطاني غلادستون "لا يوجد لدينا أصدقاء دائمون ولا أعداء دائمون بل لنا مصالح دائمة".

والله أعلم.

***

ملاحظة : نشر هذا المقال في موقع الجزيرة يوم ٢٦ ديسمبر ٢٠٠٤م

***

٥٧- الحداثة الغربية بين الصلابة والسيولة

موقع الجزيرة نت ٣١-١٢-٢٠٠٥م

يتصور الكثيرون أن الحداثة رؤية ومجموعة من الأفكار تحققت في المجتمعات الغربية بنفس الطريقة وعلى نفس المنوال، وعادة ما تدور هذه الأفكار حول أفكار مثل العقلانية واستخدام العلم والتكنولوجيا في التعامل مع الواقع. وأننا كي نحقق معدلات التقدم التي حققوها علينا أن نتبنى رؤيتهم ونلحق بهم.

وهذا التصور يتجاهل حقيقة هامة وهي أن الحداثة ليست رؤية ثابتة وإنما متتالية تتحقق حلقاتها عبر الزمان والمكان، أي أن الحداثة لها تاريخ وتمر بمراحل، وأن ما تحقق في الحلقات أو المرحلة الأخيرة (بعد عام ١٩٦٥) يختلف عما تحقق في الحلقات أو المرحلة الأولى.

ولذا يجب ألا نمر على تاريخ الحداثة مر الكرام، وإنما ندرسه بعمق، فمنظومة الحداثة قد أمسكت بتلابيبنا ودعاتها يتزايدون يومًا بعد يوم.

ولإنجاز هذا الهدف يجب أن نلاحظ أن المتتالية التحديثية المتحققة تتضمن مجموعة من الثنائيات الأساسية: الإنتاج مقابل الاستهلاك، المنفعة "البرانية" مقابل اللذة "الجسدية"، التحكم والإرجاء مقابل الانفلات والإشباع المباشر، التراكم مقابل التبديد والإنفاق، الدولة مقابل السوق.

والطرف الأول من الثنائية (الإنتاج والمنفعة والتحكم والإرجاء والتراكم والدولة) يفترض وجود مركز للكون (إنساني أو طبيعي) ولذا فأذهب للقول إنه حينما يسود هذا الطرف من الثنائية فإننا ندخل عالم الحداثة الصلبة.

أما الطرف الثاني من الثنائية (الاستهلاك واللذة والانفلات والإشباع المباشر والتبديد والسوق) فيفترض انعدام الحدود وغياب المركز. ومن ثم تتساوى كل الأشياء وتختفي الصلابة لتحل محلها سيولة شاملة، وهذا هو عالم ما بعد الحداثة السائلة.

وأنا أذهب إلى أن عام ١٩٦٥ هو العام الفاصل بين عالم الحداثة الصلبة وما بعد الحداثة السائلة. وقد اخترت هذا التاريخ لا لأن شيئا محددا ملموساً حدث فيه، وإنما لأنه في منتصف الستينيات.

ولا يمكن تحديد تاريخ الظواهر الحضارية بالإشارة إلى يوم بعينه أو عام بعينه فهي تتطور بشكل يتجاوز مثل هذا التحديد الدقيق. ومع هذا يظل عام ١٩٦٥ اختيارا مناسبا في تصورنا، فهو نقطة تركُّز تقع داخل مُتَصَل طويل.

هذا الانتقال من الحداثة الصلبة إلى ما بعد الحداثة السائلة يعبر عن نفسه في كل مجالات النشاط الإنساني، فإذا نظرنا، على سبيل المثال، إلى المجال الاقتصادي سنجد أن الهدف النهائي من الوجود في الكون في مرحلة الحداثة الصلبة (قبل عام ١٩٦٥) هو الإنتاج والزيادة المطردة للإنتاج.

والإنسان في هذه المرحلة منتج أكثر من كونه مستهلكا، واجبه الإنتاج ومكافأته الاستهلاك في حدود المعقول، وما يُحرك الجميع هو مبدأ المنفعة المادية، فالمستهلك يبحث عن السلعة الضرورية التي تنفعه، والمنتج أيضا يبحث عما ينفع المستهلك لينتجه فيحقق أرباحا متزايدة.

ولذا فلابد من عملية قمع وتقشف، فلو حرَّكت اللذة البشر في هذه المرحلة لكانت كارثة، لأن المواطن سيستهلك أكثر مما ينتج، ولن يمكن ضبط إنتاج السلع وهذه هي مرحلة التقشف والتراكم الرأسمالي.

أما في مرحلة ما بعد الحداثة السائلة أي بعد عام ١٩٦٥، فالهدف النهائي من الوجود في الكون هو الاستهلاك والمزيد من الاستهلاك، وما يحرك المستهلك هو اللذة لأنه لو حرَّكته المنفعة لكانت كارثة لأنه لن يستهلك إلا ما يحتاج إليه، وبالتالي لن تتحرك آلات المصانع التي تنتج آلاف السلع غير الضرورية، ولن تزيد أرباح المنتجين ولن يتراكم رأس المال.

بل إن الاستهلاك بالنسبة للمستهلك واجب/حق. وبعد تحقيق التراكم الرأسمالي الإمبريالي بنسبة معقولة أصبح الاستهلاك (لا الإنتاج) واللذة (وليس المنفعة) هو هدف المجتمع، وأصبحت السعادة هي تحرر الاستهلاك من الحاجات المادية أو الأساسية التي يتطلب الوفاء بها السلع ذات القيمة الاستعمالية.

ولم يَعُد هدف المجتمع إشباع الحاجات وإنما تخليقها، ولم تَعُد الحاجة مصدر معاناة تحتاج إلى إشباع وإنما أصبحت على العكس من ذلك شيئاً يُحتَفى به. وهذه هي مرحلة الاستهلاك والتبديد.

ويتبدى الانتقال من مرحلة إلى أخرى في المجال الاقتصادي والاجتماعي والسياسي. فشهدت مرحلة الحداثة الصلبة ظهور القوميات العلمانية والدولة القومية المركزية المطلقة، ونشبت

الثورة البورجوازية ضد الإقطاع، وانتصرت البورجوازية والطبقات المتوسطة وتبلور الصراع الطبقي، ثم نشبت الثورة البروليتارية ضد الرأسمالية.

ولكن مع تصاعد معدلات التدويل والاتصال الإلكتروني (بعد عام ١٩٦٥) ضمرت الدولة القومية ومؤسساتها وظهرت مراكز قوى أخرى (نقابات -جماعات ضغط- وشركات ضخمة ومنظمات غير حكومية)، فالسلطة لم تَعُد مجموعة مؤسسات مركزية يمكن الاستيلاء عليها والتحكم فيها، فهي موزعة بين عدة مؤسسات متغلغلة في المجتمع.

كما بدأ التوجه الحاد نحو اللذة يقوض مركزية الدولة، إذ تصاعدت النزعات الفردية. ومن أهم التطورات تضخم (بل تغوُّل) قطاع صناعات اللذة، وهيمنته على الحياة الخاصة التي تم استيعابها في رقعة الحياة العامة، وتزايد تأثير وسائل الإعلام ومنظومات المعلومات التي تحاصر الإنسان بالصور الجذابة المتغيرة، الخالية من المضمون والمعنى تقريبا، والتي تكاد تشير إلى ذاتها.

أما في مجال الفكر فقد شهدت مرحلة ما قبل عام ١٩٦٥ بدايات المشروع التحديثي العقلاني المادي الذي يستند إلى الإيمان بأن العالم كيان متماسك، ورغم أنه كيان مادي فإنه يمكن أن نجرد منه رؤية كلية تتجاوز تشظي التفاصيل والمعطيات المادية، والعالم له هدف وغاية (التقدم المستمر وزيادة معدلات الاستهلاك) كل هذا يعني أن العالم له مركز يتسم بالثبات، ومن ثم تسود العقلانية في الإطار المادي.

وقد ظهرت من داخل هذه المنظومة ثنائية الإنسان والطبيعة حيث يشغل مركز الكون إما الإنسان المُتألَّه أو الطبيعة/المادة. ولكن ما حدث في واقع الأمر أن الإنسان الأبيض (وليس الإنسان ككل) ألَّه نفسه وأصبح مرجعية ذاته واحتل المركز، وقام بحوسلة الطبيعة وبقية البشر (أي تحويلها إلى وسيلة)، ومن ثم تحولت الرؤية المعرفية العلمانية إلى رؤية علمانية إمبريالية.

أما في مرحلة ما بعد عام ١٩٦٥ فتهيمن قوانين التغير المادية، وتكتسب مركزية كاملة وحركية ذاتية مستقلة عن إرادة الإنسان بحيث تتجاوز أية نماذج عقلية وأية محاولات للتفسير والتنظير، فكل شيء يسقط في قبضة الصيرورة والتغير، وتختفي المنظومات الكلية، ومن ثم تزيد اللاعقلانية في الإطار المادي.

وقد انعكس هذا على المنظومات الأخلاقية ففي بداية مرحلة التحديث الصلبة، أي قبل عام ١٩٦٥، تم توليد منظومات أخلاقية مادية (اشتراكية أو رأسمالية) يؤمن بها الإنسان الرأسمالي أو الاشتراكي إيمانا عميقا. ويشعر الإنسان من ثم بأنه قادر على التحكم في حياته ومصيره وعلى صياغة بيئته وذاته في ضوء المثل الأعلى الذي يؤمن به. ويتم ضبط الحياة من خلال التسامي على الرغبات (وكبتها أو قمعها) وإرجاء الإشباع واللذة.

ولكن بعد عام ١٩٦٥ في مرحلة ما بعد الحداثة السائلة يلاحظ التزايد التدريجي للنسبية المعرفية والأخلاقية، فيصبح من المستحيل الإيمان بأية قيم، وهو ما يعني اختفاء النزعة النضالية وتلاشي النزعة الطوباوية وكل الأحلام المثالية (في المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي)، ويرفض الإنسان إرجاء إشباع اللذة الفردية.

ويتسارع تآكل الأسرة إلى أن تأخذ في الاختفاء تماما وتظهر أشكال بديلة من الأسرة. ونظرا لانفصال الجنس عن القيم الأخلاقية والاجتماعية، يصبح النشاط الجنسي مرجعية ذاته ويزداد السعار الجنسي.

وقد أصبحت اللذة إحدى الآليات التي يستخدمها المجتمع العلماني الحديث في استيعاب الجماهير في عمليات الضبط الاجتماعي بعد أن كان يبذل جهودا لمحاصرتها وإعلائها. وتتم عملية الاستيعاب والضبط لا من خلال القمع الصريح وإنما من خلال الإغواء، وهو شكل من أشكال القمع الخفي حيث تتم إشاعة الإحساس بأن حق الإنسان الأساسي (بل الوحيد) هو الاستهلاك، وبأن إشباع اللذة هو أقصى تعبير ممكن عن الحرية الفردية.

وهناك تبديات لهذا الانتقال من مرحلة إلى أخرى في عالم الفن والمنظومات الجمالية، ففي مرحلة التحديث الصلبة (قبل عام ١٩٦٥) يسود الإيمان بأن ثمة واقعا ثابتا مستقرا وذاتا متماسكة قادرة على التواصل مع الذوات الأخرى من خلال لغة عقلانية شفافة تعكس الواقع، ولها مضمون إنساني وأخلاقي وتهدف إلى تعميق إدراك الإنسان بواقعه وربما تغييره، وبأن وظيفة النقد الأدبي والفني هي اكتشاف القيم الأخلاقية والجمالية الإنسانية التي يمكن أن يهتدي بهديها المبدعون والجمهور. ويظهر الفن الواقعي والرومانسي والتجريب في إطار من القيم الجمالية.

أما في مرحلة ما بعد الحداثة السائلة (بعد عام ١٩٦٥) تختفي الذات الإنسانية المستقلة الواعية وإن وُجدت فهي ذات منغلقة على نفسها وغير متماسكة وغير قادرة على التواصل مع الآخرين، فالواقع لا يوجد وإن وجد فلا يمكن الوصول إليه، فاللغة ليست موصلا جيدا كما

يتصور دعاة التحديث. وتختفي المعيارية وإن وجدت فهي معايير متعددة تنفي فكرة المعيارية المركزية وهو ما يعني استحالة المحاكاة أو التفاعل أو التواصل.

ولذا يختفي الإيمان بما يسمى القصة الكبرى، أي الإنسانية المشتركة والإطار النظري الكُلي. وتظهر القصص الصغرى التي ليس لها شرعية خارج نطاقها أو حدودها، مما يعني أن لكل فرد رؤيته، يدور في نطاقها، ولا علاقة له برؤى الآخرين، وهم بدورهم لا علاقة لهم برؤيته.

ويصبح الفن (ما بعد الحداثي) مستقلا عن الواقع بل عن الإنسان، فهو بلا غاية إلا اللعب الذي لا غاية له، وهو يدخل في حالة من التجريب الدائم. وهو لا يحاكي الواقع (فلا يوجد واقع ثابت) ولا يعبر عن وعي المؤلف (فقد تم إعلان موته)، وتصبح مهمة النقد تفكيك النصوص ليبين التناقضات الكامنة فيها والتي لا يمكن حسمها.

والانتقال من مرحلة الحداثة الصلبة إلى ما بعد الحداثة السائلة يتبدى بشكل واضح في الصور المجازية والرموز. فقد ظهر عدد من الصور المجازية والرموز في مرحلة التحديث الصلبة تدل على التحكم في كل من الذات والموضوع، والمقدرة على التجاوز والصلابة. أما في مرحلة ما بعد الحداثة (أي بعد عام ١٩٦٥) فقد ظهرت مجموعة من الصور والرموز التي تقف في معظمها على طرف النقيض من صور ورموز المرحلة السابق.

في مراحل الحداثة الصلبة (أي قبل عام ١٩٦٥) يشار إلى الدولة باعتبارها إله يمشي على الأرض (كما قال هيغل) وهي تنين هوبز الذي يحقق الأمن للبشر ويقوم بترشيدهم. أما في مرحلة ما بعد الحداثة السائلة (أي بعد عام ١٩٦٥) لم تعد الدولة مركز السلطة، فهي ليست سوى مؤسسة من بين مؤسسات أخرى عديدة.

والعالم في مرحلة الحداثة الصلبة مثل آلة يتحكم فيها الإنسان وتتحكم فيه، والعالم مثل نبات ينمو بشكل مستمر وبدون انقطاع أو بهدف محدد. أما في مرحلة ما بعد الحداثة فالعالم آلة، ولكن الآلة هي الفيديو والكمبيوتر، يتحكم فيها الإنسان، ولكنها تتحكم فيه وتبتلعه. والعالم مثل النبات، ولكن النبات هو الجذمور (ما يتبقى من الجذع بعد قطعه) الذي لا ينمو حسب نمط واضح وفي اتجاه مفهوم، والعالم كله لعبة.

وينظر للعقل في مرحلة الحداثة الصلبة باعتباره مرآة تعكس الواقع أو فانوس يلقي عليه الضوء أو نافورة تغمره مياهها. أما بعد ١٩٦٥ فالعقل ليس مرآة ولا فانوسا ولا نافورة، وإنما هو كل شيء ولا شيء، مثل الكمبيوتر الذي يختزن كل شيء ولا يعي شيئا.

وأبطال مرحلة الحداثة الصلبة هم بروميثيوس وفاوستوس ونابليون وطرزان، ثم فرانكشتين ودراكيولا وسيزيف في أواخر المرحلة. أما في مرحلة الحداثة السائلة فهم مادونا وبريتني سبيرز ومايكل جاكسون والرئيس/الممثل ريغان وهي شخصيات تغير توجهاتها ومنظوماتها القيمية بعد إشعار قصير وحسب طلب مدير العلاقات العامة.

هذا لا يعني أن الصلابة انتهت تماما، وأن السيولة اكتسحت كل شيء. فالصلابة لا تزال لها وجود متمثل في غزو أفغانستان والعراق، وفي وقوف دول الاتحاد الأوروبي ضد المقاومة الفلسطينية، وفي سياسات البنك الدولي.

ومع هذا يظل نموذجنا التحليلي قادرا على تفسير تطور الحداثة الغربية، خاصة كثير من جوانبها التي ظهرت في أواخر الستينيات وتبلورت عبر العقود الماضية، والتي أثرت فينا، بل واخترقتنا، دون أن ندرك تضميناتها.

والله أعلم.

***

ملاحظة: نشر هذا المقال يوم ٣١ ديسمبر ٢٠٠٥م في موقع الجزيرة

http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/2005/12/30/%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%AF%D8%A7%D8%AB%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%BA%D8%B1%D8%A8%D9%8A%D8%A9-%D8%A8%D9%8A%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%84%D8%A7%D8%A8%D8%A9-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%8A%D9%88%D9%84%D8%A9

***

٥٨- عندما تتحول الصهيونية إلى نكتة

(مقال لم ينشر من قبل)

موقع الجزيرة نت ٧-٤-٢٠٠٩م

الصهيونية في جوهرها هي حركة لتخليص أوروبا من الفائض البشري اليهودي (Jewish surplus) عن طريق نقله من أوروبا وتوطينه في أية منطقة خارجها، وقد استقر الرأي على أن تكون فلسطين هي هذه المنطقة نظراً لأهميتها الإستراتيجية، وارتباطها في الوجدان الغربي باليهود.

وحتى يتم تجنيد الجماهير اليهودية وتسهيل عملية نقلهم، خدعهم الغرب بقوله إنهم سيذهبون إلى أرض بلا شعب، وإنه إن وُجد فيها شعب سيكون من السهل إبادته أو نقله أو استعباده كما حدث في التجارب الاستيطانية الإحلالية الأخرى.

وبالفعل فُتحت أبواب فلسطين للهجرة الاستيطانية اليهودية التي كانت تحميها قوة الاحتلال البريطانية. وتم إعلان الدولة الصهيونية العام ١٩٤٨، وتصور المستوطنون أنهم كسبوا المعركة ضد السكان الأصليين. ولكن بعد بضع سنوات قليلة من الهدوء بدأت المقاومة الفلسطينية النبيلة بشكل فردي ثم ظهرت فصائل المقاومة الفلسطينية الواحدة تلو الأخرى، وراحت تطور من قدراتها تدريجياً إلى أن وصلت إلى إنتاج الصواريخ وتحسين أدائها.

ومن الطريف أنه نظراً لبساطة هذه الصواريخ وبدائيتها، فإن الرادارات الإسرائيلية غير قادرة على رصدها، ولذا ظهرت نكتة في إسرائيل تقول إنه لابد وأن تزود إسرائيل المقاومة الفلسطينية بصواريخ سكود حتى يمكن للرادارات الإسرائيلية أن ترصدها.

وتدريجياً بدأ الإسرائيليون يشعرون أن انتصاراتهم العسكرية لا معنى لها، وأنها لم تنجح في تحقيق السلام أو الأمن لهم (فيما سماه المؤرخ الإسرائيلي يعقوب تالمون "عقم الانتصار" مقتبساً عبارة هيجل) وأنهم خُدعوا عندما صُوِّر لهم أن عملية الاستيطان في فلسطين سهلة، وتدريجياً تنامى إحساس بالورطة التاريخية.

ولكن ماذا يمكن لهم أن يفعلوا؟ أحد الحلول هو تجاهل الورطة تماماً، وهذا ما تعبر عنه أحداث هذه القصيدة الفكاهية التي كتبها الشاعر الإسرائيلي إفرايم سيدون إبان الانتفاضة الأولى (والتي رفض التلفزيون الإسرائيلي إذاعتها).

تدور أحداث القصيدة في غرفة صالون يجلس فيه أربعة أشخاص: الأب والأم والطفل، أما رابعهم فهو الجندي الصهيوني، وبالتالي فهي خلية استيطانية سكانية مسلحة. وقد اندلع خارج المنزل حريق (رمز الانتفاضة وظهور الشعب الفلسطيني) وبدأ الدخان يدخل البيت عبر النافذة، إلا أن الأربعة يجلسون بهدوء ويشاهدون مسلسلاً تلفزيونياً ولا يكترثون بشيء. ثم ينشد الجميع:

هنا نحن جميعاً نجلس

في بيتنا الصغير الهادئ

نجلس في ارتياح جذل

هذا أفضل لنا، حقاً إنه أفضل لنا

- الأم: جيد هو وضعنا العام

- الجندي: أو باختصار.. إيجابي...

- الأب: وإذا كانت هنا جمرة تهدد بالحريق

- الأم: طفلي سينهض لإطفاء الحريق

- الأب: وإذا اندلعت هنا وهناك حرائق صغيرة

- الأم: سيسرع ابني لإطفائها بالهراوة

- الأب: انهض يا بني اضربها قليلاً

ويخاطب الأب النار فيخبرها أنها مسكينة، وأنها لن تؤثِّر فيه من قريب أو بعيد، وأنه سيطفئها في النهاية. وحينما تأكل النيران قدميه لا تضطرب الأم، فالأمر في تصورها ليس خطيراً، إذ لديه -كما تقول- "قدم صناعية" (لعلها مستوردة من الولايات المتحدة)، والوقت -كما يقول الأب- "يعمل لصالحنا". ولكن الطفل ينطق مرة أخرى بالحقيقة المرة:

- الطفل: بابا، بابا، لقد حرقنا الوقت [الزمن]

- الأب: اسكت

- الأم: إن من ينظر حولنا ويراقب، يرى كم أن الأب لا ينطق إلا بالصدق كعادته

- الأب والأم: لقد أثبتنا للنار بشكل واضح من هو الرجل هنا ومن هو الحاكم

- الطفل: ولكن بابا... البيت...

- الأب: لا تشغلنا بالحقائق

وهذه القصيدة الفكاهية، شأنها شأن النكت، تخبئ رؤية متشائمة بشأن مستقبل المستوطنين الصهاينة الذين يستقرون في المكان وينكرون الزمان، فتحرقهم الحقيقة وهم جالسون يراقبون مسلسلاً تلفزيونياً في هدوء وسكينة، أو يستمعون إلى الدعاية الصهيونية التي تنسيهم واقعهم في رضا كامل!

ويتضح هذا الإحساس بالعبثية وفقدان الاتجاه عند الإسرائيليين في ظهور موضوع "الخوف من الإنجاب" في القصص الإسرائيلية. فمن المعروف أن الدولة الصهيونية تشجع النسل بشكل مهووس لا حباً في الإخصاب والأطفال، وإنما وسيلة لتثبيت أركان الاستعمار الاستيطاني.

ولكن من المعروف أيضاً أن معدل الإنجاب في إسرائيل من أقل المعدلات في العالم، حتى أنهم فكروا في أن يعلنوا للإنجاب عاماً يركز فيه الإسرائيليون لإنجاب أطفال أكثر. وكان رد الإسرائيليين، كما هو متوقع، سريعاً وحاسماً وملهاوياً، إذ قال أحد أعضاء الكنيست إن على رئيس الوزراء أن يعود إلى منزله فوراً للقيام بواجبه الوطني مع زوجته.

وهو بالمناسبة واجب وطني بالفعل، فكما يقول أستاذ الجغرافيا الإسرائيلي أرنون سوفير إن "السيادة على أرض إسرائيل لن تُحسَم بالبندقية أو القنبلة اليدوية بل ستُحسَم من خلال ساحتين: غرفة النوم والجامعات، وسيتفوق الفلسطينيون علينا في هاتين الساحتين خلال فترة غير طويلة".

ومن هنا الإشارة إلى المرأة الفلسطينية النفوض، التي تنجب العديد من الأطفال، بأنها "قنبلة بيولوجية". وتعود ظاهرة العزوف عن الإنجاب إلى عدة أسباب عامة (تركُّز الإسرائيليين في المدن-علمنة المجتمع الإسرائيلي-التوجه نحو اللذة... إلخ). لكن لا يمكن إنكار أن عدم الإنجاب إنما هو انعكاس لوضع خاص داخل المجتمع الإسرائيلي وتعبير عن قلق الإسرائيليين من وضعهم الشاذ، باعتبارهم دولة مغروسة بالقوة في المنطقة، مهددة دائماً بما يسمونه المشكلة الديموغرافية، أي تزايد عدد العرب وتراجع عدد المستوطنين اليهود.

ويعبر الإحساس العميق بالورطة التاريخية التي وجد الإسرائيليون أنفسهم فيها بهذه النكتة التي أطلقها أحد المسؤولين الصهاينة إبان احتفالات الذكرى الأربعين لتأسيس إسرائيل، إذ قال إن المشروع الصهيوني كله يستند إلى سوء فهم وخطأ، إذ كان من المفروض أن يتم في كندا بدلاً من فلسطين.

ويرجع هذا إلى تعثُّر لسان موسى التوراتي، فحينما سأله الإله أي بلد تريد؟ كان من المفروض أن يقول "كندا" على التو ولكنه تلعثم وقال "كاكاكا- نانانا" فأعطاه الإله "أرض كنعان" (أي فلسطين) بدلاً من كندا، فهاج عليه بنو إسرائيل وماجوا وقالوا له "كان بوسعك أن تحصل على كندا بدلاً من هذا المكان البائس الخرب، هذا الوباء الشرق أوسطي الذي تحيط به الرمال والعرب". والنكتة هنا تعبِّر عن إحساس عميق بالخوف من تزايد العرب وتصاعد المقاومة وبالطريق المسدود الذي يؤدي إلى العدمية الكاملة.

وتتسم المجتمعات التي يُقال لها متقدمة بتصاعد معدلات الاستهلاك، خاصة وأن هذه المعدلات أصبحت واحدة من أهم مؤشرات التقدم. والمجتمع الإسرائيلي يقال له "متقدم" ولذا نجد أن معدلات الاستهلاك فيه عالية. ولكن المشكلة أنه أيضاً مجتمع استيطاني. والتوجه الاستهلاكي يقوض من مقدرته القتالية، لأن هذا التوجه يصاحبه توجه شديد نحو اللذة وانصراف عن المثل الأيديولوجية الاستيطانية التي تتطلب الانضباط والاستعداد العسكري والمقدرة على إرجاء الإشباع.

وقد كان المجتمع الصهيوني يتسم بهذه السمات. ولكن بعد حرب ١٩٦٧ انفتحت بوابة الاستهلاكية، وهي تتزايد يوماً بعد يوم، وبدلاً من المستوطن القديم الذي كان يحمل المحراث بيد، والمدفع الرشاش باليد الأخرى، ظهر ما يطلق عليه "روش قطان" وهو الإنسان ذو المعدة الكبيرة والرأس (روش) الصغيرة (قطان) الذي لا يفكر إلا في مصلحته ومتعته واحتياجاته الشخصية، وينصرف تماماً عن خدمة الوطن أو حتى التفكير فيه.

إنه إنسان استهلاكي مادي لا يؤجل متعة اليوم إلى الغد، غير قادر على إرجاء الإشباع، فهو غير واثق تماماً من الغد، فاليوم خمر بلا شك، ولكن الغد مظلم تماماً، فينغمس في الاستهلاك، خاصة وأنه ينسيه أزمة المعنى وفقدان الاتجاه.

ولذا يقال إن سياسة الدولة الصهيونية -حسب إحدى النكات الإسرائيلية- هي تزويد جماهيرها بال T. V. C. وهي الأحرف الأولى لـ T.V و Video, and Cars. أما الشباب فيُشار له

باعتباره جيل الـM T V وهي محطة الفيديو كليبات الشهيرة التي تركز على الرقص والغناء والجسد ولا تذكر العالم الخارجي من قريب أو بعيد.

كما يُشار إليه باعتباره جيل الإكسبريسو، أي الشباب الذين يجلسون على المقاهي فيشربون قهوة الإكسبريسو ولا يشغلون بالهم بالوطن القومي اليهودي ومعاركه المستمرة المختلفة. وحسب الحلم الصهيوني كان من المفروض أن تصبح إسرائيل نوراً للأمم (ذات فولت عال جداً) ولكنها أصبحت -حسب قول أحد الصحفيين الإسرائيليين- مجتمع الثلاثة ف (V): الفولفو والفيديو والفيلا.

وأشار أحد الصحفيين الإسرائيليين إلى أن الإسرائيليين يعملون مثل شعوب أميركا اللاتينية (أي لا يعملون) ويعيشون مثل شعوب أميركا الشمالية (أي يتمتعون بمستوى معيشي عال) ويدفعون الضرائب مثل الإيطاليين (أي يتهربون منها) ويقودون السيارات مثل المصريين (أي بجنون).

وقد أشار المعلق العسكري الإسرائيلي زئيف شيف إلى الاستيطان في الضفة الغربية بأنه "استيطان دي لوكس" فالمستوطنون هناك استهلاكيون وليسوا مقاتلين، يتأكدون من حجم حمام السباحة ومساحة الفيلا قبل الانتقال إلى المستوطنة.

ولذلك تشير الصحف الإسرائيلية إلى هذا الاستيطان باعتباره "الصنبور الذي لا يُغلَق أبداً" بل إنهم يشيرون إلى "محترفي الاستيطان" (بالإنجليزية: ستلمنت بروفشنالز settlement professionals) وهم المستوطنون الذين يستوطنون في الضفة الغربية انتظاراً للوقت الذي تنسحب فيه القوات الإسرائيلية ليحصلوا على التعويضات المناسبة (كما حدث في مستوطنة ياميت في شبه جزيرة سيناء).

كما يشير الإسرائيليون إلى الاستيطان المكوكي (بالإنجليزية: شاتل ستلمنت shuttle settlement) وهي إشارة للمستوطنين الذين يستوطنون في الضفة الغربية بسبب رخص أسعار المساكن وحسب، ولكنهم يعملون خلف الخط الأخضر وهو ما حوَّل المستوطنات إلى منامات يقضي فيها المستوطنون سحابة ليلهم، أي أنهم ينتقلون كالمكوك بين المستوطنات التي يعيشون فيها بالضفة الغربية ومكاتبهم التي يعملون فيها بالمدن الإسرائيلية وراء الخط الأخضر.

ومن حق أي شعب أن يستهلك بالقدر الذي يريد ما دام يكد ويتعب وينتج ثم ينفق، ولكن الوضع ليس كذلك في إسرائيل، فهم يعرفون أن الدولة الصهيونية "المستقلة" لا يمكن أن توفر لنفسها البقاء والاستمرار ولا أن توفر لهم هذا المستوى المعيشي المرتفع إلا من خلال الدعم الاقتصادي والسياسي والعسكري الأميركي المستمر، ما دامت تقوم بدور المدافع عن المصالح الأميركية، أي أن الدولة الصهيونية دولة وظيفية، تُعرَّف في ضوء الوظيفة الموكلة لها.

وقد وصف أحد الصحفيين الإسرائيليين الدولة الصهيونية بأنها "كلب حراسة، رأسه في واشنطن وذيله في القدس" وهو وصف طريف ودقيق، وصريح وقاس.

ولكن هناك دائماً الإحساس بالنكتة. فعندما طرح أحد وزراء المالية خطة "دولرة" الشيكل أي ربطه بالدولار (وهي خطة رُفضت نظرياً في حينها وإن كانت نُفِّذت عملياً) اقترحت عضوة الكنيست جيئولا كوهين أن توضع صورة أبراهام لنكولن على العملة الإسرائيلية جنباً إلى جنب مع صور زعماء إسرائيل ونجمة داود، وأن يُدرَّس التاريخ الأميركي للطلاب اليهود بدلاً مما يسمى "التاريخ اليهودي".

وأوردت صحيفة "جيروزاليم بوست" الحوار الخيالي التالي بين وزير المالية وشخص آخر:

الوزير: الخطوة الأولى هي أن نُخفِّض الميزانية، أما الثانية فهي تحطيم الشيكل واستخدام الدولار.

الآخر: وما الخطوة الثالثة؟

الوزير: الأمر واضح جداً، ننتقل كلنا إلى بروكلين (أحد أحياء اليهود في نيويورك).

لكل ما تقدم، يشعر الإسرائيليون أن الصهيونية لم تعد هي الخريطة التي تهديهم سواء السبيل، ففلسطين التي كان يُشار إليها بأنها "أرض بلا شعب" ظهر أنها فيها شعب، وأنه يقاوم المحتلين بلا هوادة، ولا يكل ولا يتعب من المقاومة.

وقد لاحظ أحد الكُتَّاب الإسرائيليين أنه لا يوجد فارق كبير بين الصيغتين "صهيوني" (بالعبرية: تسيوني **tzioni**) و"غير المكترث" (بالعبرية: تسيني **tzini**) والفارق الوحيد بينهما في الإنجليزية هو حرف (o) أي زيرو. فالصهيونية، هذه الأيديولوجية المشيحانية التي تدَّعي أنها القومية اليهودية، والتي تتطلب الحد الأقصى من الحماس والالتزام، فَقَدت دلالتها

وأصبحت شيئاً لا يكترث به اليهود أعضاء هذه القومية المزعومة الذين تحاول الصهيونية "تحريرهم" من أسرهم في "المنفى"!

ويشير أحد الكُتَّاب الفكاهيين في إسرائيل إلى أن كلمتي "زايونيزم Zionism" الصهيونية و"زومبي Zombie" (وهو الميت الذي تُعاد له الحياة بعد أن تدخل جسده قوة خارقة، ولذا يمكنه الحركة ولكنه لا يستعيد القدرة على الكلام أو حرية الإرادة) تردان في نفس الصفحة من المعجم الإنجليزي، الأمر الذي يدل -حسب تصوُّره- على ترابطهما، وأن الصهيونية إن هي إلا زومبي، أي جسد متحرِّك لا حياة فيه ولا معنى له.

وهذا الكاتب الكوميدي لم يجانب الحقيقة كثيراً، فهناك العديد من المستوطنات الفارغة، تنعى من بناها، لا يسكن فيها أحد، ويُطلَق عليها بالإنجليزية: دمي ستلمنت dummy settlement. وقد آثرنا ترجمتها بعبارة "مستوطنات الأشباح" أو "مستوطنات زومبي" فهي جسد قائم لا حياة فيه.

ونظراً لكل هذه التطورات أصبحت كلمة "صهيونية" (تسيونوت بالعبرية) تعني "كلام مدع أحمق" (صحيفة جيروزاليم بوست، ٢٦ أبريل/ نيسان ١٩٨٥) وتحمل أيضاً معنى "التباهي بالوطنية بشكل علني مُبالَغ فيه" وتدل على الاتصاف بالسذاجة الشديدة في حقل السياسة (صحيفة إيكونوميست، ٢١ يوليو/ تموز ١٩٨٤وكتاب برنارد أفيشاي مأساة الصهيونية، ص ٢٦).

ومن الواضح أن حقل الكلمة الدلالي أو منظورها يشير إلى مجموعتين من البشر: صهاينة الخارج، أي الصهاينة التوطينيون الذين يحضرون إلى إسرائيل ويحبون أن يسمعوا الخطب التي لا علاقة لها بالواقع، ولذا فهي ساذجة، مليئة بالادعاءات الحمقاء والتباهي العلني بالوطنية.

وتشير في الوقت نفسه إلى الصهاينة الاستيطانيين الذين يعرفون أن الخطب التي عليهم إلقاؤها إن هي إلا خطب جوفاء ومبالغات لفظية لا معنى لها، ولكن عليهم إلقاءها على أية حال حتى يجزل لهم الضيوف العطاء.

والمقصود الآن بعبارة مثل "اعطه صهيونية" هو "فلتتفوه بكلام ضخم أجوف لا يحمل أي معنى" فهو صوت بلا معنى، وجسد بلا روح، ودال بدون مدلول، أو كما نقول بالعامية المصرية "هجّص" فالمسألة "هجص في هجص". ويمكن أن نضيف لزيادة الدلالة

"والأرزاق على الله" أو فلنُعلمن العبارة ونقول "والأرزاق على الولايات المتحدة ويهود الدياسبورا"!!

والله أعلم.

***

ملاحظة : نشر هذا المقال يوم ٣١ يوليو ٢٠٠٩م

http://www.aljazeera.net/home/print/6c87b8ad-70ec-47d5-b7c4-3aa56fb899e2/5c391f40-f179-4af8-9fbc-8b9318bd8f7b

***

٥٩- تجارة الهولوكوست الرابحة

موقع الجزيرة نت ٣-١٠-٢٠٠٤م

اتسمت المواقف الغربية تجاه أعضاء الجماعات اليهودية بازدواجية واضحة تكاد تخلو من العقلانية . إذ ينظر إلى اليهود لا باعتبارهم أقليات مختلفة فيهم ما في البشر العاديين من الخير والشر ، بل باعتبارهم كيانا جماعيا واحدا يسمى "اليهود" أو الشعب اليهودي، وهو في الوقت نفسه شعب مختار، ومقدس، وروحاني. ومع ذلك، فقد كان ينظر إليهم على الدوام بوصفهم تجارا ومرابين ، أو أشياء بشرية يمكن نقلها من مكان إلى آخر طبقا لاحتياجات الطبقة الحاكمة ، أي إنهم باختصار جماعة وظيفية.

ولهذه الازدواجية تاريخ طويل، فالمفهوم الكاثوليكي لليهود يصنفهم باعتبارهم شعبا شاهدا، يقف في تدنيه وضعته "شاهدا" على عظمة الكنيسة، وهو ما يقتضي أن يحظى اليهود بحماية الكنيسة الكاثوليكية ، حتى أن الكنيسة استثنت اليهود من عمليات التنصير الإجباري . وفي الوقت نفسه، فإن بقاءهم في ذلك الوضع المتدني الوضيع -على النقيض من وضع الذين تشملهم مظلة الإيمان المسيحي- هو دليل حي على انتصار الكنيسة الكاثوليكية .

وتتجلى نفس الازدواجية في العقيدة الألفية الاسترجاعية البروتستانتية التي ترى أن عودة اليهود إلى أرض الميعاد هي شرط أساسي لعودة المسيح مرة أخرى إلى الأرض وتأسيس مملكته التي ستدوم ألف عام، ويتحقق من خلالها الخلاص النهائي.

لكن عودة اليهود هذه كان ينظر إليها أيضا باعتبارها وسيلة لتنصيرهم ، ومن ثم يصبح الخلاص النهائي هو تخلص نهائي من اليهود في الوقت ذاته . كما طبعت هذه الازدواجية بطابعها المواقف العلمانية الغربية الحديثة من اليهود . فخلال القرن التاسع عشر -على سبيل المثال- كان ينظر إلى اليهود في أوروبا باعتبارهم شعبا متفردا موهوبا يجيد الأعمال الشاقة ، وشعبا عضويا له هوية متفردة ويرتبط ارتباطا عضويا بأرض الميعاد .

ولكن هذه المقولة نفسها كانت تعني أنهم غير متجذرين في المجتمع الأوروبي ولا ينتمون إليه تماما ، وما دام الأمر كذلك فمن الضروري نقلهم إلى فلسطين لخدمة المصالح الغربية .

ومن المفارقات الملفتة للنظر أن إضفاء صفة القداسة على "الشعب اليهودي"، أو النظر إلى اليهود كشعب متفرد مكتف بذاته ولا مرجعية له خارجه قد سهلت "حوسلتهم" (أي تحويلهم إلى وسيلة أو توظيفهم لتحقيق غاية ما)، ذلك أن إضفاء القداسة على شخص وجعله مرجعية

ذاته يعني أيضا استبعاده من نطاق الإنسانية المشتركة ، مما يجعل "حوسلته" أمرا سهلا. وهكذا يتضح أن التحيز لليهود (أي الصهيونية) وعداء اليهود هما وجهان لعملة واحدة.

وتبدو نفس الازدواجية في موقف العالم الغربي ويهود الغرب من حادثة مهمة في تاريخ الحضارة الأوروبية الحديثة ، ألا وهي إبادة أعداد كبيرة من يهود الغرب على أيدي النظام النازي . وأحيانا ما يستخدم مصطلح "الإبادة" الإبادة أو "المذابح الجماعية" الإبادة الجماعية في وصف هذه الحادثة، ولكن المصطلح الأكثر شيوعا هو "الهولوكوست" المحرقة، وهي كلمة يونانية لا تعني مجرد "التدمير حرقا"، كما تشير الموسوعة البريطانية، ولكنها كانت في الأصل مصطلحا دينيا يهوديا يشير إلى القربان الذي يضحى به للرب ويحرق حرقا كاملا غير منقوص على المذبح .

ولهذا كان "الهولوكوست" يعد من أكثر الطقوس قداسة، وكان يقدم تكفيرا عن خطيئة الكبرياء. وفي العبرية يشار إلى هذه الحادثة باستخدام كلمة "شواه"، التي تعني الحرق، كما تستخدم أحيانا كلمة "حربان" وتعني الهدم أو الدمار، وكانت تستخدم للإشارة إلى "هدم الهيكل". وهكذا، فإن اختيار المصطلحات في حد ذاته -سواء في الإنجليزية أو العبرية- لوصف حادثة تاريخية محددة هي القضاء على جزء من يهود أوروبا ، يخلع على هذه الحادثة صفة القداسة وينزعها من سياقها التاريخي والحضاري المتعين .

إلا إن نفس المفارقة التي ينطوي عليها توظيف الحادثة التاريخية تنطبق بالمثل على كلمة "هولوكوست" ذاتها. فقد أصبحت الكلمة تستخدم حاليا للإشارة إلى معان شتى تبتعد تماما عن المعنى الأصلي . فعلى سبيل المثال، يشير بعض الصهاينة إلى ظاهرة الزواج المختلط بين اليهود وغير اليهود بأنه "الهولوكوست الصامت" سايلنت المحرقة، ووصف إسحق رابين فيلم "قائمة شندلر" بأنه "ليس هولوكوستيا بما فيه الكفاية".

ونتيجة لهذا التوظيف المستمر والممجوج لكلمة الهولوكوست لخدمة الأغراض السياسية والمصالح الاقتصادية ، راح بعض المنتقدين، من أمثال نورمان فنكلشتاين، يعبرون عن احتجاجهم على عملية التوظيف هذه، وينحتون مصطلحات مثل "هولوكيتش" Holokitsch و "هولوكاش" Holocash (ويشيران إلى الكتب والأفلام التي تنتج عن موضوع الهولوكوست بغرض وحيد هو تحقيق الربح)، أو "هولوكوست مانيا" المحرقة هوس (وتعني الانشغال المرضي أو الجنوني بالإبادة).

ويعد كتاب نورمان فنكلشتاين صناعة الهولوكست: تأملات في استغلال المعاناة اليهودية، بمثابة احتجاج موثق بالأدلة والبراهين على توظيف موضوع الهولوكوست وتحويله إلى صناعة ترمي إلى خدمة المصالح السياسية للنخبة من اليهود الأميركيين ، والتي تتوافق مع مصالح السياسة الخارجية للحكومة الأميركية.

ويميز فنكلشتاين بداية بين "الإبادة النازية لليهود"، باعتبارها حادثة تاريخية، و "الهولوكوست"، أي التعبير الأيديولوجي عن هذه الحادثة، مشيرا إلى أن الهولوكوست قد تحول إلى شيء لا مثيل له في التاريخ الإنساني ، إذ إن "تفرده مطلق تماما"، ومن ثم "لا يمكن فهمه بشكل عقلاني".

وهذا ما أسميه "الأيقنة"، أي تجريد ظاهرة إنسانية من طبيعتها التاريخية الزمنية، وتقديمها باعتبارها شيئا فذا متفردا لا يمكن فهمه أو تفسيره من خارجه ، شأنه شأن الأيقونة، وهو مرجعية ذاته ولا يمكن مناقشته إلا من خلال مصطلحات ممعنة في الغيبية والغموض ، هذا إذا تمت مناقشته أصلا. وبهذه الطريقة يتم التحول من الزمني التاريخي إلى اللازمني الكوني .

ويتتبع فنكلشتاين المنطق الذي يشكل أساس صناعة الهولوكوست، فيرى أنه "إذا كان الهولوكوست حدثا لم يسبق له مثيل في التاريخ، فلابد أنه يقف خارج التاريخ، ومن ثم لا يمكن فهمه بالمنطق التاريخي". ولما كان نفي القداسة عن الأحداث التاريخية هو بمثابة كفر بين من وجهة نظر المؤمنين الأتقياء فإن "محاولة فهم واقعة الهولوكوست بشكل عقلاني تعد -طبقا لوجهة النظر هذه- بمثابة إنكار لهذه الواقعة، لأن العقلانية تنكر الطابع المتفرد والغامض للهولوكوست".

ويلاحظ فنكلشتاين أنه مع نمو صناعة الهولوكوست، أخذ المنتفعون من هذه الصناعة يتلاعبون في أرقام الناجين ، وذلك بغرض المطالبة بمزيد من التعويضات، وبدأ الكثيرون يتقمصون دور الضحية. ويعلق على ذلك ساخرا "لا أبالغ إذا قلت أن واحدا من كل ثلاثة يهود ممن تراهم في شوارع نيويورك سيدعي بأنه من الناجين .

فمنذ عام ١٩٩٣، ادعى القائمون على هذه "الصناعة" أن ١٠ آلاف ممن نجوا من الهولوكوست يموتون كل شهر، وهو أمر مستحيل كما يبدو، لأنه يعني أن هناك ثمانية ملايين شخص نجوا من الهولوكوست في عام ١٩٤٥ وظلوا على قيد الحياة، بينما تؤكد الوثائق أن كل اليهود الذين كانوا يعيشون على الأراضي الأوروبية التي احتلها النازيون عند نشوب الحرب لا يزيد عن سبعة ملايين فقط ".

ولكن وفقا للحسابات الرياضية البسيطة، كما يقول فنكلشتاين، يتبين أن هذا التلاعب يؤدي في واقع الأمر إلى تقليل عدد الضحايا الذين يقال إنهم أبيدوا ، وهكذا ينتهي الأمر برقم الستة ملايين إلى أن يصبح من الصعب التمسك به أو الدفاع عنه . ويعلق فنكلشتاين على هذا الأمر ساخرا فيقول إن القائمين على صناعة الهولوكوست يتحولون تدريجيا إلى منكرين للإبادة .

ولا يقف الأمر عند حدود التلاعب بالأرقام بل يتجاوز ذلك إلى التلاعب بالحقائق نفسها . فيلاحظ فنكلشتاين أن "متحف إحياء ذكرى الإبادة النازية" في واشنطن، على سبيل المثال، "يتغاضى عن أثر السياسة التمييزية التي اتبعتها الولايات المتحدة بتحديد أعداد المهاجرين اليهود إليها قبل الحرب ، بينما يبالغ في دور الولايات المتحدة في تحرير معسكرات الاعتقال النازية ، ولا ينبس ببنت شفة عن إقدام الولايات المتحدة على تجنيد أعداد كبيرة من مجرمي الحرب النازيين في نهاية الحرب ".

كما يشير فنكلشتاين إلى أن المتحف يمر مرور الكرام على موضوع المذابح الجماعية التي ارتكبها النظام النازي في حق الغجر والسلافيين والمعاقين فضلا عن المعارضين السياسيين . ويخصص الكاتب جزءا كبيرا من كتابه لمسألة الأموال المجمدة من الحقبة النازية في المصارف السويسرية ، ويتساءل عن الأموال المماثلة في المصارف الأميركية، والتي لا يشير إليها أحد من قريب أو بعيد .

وقد يتساءل المرء -على ضوء الشواهد المتوفرة- عما إذا كانت الولايات المتحدة تستخدم المنظمات اليهودية ، من خلال مسألة الأموال المجمدة في المصارف الأوروبية، من أجل زيادة الضغوط على البلدان الأوروبية لإجبارها على الوقوف إلى جانب الدولة الصهيونية .

ويحاول فنكلشتاين أن يخرج بقضية "الهولوكوست" من نطاق المقدس إلى نطاق التاريخ، بأن يضعها في سياق محدد هو الصراع العربي الإسرائيلي . فيبين مثلا أن "كل الأدلة تقريبا تؤكد أن موضوع الإبادة النازية لليهود لم يصبح أمرا راسخا في حياة اليهود الأميركيين إلا بعد اندلاع هذا الصراع (حرب يونيو / حزيران ١٩٦٧ بين العرب وإسرائيل)".

أما قبل عام ١٩٦٧ ، فكانت المؤسسات اليهودية تميل إلى التقليل من شأن الإبادة النازية ليهود أوروبا ، وذلك تمشيا مع الأولويات السياسية للحكومة الأميركية في فترة الحرب الباردة ، والتي كانت تتطلب تأييد فكرة إعادة تسليح ألمانيا بل وتجنيد أعداد كبيرة من الجنود السابقين في "قوات الأمن الخاصة "للنظام النازي.

إلا إن هذا الوضع أخذ في التغير منذ منتصف الستينيات، كما يبين فنكلشتاين. فعناصر مثل تصاعد السياسات القائمة على الهوية أو الانتماء العرقي، من ناحية، وسيادة المناخ المتمثل في احتكار دور الضحية، من ناحية أخرى، فضلا عن تزايد معدلات اندماج اليهود في المجتمع الأميركي وتحولهم التدريجي من مواقف اليسار ويسار الوسط إلى اليمين، ساعدت كلها على بروز مسألة الإبادة النازية لليهود باعتبارها مصدرا لتدعيم الإحساس بالهوية العرقية اليهودية، التي تضع اليهود في منزلة مختلفة عن الجماعات العرقية والدينية الأخرى باعتبارهم شعبا مختارا، وإن كان الاختيار هنا في إطار علماني.

ويرى فنكلشتاين أن انضواء الدولة الصهيونية بشكل كامل في فلك الترتيبات الأمنية الدولية للولايات المتحدة ، و "التحالف الإستراتيجي" بين الولايات المتحدة وإسرائيل، يمثل عاملا حاسما. ويمكنني أن أضيف هنا أيضا أن تزايد التنافس بين الدول الأوروبية والولايات المتحدة قد وضع حدا لكل الموانع والمحاذير المتعلقة بتوظيف حادثة الإبادة النازية واستغلالها .

فهذه الحادثة -كما سبقت الإشارة- يمكن أن تستخدم كهراوة لابتزاز بعض الدول الأوروبية لإرغامها على مساندة إسرائيل . كما يمكن استخدامها لتسويغ الممارسات الإسرائيلية إزاء الفلسطينيين. وفي هذا الصدد، يستشهد فنكلشتاين بكلمات بيتر بالدوين التي يقول فيها إن "تفرد المعاناة التي كابدها اليهود تضاعف من الادعاءات الأخلاقية والعاطفية القائلة إن بوسع إسرائيل أن تفعل الشيء نفسه مع شعوب أخرى ".

والله أعلم.

***

ملاحظة : نشر هذا المقال في يوم ٣ أكتوبر ٢٠٠٤ م

http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/2004/10/3/تجارة-الهولوكوست-الرابحة

***

٦٠- حداثة داروينية أم حداثة إنسانية؟

(آخر مقال كتبه المسيري قبل وفاته)

موقع الجزيرة نت ١٠-١٠-٢٠٠٩م

كلمة "الحداثة" لها جاذبية شديدة، مثل الخطاب الفلسفي المادي، وهو خطاب مريح لأنه يتوجه إلى مسائل مباشرة ومحسوسة مثل الحواس الخمس، والرغبات والاحتياجات المادية وكيفية الوفاء بها، ويقدم إجابات سهلة وتفسيرات سريعة وإن كانت سطحية، فهذا النموذج يتحاشى تناول أي إشكاليات إنسانية عميقة مثل قضية المعنى والهوية والهدف.

ويمكن القول -بقدر من المزاح- إن الفلسفة المادية تحول الإنسان إلى مثقف يمكنه أن يفتي في أي موضوع وبسرعة، فكل ما هو إنساني يمكن تفسيره باعتباره تعبيراً عن دوافع اقتصادية أو دوافع جسدية (عصبية وجنسية).

فالفلسفة المادية تتعامل مع الإنسان من خلال قانون الجاذبية، ومن السهل على الإنسان أن يسقط في الوحل على أن يصعد إلى النجوم أو حتى يتطلع إليها، فالسقوط في الوحل أسهل شيء لأن قانون الجاذبية يساعد على ذلك. والفلسفة المادية تبسط الأمور فكرياً وإجرائياً، وبالتالي لها جاذبية خاصة، تماماً مثل الوثنيات القديمة حيث نجد أن لها عبادات سهلة، لأنك تجد إلهك أمامك تعبده، وتطلب منه طلبات مباشرة، وإن لم يعجبك أكلته كما كانوا يفعلون في الجاهلية، حيث كان الواحد منهم يعبد إلهاً من تمر فإذا جاع يوماً أكله.

والآلهة الوثنية مثل الفلسفة المادية، فهي آلهة لطيفة تتعامل مع قانون الجاذبية المباشر والقوانين الحسية، والحداثة الغربية تدور في نفس الإطار ومن هنا جاذبيتها الكبرى.
وبالإضافة إلى ذلك، فقد حققت الحداثة الغربية إنجازات ضخمة للإنسان الغربي، ولكن ينبغي التنبه إلى أن جانباً كبيراً من هذه الإنجازات له علاقة بالنهب الإمبريالي.

غير أن هذه الحداثة المادية رغم جاذبيتها وإنجازاتها، إنما تصدر عن تأكيد زمنية ومكانية ومادية كل شيء، وإخضاع كل شيء -بما في ذلك الإنسان- لعمليات الترشيد العقلاني المادي في إطار معايير عقلانية صارمة.

ويُعد الترشيد في الإطار المادي جوهر التحديث، فهو يعني اختفاء الحدود بين الإنسان والأشياء، وإزاحة الإنسان من مركز الكون ونزع القداسة عنه تماماً. وبدلاً من ثنائية

الطبيعة/الإنسان، يظهر الإنسان الطبيعي الذي هو الإنسان الطبيعي/المادي، أي ذلك الإنسان الذي يُنظر إليه باعتباره جزءاً لا يتجزأ من المادة.

وثمة تنوعات عديدة على هذا الإنسان، من أهمها الإنسان الاقتصادي الذي يُعرّف في إطار دوافعه الاقتصادية، وهناك أيضاً الإنسان الجسماني، وهو أيضاً الإنسان الذي يُعرَّف في إطار وظائفه البيولوجية (غدده، معدته، أعضاؤه التناسلية).

وكما يقول رورتي فإن التحديث هو مشروع نزع الألوهية عن العالم (dedivinization project) وهو يعني ألا يعبد الإنسان شيئاً ولا حتى ذاته، ولا أن يجد في الكون أي شيء مقدَّس أو رباني أو حتى نصف رباني. ومن ثم، لا توجد مقدَّسات أو محرَّمات من أي نوع، فلا حاجة لتجاوز المعطى المادي (الزماني المكاني).

فالإنسان يوجد في عالمه المادي لا يتجاوزه، وهذا العالم هو مستقر كل القوانين التي يحتاج لمعرفتها. ثم يبيِّن لنا رورتي النتائج المنطقية لهذا الموقف بقوله "إن الحضارة العلمانية الحديثة لن تكتفي باستبعاد فكرة القداسة أو بإعادة تفسيرها بشكل جذري، وإنما ستهاجم الذات الإنسانية نفسها كمصدر الحقيقة".

فهي ستهاجم فكرة "تكريس الذات للحق (الحقيقة)" أو "تحقيق الحاجات العميقة للذات"، كما ستبيِّن أن مصدر المعنى ليس كلاً متجاوزاً وإنما هو الإنسان، والإنسان كائن حادث زمني متناهٍ، أي أنه ليس مصدراً جيداً للحقيقة.

ومن جهة أخرى، فإن الحداثة في جوهرها هي إيمان عقلاني مادي بالتقدم وإيمان بالمستقبل الذي سيتحقق فيه التقدم، الذي أصبح المعيار الواحد والوحيد. ولكن التقدم مجرد حركة مستمرة لا نهاية لها، وهو ما يعني سقوط الثبات.

وانطلاقاً من أرضيتنا الحديثة العقلانية المادية، فإن العقل يقوم بعملية نقدية صارمة لمسلماتنا العقلية وموروثاتنا الثقافية ولن نقبل من التاريخ إلا ما يتفق مع نماذجنا العقلية والمادية، والرؤية الحداثية المادية تُعرِّف "الزمان" و"المكان" و"الآن وهنا" كمقولات مجردة، كصيرورة لا معنى لها، كعلامة على ماديتنا، ولكنها لا تقبل التاريخ أو الذات ولا تعرفهما لأنهما يحتويان مخزوناً لقيم تغاير ما في واقعنا المادي وما في نماذجنا العقلانية المادية وتتحداها.

وعلى هذا، فإن التحديث -بالنسبة لرورتي وآخرين- هو نسيان نشط للتاريخ والذات، أي أنه بمثابة تجريد للإنسان من ذاكرته التاريخية بعد أن جُرد من مكانته كمركز للكون.

وهكذا، تم ضرب الذات الإنسانية، ولم يبق من الإنسان شيء، لا مقدرته على الإدراك المبدع للواقع ولا الذاكرة التاريخية.

ولذا، لا غرو أن المشروع التحديثي قد حوَّل الإنسان من غاية إلى وسيلة. وهناك كثير من آليات التحديث، مثل الدولة المركزية أو السوق القومية أو الترشيد، تستقل عن الأهداف الإنسانية، مثل إشباع حاجات الإنسان وتحقيق الكفاية والأمن له، وما إلى ذلك، لتصبح غايات وتهيمن على الإنسان وعليه أن يذعن لها.

وقد تنبه بعض المفكرين، منذ بدايات المشروع التحديثي، إلى الطابع التفكيكي المظلم والمعادي للإنسان في هذا المشروع، وأشار عدد منهم إلى دلالات هذا الهجوم الشرس على كلٍّ من الذات الثابتة المتماسكة والموضوع الثابت المتماسك، بل وعلى أية محاولة للوصول إلى كليات ثابتة متجاوزة.

فعلى سبيل المثال، ذهب هوبز إلى القول إن الإنسان ذئب لأخيه الإنسان وإن الواقع هو حلبة صراع للجميع ضد الجميع، أي أنه اكتشف منذ البداية جرثومة التفكيك داخل المشروع التحديثي. وقد تبعه كثير من الفلاسفة الماديين الذين يفككون إما الذات أو الموضوع أو كليهما.

فهناك إسبينوزا والفلاسفة الماديون في فرنسا، والذين يفككون الذات الإنسانية تماماً، وهناك الفلاسفة التجريبيون والمثاليون (هيوم وبركلي) الذين يفككون الموضوع، وهناك بنتام الذي خلص إلى أنه لا توجد مطلقات أخلاقية وأن سلوكنا الأخلاقي يمكن تفسيره مادياً في إطار المنفعة واللذة، ثم داروين الذي رأى أن العالم في حالة حركة وتطور وصراع وأن عالم الإنسان هو الآخر عالم حركة وصراع، وماركس الذي قال إنه لا ثبات إلا لقوانين الحركة وأنه يمكن رد وعي الإنسان إلى الواقع المادي وإلى العنصر الاقتصادي على وجه التحديد، وفرويد الذي قال إن إدراكنا للواقع يحكمه لاوعيُنا وأن لاوعيَنا تحكمه قوى مظلمة مثل الجنس، والذي ذهب أيضاً إلى أننا لا ندرك الحقيقة فما ندركه هو ما يتراءى لنا أنه الحقيقة، وهناك يونغ الذي قال إن لاوعيَنا هو لاوعيٌ جمعي.

ورغم تباين هؤلاء المفكرين في منطلقاتهم وتوجهاتهم، فإن ثمة اتفاقاً بينهم على أن الإنسان ليس سوى مجموعة من الدوافع المادية والاقتصادية والجنسية، ومن ثم لا يختلف في سلوكه عن سلوك أي حيوان أعجم، وعلى أن إدراك الإنسان للواقع ليس عقلانياً وإنما تحكمه مصالحه الاقتصادية وأهواؤه الجسمية. كما أنهم يتفقون في رفض فكرة المطلق المعرفي والأخلاقي، إذ

لا ثبات في الطبيعة أو المجتمع أو الذات الإنسانية، وليس هناك إلا التغير المستمر والصراع الدائم، مما يؤدي في نهاية المطاف إلى اختفاء كل من الطبيعة الإنسانية والطبيعية المادية.

وفي المقابل، راح كثير من المفكرين يسعون إلى تجاوز مشاكل الحداثة الداروينية وطرح أفكار وتصورات بديلة، وهذه هي وظيفة المفكر، فهو يحاول أن يستقرئ الماضي ويرصد الحاضر ويرسم صورة للمستقبل ثم ينتظر.

وما يحدث هو أن التطور التاريخي يفرز قوى اجتماعية تحمل هذه الفكرة تماماً كما حدث في الثورة الفرنسية، إذ كان فولتير والموسوعيون يكتبون وينشرون أفكارهم إلى أن أتت القوى الاجتماعية الملائمة وحملت هذه الأفكار فاندلعت الثورة، لأنه إذا ظهرت هذه القوى دون وجود فكر فلن تندلع ثورة بناءة بل ستعم الفوضى.

المفكر إذاً، هو الذي يقرأ الماضي والحاضر والمستقبل لأن هذه هي وظيفته، وقد أوكل له المجتمع هذه الوظيفة من خلال تقسيم العمل. أما الجماهير، فهي بحكم وضعها تعيش اللحظة. وقد يعترض البعض على ذلك بالقول إن هذه فكرة نخبوية، والرد على هذا القول بسيط للغاية، فهي كذلك فعلاً.

فعبر التاريخ لا بد أن تكون هناك نخبة، والقضية هي كيف تكون هذه النخبة على علاقة بنبض التاريخ ونبض الواقع وبمشاكل الجماهير، فتبدع فكراً قادراً على استيعاب حركة المجتمع وحركة الواقع والتعبير عنها بطريقة إنسانية عادلة، وتحولها إلى منظومة فكرية يمكن تطبيقها في الواقع.

ولننتقل الآن إلى فكرة الحداثة البديلة.. لقد أصبح من الضروري تطوير منظومة تحديث إنسانية إسلامية، منظومة هدفها ليس التقدم المستمر وبلا نهاية وتصاعد معدلات الاستهلاك ولا تقوم على أساس ثورة التطلعات المتزايدة، وإنما التوازن مع الذات ومع الطبيعة وتحقيق العدالة الاجتماعية..

منظومة يطورها عقل مسلم متوازن مع ذاته ومع الطبيعة، ولذلك فهو غير نزاع للغزو والسلب.. منظومة توازن بين الإنتاجية وقيم العدل، وتوائم بين الحقوق الفردية وحقوق المجتمع.. حداثة تجعل الإنسان وتحقيق إمكانياته هي المركز، تركز على الإنسان من حيث هو إنسان، وليس من حيث هو كائن اقتصادي أو جسماني أو طبيعي.

إن المطلوب هو حداثة جديدة تتبنى العلم والتقنية ولا تضرب بالقيم أو بالغائية الإنسانية عرض الحائط.. حداثة تحيي العقل ولا تميت القلب، تنمي وجودنا المادي ولا تنكر الأبعاد الروحية لهذا الوجود، تعيش الحاضر دون أن تنكر التراث.. حداثة تحترم التعاقد ولا تنسى التراحم.

ومن ثم، يجب أن نطرح رؤية للمجتمع تحل المشاكل بشكل جذري للجميع وتحدد مكان أعضاء الجماعات الدينية والإثنية داخل المنظومة الجديدة، وأن حقوقهم السياسية والاجتماعية والدينية مصونة (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) انطلاقاً من تطبيق الشريعة الإسلامية (وليس مجرد التسامح الإنساني).

بل إنه يمكن البحث عن مناطق اتفاق كثيرة مع العلمانيين القوميين العرب، فهم ليسوا علمانيين شاملين مثل العلمانيين في الغرب، فالعلمانيون عندنا ما زالوا يؤمنون بالقيم المطلقة ولا يؤمنون بأن كل شيء نسبي ومباح، كما تهمهم الخصوصية القومية.

وأعتقد أن هذه كلها نقاط اتفاق يمكن أن نتفق عليها جميعاً، ومن خلال هذا الخطاب الإسلامي القائد يمكن حشد طاقات الجماهير الإسلامية وغير الإسلامية لإعادة بناء الأمة. ولنبدأ مشروعاً تحديثياً جديداً لا يعادي القيمة المطلقة ويحتفظ بمركزية الإنسان في الكون وهي مركزية يستحيل الاحتفاظ بها في إطار مادي، فهي مركزية مستمدة من قداسة الإنسان، وقداسته مستمدة من وجود إله مفارق للطبيعة والتاريخ. أما في داخل النسق المادي فلا مركزية إلا للمادة!

إن الحداثة الإنسانية البديلة توازن بين التعاقد والتراحم: أن ننشئ مجتمعاً مبنياً على التعاقد دون أن ننسى التراحم، أن نبني مجتمعاً له أساس مادي لكنه لا ينسى الروح، يحترم الطبيعة ولا ينسى الإنسان. ويتمثل جوهر الحداثة التراحمية الإنسانية في أن الهدف ليس التصاعد في معدلات الاستهلاك، وليس تحقيق اللذة، وإنما التراحم والتوازن مع الطبيعة ومع الذات.

وأنا -كمسلم- أعتقد أنه لا يمكن تحقيق هذا إلا في إطار إيماني.. إن الإنسان لا يمكنه أن يتجاوز الرغبة في الاستهلاك الشره والبحث الدائم والدائب إلا من خلال الإيمان بشيء أكبر منه. ولعل المنظومة العلمانية قد نجحت حتى عهد قريب في تحقيق شيء من هذا القبيل، من خلال الإيمان بقيم مثل الوطن والاستعمار والعنصرية، لكن كل ذلك تساقط في عالم ما بعد الحداثة وأصبح الإنسان في عالم بلا مركز، وانتشرت الفوضى المعرفية والأخلاقية كما نرى الآن في الغرب.

ولا أدعي هنا أنني أُقدم حلولاً جامعة مانعة، فغاية ما أدعو إليه هو الاجتهاد، وهناك من هم أكثر تخصصاً وخبرة مني يمكنهم أن يطرحوا مفهوماً اقتصادياً جديداً قائماً على فكرة "حد الكفاية"، بحيث نتفق على الحد الأدنى المادي المطلوب للإنسان (الغذاء، المسكن، الملبس..إلخ) ونحاول أن نحقق هذا لكل البشر بدلاً من فكرة النمو المستمر وتصاعد معدلات الاستهلاك التي تؤدي إلى استقطاب طبقي شديد، وإلى نهم لا ينتهي داخل المجتمع، وإلى الأزمة البيئية ونفاد المصادر الطبيعية على مستوى العالم، فهذه المصادر لا يمكن أن تكفي لمواكبة مثل هذا التصعيد المستمر للنمو والاستهلاك.

إن الهدف من الحداثة الإنسانية هو تحقيق التناغم والعدل والسلام الاجتماعي. ويمكن للمتخصصين أن يحولوا ذلك إلى تصورات تفصيلية، وهكذا تولد الأفكار الجديدة.

وأنا مؤمن تمام الإيمان أن مثل هذه الرؤية ممكنة التحقيق، وأنه في الآونة الأخيرة بدأ يظهر الكثيرون في الغرب والشرق ممن يؤمنون بأن الحداثة الداروينية قد أدخلتنا جميعاً في طريق مسدود، ولا بد من البحث عن طريق جديد، وهذه هي بداية الحكمة،

والله أعلم.

***

ملاحظة : نشر هذا المقال في يوم ١٠ أكتوبر ٢٠٠٩ م

http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/2009/10/10/%D8%AD%D8%AF%D8%A7%D8%AB%D8%A9-%D8%AF%D8%A7%D8%B1%D9%88%D9%8A%D9%86%D9%8A%D8%A9-%D8%A3%D9%85-%D8%AD%D8%AF%D8%A7%D8%AB%D8%A9-%D8%A5%D9%86%D8%B3%D8%A7%D9%86%D9%8A%D8%A9

***

عبد الوهاب المسيري ..رحلة في الفكر والأدب ج١

مقدم الحلقة :سامي كليب (قناة الجزيرة)

ضيف الحلقة :عبد الوهاب المسيري/ المفكر العربي والإسلامي

تاريخ الحلقة: 12/7/2008

- الصحة الشخصية وصحة الوطن
- المسار السياسي والفكري والدراسي
- الرحلة الفكرية بين الماركسية والإسلام
- التخصص في الصهيونية وإنجاز الموسوعة

سامي كليب :مرحبا بكم أعزائي المشاهدين إلى حلقة جديدة من برنامج زيارة خاصة تأخذنا هذه المرة إلى القاهرة. لو أن كل مثقف عربي قدم لأمته ما قدمه ضيفنا لكانت هذه الأمة بألف خير، هو الكاتب السبعيني العمر الذي لا يزال حتى اليوم يفند المجتمع الإسرائيلي والمجتمعات الغربية ويكتب بالسياسة والفلسفة والأدب والفن والموسيقى، يسعدني أن أستضيف الدكتور عبد الوهاب المسيري .

عبد الوهاب المسيري:

" عبرتها وحيدا

عبرتها شريدا

عبرتها كسيرا

عبرتها أسيرا

عبرتها سجينا

عبرتها حزينا

عبرتها طليقا

عبرتها سعيدا

عبرتها فريدا

عبرتها شريكا

عبرتها جميعا صحاري الظلام يا سحابة الضياء وواحة الصفاء."

الصحة الشخصية وصحة الوطن

سامي كليب : في شعر الدكتور عبد الوهاب المسيري فلسفة وفكر وصوفية وتساؤلات، وفيه أيضا يقين وطمأنينة وإيمان. رحلة طويلة يختصرها هذا المفكر العربي الفذ في بعض الشعر وكثير من المؤلفات، وحين وصلت لعنده كان السؤال الأول الذي تبادر إلى ذهني يدور حول صحته فهو وبعد أن حارب طويلا على جبهة السرطانات الملمة بأمته العربية ها هو يحارب اليوم على جبهتي الفكر وصحته الخاصة.

عبد الوهاب المسيري :أنا الحمد لله يعني أحارب، يعني كما يقول أصدقائي أنا من المحاربين وعادة في أميركا في الواقع وهم لا يؤمنون بالله يقولون بعد إجراء عملية أو إعطاء دواء يقولون إن ٨٠% مسألة إرادة لأن السرطان الذي مصاب به يعني غير معروفة أسبابه وتلاقي مثلا تجد بعض الأدوية تنجح مع بعض الأشخاص وتفشل مع آخرين.

سامي كليب :وحاولت أيضا أن تتخصص في القراءة يعني قرأت كل شيء حسب ما فهمت عن مرضك؟

عبد الوهاب المسيري : نعم، هو عندي بعض التلاميذ من الأطباء يرسلون لي بكل ما هو جديد، ويحضرني هنا حادثة طريفة جدا، وهي أن أستاذا في جامعة كامبريدج وهو مثلي تماما أستاذ في الشعر الرومانتيكي الإنجليزي وأصيب بنفس المرض، فحينما ذهب إلى الطب التقليدي أخبروه إن عنده ستة شهور وأنه لو تم علاجه بالكيماوي سيموت بعد ثلاثة أشهر، فكما يقول مارك توين كذب نبأ وفاته واستمر، وحاول بقى مع أدوية وعلاجات مختلفة من أهمها علاج اسمه (غيرسون تريتمنت) في ألمانيا وبعد عشر سنين كتب كتابا بيقول فيه إن ده تحدي لهم..

سامي كليب :على كل حال واضح التأثير النفسي على المريض وإن شاء الله يعني يشفيك الله وتعيش سنوات طويلة بعد، واضح أن العامل النفسي ضروري ومهم وصار مع حضرتك يعني أنت لما رحت عملت الصور في المرة الأولى تبين أن الوضع كارثي ولكن قررت وصمدت

ورجعت إلى الطب أيضا التقليدي الطبيعي في بعض المرات ويعني كان المفترض أنه لا سمح الله تتوفى من سنة وأكثر.

عبد الوهاب المسيري :لا أنا كمان كذبت نبأ وفاتي. بس تكلفة العلاج باهظة ولولا مساعدة سمو الأمير عبد العزيز بن فهد والأمير سلطان بن عبد العزيز كان من غير الممكن أستمر يعني أنا تكلفت الملايين وطيلة فترة علاجي وأنا أفكر في الفقراء.

سامي كليب :الفقراء كانوا ولا يزالون في صلب اهتمامات الدكتور عبد الوهاب المسيري فهذا المفكر والفيلسوف والسياسي العربي لا يزال وهو في أوج مرضه ومحاربته للسرطان يرفع الصوت عاليا دفاعا عن الطبقات الفقيرة في بلاده لا بل وينزل إلى التظاهرات أيضا متقدما حركة كفاية التي تولى قيادتها في مرحلة اقتصادية وسياسية صعبة في مصر، وهو اليوم يدق ناقوس الخطر.

عبد الوهاب المسيري :كلنا في حركة كفاية وفي كل حركات المعارضة يعني نشعر أن مصر وصلت مع الأسف إلى نقطة النهاية، فقدت أشياء كثيرة.

سامي كليب :كيف يعني نقطة النهاية؟

عبد الوهاب المسيري :أنه خلاص هذا النظام لم يعد قادرا على اكتساب أي شكل من أشكال الشرعية فهو مستمر في نهب مصر مستمر في البطش بكل أشكال المعارضة، حتى ده حتى لما يجي الجهاز المركزي للمحاسبة وهو جهاز حكومي ويطرح تساؤلات بخصوص ملايين اختفت وملايين كذا، يهاجمونه في البرلمان، تمديد قانون الطوارئ لم يناقش ووفق عليه مباشرة، يعني توشكا حتى الآن لا نعرف..

سامي كليب :كيف تبرر دكتور مسيري هذا التناقض، ما تصفه بالبطش وبين قدرتك مثلا اليوم على التعبير بحرية والإدلاء بتصريح ولم يأتك أحد ويقبض عليك مثلا؟ أنه في هامش من الحرية معطى للكلام إذا صح التعبير؟

عبد الوهاب المسيري :نعم، نعم، وده شيء تعلموه من إسرائيل ومن الولايات المتحدة، ديمقراطيات عنصرية، القرار السياسي فيها بيد النخبة الحاكمة لكن الصحافة حرة تماما، حرة تماما تقول ما تقول، أو كما قال أحدهم إن الديمقراطية في مصر تعني أن تقول ما تريد أن تقول ونحن نفعل ما نريد أن نفعل.

سامي كليب :طيب خلينا نحكي شوي عنك وعن تاريخك ولنبدأ بالعائلة، حسب ما فهمت أن امتدادات عائلة المسيري قد تصل إلى المغرب العربي ولها تواصل مع السودان أيضا، هل صحيح أنه في بعض أصول العائلة أو ربما أصل العائلة من المغرب؟

عبد الوهاب المسيري :دي إشكالية في علم الـ anthropology هل قبيلة المسيرية اللي هي بتذكر في الأخبار اللي عن دارفور وكردفان هل جاءت مع تغريبة بني هلال من الجزيرة إلى تونس أم أنهم كانوا أصلا في المغرب واستقروا في السودان؟ دي إشكالية.

سامي كليب :ما عرفت جواب عن الموضوع؟

عبد الوهاب المسيري :لا أنا قرأت بس مقالا بيطرح السؤال.

سامي كليب :خصوصا أنك تهتم بالسيرة الهلالية يعني بشكل دقيق..

عبد الوهاب المسيري :نعم، نعم.

سامي كليب :وأصدقاؤك من منشدي السيرة الهلالية.

عبد الوهاب المسيري :يا سلام، أعشقها، أنا أعشق كل الأعمال الفنية والأدبية التي تعبر عن نبل الإنسان ومقدرته على تجاوز الحدود المادية، يعني من المفضلين لدي المخرج السينمائي أكيرا كيروساوا.

سامي كليب :حين لبى الدكتور عبد الوهاب المسيري طلبات كثيرة جاءته من أصدقائه والرفاق والمحبين بأن يتولى رئاسة حركة كفاية لم يعتقد ربما يوما أنه سينزل إلى الشارع ويتعرض إلى ما تعرض له، فغالب المرض ونزل يتظاهر مع المتظاهرين وتعرض للإبعاد بالقوة وقيل إنه خطف وإنه رمي في منطقة بعيدة عن القاهرة، ولحسن الحظ أن باصا للنقل توقف وأنقذه مع عائلته وأعاده من مكان بعيد.

عبد الوهاب المسيري :يعني باص خاص لكن السائق عرف من نحن ونقلنا ورفض أن يتلقى مكافأة.

سامي كليب :بس فعلا يعني خطفت عمليا ورموك في الصحراء؟

عبد الوهاب المسيري :آه، آه، مش الصحراء، الطريق السريع يعني ساعتين بره القاهرة، لكن من الطرائف كنت مصابا بنزلة شعبية الهواء النقي هناك..

سامي كليب :شفاك.

عبد الوهاب المسيري :يعني تحسنت صحتي تماما وكل الأطباء يقولون إنني يجب أن أخرج من القاهرة يومين أو ثلاثة، الطريف في الموضوع بقى بعد يومين كنت بألقي يعني ندوة، مش ندوة صحفية..

سامي كليب :محاضرة.

عبد الوهاب المسيري :ولا محاضرة، اسمها تحقيق صحفي بقى مش عارف اسمه، مؤتمر صحفي، كنت في مؤتمر صحفي أشرح ما حدث وأخبرتهم أنه يبدو الأمن والحكومة المصرية لا يتعلمون شيئا ولا يتذكرون شيئا لأنهم فعلوا ذلك مع الدكتور عبد الحليم أنتيك، ده بقى مسكين أخذوه في وسط الصحراء وجردوه من ملابسه لكن أيضا ربنا نجاه، البوليس الحربي لقاه فأعطوه بطانية ودفوه وكده وفعلوا نفس الشيء مع شخصيات أخرى.

سامي كليب :لحسن الحظ أنهم ما نزعوا ملابسك على كل حال كانوا وجدوا فقط آثار الأبر والأدوية.

عبد الوهاب المسيري :ما أنا استخدمت نكتة برضه لشرح هذا الموقف، قلت لهم إن شخصا أبله كان يسير في الشارع فوجد قشرة موز فقال بيه حتزحلق تاني! هو كتاب النكت على فكرة هو كده بشرح..

سامي كليب (مقاطعا): متى سيصدر؟

عبد الوهاب المسيري :والله أرجو أنه في الصيف هذا أبدأ لأني جمعت النكت وصنفتها، نكت عن الببغاءات، نكت عن الخريطة الإدراكية، نكت عن الحكام العرب، نكت للفرفشة، نكت عن الحشاشين مثلا.

سامي كليب :عندك على كل حال نظرية في النكتة الحفاظ على التراث المصري وأنها جزءا من هذا التراث لا بد من الحفاظ عليه.

عبد الوهاب المسيري :هو جزء من الشخصية المصرية وأن النكتة ليست مجرد التنفيس وإنما التفسير، محاولة التعامل مع الواقع، محاولة الاحتجاج عليه أيضا، يعني وظائف النكتة كثيرة.

سامي كليب :النكتة حاضرة دائما في حياة المفكر العربي الكبير الدكتور عبد الوهاب المسيري، ومن يقرأ سيرته سيجد أنه استخدم النكتة في أحلك الظروف، حين سجن وهو في مقتبل العمر وحين سافر للدراسة في أميركا وحين عاد وحين تنوء الأمة العربية تحت وابل المصائب وهو إذ يستعد الآن لأن يضيف إلى قائمة مؤلفاته الكثيرة كتابا عن النكتة السياسية في مصر فإنه وهو يغالب الألم في خلال هذا الحوار لم يتوان عن ترطيب الأجواء ببعض النكات وبينها هذه.

عبد الوهاب المسيري :في يوم من الأيام أحد الحكام العرب بعنجهية اتجه نحو الجنة، داخل على طول، حارس الجنة قال له اوقف، قاله أنا فلان، قال اوقف، اسمك إيه؟ قال له أنا فلان، قال له لا يا سيدي تعال جهنم، قال له على جهنم أمشي؟ فمشي راح في جهنم، لقاهم بيوزعوا نمر، أعطوه نمرة ٢٥، فراح يسأل عزرائيل، إيه ٢٥؟ قال له ما توجعش دماغي، شايف أنا مشغول روح شوف بنفسك، فتح جهنم نمرة واحد لقاهم بيحرقوهم بالشمع كده، نمرة اثنين بجمرات الفحم، نمرة ثلاثة ماء بيغلي، نمرة أربعة زيت بيغلي، خمسة سياخ حديد، قال يا لهوي! ماشي بقى مكتئب لأقصى درجة لقى رجل كده وجهه مكفهر وبذقن، واقف قال له إيه يا جدع أنت مالك كده؟ قال له شوف أعطوني إيه، قال له يا ابن الفاجرة ده أنت فجرت فُجر، ٢٥؟ ده أنا أبو لهب وأعطوني ٢١ بس !

المسار السياسي والفكري والدراسي

سامي كليب :أصحاب اللحى الذين يشير إليهم الدكتور عبد الوهاب المسيري في نكاته دفعوني للدخول معه في علاقته مع الله، فهو كان في طفولته ورعا ككل أهل قريته وفي شبابه قارب الإلحاد وانضم إلى الشيوعيين ولكنه لم يلحد وحافظ على خط وسط بين الشيوعية والإيمان ثم استعاد الإيمان ولكن بطريقة فريدة بحيث أن العلاقة لم تكن روحية تماما وإنما فكرية.

عبد الوهاب المسيري :لا بالعكس يعني كما أقول في رحلتي الفكرية إن إيماني وعودتي للإسلام كانت عقلية محضة، فلسفية محضة، والعناصر الروحية فيها ضعيفة جدا في الواقع أزعم أن..

سامي كليب :بعدها العناصر الروحية ضعيفة؟

عبد الوهاب المسيري :جدا.

سامي كليب :ما زالت حتى اليوم؟

عبد الوهاب المسيري :آه، يعني يدوبك أنا بأهتز عاطفيا لما أقرب الكعبة، هنا بأهتز من داخلي وبفهم بعض هوس الناس بالعمرة، يعني لي أصدقاء يتحايلون كل عام على تدبير الأموال لزيارة الكعبة لأنه حينما رأيتها اهتز وجداني بشكل لا أعرفه إلا إذا كنت بأدرس قضية فلسفية أو ما شابه.

سامي كليب :هلق عندك استشهادات عديدة يعني بالقرآن ببعض الآيات الكريمة حتى ببعض الشعر الذي كتبته، الله أكبر وما إلى ذلك، يعني الإيمان ماذا يشكل بالنسبة لك؟ الدين ماذا يشكل بالنسبة لك؟ طقوس ممارسة هذا الدين مثلا من الصلاة والصوم والعبادة وما إلى ذلك؟

عبد الوهاب المسيري :أمارس ما أسميه الحد الأدنى من الطقوس، يعني لا أزعم أنني السنة والتراويح..

سامي كليب (مقاطعا): عجزا أم إرادة يعني؟

عبد الوهاب المسيري :لا، إرادة بمعنى أنني أمارس الشعائر الخمسة لكن لا أمارس النوافل والتراويح وكذا يعني وهذا يعود إلى أنني أرى أن جهدي لا بد أن يتجه نحو تطوير خطاب إنساني إسلامي ينفع الناس، كيف يتعاملون مع عالم الحداثة الداروينية الذي نعيش فيه، ودائما أقول إنني وصلت إلى الإيمان ليس من خلال الله إلى الإنسان ولكني وصلت إلى الله من خلال الإنسان يعني عجز النموذج التفسيري عن تفسير الإنسان هو الذي جعلني أرى أنه لا يعني كما أقول إنني كنت أكترث بالمادة.

سامي كليب :عجز النظرية المادية يعني، ونحن نذكر بهذا المعنى فقط بين هلالين يعني أنا كان يفاجئني وفي الواقع لا أفهم لماذا بعض التلفزات كانت تقدمك ككاتب ومفكر إسلامي يعني بالعكس، كاتب تكفي أو مفكر تكفي يعني لأنه عندك في بداياتك يعني كنا نتحدث عن هذا التطور الفكري عندك، بدأت في مرحلة معينة شيوعيا..

عبد الوهاب المسيري :نعم، نعم.

سامي كليب :يعني كنت إشتراكيا فيما بعد ثم قبل ذلك انتميت إلى حركة الأخوان المسلمين، ولو شرحت لي ولو يعني بدون تفاصيل كثيرة لكي يفهم المشاهد في البداية مثلا انتماؤك إلى حركة الأخوان المسلمين شو كان سببه؟

عبد الوهاب المسيري :يعني كصبي في دمنهور عندي بعض الأسئلة، تصورت أن الأخوان المسلمين قد يزودونني بالإجابة لكن..

سامي كليب (مقاطعا): لكن لم تستمر طويلا حسب ما فهمت يعني..

عبد الوهاب المسيري :لا، لا.

سامي كليب :مسألة أسابيع أو أشهر يعني.

عبد الوهاب المسيري :لا سنة أو اثنين.

سامي كليب :سنة.

عبد الوهاب المسيري :ثم انضممت بعد ذلك لما اندلعت ثورة ٢٣ يوليو إلى..

سامي كليب :الحرس.

عبد الوهاب المسيري :إلى الحرس وإلى الأحزاب الأخرى لكن بعد قليل طبعا اكتشفنا بيروقراطية هذه الأحزاب.

سامي كليب :حسب ما فهمت كنت صغير السن يعني حتى لما دخلت إلى الأخوان المسلمين كنت صغير السن.

عبد الوهاب المسيري :لا، لا، ما إحنا في مصر كنا في سن مبكرة للغاية نبدأ نشتغل بالسياسة يعني حينما كنت طفلا كونّا عصابة في حالة دخول الإنجليز دمنهور حتى نقاومهم وهكذا يعني.

سامي كليب (مقاطعا): سنروي ذلك ولكن فقط قل لي هل ندمت على الانتماء إلى الأخوان المسلمين؟

عبد الوهاب المسيري :لا ولم أندم على انتمائي للحزب الشيوعي.

سامي كليب :لاحقا. واليوم راض على تجربة الأخوان في مصر؟

عبد الوهاب المسيري :أنا متعاطف معهم كثيرا ويعني أرى أنهم بيتطوروا بخطى سريعة وأنهم لو نجحوا في تطوير خطاب للأمة، الأمة هنا بمعنى كل العناصر من المسلمين والمسيحيين والعلمانيين العرب فالعلمانيون العرب ليسوا مثل العلمانيين الغربيين.

سامي كليب :يعني مثلا تقبل لو وصلوا إلى السلطة بانتخابات مثلا، هل ستكون سعيدا مثلا في المجتمع المصري؟

عبد الوهاب المسيري :أعتقد ذلك.

سامي كليب :في الحديث عن طبعا تحدثت منذ قليل عن التبكير في كل شيء يعني باكرا دخلت إلى الأحزاب وباكرا ناهضت الإنجليز يعني حسب ما فهمت أنك قذفت الإنجليز بالحجارة وأنت في سن السابعة وأنك أصدرت مجلة وأنت في الحادية عشرة من العمر طبعا كمجلات الحائط والمجلة حتى المكتوبة وشاركت في التظاهرات ضد الملك فاروق وكان عمرك ١٢ سنة، واتُهمت بالشيوعية وأنت في سن الثالثة عشرة كنت بعد ما انتميت للحزب، وصحح لي بعض التواريخ يعني أنا أنصح القارئ إذا كان يود أن يعرف في الواقع الأهم في سيرتك أن يقرأ هذه السيرة الجميلة "عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية "وتذيلها طبعا بعبارة تقول سيرة غير ذاتية وغير موضوعية. الجميل بهذه السيرة في الواقع والتي قرأتها بمتعة كبيرة أنه ليس هذا المفكر الذي يصب قوالب فكرية جامدة لا يفهمها، أي قارئ ممكن يقرأ هذا الكتاب بمتعة كبيرة وفيه العديد من القصص والروايات في رحلاتك إلى أميركا في عودتك إلى مصر وما إلى ذلك، ولكن صحح لي بعض التواريخ إن كانت خطأ، مواليد عام ١٩٣٨ يعني اليوم سبعين سنة تقريبا.

عبد الوهاب المسيري :نعم، إن شاء الله يعني بعد شهرين.

سامي كليب :دخلت كلية الآداب بالإسكندرية طبعا قسم الأدب الإنجليزي ذهبت إلى أميركا حصلت على دكتوراه عدت إلى مصر للتدريس في كلية البنات في جامعة عين شمس، سنة ١٩٧٠ مستشار لوزير الإرشاد كان وزير الإرشاد الأستاذ محمد حسنين هيكل وعلى ما يبدو شجعك أيضا للموسوعة الهامة جدا في الواقع في تاريخنا العربي" اليهود واليهودية

والصهيونية" وخبير الشؤون الصهيونية منذ عام ١٩٧١ يعني تقريبا منذ ٣٦ سنة بمركز الدراسات الإستراتيجية بالأهرام الذي أسسه أيضا الأستاذ هيكل.

عبد الوهاب المسيري :ولكن أنا استمريت فيه حتى عام ١٩٧٥ ولما بدأت رياح التطبيع تهب لم أعد إلى منصبي.

سامي كليب :على ذكر رياح التطبيع المضحك المبكي إذا صح التعبير أنك كنت في فترة معينة بعد دراستك بأميركا وعودتك إلى مصر كنت تلاقي شهرة كبيرة كل التلفزات يعني تتقاطر عليك وتود أن تستضيفك، لما عدت بالـ ١٩٧٩ كانت مرحلة التطبيع أخذت أوجها، عزلوك، صح هذا الكلام؟

عبد الوهاب المسيري :نعم. وهنا أتحدث عن الذئاب الثلاثة التي هاجمتني حينما عدت..

سامي كليب (مقاطعا): الشهرة..

عبد الوهاب المسيري (متابعا): الأول الثروة، آه أنه من أسرة ثرية لكن الثراء بيأتي من التجارة وليس من دراسة الفلسفة وتدريس الشعر الرومانتيكي الإنجليزي.

سامي كليب :يعني تحدثت عن ثلاثة ذئاب، فقط لنعددهم، الشهرة والثروة والهيغلية المعلوماتية.

عبد الوهاب المسيري :الثروة وثم الشهرة. الثروة كانت أضعف الذئاب لأني اكتشفت أن أسلوب حياتي جميل كأستاذ أقرأ وأجلس مع أسرتي وأصدقائي وأجتمع بالشباب وعندي فسحة من الوقت كي أنمو..

سامي كليب (مقاطعا): في على ما يبدو تقشف بعاداتك يعني أنا فهمت أنك كنت ترتدي القميص حتى الشحاذ ما بيحب يأخذه.

عبد الوهاب المسيري :دي بقى حتى الأثرياء مننا عندهم مسألة التقشف دي يعني، يعني بمعنى أن والدي رحمه الله كان رأسماليا.

سامي كليب :كان عنده مصنع.

عبد الوهاب المسيري :عنده مصنع من أكبر المصانع لكنه كان لا يسرف لا يضيع أمواله في شراء شاليهات وما شابه، إنما كان مثلا عندنا سيارة خاصة..

سامي كليب (مقاطعا): بخل أو تقليد يعني كان؟

عبد الوهاب المسيري :لا، لا، هو تراكم رأسمالي حقيقي كما حدث في الغرب هؤلاء هم الذين أسسوا الصناعة في الغرب، والدي كان ينتمي إلى هذا النمط.

سامي كليب :الذي يجمع المال ولا يصرف كثيرا يعني.

عبد الوهاب المسيري :نعم. وبعدين ما كانش بخيلا كان حصيفا يعني مثلا كان عندنا سيارة خاصة يقودها سائق كان من الممنوع علينا أن إحنا نركبها قال لأنه تركبوا الترومواي شأنكم شأن أولاد الموظفين وقد أفادني هذا لأني حين ذهبت إلى الولايات المتحدة وكان راتبي الشهري هناك مائتي دولار وأقطن في شقة بـ ١٨٠ دولار عملت كغفير في مصنع ودبرت أموال كثيرة وكده.

سامي كليب :مش غفير فقط كنت صرت أصبحت رئيس فرقة الإطفائيين.

عبد الوهاب المسيري :نعم. كنا طبعا إحنا نتهمه بالبخل ولكن لم ندرك حكمته في هذا.

سامي كليب :وفهمت أنه انتقل هذا الشيء لك. يعني حتى ثيابك ترتديها لسنوات طويلة لا تغير القمصان لا تغير الثياب إلا حتى فعلا تصل إلى مرحلة صعبة يعني.

عبد الوهاب المسيري :نعم أنا هذا الرجل نعم.

سامي كليب :هذا التقليد الشيوعي كمان كان ولا لا، يعني المؤثرات الشيوعية؟

عبد الوهاب المسيري :لا، أعتقد أنه موقف من الاستهلاكية، أنا أرى أن الاستهلاكية ستهلك الإنسان، تجعله يجري وراء الأشياء بدل أن يستخدمها وده ما يحدث الآن يعني مسألة الموضة، الموضة الهدف منها القذف في الإنسان في دوامة بحيث أنه يغير ملابسه أربع مرات كل سنة..

سامي كليب (مقاطعا): بس اسمح لي بسؤال يعني ربما سيفاجأ المشاهد أن أسألك هذه الأسئلة ونحن أمام مفكر كبير ولكن هل فعلا تصمم القمصان يعني تهتم بالأزياء؟

عبد الوهاب المسيري :نعم وبأدرس الأزياء يعني بأشوف قنوات الـ Fashion لأرى أبعاد الجريمة .أما القميص الذي صممته والله كانت توقفني بعض السيدات في الشارع ويقلن من أين اشتريته؟ فكنت أقول لهن إن هو عبارة عن الجلابية نصف والياقة التي لا لزوم لها على الإطلاق.

سامي كليب :على الطريقة الصينية يعني.

عبد الوهاب المسيري :نعم..

سامي كليب :لسه موجود عندك القميص؟

عبد الوهاب المسيري :نعم، نعم.

سامي كليب :طيب ممكن نشوفه سوا. في متابعة التواريخ عام ١٩٧٢ أولى المؤلفات التي تصفها بالحقيقية "نهاية التاريخ، مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني "في الواقع حتى استخدام كلمة نهاية التاريخ حين كُتب عنه في الولايات المتحدة الأميركية ضج العالم أن نهاية التاريخ، حضرتك كاتب عنه يعني من أكثر من ٣٤ سنة من 36 سنة تقريبا.

عبد الوهاب المسيري :قبل أن يولد فوكو ياما يمكن.

سامي كليب :بالضبط.

عبد الوهاب المسيري :ولذلك حينما جرى حوار بيني وبينه عبر الإنترنت أهرام ويكلي، دُهش. طبعا أنا رؤيتي لنهاية التاريخ مختلفة عنه هو بيرى أن نهاية التاريخ هي انتصار الليبرالية، أنا بأرى أن نهاية التاريخ هي انتصار للفاشية، من يعلن نهاية التاريخ يعلن نهاية التاريخ الإنساني وبداية التاريخ الطبيعي أي أن الإنسان يتحول إلى كائن بيولوجي خاضع للحتميات المادية.

سامي كليب :هنا تتحدث عن التناقض بين المادة والروح طبعا.

عبد الوهاب المسيري :نعم نعم .

الرحلة الفكرية بين الماركسية والإسلام

سامي كليب :من دمنهور التي ولد فيها عام ١٩٣٨ إلى كلية الآداب إلى إتقان الأدب الإنجليزي والتخصص به في الولايات المتحدة الأميركية إلى التعمق في الفكرة اليهودية والصهيونية إلى التبحر في الفكر الإسلامي حيث درّسه في أعرق الجامعات الأميركية كان الدكتور عبد الوهاب المسيري دائما في رحلة البحث عن سر الكون، سعى لمعرفة ذاك السر في الماركسية والفكر المادي ثم عاد إلى مسالك الروح ولكن عبر العقل فنقض الماركسية دون أن يرمي في بحرها حجرا.

عبد الوهاب المسيري :لا، لا، الماركسية تعاني من انقسام، هناك المادية الجدلية وهناك الإنسانية الماركسية، الإنسانية الماركسية تحوي كل عناصر التجاوز الممكنة ولذلك..

سامي كليب (مقاطعا): ولذلك كتب بالزمان كمال جنبلاط في لبنان قائد الحركة الوطنية "نحو اشتراكية أكثر إنسانية."

عبد الوهاب المسيري :آه، يعني لما تؤمن بالإنسان والإنسان غير خاضع للمادة أنت تجعل الإنسان يشير إلى الما وراء إلى الله سبحانه وتعالى.

سامي كليب :في التجربة الشيوعية حضرتك تروي هذا الأمر يعني في الواقع تقول إنه كانت قصيدة مغمورة على ما يبدو لكامل الشناوي مش متأكد منها تماما في مجلة الرسالة الجديدة هي التي تركت أثرا كبيرا في نفسك، تقول القصيدة

"يا رب فيم خلقتنا أو تركتنا..

عبد الوهاب المسيري (مقاطعا): لا، "فيم خلقتنا وتركتنا."

سامي كليب :

"يا رب فيم خلقتنا وتركتنا

نهب الظلام فلا ضياء ولا سنا

وندب فوق الأرض لا ندري بها

وندب فوق الأرض فلا تدري بنا

أنا من أنا، أنا من أكون؟

وسيلة أم غاية أنا لست أعرف من أنا

وهم يساور ملحدا فيروعه

ويخافه من كان مثلي مؤمنا"

عبد الوهاب المسيري :آه، دي فعلا أنا في اللحظة دي كانت بأتساءل وبأقف بين الإلحاد والإيمان ولم أجد كما أقول أحدا يجيب على أسئلتي فتوجهت نحو الإلحاد وإن كان بعض.. وأنا نفسي الآن أتساءل هل هو كان إلحادا، طيب أمّال لم كنت أؤمن بالقيم الأخلاقية المطلقة؟ القيم الأخلاقية المطلقة لا علاقة لها بالمادية متجاوزة للمادية ولذلك حتى كنت أقول مازحا لأصدقائي من الماركسيين أنني ماركسي على سنة الله ورسوله يعني أريد خلطة تميزني عنهم.

سامي كليب :ولكنك جُندت في الحزب الشيوعي عام ١٩٥٥ دخلت رسميا يعني حصلت على بطاقة عضوية.

عبد الوهاب المسيري :آه. وصُعّدت لأني كنت أعرف الإنجليزية وكنت أترجم، ترجمت أول من ترجم كتاب ماوتسي تونغ "في التناقض" وهو كتاب في غاية الأهمية فتعلمت منه كثير.

سامي كليب :كان على الأرجح أول ترجمة فعلية عربية لهذا الكتاب.

عبد الوهاب المسيري :نعم في الخمسينيات، تقول كده.

سامي كليب :المضحك بالترقية داخل صفوف الحزب أنهم كانوا يريدون أن يرقوك وأنت ترفض تقول أنا برجوازي يعني ما لازم.

عبد الوهاب المسيري :لا، يعني كنت أحذرهم مني من حدودي حتى كنت أقول لهم إن أحيانا إنه يجب ألا يذكر لي أحد أي أسرار لأنه لو ضربني البوليس سأعترف يعني بمعنى أعرف مواطن قوتي ومواطن ضعفي ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه.

سامي كليب :وقدت تظاهرات عمالية أيام عملك الشيوعي؟

عبد الوهاب المسيري :لا، رتبت مظاهرة في مصنع شربيت في الحضرة، إضراب..

سامي كليب :لتجفيف البصل كان.

عبد الوهاب المسيري :نعم. إضراب هناك لمدة ١٥ يوما وبعدها..

سامي كليب :اعتُقلت.

عبد الوهاب المسيري :لا، بعدها حصلنا على مكاسب. لا، أنا اعتُقلت أثناء توزيع منشورات يوم ثورة العراق بتؤيد..

سامي كليب(مقاطعا): تعاطفا مع طبعا عبد الكريم قاسم.

عبد الوهاب المسيري(متابعا): آه، بس الإمضاء باسم الحزب الشيوعي المصري.

سامي كليب :طيب بس حسب ما فهمت أنه حين اعتقلت بعدها مباشرة غادرت الحزب. تعرضت للإهانة للضرب في الاعتقال؟

عبد الوهاب المسيري :لا لا، أنا تركت الحزب بناء على أسس، لأن قواعد السرية لم تكن متبعة فقلت لهم إنه سيحدث مواجهة بيننا وبين نظام عبد الناصر فمثلا كنت مسؤولا عن خلية وكنا مجتمعين في الشلالات وكنت بأدي محاضرة عن حزب البعث ممثل للبرجوازية الصغيرة وأشياء من هذا القبيل، وفوجئت بأحد الرفاق يأتي فقلت له كيف عرفت؟ قال يا أخي أنت من كبار المثقفين ونود أن نستفيد.

سامي كليب :كان جاسوسا؟

عبد الوهاب المسيري :وظهر فيما بعد أنه جاسوس أعرف اسمه لكن لا داعي لذكره. فعند هذه اللحظة قررت أن أبتعد أن يعني الاستشهاد ليس فريضة وإنما واجب حتمي يعني عندما أضطر للاستشهاد أستشهد لكن طالما أني يمكن أن أنقذ روحي لا بد أن أنقذ روحي حتى تستمر الثورة والمقاومة.

سامي كليب :طيب شو سبب استقالتك من الحزب خصوصا أنه حتى اليوم يعني حين يسألك البعض عن سبب انتمائك للحزب الشيوعي وهل ندمت على الانتماء، تقول لا بالنتيجة كان له فضل بتوجهك الإنساني الفلسفي إذا صح التعبير في لحظة معينة، شو الاستقالة كانت؟

عبد الوهاب المسيري :هي دي أنهم كانوا غير مدركين لأهمية السرية.

سامي كليب :فقط يعني مسألة السرية؟

عبد الوهاب المسيري :آه.

سامي كليب :ولا كان في أسباب أخرى الخوف مثلا من الاعتقال ضغط الأهل؟

عبد الوهاب المسيري :لا. مش الخوف من الاعتقال وإنما الرغبة في الاستمرار، وبالفعل بعد عدة شهور تم القبض على معظمهم والطريف..

سامي كليب(مقاطعا): كم كان عمرك تقريبا آنذاك؟

عبد الوهاب المسيري :أنا كنت حوالي الثامنة أو التاسعة عشر.

سامي كليب :لأنه حسب ما فهمت أن والدك كان له نفوذ وأخرجك من السجن يعني سريعا.

عبد الوهاب المسيري :نعم.

سامي كليب :وممكن يتخيل الإنسان أنه بهذا العمر الشاب في مقتبل العمر طبعا قناعاته الأيديولوجية ليست راسخة تماما فممكن يغير رأيه بسهولة يعني نتيجة خوف أو نتيجة اعتقال..

عبد الوهاب المسيري :لا لا، قناعاتي الأيديولوجية تغيرت من خلال التساؤلات الفلسفية والحوار بيني وبين نفسي كما قلت.

سامي كليب :ما لم تجده في الشيوعية وجدته في دين الله مثلا في القرآن..؟

عبد الوهاب المسيري :نعم. يعني مسألة التجاوز أصبحت أساسية، التجاوز هو الإنسان أما المادية هي الخضوع للحتميات البيولوجية والمادية.

سامي كليب :فهمت أن اللقاء مع مالكوم إكس الداعية الإسلامي الذي بدأ حياته طبعا جانحا ومخدرات وتجارة وبعدين اعتنق الإسلام كان اللقاء معه مفصليا.

عبد الوهاب المسيري :إحنا كنا تعلمنا الدين أفيون الشعوب ولكن في حالة مالكوم إكس الدين حرره من عنصريته، يعني تجربته في الكعبة آه السود واقفين مع بعض والبيض واقفين مع بعض لكن بسبب أنهم يعرفوا بعض مش بسبب أي عنصرية خاصة وأن عزام باشا وهو أبيض هو الذي تبناه وقدمه. حاجة ثانية أحس أنا وفي الولايات المتحدة أن أصدقائي معظمهم إما كاثوليك أو يهود من شرقي أوروبا أي من مجتمعات تقليدية، فوجدت أن مفهوم الجماعة أساسي عندهم وهو مفهوم مترسخ في العقيدة الكاثوليكية في المجتمعات التقليدية وتستمر تيجي مثلا إيه ميلاد ابنتي، يعني أنظر إلى هذا الشيء وأقول هل يعقل أن دي مسألة أنزيمات وهرمونات وبويضات بس يعني كده؟! وكتبت قصيدة برضه قصيدة مفصلية وفاجأتني لأنها وجدت أنها قصيدة دينية وأنا المفروض مادي.

سامي كليب :شو هي؟

عبد الوهاب المسيري :بأقول فيها يا سيدي

وبينما محمد في غاره حزين

يا لجة الضياء قد أرجفت قلبه

وبعدين أهم ثلاثة أسطر بقى جايين:

يا إصبع الإله قد أقلقت مضجعي

أولدتُها حواء ثم مريما

كأنه كما لو كان من الله سبحانه وتعالى أيقظني في ليلة حتى أضاجع زوجتي لتلد، وفي هذه اللحظة كنت أدرس اللاهوت المسيحي وفي اللاهوت المسيحي نموت في حواء ونولد في مريم، حواء هي الشر ومريم هي الخير، أولدتها حواء ثم مريما، إنسان كامل {ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها}[الشمس:٧-٨] حواء ومريم.

سامي كليب :للمفكر العربي الدكتور عبد الوهاب المسيري مؤلفات بالفكر لا تحصى ولكن له أيضا رحلات ولو قصيرة في عالم الشعر وحين قرأت بعض ما كتب وجدته نازعا دون أن يدري ربما صوب شيء من الانعتاق المادي والانغماس فيما انغمس فيه قبله بعض الصوفيين، واللافت أن شعره قد يُحدد بما قبل وما بعد الإيمان.

عبد الوهاب المسيري :والله في واحدة قبل الدخول للإيمان.

سامي كليب :تفضل.

عبد الوهاب المسيري :حال لم تحن

حينما صعد الشيخ المنبر

وقف ثابتا كالتمثال

مهيبا كالمئذنة

فركزت كل حواسي ومشاعري

لكنك يا طائر الفردوس الذهبي

لِم لَم تحط على كتفي؟

يعني كنت على عتبة الإيمان ولكن..

سامي كليب(مقاطعا): لم تكن مقتنعا تماما.

عبد الوهاب المسيري :تماما.

سامي كليب :لم تتأخر غربة الدكتور عبد الوهاب المسيري عن الله والدين والإيمان وهو إذ تعمق في مختلف الكتب السماوية إلا أن انتماءه الإسلامي ترسخ مع السنين ترسخا روحيا وفكريا فهو كان مستشارا أكاديميا للمعهد العلمي للفكر الإسلامي بواشنطن وكان هناك أيضا عضو مجلس الأمناء لجامعة العلوم الإسلامية. ترسخ انتماؤه الإسلامي إلى درجة بات يتراءى له معه الرسول الكريم كمن يمد بحور الشعر في بحور الشدة.

عبد الوهاب المسيري'' :جاءني في حلمي لابسا عباءته ملتفا بالسحب فشكوت إليه بؤسي وحزني وأخبرته عن جرحي وعن قلبي الذي لا يسأم الطيران والتحليق فابتسم ولم يقل شيئا وحينما جاء النبي صلوات الله وسلامي عليه مرة أخرى انفجرتُ باكيا فابتسم ثم سمعت هذه الكلمات ابن آدم في مركز العالم فلتقف ثابتا لا تتزحزح فقد استخلفك الله في الأرض، فانفرجت أساريري ولم أخرج من الحلم'' يعني هنا تأكيد لمسألة أن العودة كانت مؤسسة على الإنسانية الإسلامية.

سامي كليب :بس واضح أنك كنت في مرحلة ضعف أيضا يعني كنت بحاجة إلى مساعدة ما إلى يد تمتد إليك.

عبد الوهاب المسيري :في حاجة إلى تفسير، أنا كما قلت عودتي للإسلام كانت عقلية كنت في حاجة إلى تفسير فحينما جاءني الرسول في الحلم وأخبرني عن مركزية الإنسان في الكون وأن الله استخلفني هنا أدركت الإجابة على السؤال ووجدت أن هذا هو المخرج.

سامي كليب :فعلا جاءك في الحلم؟

عبد الوهاب المسيري :نعم. ورغم أني أنا أقول إني لست متصوفا ولكن هذا ما حدث .

التخصص في الصهيونية وإنجاز الموسوعة

سامي كليب :حين ظهر كتاب ''نهاية التاريخ'' في الولايات المتحدة الأميركية قبل سنوات قليلة ضج العالم به وجعل كاتبه فرانسيس فوكوياما من أشهر الكتاب، ولكن من يقرأ مؤلفات المفكر العربي الدكتور عبد الوهاب المسيري سيجد أنه سبق فوكوياما بأكثر من ربع قرن في الكتابة عن الموضوع نفسه، هو اعتبر أن النموذج الأميركي آيل للسقوط وراح يقارع الأميركيين في عقر دارهم لتفنيد آرائهم حين كان مدرسا في الولايات المتحدة أو مستشارا لوفد الجامعة العربية هناك.

عبد الوهاب المسيري :شوف هو كل عقيدة دينية فيها جزء غيبي و {..فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ..}[الكهف:٢٩]. المشكلة في اليهودية بقى أنه منذ البداية هناك صراع بين التوحيد والحلول، في التوحيد الشعب اليهودي لا يختلف عن الشعوب الأخرى وده موجود في كتب الأنبياء بالذات، كتب الأنبياء كتب إنسانية إلى أقصى حد وتوحيدية.

سامي كليب :الأنبياء اليهود.

عبد الوهاب المسيري :آه في الكتاب المقدس العهد القديم. يعني مثلا صورة آخر الأيام سيكون هناك طريق من مصر إلى فلسطين ومن آشور إلى كذا، يعني العالم في وئام ولا يوجد شعب مختار، بقى بالعكس في كتب الأنبياء في تعنيف للشعب لارتكابه الكذا، ده الجانب التوحيدي. الجانب الحلولي الذي ساد في نهاية الأمر يرى أن الله قد حل أي نزل وتماهى مع الأرض والشعب بحيث أصبحا مقدسين. وحينما..

سامي كليب(مقاطعا): الطريف لو سمحت لي بالمقاطعة أنه حين تتحدث لا أدري إذا كان في الموسوعة أو في كتاب آخر تقول إن اليهود أو الصهاينة بشكل عام يتحدثون عن الأرض المقدسة وأن هذه الأرض سكنتها شعوب وحضارات غير مقدسة أساسا يعني.

عبد الوهاب المسيري :آه. ما هو ده شكّل الخريطة الإدراكية الصهيونية، ولكن المعادين لإسرائيل يسمونه عبادة العجل الذهبي، الانحراف عن اليهودية لكن الحلولية اليهودية هذه هي التي سادت وهي جوهر الفكر الصهيوني.

سامي كليب :فقط سأطلب منك ولو سؤال تبسيطي يعني ربما المشاهد الآن ليس كل المشاهدين يعرفون أو يدركون جوهر الحلولية لو اختصرتها يعني ولو بعبارات بسيطة ليفهمها أي مشاهد يعني ما هو جوهرها ولماذا ركزت عليها في الكثير مما كتبت؟

عبد الوهاب المسيري :أنا أرى كلمة حل أي نزل وهبط وسكن في الأرض أو في الشعب أو في الزعيم أو كذا ثم يتماهى معه، بحيث أن يصبح الإله لا وجود له خارج هذه الأشياء ولكن هذا يعني غياب الله.

سامي كليب :طيب بهذا المعنى ولذلك سؤالي أن مثلا عند المسيحيين يقال إن الله أو ابن الله هو يسوع المسيح وأن الله حل به، عند البوذيين أن الكارما أو الله في الداخل وليس في الخارج وكأنه في داخلك وحل بك، يعني شو الفرق؟ أين أخطأ اليهود في هذا المعنى إذا صح التعبير؟

عبد الوهاب المسيري :هو في نزعة نحو الحلول عند الإنسان، أنا بأميز بين لحظتين لحظة أسميها اللحظة الرحمية وهي الجنين في رحم أمه يظن أنه جزء لا يتجزأ منها وتستمر هذه العلاقة بعد الولادة مدة ثلاثة أربعة أشهر بحيث أنه حينما يطلب الثدي يأتيه فورا فلا يوجد أي مسافة بين المثير والاستجابة وهذه طبيعة الحيوانات بالمناسبة، لأنه بالنسبة للإنسان المثير

يفصله ذكريات وأوهام وكذا عن الاستجابة .فالنزعة الرحمية هذه بتعني أن الإنسان غير مسؤول لأنه جزء من كل، هي دي نزعة وحدة الوجود التي تعبر عن نفسها في كل الأديان بشكل مختلف يعني مثلا الإيمان بالأولياء وأن الوساطة الشفاعة وهكذا هي الإنسان العادي يود أن يشعر بالإله من خلال حواسه الخمس وهذا لأنه غير قادر على التجاوز فهو.. النزعة الربانية بقى هي العكس الإنسان يعرف أنه جزء من كل ولكنه جزء متفرد وأن المثير منفصل عن الاستجابة وأن المسافة هذه مسألة مهمة.

سامي كليب :ولكن بهذا المعنى قد تلغي الكثير من المفاهيم القائمة، يعني مثلا الإمام المغيّب مثلا.. الصالحين..

عبد الوهاب المسيري(مقاطعا): آه كل هذه مفاهيم حلولية أنا أعتقد أنها تهدد كل الأديان وهذا الخطر الأكبر أن علينا أن نتنبه كل المؤمنين سنة شيعة أقباط دروز علينا أن نتنبه إلى هذا.

سامي كليب :صاحب المؤلفات الكثيرة وفي مقدمها "موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية" يستكمل حديث الذكريات ابتداء من مغامرة هذه الموسوعة التي شجعه عليها الدكتور أسامة الباز المستشار السياسي لرئيس الجمهورية.

عبد الوهاب المسيري :هو أنا تعرفت على الدكتور أسامة ونشأت صداقة قوية مستمرة حتى الآن في الستينيات في الولايات المتحدة وكان أيامها التوجه الناصري ثم حينما عدت قدمني للأستاذ هيكل بعد أن أنبأني أو أخبرني أن لا بد أن أتخصص في الصهيونية، فهو بشكل من الأشكال كان مسؤولا ليس عن الموسوعة وإنما توجهي للتخصص، وحينما قابلت الأستاذ هيكل أنا كنت أرغب أن أكون ناقدا أدبيا قدمت له مشروع كتاب" نهاية التاريخ" وطلبت منه أنه لو يعين مساعدي باحث أنا ممكن أشرف عليه.

سامي كليب :اقترحَ أن تكون أنت.

عبد الوهاب المسيري :آه، قال لا يمكن أن يكتب مثل هذا الكلام غيرك ثم أعطاني كمية هائلة من المال وأرسلني إلى الولايات المتحدة اشتريت كل ما أريد من مراجع التي تشكل نواة لمكتبة مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية وبدأ الغرق في المسار الصهيوني.

سامي كليب :طبعا كان الوقت آنذاك منتصف السبعينات يعني ١٩٧٤-١٩٧٥م.

عبد الوهاب المسيري :لحد ١٩٧٥.

سامي كليب :وكان بدأ يعني الدخول في بعض الصراعات الداخلية في مصر في الدول العربية وما إلى ذلك وحسب ما فهمت أنه حين بدأت جديا بكتابة الموسوعة ووصلت إلى درجة متقدمة حاول البعض مسحها وأن القول لك نصحك بأن اذهب وسافر ونحن سنتابع الأمر وكأنه كان هناك نية لعدم صدور هذه الموسوعة.

عبد الوهاب المسيري :في الواقع عرفت فيما بعد أن في البنود السرية في اتفاقية الفصل بين القوات كان المطلوب التخلص من الموسوعة، وبالفعل حينما عدت من الولايات المتحدة عام ١٩٧٩ كنت كي أشتري نسخة أو نسختين من الموسوعة من مكتبة.. من الأهرام تأخذ أياما طويلة ثم تقرر أنها تفرم لكن بائع كتب سعودي برضه مرة أخرى ذكي اشترى المجموعة كلها ولذلك هذه الموسوعة معروفة في السعودية جدا وغير معروفة خارجها.

سامي كليب :خليني أرجع فقط لنقطة لأنها مهمة كان بالاتفاق الإسرائيلي المصري أنه أن تلغى هذه الموسوعة أن تحذف؟

عبد الوهاب المسيري :نعم.

سامي كليب :كيف عرفت يعني ولا قرأت البند ولا؟

عبد الوهاب المسيري :أحد المتمكنين جدا أخبرني بالبنود السرية وكانت هذه أحداها.

سامي كليب :شو في بنود أخرى خطيرة؟

عبد الوهاب المسيري :في الوقت ده اللي بقي في ذاكرتي أنه يخصني، لكن يعني اتكشفت الأمور في كامب ديفد نزع السلاح سيناء التصريح للإسرائيليين بكذا.

سامي كليب :بعض المسلسلات التلفزيونية الخطاب الإعلامي على ما يبدو أيضا.

عبد الوهاب المسيري :آه. ولو أنه طبعا هناك إخفاق إسرائيلي كامل في رغم التطبيع مع الحكومات تظل الجماهير والحمد لله بفطرتها السليمة معادية للصهيونية.

سامي كليب :تعرف حين مرضت صدرت شائعات وسرت شائعات كثيرة تقول إن هناك مؤامرة أيضا صهيونية إمبريالية لقتلك وأنه دس لك شيء معين في الجسم، طبعا حضرتك سخرت من كل ذلك وكتبت ضده ولكن هل تعرضت مثلا لمضايقات لمحاولات اغتيال بعد خصوصا توجهك في تشريح هذا المجتمع الإسرائيلي الصهيوني؟

عبد الوهاب المسيري :عام ١٩٨٢ أرسل لي مايير كاهانا ١٣ خطابات تهديد بالقتل، ستة في القاهرة وكنت أثناء ذلك أدرّس في جامعة الملك سعود فأرسل لي ستة هناك، الثالث عشر وصلني في القاهرة بعد وصولي بيوم يقولون نعرف إنك وصلت ولذا نحن نحفر لك قبرا، وأرسلوا لمساعدي الدكتور محمد هشام خطابات مماثلة يعني.

سامي كليب :من الصعب الإحاطة بكل ما ألف الدكتور عبد الوهاب المسيري من كتب وموسوعة ومقالات وهو إذ اشتهر في موسوعته عن اليهود واليهودية والصهيونية والتي سنفصلها في الحلقة المقبلة فإنه كتب أيضا في الكثير الكثير من القضايا التي كان همه فيها نصرة أمته العربية ضد مشاريع الهيمنة. وقبل أن أودعه على أمل اللقاء به وبكم في الأسبوع المقبل مع حلقة ثانية وأخيرة معه تمنيت له فقط موفور صحة لأن صحة أمثاله هي من صحة الأمة.

***

عبد الوهاب المسيري ..رحلة في الفكر والأدب ج٢

مقدم الحلقة :سامي كليب (قناة الجزيرة)
ضيف الحلقة :عبد الوهاب المسيري/ مفكر عربي
تاريخ الحلقة: 19/7/2008

-في التحايل على المؤسسات وتطوير الحب
-عن الكيان الصهيوني وتناقضاته
-عن موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية
-شعر وهوايات، حلم ووصية

سامي كليب :مرحبا بكم أعزائي المشاهدين إلى حلقة جديدة من برنامج زيارة خاصة. ضيفنا أمضى جل عمره وهو يكتب موسوعة عن اليهود واليهودية والصهيونية، ماذا اكتشف؟ وما هي حقيقة تمسك بعض العرب خطأ بما تسمى بـ "بروتوكولات حكماء صهيون"؟ وهل فعلا أن الانتفاضة هزت المجتمع الإسرائيلي؟ هذا ما سنعرفه في الحلقة الثانية والأخيرة مع ضيفنا الدكتور عبد الوهاب المسيري المثقف والسياسي والفيلسوف .

عبد الوهاب المسيري:

يا حارس البوابة الشرقية انتبه

ولتقرع الطبول ولينشر الشراع

ولننزل البحار والوهاد والقفار

ولنصعد القمم

وليبدأ الزمن

الرحلة والنغم

وجاءتني فتاة في الظلام

ذرفتُ الدمع فوق الوجه حزنا

وقلت أيا فتاتي ما المصير؟

إلى أين السفين تسير أين؟

تألق فوق جبهتها ضياء فخنت

وفي دروب الغد سرنا وعدت بلا جواب للسؤال

بحيرته الغريبة قد رجعنا فغردت الصغيرة للفؤاد

وغردت الصغيرة ألف لحن

وكنتَ- أيا نشيد- عزاء قلبي

سامي كليب :الحديث عن الانتفاضة أيضا لكي لا نطيل الحديث رغم أنها بتستاهل كثيرا في الواقع الانتفاضة والشعب الفلسطيني الصامد، كتبت شعرا في الاستشهاد أيضا حضرتك يعني "أغان عثمانية في إسطنبول"، بتذكر الشعر ولا بأقول لك إياه؟

عبد الوهاب المسيري :لا لا أذكره.

سامي كليب :طيب، تقول

أحمل سيف الله

أركض مع الجند على فرسي

أقتحم بوابتك أيا صوفيا..

عبد الوهاب المسيري:

أحمل سيف الله

أركض مع الجند على فرسي

أقتحم بواباتك أيا صوفيا

الله أكبر

جئت لأحطم الأوثان القديمة

وأموت شهيدا يا رسول الله

ولكنك تأتينني أيتها التصاوير البيزنطية الحزينة

تنزلين ببطء وسكينة

وتصبين في أذني تراتيلك الكنسية

فأقيم الصلاة خاشعا كسير الجناح.

بمعنى حتى في لحظة انتصاري بأعترف بالآخر.

في التحايل على المؤسسات وتطوير الحب

سامي كليب :الانتفاضة الفلسطينية وشعراء فلسطين وأهل الأرض السليبة رافقوا الدكتور عبد الوهاب المسيري في كل مسيرته فهذا المفكر العربي الذي ألف الكثير صاغ طريقة فكرية وعلمية قل نظيرها في مقارعة النظريات الإسرائيلية وداعميها في البيت الأبيض، ألف ودرس فبادله أهل فلسطين بعض الجميل بمنحه جائزة القدس، وقادته أقداره للعمل في أميركا ومصر ولكن أيضا في بعض دول الخليج وخصوصا السعودية.

عبد الوهاب المسيري :ولو أن الفترة اللي قضيتها في السعودية نظرا لأن الجو في قسم اللغة الإنجليزية في جامعة الملك سعود كان جوا علميا ورئيس القسم الدكتور عزت خطاب صديقي أدرك أهمية ما أفعل فكان يعطيني الحد الأدنى من الحصص ولا يشغلني بأي أمور إدارية، فأنا بأعتقد السنوات الست اللي قضيتها في السعودية سنوات تفرغ.

سامي كليب :والله مهم يعني الكلام عن السعودية أن أولا سمحت لك بكتابة موسوعة أنقذت حياتك يعني هذا يكسر بعض الأفكار المتحجرة حيال الدول التي يحكمها ربما أمراء وملوك وما إلى ذلك والتي كانت لدى اليساريين مثل حضرتك يعني في فترة معينة كان ضد كل هذه الدول مثلا، لأنه منلاحظ أنه لا في لها جوانب إيجابية.

عبد الوهاب المسيري :هو السعودية على فكرة ضحية الإعلام لأنهم يرون مثلا إيه؟ أن السعودية مثل الدويلات الصغيرة الأخرى، لا، السعودية تشكيل حضاري مهم جدا ومعبأ في طبقات ومثلا في.. في نجد وأخرى في الحجاز وثالثة في أبها وتنوع ثقافي عميق وفيه نخبة ثقافية على جانب عالي من الثقافة.

سامي كليب :حتى فنيا، يعني في فن عريق في ثقافة عريقة. بس شو قصة أنك زورت دفتر القيادة في السعودية وقبضوا عليك؟

عبد الوهاب المسيري :آدي عمليات إجرامية أنا بأقوم بها، أنا ليس عندي أي احترام للمؤسسات، أرى المؤسسات دي مؤامرة ضد الإنسان الفرد ولا يمكن أنك تتصدى لها إلا من خلال مثل هذه. هو ذهبت برخصة القيادة وكان تاريخها على وشك الانتهاء وجدت طوابير وكده فذهبت للقائد قلت له إن أنا مهمتي أدرّس الشباب هنا، لم يقتنع ..فذهبت ووضعتها في المياه حتى..

سامي كليب :ضاع التاريخ.

عبد الوهاب المسيري :آه، الظريف في الموضوع أنه أبداً التاريخ ازداد وضوحا فمسحته بأصبعي. في يوم من الأيام أوقفتني الشرطة وطلبوا الرخصة فأعطيتها لهم فقرروا القبض علي لكن طبعا أنا لجأت..

سامي كليب :يعني تخيل شو كان معيب أنه كاتب مثلك يُقبض عليه مزور دفتر سواقة يعني.

عبد الوهاب المسيري :بس الدوافع أن أنا عايز أدرس عايز أقوم بوظيفتي.

سامي كليب :إيه طبعا بس ما راح يفهموها يعني.

عبد الوهاب المسيري :لا والله بدأت بقى إيه، لحسن حظي بقى أحد المساجين معي كان يعرف من أنا، ولاحظت حاجة طريفة جدا في صورة السعودية أن مسألة القانون مش مهمة المهم مسألة الأخلاق فمن كان يعترف بالجرم كانوا يغفروا، ولذلك لما كان يجي مساجين أقول لهم اعترفوا سينقذكم.

سامي كليب :المهم لحسن الحظ وجدوا صورة عن دفتر السواقة القيادة في البيت.

عبد الوهاب المسيري :آه ذهبت للبيت وأوراقي دائما ضائعة ولكن رحت البيت ما شاء الله كان عندنا قنفذ وجدته واقف على الصورة، وأحد المساجين بعد ما أفرِج عنه قال إحنا يشرفنا الليلة أن معنا الدكتور عبد الوهاب المسيري.

سامي كليب :بس الغريب أن قصص الاحتيال على المؤسسات كانت لافتة في تاريخك، يعني مثلا مرة وددت أن تجدد جواز سفرك المصري فارتديت قبعة والبايب وذهبت إلى السفارة لتوحي بأنك فعلا من سكان أميركا القدماء يعني.

عبد الوهاب المسيري :لأنه أيامها كنت تقدمت بطلب عادي كان مدير الجامعة منعني من السفر فمع جو الانفتاح والخوف من الأميركان وهكذا لبست البيريه والبايب وذهبت للرجل وقلت له أنا فلان جاي من أميركا أرجو تجديد جوازي، قال لي OK, OK وراح مجدده.

سامي كليب :في السعودية كتبت قصائد قصيدة للبامبو لوردة البامبو الصينية، تذكر منها شيئا؟

عبد الوهاب المسيري :لا هي اللي أذكره بعض أبيات من قصيدة الانتفاضة، دي قصيدة عبارة مقسمة إلى أقسام أني أنا وطفل بأتعرف على طفلة ونبدأ ننمو فمثلا في مرحلة من المراحل نقتحم المدن المحتلة في الأحلام وبعدين بقى الجزء الأساسي اللي هو المرأة النفود، المرأة النفود بتعني المرأة كثيرة الإنجاب.

أيتها البنت النفود

يا من تلدين الجند والشهداء والأغاني

في عينيك أورقت المعاني

بين يديك عادت الدلالة للكلمات

فتجلى السر ونطق الحجر

وجه الله ذو الجلال والإكرام

عاد الجند والشهداء والأطفال والأرامل

يرتلون أناشيد الحزن والنصر

ويقيمون مراسل الفرح والحداد

فبأي آلاء ربكما تكذبان

وكنا على قمة تل بعيد ننظر إليهم

حين لاحت على جبينك نجمة الغروب

وسقطت في كفك برتقالة

فبأي آلاء ربكما تكذبان.

سامي كليب :كان النهار قد انتصف في خلال هذا الحوار مع المفكر العربي الدكتور عبد الوهاب المسيري وكان بعض الوهن المرتبط بالمرض يلح علينا باستراحة قليلة قبل أن نغوص معا في موسوعته الرائدة حول اليهود واليهودية والصهيونية، فاقترح أن نتمشى سويا أمام منزله في أحد أحياء القاهرة عل في هذه النزهة القصيرة بعض راحة للجسد ونشاطا للفكر، وحدثني ونحن نسير خارجا عن أهمية زوجته إلى جانبه وعن السعادة الزوجية التي جعلت حياته مستقرة وزاهرة في محيط من الأشواك.

عبد الوهاب المسيري :مش مستقرة وإنما سعيدة ومليئة بالإثارة والمفاجآت، يعني أنا وزوجتي ذهبنا إلى عدة بلدان وزرنا متاحفا ودرسنا سوية أشياء..

سامي كليب(مقاطعا): عندك نظرية عن تطوير الحب على كل حال أن الحب لا يتطور لوحده وإنما..

''السعادة الزوجية مثل العمل الفني، كلما تبذل فيه جهدا كلما يكون أكثر جمالا''

عبد الوهاب المسيري(متابعا) :لا، لا، السعادة الزوجية زي العمل الفني كل ما تبذل جهد كل ما يكون أكثر جمالا .وأنا طورت مفهوم اسمه لحظات الصفاء، أجلس مع زوجتي وننسى كل المشاكل.

سامي كليب :ويبدو أن لحظات الصفاء ليس فقط مع الزوجة حتى مع الأصدقاء طورتها يعني.

عبد الوهاب المسيري :نعم.

سامي كليب :شو تعبيرا عن شو؟ يعني الواحد بيجلس مع زوجته ويتأمل ولا شو؟

عبد الوهاب المسيري :لا، ونتحدث في الخضرة في الحدائق في أي شيء إلا المشاكل اليومية.

سامي كليب :والدكتور هدى تقرأ ما تكتب؟

عبد الوهاب المسيري :معظمه، في الواقع كله وهي ناقدة شديدة الضراوة وأفادتني كثيرا في حياتي الفكرية.

سامي كليب :طيب هلق بهذا الوقت هي بعيدة أحببت غيرها ولا لا؟

عبد الوهاب المسيري :لا، يعني أنا شوف دائما تعرف أني أنا أعشق البراءة فحينما أرى أنثى بوجه بريء يعني لا أعشقها وإنما أحبها حتى بين الرجال الوجه البريء دائما، إلى جانب طبعا لي مجموعة من الأصدقاء والصديقات اللي متبنيهم ودول دائما يسألون عني وداخل معهم في علاقة..

سامي كليب(مقاطعا): بس يبدو أنك اكتشفت أهمية الصداقة بعد المرض أكثر.

عبد الوهاب المسيري :أنا كنت مدركها بشكل فطري ولكن بعد المرض اكتشفت أهمية أشياء كنت أهملها مثل العزاء والسؤال عن المرضى وهكذا يعني.

سامي كليب :لأن قبل المرض شاركت في مأتمين فقط على ما يبدو.

عبد الوهاب المسيري :نعم. أذكر مرة بغباء شديد ذهبت لأعزي أحد أصدقائي في وفاة والدته فوجئت بي أقول إنه إحصائيا أمهاتنا في العمر الذي يعني يرحلن عن هذه الأرض، إحصائيا إيه وبتاع إيه؟! الكلام.. فخلاص أنا لما اكتشفت مدى حماقة وحيادية القول قلت له يعني هم السابقون ونحن اللاحقون عظم الله أجركم ولتكن هذه آخر الأحزان يعني.

سامي كليب :من القصص الأخرى التي رواها لي الدكتور عبد الوهاب المسيري ونحن نتمتع ببعض لحظات الطقس الرحيم في الصيف الحار في القاهرة واحدة تعلقت بفتاة تقربت منه وأحبت فكره ولكنها اختفت فجأة من حياته وإليكم بقية الرواية.

عبد الوهاب المسيري :أنا دائما مع الفتيات اللي في المجتمع التقليدي لا أهاتف لكن مع هذه اختفت من حياتي فقلت في رأس السنة الهجرية.. الميلادية أتصل بها أسأل عنها فاتصلت بها فوجئت بأن والدها يقول لي إنها توفاها الله فقلت له طيب أنا سآتي لتعزيتك، فأخبرني قصة مخيفة.

سامي كليب :أنه؟

عبد الوهاب المسيري :أنها ذهبت للحج وعادت ومعها كفن وقالت هذا كفني قالوا لها يعني تأخذ دكتوراه في الطب وعلى وشك أنها تتزوج وكده قالوا لها الكلام ده عيب يعني هو كده، بعد شهرين حلمت حلما أن الرسول عليه الصلاة والسلام جاءها وصافحها فاتصلوا بالأزهر قالوا لهم خير وكده ولكن يبدو أن في فولكلور الأحلام إن صافح الرسول أحد فإنه سيلحق به، وبالفعل بعد ثلاثة أيام توفيت وهي تشرح الدرس. قصة غريبة ها مش كده؟

عن الكيان الصهيوني وتناقضاته

سامي كليب :قصة غريبة لا شك والقصص الغريبة كثيرة في حياة الدكتور عبد الوهاب المسيري، فهذا المفكر العربي الكبير أعاد صياغة الكثير من الأفكار السائدة عند الكتاب العرب وصحح الكثير من المفاهيم المغلوطة وبين تلك المفاهيم مثلا ما يكرره ببغائيا بعض هؤلاء الكتاب عن "بروتوكولات حكماء صهيون" حيث يؤكد المسيري أن هذه البروتوكولات وثيقة مزورة.

عبد الوهاب المسيري :كل من يؤمن ببروتوكولات لم يدرسها لم يقرأها، أول مشكلة أنها مكتوبة بالروسية، لماذا إذا كانت وثيقة سرية يكتبونها بالروسية؟! لغة يهود روسيا كانت اليديشي التي كانت لا تعرفها البيروقراطية الروسية وإن أرادوا السرية الجامدة يكتبونها بالآرامية التي كانت يجيدها كل الحاخامات، آدي أول شيء. ثانيا لوحظ التشابه بين كتاب البروتوكولات وكتب أخرى ظهرت قبل ذلك مثلا في زمن نابليون الثالث وهكذا. إلى جانب ذلك بقى حينما تقرأ البروتوكولات بإمعان تجد أنه كتاب تافه يعني مثلا أنهم يقولون إن إحنا سنستخدم الماسونيين ثم بعد ذلك سنقتلهم، أن إحنا ..آه بس شيء طريف أن إحنا سنتشاطر على الحكومات حتى تلك التي تعادينا، أشياء تافهة لا تصح ولا تفيد في الجهاد ولا تفيد في المقاومة لأن مقدرتها التفسيرية ضعيفة جدا.

سامي كليب :لا، يعني من يقرأ ما كتبت حضرتك تفهم وكأنه حتى هم تعمدوا تسريب البروتوكولات لتضليل الآخرين أيضا.

عبد الوهاب المسيري :هذه أوهام دعاة البروتوكولات.

سامي كليب :من يقرأ عنوان كتابك "انهيار إسرائيل من الداخل "يتفاءل طبعا ولكن سرعان ما تكمل في كتاب آخر وفي مقالات تقول إن هذا المجتمع لن ينهار لأن مقومات الكيان الصهيوني ليست من داخله وفي داخله وإنما في خارجه، يعني من جهة متفائل بانهيار الكيان ومن جهة ثانية تقول لن ينهار لأن إمكانياته هي بالخارج وتحديدا طبعا في الغرب والولايات المتحدة الأميركية.

عبد الوهاب المسيري :الكيان الصهيوني في داخله من التناقضات والأزمات ما يسقط أي تجمع على وجه الأرض.

سامي كليب :تتحدث عن الجنحة عن الأخلاقيات عن المشاكل النفسية يعني.

عبد الوهاب المسيري :الفساد، أزمة الجيش، ما بيجيش مهاجرين، أزمة وجود، دلوقت نصف مليون مستقر غير يهود، المستوطنات فارغة.

سامي كليب :حتى عن أزمات نفسية يعني تنقل عن بعض أصحاب الدراسات والإحصاءات أن أكثر شيء يباع في الصيدليات هي أدوية الطب النفسي يعني الأزمات النفسية.

عبد الوهاب المسيري :آه. يعني الأزمات وبنكتب عنها كثيرة جدا حتى الأيديولوجية الصهيونية نفسها تساقطت وظهر ما بعد الصهيونية، ما بعد في الخطاب الفلسفي الغربي بتعني يعني أنموذج قائم قد سقط ولم يحل محله نموذج، فما بعد بتعني نهاية في الواقع زي نهاية التاريخ هي أيضا ما بعد التاريخ Post-History ففي Post-Ideology ما بعد الأيديولوجية..

سامي كليب(مقاطعا): ولكن نسمع كثيرا أن ما بعد الحداثة، والحداثة بعد ما انتهت الحداثة.

عبد الوهاب المسيري :لا، انتهت، دلوقت أزمتها متفاقمة هو البيئة دي سهلة؟ تصاعد أسعار البترول تصاعد أسعار الغذاء التلوث البيئي، يعني ممكن نعد لك، يعني بدأنا ندرك ما يسمى ثمن التقدم.

سامي كليب :طيب إضافة إلى ما تصفه التآكل الداخلي إذا صح التعبير بسبب هذه المشاكل، طبعا هناك الجانب العسكري الأمني الشعبي يعني الانتفاضة كما ذكرت قبل قليل في الداخل، عمليات حزب الله في لبنان انتصار أكثر من مرة على الجيش الإسرائيلي، هل سقط هذا الحاجز النفسي حيال الجيش الذي لا يُقهر؟

عبد الوهاب المسيري :نعم بالفعل. وهو بالمناسبة أنا بأحب أشير إلى ما يلي، أن ما بعد ما يسمى انتصار ٦٧ وأسميه بالمناسبة انتشار لأن دي إحدى الأزمات ما يسمى عقب الانتصار أن ثبت أن الحل العسكري غير مجد وأنه مهما حققوا من انتصارات عسكريا تظل المشكلة قائمة، منذ ذلك التاريخ ومنحنى الانتصارات العسكرية الإسرائيلية يتراجع، الانسحاب من لبنان ثم الانسحاب من جنوب لبنان الانتفاضة الأولى الانتفاضة الثانية، أخيرا..

سامي كليب :في غزة.

عبد الوهاب المسيري :استمرار المقاومة.

سامي كليب :وإطلاق صواريخ الآن.

عبد الوهاب المسيري :وبتتحسن لدرجة أن زائيف شيف قال إن الرادار الإسرائيلي غير قادر على رصدها..

سامي كليب(مقاطعا): زائيف شيف طبعا الكاتب العسكري المحلل العسكري.

عبد الوهاب المسيري :قال إن الحل الوحيد هو أن نجيب صواريخ سكود حتى ممكن نرصدها. ثم جاءت بقى الحرب السادسة كانت تتويجا وأسقط وهم الجيش الذي لا يُقهر وبين للولايات المتحدة أن إسرائيل كقاعدة عسكرية غير مجدية وأنها مكلفة.

سامي كليب :حزب الله طبعا حقق انتصارا وحضرتك كتبت عنه وكتبت عن تجربة حزب الله بشكل عام، كشخص مثلك مثقف درس جغرافية هذه المنطقة وتاريخها يقلقك أن الانتصار يكون على أسس مثلا أيديولوجية دينية وبتوجه شيعي أكثر مما هو سني مثلا؟

عبد الوهاب المسيري :لا، يعني نعم ولا. يعني دائما أرجو أن ما يؤكده السيد حسن نصر الله من عروبة حزب الله أنها تكون حقيقية وأنه يعني يدخل في علاقة مع إيران كأي حركة مقاومة

تحتاج إلى خط إمداد ومع تخاذل الدول العربية لا بد أن يبحث عن خطوط إمداد، يبقي علاقاته مع إيران ولكن يظل توجهه توجها عروبيا أساسا يعني.

سامي كليب :التقيت به؟

عبد الوهاب المسيري :عدة مرات يعني.

سامي كليب :تذكر بعض الحوارات معه؟ هل يقرأ كتبك مثلا؟

عبد الوهاب المسيري :قرأ بعض كتبي وفي الواقع تقريبا هو الزعيم العربي الوحيد اللي استطعت أن أتحدث معه بجدية عن نهاية إسرائيل ولذلك أنا أكتب كتابا عن نهاية إسرائيل وسأرسله له إن شاء الله .

سامي كليب :القادة العرب يقرؤون لك؟ يعني مثلا حصل أن بعض.. أن زعيما عربيا بعث لك برسالة بعد أن قرأ لك كتابا أو علق على كتاب؟

عبد الوهاب المسيري :شيء مؤسف لم يحدث، لم يحدث أن وزارة خارجية واحدة أو زعيم عربي اتصل بي لأطرح عليه بعض أفكاري. في الواقع موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية وهي مكلفة ثمانية مجلدات نفدت بعد سنة ونصف، ومن اشتراها أساسا كان الجماهير الأفراد وليس..

سامي كليب(مقاطعا): رغم أن سعرها غالي.

عبد الوهاب المسيري :نعم. يعني برضه بعض الأمراء السعوديين اشتروا نسخا، السيد حاكم الشارقة دعمني تماما لأنه..

سامي كليب(مقاطعا): نعم وهو مثقف يعني لا شك به.

عبد الوهاب المسيري :نعم. والله لما أذهب إلى الشارقة يستقبلني استقبالا حافلا يدهشني ومرة جلست معه ساعة ونصف، مستوى ثقافي عالي ورؤية يعني هو مع الأسف يحكم إمارة صغيرة لعله لو كان يحكم مملكة أكبر.

سامي كليب :على كل حال يعني طبعا البرنامج ليس عنه ولكن عنك ولكن هو كتب في التاريخ في الجغرافيا له أربع مسرحيات على الأقل يعني ما قرأت حتى الآن يكتب في الفن في الأدب.

عبد الوهاب المسيري :لا، ومعرفته بالزراعة والصحراء..

سامي كليب :وتاريخ المنطقة كمان.

عبد الوهاب المسيري :آه. والصحراء وكده أذهلني لأن هو معه دكتوراه في الزراعة هو خريج كلية الزراعة جامعة القاهرة.

سامي كليب :كتبك ممنوعة في بعض الدول العربية؟ في بعض مُنع مثلا لأسباب معينة؟

عبد الوهاب المسيري :لا أعرف هذا يعني، لا.

عن موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية

سامي كليب :موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية قد تكون أهم ما أبدع الدكتور عبد الوهاب المسيري فهي ثمرة إنتاجه، ولكنها ليست الوحيدة الهامة بين مؤلفاته التي يقارع بعضها بعضا لناحية الأهمية والمضامين، لا بل إنه ترجم قصيدة الملاح القديم الشهيرة في بريطانيا والتي رسمت لوحاتها الدكتورة رباب النمر، ومن يتصفح الموسوعة سيجد كل ما يهم القارئ العربي مبوبا بها من الرؤية الصهيونية للتاريخ مرورا بشخصيات يهودية نافذة أو بشخصيات صهيونية غير يهودية أو يهودية غير صهيونية وتعريفات للكثير من المفردات والمصطلحات التي تهم كل باحث عربي أو غير عربي في تاريخ إسرائيل وأسباب ظلمها والقمع .

عبد الوهاب المسيري" :في تصوري وتصور الكثيرين أن الأيديولوجية الصهيونية أيديولوجيا عنصرية معادية لكل من العرب واليهود وأنها إحدى تجليات التشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي يأخذ شكلا إحلاليا، ويلاحَظ أن البعد المعرفي قد أصبح أساسيا كما هو واضح في العنوان الفرعي للكتاب الذي كان يضم ملحقا مستقلا عن علم اجتماع الأعرفة، الكتاب هو "الأيديولوجية الصهيونية دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة". كما يلاحظ أن الموضوعات الأساسية في عالمي الفكري قد تزايد تداخلها عن ذي قبل وبدأت رؤيتي للنازية تتضح بحسبانها تعبيرا عن نموذج كامل في الحضارة الغربية نموذج التحديث والترشيد والعلمنة

وبينت أن معظم الدراسات التي تتناول الظاهرة النازية تهمل إبراز حقيقة أنها شأنها شأن الصهيونية لم تكن مجرد انحراف عن الحضارة الغربية وإنما كانت تيارا أساسيا فيها وتحقيقا لنموذج حضاري كامل. فالحضارة الغربية كما جاء في الكتاب المشار إليه هي حضارة تكنولوجية تعلي من قيم المنفعة والكفاءة والإنجاز والتقدم مهما كان الثمن المادي والمعنوي المدفوع فيها وترى أن البقاء للأصلح والأقوى دائما وقد بينت في الكتاب أن الحل النازي للمسألة اليهودية لا يختلف كثيرا عن الإيمان بتفوق الجنس الآري على الأجناس الأخرى وأن هذا التفوق المزعوم يعطي الحق للآريين في أن يتخلصوا من مشكلاتهم عن طريق تصديرها للبلاد الأخرى حتى ولو أدى هذا إلى إبادة السكان الأصليين، والحل النازي لا يختلف عن ذلك فهو محاولة لتصدير المسألة اليهودية إلى الدول الأوروبية الأخرى حيث أن المجال الحيوي للاستعمار النازي كان في أوروبا."

سامي كليب :خلينا نأخذ على سبيل المثال لا الحصر وأذكر بأن هذا جزء مختصر للموسوعة لأن الجزء الأكبر موجود ومتوفر.

عبد الوهاب المسيري :هم ثمانية مجلدات اختصرناهم في اثنين آه.

سامي كليب :مثلا نأخذ أي تعريف.

عبد الوهاب المسيري :نأخذ الدياسبرا لأن هذا تعريف يعني كلمة أيديولوجية للغاية.

سامي كليب :خلينا نشوف الدياسبرا.

عبد الوهاب المسيري :فالدياسبرا كلمة يونانية بتعني المنفى..

سامي كليب :الهجرة.

عبد الوهاب المسيري :لا، الهجرة القسرية مش الهجرة فقط، كويس. وتترجم أيضا غالوت والمنفى والشتات وكلها تعني هجرة قسرية، لكن حينما ننظر للتاريخ الحديث طيب أهه أبواب إسرائيل مفتوحة لم لم يعد أعضاء الشعب اليهودي؟ كما يقال الغالبية خارج الدولة الصهيونية، يهود أميركا لا يهاجرون، يهود روسيا يهاجرون لأسباب اقتصادية ولذلك حتى أسميها الصهيونية النقدية أو صهيونية المرتزقة، هذا يدل على أنها ليست دياسبرا وإنما هي هجرة

وانتشار، وبالفعل لو نظرنا للأرقام الإحصائية الجماعة الصهاينة دائما يذكرون أنه بعد هدم الهيكل أن يهود..

سامي كليب(مقاطعا): اليهود الذين هاجروا قبل هدم الهيكل أكثر من الذين هاجروا بعد.

عبد الوهاب المسيري(متابعا): نعم، يعني يهود الإسكندرية كانوا أكثر من يهود القدس. فهي ليست هجرة قسرية..

سامي كليب :وإنما طوعية.

عبد الوهاب المسيري :وبالتالي فأسميها الانتشار شأنهم شأن أي جماعات بشرية زي ما المصريين يهاجرون إلى..

سامي كليب(مقاطعا): هناك تعريفات الـ Transfer في هذا المعنى أيضا نقل ناس من مكان إلى آخر، هناك تعريفات لبعض الأشخاص لبعض الوقائع، مثلا وعد بلفور تقول "هو التصريح الشهير الذي أصدرته الحكومة البريطانية عام ١٩١٧.." كذا كذا وتأتي بالنص تحديدا يعني لماذا جاء الوعد، بعض الشخصيات التي كان لها أهمية..

عبد الوهاب المسيري(مقاطعا): لكن أهم ما أذكره هنا أن بلفور كان معاديا لليهود كان يمقتهم وبالتالي أنا أرى أن الصهيونية..

سامي كليب :ولكن تعتبره صهيوني غير يهودي كما كنت تقول.

عبد الوهاب المسيري :أيوه، وأن الصهيونية في نهاية الأمر حركة لتخليص أوروبا من اليهود.

سامي كليب :اللافت بهذا المعنى الدكتور عبد الوهاب المسيري أن أيضا في المقارنة بين الدول في علاقاتها باليهود أو بالصهيونية بشكل عام تقول إن الفارق بين بريطانيا مثلا وألمانيا النازية أن بريطانيا نجحت في ترحيل اليهود بينما النازيون لم ينجحوا فأرسلهم إلى معتقلات السخرة أو معتقلات المحارق إذا صح التعبير.

عبد الوهاب المسيري :فعلا يعني بلفور نجح لأنه كان عنده مستعمرات زي فلسطين وغيرها، هتلر ألمانيا فقدت مستعمراتها بعد الحرب العالمية الأولى وقد حاول فعلا إرسالهم لموزنبيق أو

سوريا أو كده، حاول إرسالهم لبولندا لأنه كان بولندا هي مصدر الأوستيودين أي يهود شرقي أوروبا فأراد أن يرجعهم وكان يعبئ بهم القطارات ولكن بولندا كان تمنع دخولهم..

سامي كليب :أو تعيدهم.

عبد الوهاب المسيري :آه. فلم يكن أمامه سوى الحل النازي وهو ترحيلهم يعني بدل أفقيا رأسيا إلى الرفيق الأعلى.

سامي كليب :في الموسوعة على كل حال تتحدث عن كل الحلول التي طُرحت عبر التاريخ يعني منها موزنبيق ولكن ليبيا أيضا، تقول حتى بداية القرن التاسع عشر ربما..

عبد الوهاب المسيري(مقاطعا): ليبيا والإحساء والعريش يعني حدث ولا حرج.

سامي كليب :كان في مشاريع فعلية لتوطينهم في ليبيا؟

عبد الوهاب المسيري :آه، بس أهمهم كان مشروع شرقي أفريقيا، اللي هو بالمناسبة تقول الدراسات الصهيونية إن الصهاينة رفضوه لتمسكهم بفلسطين، هذا غير حقيقي. المؤتمر الصهيوني وافق وأرسل وفدا، الوفد ذهب إلى هناك ولكن المستوطنين البيض لجؤوا إلى حيلة أنهم أخذوهم إلى مناطق غير مخصصة لهم مناطق وحشية وكذا فعادوا، بس ولم يكن أمامهم غير فلسطين وإن كانوا من البداية عرفوا أن فلسطين عامرة بأهلها وأن كما قال أحد الحاخامات أرسلوه للدراسة قال إن العروس جميلة لكن ظهر أنها متزوجة.

سامي كليب :تقول أيضا إن في مقولة سقطت وهم يعني الإسرائيليون بدؤوا يتخلون عنها منها ما يقول إنها كانت أرضا بلا شعب أو شعب بلا أرض، أنه حتى الإسرائيليين بدؤوا يتخلون عنها.

عبد الوهاب المسيري :آه نعم، أصل المقاومة المستمرة دي تجعل من الصعب عليهم أن يقولوا إنها أرض بلا شعب، وإحجام يهود العالم عن الهجرة يبين أنهم ليسوا بشعب وأنهم لا يبحثون عن أرض.

سامي كليب :طيب في أيضا بالموسوعة ليس فقط تعريفات مجردة يعني في أيضا تحليل جدي لعدد من الظواهر الأساسية يعني لكي يفهم أن، المشكلة أن إن شاء الله يقرؤوا العرب لأن هذه موسوعة قد توفر عنهم الكثير من القراءات، مثلا سمات الخطاب الصهيوني المراوغ حسب ما

تسميه تقول "إن الخطاب الصهيوني له سمات محددة أهمها المراوغة النابعة من تعدد الجهات التي يتوجه لها هذا الخطاب. الصهيونية حركة تابعة يدعمها ويمولها الاستعمار الغربي ولذا فإن الخطاب الصهيوني يتوجه إلى الدول الاستعمارية الراعية، لا تتوجه الصهيونية لهذه الدول وحسب أو لنخبها وحسب وإنما للرأي العام غير اليهودي فيها والذي قد لا يدرك الأبعاد الإستراتيجية للتحالف بين إسرائيل والحضارة الغربية. وثلاثة، لا بد أن يتوجه الخطاب الصهيوني للمادة البشرية المستهدفة أي تلك الجماعات اليهودية في العالم التي تنتمي إلى تشكيلات ثقافية وحضارية واجتماعية مختلفة. وأربعة، تعود الصهيونية إلى أصول ثقافية ودينية واجتماعية وطبقية متباينة وهو ما يجعل لكل فريق صهيوني رؤية وأولويات مختلفة". ومن يقرأ ليس فقط الموسوعة، العديد من كتبك يلاحظ أنك تميز بين إسرائيلي وإسرائيلي صهيوني وصهيوني يهودي وإسرائيلي ويهودي ويهودي، أن... وهذا يقطع مع المفهوم الذي يتبناه بعض العرب أن الجميع متشابهون.

عبد الوهاب المسيري :وهو مفهوم صهيوني بالمناسبة، لأن المفهوم الصهيوني أن ده Jewryأي جماعة عضوية متماسكة. ما أفعله حتى في كتابي الجديد اللي هو "من هم اليهود وما هي اليهودية.."

سامي كليب :الذي لم يصدر بعد.

عبد الوهاب المسيري :لم يصدر بعد. أبين فيه أن لا، الحديث عن كتلة يهودية متماسكة غير حقيقي وبآخذ مثلا أمثلة، رداء الحاخام نجد أنه مثلا في أميركا الإصلاحيين رداء عادي في فرنسا..

سامي كليب(مقاطعا): حتى لو كانا حاخاما رداؤه عادي؟

عبد الوهاب المسيري :آه، الإصلاحي. في فرنسا الأرثوذكسي لبس الهوغونوت. في الدولة العثمانية كان الجبة والعنترية والعِمّة، يعني فكيف يمكن أن نتحدث عن ثقافة يهودية موحدة؟ وأضرب أمثلة أكثر عمقا مثلا كتاب يهود يهاجمون اليهود واليهودية هل اعتبار هذا أدب يهودي؟

سامي كليب :أنت تتحدث عن أحد الفلاسفة، نسيت اسمه، تقول إنه حينما أهدِي التلمود في ذكرى عيد ميلاده الستين كانت المرة الأولى التي يعرف ما هو نصه وأهدي إليه باللغة

الإنجليزية التي تُرجم منها ١٧ جزءا، تقول إنه كان فيلسوفا ويدافع وكذا ومش عارف شو الموضوع.

عبد الوهاب المسيري(مقاطعا): ما مارتن بوبر اللي هو أهم مفكر ديني يهودي في القرن العشرين كان لا يعرف التلمود، كان يعرف التراث الصوفية الحاسدية لكن كان لا يعرف التلمود.

سامي كليب :عفوا ما سمعت الاسم.

عبد الوهاب المسيري :مارتن بوبر.

سامي كليب :بوبر، أيوه. بالتعريفات..

عبد الوهاب المسيري(مقاطعا): دقيقة واحدة. هات لي "أسرار العقل الصهيوني" لأنه في خطاب لبن غوريون سنة ١٩٣٩.

سامي كليب :شو بيقول؟

عبد الوهاب المسيري :كأنه خالد مشعل بيتكلم والله، ضروري أقرؤه.

سامي كليب :مع بعيد الشبه يعني طبعا.

عبد الوهاب المسيري :لا لا، يعني بيقول إحنا أمام مقاومة مش إرهاب ومقاومة ذات مُثل ويجب أن نعرف إن قضينا على جيل حيطلع جيل ثاني، شغل خالد مشعل. "ابتداءا أحب أن أبدد كل الأوهام التي سادت بين الرفاق، إن الإرهاب هو مسألة مجموعة من العصابات ممولة من الخارج، نحن هنا لا نجابه إرهابا وإنما نجابه حربا وهي حرب قومية أعلنها العرب علينا وما الإرهاب سوى إحدى وسائل الحرب، هذه مقاومة فعالة من جانب الفلسطينيين لما يعتبرونه اغتصابا لوطنهم من قبل اليهود ولهذا يحاربون. ووراء الإرهابيين توجد حركة قد تكون بدائية ولكنها ليست خالية من المثالية والتضحية بالذات ومنذ زمن الشيخ عز الدين القسام أصبح واضحا لي أننا نجابه ظاهرة جديدة بين العرب، هذا ليس النشاشيبي أو المفتي فهذه ليست مسألة مصالح سياسية أو مالية شخصية، إن الشيخ القسام كان غيورا دينيا على استعداد للتضحية بحياته من أجل مثل أعلى ونحن اليوم لا نواجه واحدا وحسب مثله وإنما نواجه المئات بل الآلاف أمثاله ووراءهم كل الشعب العربي. نحن نقلل من أهمية المعارضة العربية في أحاديثنا السياسية في الخارج ولكن ينبغي علينا ألا نتجاهل الحقيقة فيما بيننا، إن احترامي

للحقائق السياسية هو الذي يجعلني أصر على ذكر الحقيقة والاعتراف بهذه الحقيقة يؤدي بنا إلى نتائج حتمية وخطيرة بخصوص عملنا في فلسطين. يجب ألا نبني الآمال على أن العصابات الإرهابية سينال منها التعب إذ أنه إذا ما نال من أحدهم التعب سيحل آخرون محله فالشعب الذي يحارب ضد اغتصاب أرضه لن ينال منه التعب سريعا، فمن الأيسر لهم أن يستمروا في الحرب وألا يكلوا ولا يتعبوا مما هو بالنسبة لهم ."..

شعر وهوايات، حلم ووصية

سامي كليب :هذا النص الذي يناقض الكثير من المقولات الإسرائيلية حول العرب والمقاومة والإرهاب يسوقه الدكتور عبد الوهاب المسيري بين مئات النصوص الأخرى في كتبه والموسوعة وحين يريد أن يرتاح من جمود النص السياسي تقوده السياسة إلى الشعر وإلى طفل الانتفاضة.

عبد الوهاب المسيري" :البركان والعصفور"

حينما نظرت إلى بعيونها

وفي أصابعها خواتم ثلاثة

لفحتني ريح حمراء وثار البركان داخلي

ولكني آثرت السلامة وقبعت داخل قمقم الكلمات

بالله كيف يغرد العصفور فوق الشجر؟

سامي كليب :سأقرأ عنك "في الأبجدية والفراق"، تقول:

"أمسكت بالأبجدية أود سحقها

وبالمعاجم أن تُمّحى

جاءني حرف الصاد فارتعبت

لم أر سوى الصبار والصحارى والعدم

وصلت قاعا صفصفا وفوق رأسي حومت صقور الموت

أحسست بالصقيع والصقع.''

هل تخشى الموت؟

عبد الوهاب المسيري :لا، بتاتا. أولا أنا لم أكن متوقعه يعني طيلة حياتي كنت أتصور أني سأصل إلى سن الثمانين دون أمراض وسأنجز ما أريد، شاء الله غير ذلك فقبلت، وأنا كل عام أكتب وصية أدبية بحيث أن الذي لا أنجزه أبين كيفية إنجازه.

سامي كليب :وصية أدبية؟

عبد الوهاب المسيري :نعم.

سامي كليب :ممكن نشوف وصية هالعام.

عبد الوهاب المسيري :يعني في مجموعة من الكتب كبيرة مثلا في أربع كتب عن الصهيونية في عدة كتب ترجمة بعض أعمالي للإنجليزية يوجد قصص أطفال لم تُنشر بعد يوجد ماذا أيضا؟ بعض الدراسات الفلسفية الأبتسمولوجيا الإسلامية.

سامي كليب :وكتاب عن الضحك عن النكتة كمان.

عبد الوهاب المسيري :عندي كتاب عن النكتة. فأكتب من يمكن أن يقوم به وما المفروض أن يفعل لكن لما.. هو مكون من لجنة يرأسها أحد الأصدقاء وثلاثة بحيث يعني سأضع تحت تصرفهم مبلغا بحيث أنهم يلجؤون لبعض مساعدي الباحث حتى لا يضيع جهدي إن شاء الله، إلا إذا شاء الله غير ذلك وأعطاني من العمر ما يكفي لإنجاز كل هذا.

سامي كليب :مع بلوغ الدكتور عبد الوهاب المسيري السبعين من العمر وتربعه على أحد أهم عروش الفكر في العالم العربي اعتقد بعض محبيه أنه قد يترجل ليرتاح أو لعل المرض ووهن الجسد سيخففان من اندفاعه في دفاعه الفكري عن أمته العربية وتصديه لمشاريع الهيمنة، ولكن بعد أن أمضيت معه هذا الوقت الطويل والممتع شعرت أنه لا يزال كمن في العشرين من عمره تلمع عيناه حين يتحدث عن المستقبل ومشاريعه وكأنه يعيش أبدا.

عبد الوهاب المسيري :أفخر بأني أنا نجحت أني أكرس كل هذا الوقت للدراسة والكتابة وفي نفس الوقت للأسرة يعني.

سامي كليب :شفت عندك حتى ونحن وداخلين يعني الواحد لما يدخل هنا حيشوف الكثير من التحف والتماثيل، فهمت أنك بتهتم بالمتاحف وأنك كنت متأثرا بمتحف النيجر.

عبد الوهاب المسيري :آه جدا، آه كاتب دراسة عنه. والله والفنانون بدؤوا يفرحون بي ويطلبون أن أكتب عنهم وقد بدأت بالفعل.

سامي كليب :بس عندك هواية جمع التماثيل والتحف من زمان بدأت عندك؟

عبد الوهاب المسيري :آه.

سامي كليب :شو في هوايات ثانية؟ تصميم الأزياء ومتابعة الأزياء.

عبد الوهاب المسيري :الموسيقى، أصلي أحب الموسيقى كثيرا يعني.

سامي كليب :شو قصة موسيقى الباروك أنك بتحبها يعني؟

عبد الوهاب المسيري :مش بأحبها أنا مهووس منها. والله أنا لم أعرف السبب ولكن جلست أدرسها وجدت أن موسيقى الباروك فيها لمسة حزن لكن مش كآبة.

سامي كليب :فهمت أن بحبك للموسيقى، أم كلثوم مثلا..

عبد الوهاب المسيري :حاجة غريبة.

سامي كليب :ما لك علاقة فيها بينما بتحب فيروز وكاظم الساهر وماجدة الرومي.

عبد الوهاب المسيري :وماجدة الرومي، ومحمد منير دلوقت.

سامي كليب :محمد منير كمان. أغاني يعني عندها طابع حديث بس شو السبب ما أحببت التراث القديم؟

عبد الوهاب المسيري :لا، بأحب التراث القديم ولكن مش أم كلثوم.

سامي كليب :ولا عبد الحليم ولا عبد الوهاب؟

عبد الوهاب المسيري :لا، يوه ده أنا بأعشق عبد الحليم وعبد الوهاب بس عبد الوهاب القديم.

سامي كليب :أم كلثوم في موقف منها؟

عبد الوهاب المسيري :أبدا، نشأت في أسرة يعني أم كلثوم ليست أساسية فيها.

سامي كليب :أهلك شو كانوا يسمعوا؟

عبد الوهاب المسيري :بيسمعوا أم كلثوم ولكن ليس بنفس الحماس.

سامي كليب :بتحس أن عندك أحلام بعد في الحياة؟

عبد الوهاب المسيري :أنا حلمي الأساسي الآن هو تحرير فلسطين والانتهاء من أعمالي.

سامي كليب :يعني حلم بعيد المدى؟

عبد الوهاب المسيري :لا، لا أعتقد.

سامي كليب :تحرير فلسطين.

عبد الوهاب المسيري :لا، لا.

سامي كليب :شو بيخليك تتفاءل؟

عبد الوهاب المسيري :أنا بأكتب كتاب عن نهاية إسرائيل، أشكال الأزمة الصهيونية والتي أشرنا إليها وهكذا يعني.

سامي كليب: كنت أعرف الدكتور عبد الوهاب المسيري عبر مؤلفاته ومقالاته ومحاضراته والمناظرات كتلك التي قارع فيها عبر التلفزة الرئيس الإسرائيلي حاييم هرتزو. إلا أني وبعد أن أمضيت معه هذا اللقاء الطويل شعرت وأنا أودعه أني أودع شخصا عزيزا قريبا جدا يكتب ما يضمر ويضع روحه بين السطور. بقيت السطور وغاب الجسد، وبدلا من أن نختم البرنامج بإحدى نكات أو قهقهات هذا الفيلسوف اللامع والمفكر الفذ والإنسان الرقيق شاء القدر أن نختم بصور الجنازة، طواه السرطان قبل أن يطوي آخر صفحات مؤلفاته، لكنه أخبرني أنه كان قد

كلف لجنة لمتابعة المؤلفات وأنه أعد النفس ليموت مطمئنا. مات المسيري والموت حق ولكن من حقه على العرب على الأقل أن يقرؤوا بعضا مما كتب ليوفوه بعضا من حقه ونذرا يسيرا من جميله.

***